مِعْيَارُ النَّظَرِ
عِنْدَ أهْلِ السُّنَّةِ وَالْأَثَرِ

بيان منهج أهل السنة في الغيبيات والتجريبيات

والرد على منهج الدهرية والجهمية العصرية

الإصدار الثاني

كتبه الفقير إلى عفو ربه

د. حسام بن مسعود

أبو الفِدَاءِ ابنُ مَســـعُود

ستر الله عيوبه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله. أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

الحمد لله القائل في محكم التنزيل: ﴿ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:1-3]، والقائل جل شأنه: ﴿فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:74]، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، الذي ما وجد -بأبي هو وأمي ونفسي- حين سئل عن الساعة إلا أن قال: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل".

قصة هذا الكتاب

أما بعد، فلهذا الكتاب قصة، لعل في روايتها ما ينفع قارئه - بإذن الله تعالى -؛ فقد شاء رب العالمين أن أبتلى بمناظرة عارضة مع رجل جهمي من أصحاب المدونات على الشبكة في مسألة الإعجاز العلمي، هو من أشدّ ما رأت عيناي غلوًّا في تعظيم نظريات الطبيعيين وتهاونًا بأصول التفسير (أشدّ في ذلك حتى من كثير ممن مررت بهم من الماديين الملاحدة!)، وأنا في الحقيقة ما كان لي سابق معرفة بذاك الرجل ولا دراية بحاله، ولو كنت أعرفه ما التفتّ إليه بالجدال والمخاصمة أصلا؛ لأن أمثاله لا يجوز -عند أهل السنة - أن يناظَروا أو يجادَلوا، وإنما تكتب المصنفات أو الرسائل الموجزة في الرد عليهم وبيان أحوالهم وتحليل مواطن الفساد في مناهجهم وتحذير المسلمين منهم بحسب الحاجة الشرعية لا أكثر، ولكن قدر الله وما شاء فعل!

فكان من أثر تلك المناظرة أن ظهرت لي خطورة فكر طائفة من "المفكرين" والكتاب "الإسلاميين" في عصرنا هذا تتخذ مما يسمى "بالإعجاز العلمي" مدخلًا للانتصار للدين ولدعوة غير المسلمين، مع كونها مغرقة في الأصول الكلية للجهمية القدماء من حيث لا تشعر، تتخذ من نظريات الطبيعيين في الغيبيات مدخلًا لتأويل القرآن والسنة وتحريف النصوص كما اتخذت الجهمية القدماء من ميتافزيقا الأكاديمية الطبيعية اليونانية وطريقتهم الأرسطية في النظر والاستدلال مدخلًا لنظير ذلك، جريًا

على نفس المنهج المعرفي الفاسد. فاعتزمت أن أصنف كتابًا - بعون الله وتوفيقه - في بيان فساد طريقة الإعجازيين وتحريفهم لكتاب الله - جل وعلا -، منطلقًا من نقل تلك المناظرة المذكورة والتعليق عليها بما يكشف منهج هؤلاء.

وقد سميت تلك الطائفة بـ"جهمية الطبيعيات" أو الجهمية الجدد؛ لأنها صورة من صور الجهمية الجديدة (العقلانية) كما تقدم، على أساس أن أصل أصول بدعتهم جميعًا إنما هو تقديمهم العقل على النقل يجعلونه مصدرا للتَلَقّي في الغيبيات عامة (على حسب مفهومهم الحادث للعقل ولما يخالف العقل كما بسطنا الكلام عليه في هذا الكتاب)، كما ذهبت الجهمية القدماء (في فرق كلامية متعددة لا تزال عقائدها تدرس في بلاد المسلمين إلى يوم الناس هذا وإلى أن يشاء الله) إلى تقديم مفهومهم للعقل على النقل (وكشف ذلك وبينه أحسن بيان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وتلميذه ابن القيم، جزاهما الله عن المسلمين خيرا). وإنما اختلف مفهوم العقل نفسه بين الفئتين (القدماء والمعاصرين) بحسب البارادايم [1] الفلسفي الميتافزيقي السائد أكاديميًّا في كل عصر!

ولأني كنت ألمس في جمهور المتصدرين للرد على الملاحدة في بلاد المسلمين من الخلل المنهجي والانخرام في مصادر التلقي ما لا يجوز السكوت عليه، ومن اتباع سنن أهل الكتاب في ذلك ما وجب التحذير منه والتنبيه عليه، ورأيت شباب المسلمين يقبلون على كتب القوم أفواجًا، مع تعطش عظيم وحرص بالغ لدى كثير منهم على الوقوف على ما يحصل به "التوفيق" بين العلوم الطبيعية الغربية ونظريات أصحابها (لا سيما نظرياتهم في مسألة النشأة) وبين الدين الذي يدينون به، لا سيما من كان منهم له اشتغال واهتمام بتلك العلوم، ورأيت أن دعوة دعاة الدهرية والإلحاد المعاصر لا تقوم في زماننا إلا على الخلط المتعمد الخبيث بين الفلسفة الطبيعية أو الملة الطبيعية Naturalism والعلم الطبيعي Science، وهو نفس ذلك الخلط الذي تسرب إلى الإعجازيين وعامة المتصدرين للرد على الملاحدة في مسألة "درء التعارض بين العلم والدين"، هذا من حيث لا يشعر أكثرهم، حتى بلغ الأمر ببعضهم أن أصبح يدعو إلى فلسفة دهرية طبيعية عصرية ملبسة بلبوس الإسلام وهو يحسب أنه ينقذ شباب المسلمين من الإلحاد والردة (كما في حالة الدكتور عمرو شريف والدكتور باسل الطائي وعدنان إبراهيم وغيرهم)، مع كون كتبهم ومقالاتهم هي المرجع الأوسع انتشارا في عصرنا للمشتغلين بالرد على الملاحدة وتحصين المسلمين من خطرهم، ومن مدخل البحث الطبيعي الذي لا يدخلون إلا منه؛ لهذا فقد وجدت أن الأمر يحتاج إلى مصنف أكبر حجمًا وأوسع موضوعًا

وأعمق تناولًا من مجرد التعليق على المناظرة المذكورة، لا سيما وصاحبها مغمور خامل الذكر لا يكاد يعرف أصلًا!

فأخذت بحول الله تعالى في التصنيف في بيان النحلة الطبيعية The Doctrine of Naturalism وبيان أن الدين الطبيعي هو الملة الدهرية بحذافيرها، التي نشأت في اليونان عند طاليس وغيره من فلاسفة ما قبل سقراط، وكانت هي أساس الأكاديمية الطبيعية الغربية ولم تزل إلى يومنا هذا! فرأيت ضرورة الاشتغال بتحرير الفارق المنهجي الكلي والمعرفي (في إطار مباحث فلسفة العلم) بين ما هو علم طبيعي مقبول نوعًا، وما هو تنظير دهري من جنس خرافات الملل الفاسدة، يتستر خلف ستار العلم الطبيعي والتجريبي زورًا وبهتانًا! فإن من لم يتبين الفرق بين ما هو علم طبيعي وما هو دين طبيعي، لا سيما من شبابنا المتخصصين في تلك العلوم المشتغلين بالبحث والمطالعة فيها؛ فلا يأمن على دينه من دخول أسباب الزندقة والإلحاد إلى نفسه من حيث لا يشعر! وما أكثر من كان سبب إلحاده وردته هو هذا المدخل نفسه، نسأل الله السلامة!

ومما يزيد الطين بلة أن ترى المشتغلين بالرد على الملاحدة يحرصون أعظم الحرص على تصحيح نظريات الطبيعيين جملة (اللهم إلا نظرية داروين التي لا يخفى فسادها على الكافة من المسلمين؛ نظرًا لانتهاء أصحابها إلى نسبة آدم - عليه السلام - إلى ذرية القردة العليا!) ويجهدون في بيان أن سبب الإلحاد لا علاقة له البتة بتلك النظريات، وإنما يرجع إلى ميول نفسية حملت الملاحدة على تأويلها تأويلًا إلحاديًّا، وعلى التفلسف -من ثَمَّ- بما يسوغ ذلك! ولا شك في أن الملحد لا يلحد إلا عن أهواء كبرى تبلغ به أن تحمله على جحد أعظم البديهيات والضروريات قاطبة والتصريح بذلك، نسأل الله السلامة! ولكن ليس هذا ما يريده هؤلاء (كالدكتور عمرو شريف والدكتور أحمد عكاشة وغيرهما) عندما ينسبون الإلحاد إلى أصل نفسي! وإنما يريدون دفع تهمة المصادمة بين الإسلام و"العلم الحديث" بتصويرها في صورة الوهم النفسي المحض! فليس عند القوم إشكال في اجتراء الطبيعيين الفاحش على كافة غيوب السماوات والأرض بالتنظير والقياس والتخريف تحت شعار العلم الطبيعي، فما دام ذلك كله قد اعتُمد أكاديميًّا وأصبح هو المذهب السائد؛ فلا مناص من التسليم بصحته، والعمل على بيان أن الإسلام يوافقه ولا يخالفه، وأن من زعم المخالفة فلا يخلو أن يكون جاهلًا لا يدري عن أي شيء يتكلم، أو مصابًا بصورة من صور المرض النفسي تحمله على تأويل تلك النظريات كلها تأويلًا إلحاديًّا، مع أنها ليس فيها ما يوجب ذلك ولا يقتضيه بحسبهم!

لذا جعلت من جملة مقاصدي في تصنيف هذا الكتاب: إرشاد الباحثين المسلمين المتخصصين في العقيدة والقضايا الفكرية المعاصرة من جانب، والمتخصصين في مجالات البحث الطبيعي والتجريبي من الجانب الآخر، إلى تمييز الفرق المنهجي الكلي بين ما يصح فيه اسم "العلم" من مباحث التجريبيين المعاصرين Science وما لا يصح إلا أن يقال له أساطير ميتافزيقا الملة الطبيعية المعاصرة Naturalistic Metaphysical Mythology؛ فقد تبين لي أن ذلك الفارق لا يزال - على أهميته وخطورته على دين المسلم وعقله - مشوشًا ملتبسًا عند عامة المشتغلين بالطبيعيات من أهل قبلتنا، بل وعند كثير ممن تخصصوا في دراسة العقائد والمذاهب الفكرية المعاصرة ولهم فيها مقالات ومؤلفات ورسائل علمية، والله المستعان.

فمسألة حدود العلم الطبيعي والبحث التجريبي عندنا - معاشر أهل السنة - ليست من قبيل الترف الفكري أو التهارش الفلسفي الأجوف الذي لا يضار الباحث التجريبي إن ترك البحث الأكاديمي يستغرقه في مجالات التخصص الطبيعي المعاصرة من غير أن ينتبه إليها ويحرر موقفه منها تحريرًا واضحًا لا التباس فيه! إنها مسألة كانت ولم تزل تبدأ من مصادر التلقي في الاعتقاد الغيبي وأصول الاعتقاد في صفة الرب -جل وعلا- وفعله، وتصل إلى فهم المسلم لنصوص الكتاب والسنة وموقفه الإجمالي والتفصيلي من تراث السلف في ذلك. إنها قضية منهجية فارقة بين طريقة السلف في قبول العلوم النافعة ورد العلوم الضارة والخرافات الغيبية والسفسطات الفارغة، وطريقة الجهمية التي أنبتت سائر الفرق الكلامية الضالة في تاريخ المسلمين، ولم تزل.

ولهذا لزم أن يصبح الكتاب موجهًا لمخاطبة طلبة منهجية البحث التجريبي من المسلمين كما يخاطب طلبة العلوم الشرعية (لا سيما المتخصصين في العقيدة والتوحيد ومباحث الفلسفات والمناهج الفكرية المعاصرة). وبعدما انتهيت بحول الله وقوته من تصنيفه، قسمته إلى خمسة أبواب؛ رأيت من الواجب عرضها في هذه المقدمة بإيجاز، وبيان أي الفئتين هو الأقرب لفهم دقائق المسائل في كل باب منها وللانتفاع بها فيما أرجو. والله الموفق لما يحب ويرضى.

ولم أكن أتوقع في الحقيقة أن يبلغ الكتاب أن يقع في أكثر من مجلد، ولكن لما كان الأمر بالغ الدقة (في بيان نوع النظريات محل النقد والمنهج الدهري الذي تقوم عليه، وبيان كيفية التعامل الوسطي الصحيح مع ما كان من عدوان على الغيب عند الطبيعيين لا تخلو منه الفرضيات الأنطولوجية والمسلمات الميتافزيقية في أي نظرية من نظرياتهم المعاصرة، وبيان

مورد المغالطة في فرضيات القوم وتأثيره على اعتقاد المسلمين)، وكان رؤوس الجهمية الطبيعية أصحاب إنتاج فكري غزير ومؤلفات شتى يحتاج كل واحد منها إلى نظير حجمه في نقده وببيان عواره (حتى بلغ عمرو شريف أن جاوزت كتبه دستة كاملة، طبع خمسًا منها في الخمس سنوات التي أمضيتها في تأليف هذا الكتاب، بمعدل كتاب واحد في كل عام!!)؛ كان لزامًا أن يستطيل الكتاب حتى يبلغ ما ترى، والله المستعان! ولولا تخوفي من انفراط العقد وصدود الناس عن قراءته لكثرة عدد مجلداته، مع استشعاري لشدة حاجة إخواني من طلبة العلم لنشره عاجلًا غير آجل؛ لتجاوز هذا الحجم بعدة مجلدات. وإلى الله المشتكى!

ولأن الكتاب موجه لمخاطبة المتخصصين في الطبائعيات وتدريس منهجية البحث العلمي التجريبي وفلسفة العلوم في جامعات المسلمين، كما هو موجه لمخاطبة طلبة العلم الشرعي المتخصصين بالعقيدة والفلسفة المعاصرة من إخواننا من أهل السنة والجماعة؛ فقد كان من الضروري أن يراعى في لغته التسهيل واجتناب الغريب من الألفاظ والتراكيب ما أمكن، والتنزل في اللفظ والعبارة إلى حد قد يبلغ الركاكة في بعض المواضع، فأرجو من القارئ المحترم أن يعفو عن ذلك. كما سيجد القارئ مواضع قد استعملت فيها اصطلاحات إنكليزية ورموزًا لاتينية ومنطقية؛ مراعاة للغة التي نشأت فيها تلك المصطلحات والرموز، التي بها يقرأ من يقرأ من المسلمين في تلك القضايا في عصرنا؛ فإنه من غير المقبول أن نضع مصنفًا لبيان الأغلاط والانحرافات في محتوى أكاديمي ما، من غير أن نبين الحدود والمصطلحات والمسائل المعينة الدقيقة التي ننقدها، فنخاطب قارئي ذلك المحتوى بنفس المصطلحات المستعملة فيه. ولولا أن كانت مصنفات شيخ الإسلام - رحمه الله - في عصره متوجهة للرد على قوم قد سبق منهم - قبل قرون طويلة من زمان الشيخ - نقل الفلسفة اللاتينية معربة لفظًا واصطلاحًا، ولصيانة المسلمين المعرضين لتلك الفلسفة من فساد العقل والدين؛ لرأيت كتبه محشوة بالألفاظ اللاتينية واليونانية في أثناء الرد والنقد والبيان (وهي اللغة الأصلية التي وضعت بها أصول تلك النظريات في الأكاديمية اليونانية القديمة)! فنرجو ألا يعاب ذلك المسلك علينا؛ لأنه من طريقة الأئمة الذين سبقونا - رحمهم الله تعالى -.

في ضوء ما تقدم، فقد رتبت الكتاب في ستة مجلدات بيانها كما يأتي:

المجلد الأول: باب في بيان الدين الطبيعي وشرك الطبيعيين. بوبت له بقولي "بيان عقائد الملة الطبيعية المعاصرة Naturalism وأهم الطوائف الدهرية المعاصرة في أوروبا وأمريكا".

فبدأته ببيان أصل الدين الطبيعي؛ ألا وهو الاعتقاد الوجودي بأنه ليس في الوجود إلا الطبيعة وحدها (لا موجود بحق إلا هذه الطبيعة التي نعيش في جزء منها)، وما ترتب على ذلك الأصل من مسلمات في مصادر التلقي المعرفي عند آباء الأكاديمية الطبيعية القديمة، في إطار ما بات يسمى إجمالًا بالطبيعية المنهجية Methodological Naturalism، وكيف نشأت الملل الإنسانية والمستقبلانية والإلحاد الجديد وغيرها من ملل دهرية داروينية معاصرة، وكيف -وهو الأهم- تحققت عقائد هؤلاء بكافة خصال الاعتقاد الديني الغيبي من غير أن يعترف لها أصحابها -غالبًا- باسم الدين أو الاعتقاد الديني؛ بل ومع كون بعض طوائفهم هم أشد الناس هجومًا على مطلق مفهوم الدين في جهالة وسطحية بالغة، وكأن ما هم عليه ليس دينًا ولا يصلح أن يسمى باسم الدين! ولا تزال عقائد كثير من تلك الطوائف والنحل الدهرية العصرية تبث في شبابنا من طريق روايات ما يسمى بالخيال العلمي (ونسميه نحن بالخيال الطبيعي الدهري) وفي أفلام هوليوود، إلى جانب الجامعات المشتغلة بتدريس العلوم الطبيعية الغربية! ولا يزال يتكاثر في قنوات اليوتيوب وفي الفضائيات برامج من يسمون أنفسهم "بمبسطي العلوم"، التي تلبس على كثير من العامة عقائد القوم على أنها هي العلم الحديث الذي لا يليق بشاب يعيش في قرننا هذا ألا يفهمها ولا يلم بها!

فهذا المجلد أراه مهمًّا للغاية لطلبة العلم المعتنين بالعقائد والملل والفلسفات المعاصرة؛ لأن فيه تعريفًا موجزًا (إيجازًا أرجو ألا يخل بمقصود التأليف) بطوائف دينية ونظم اعتقادية غيبية قلَّ من يدرك أنها أديان وملل كاملة الأركان، لا تخلو من نظام اعتقادي ومن فلسفة أخلاقية وسياسية وتشريعية مستمدة من ذلك النظام الاعتقادي نفسه ومن مصادر التلقي المعرفي المعتمدة فيه؛ بل وفي كثير منها مؤسسات دينية وأنشطة اجتماعية تقوم مقام العبادات الجماعية في الملل الأخرى! كل ذلك وهم يرون أنهم لا دين لهم!

وتظهر أهمية هذا الباب كذلك في تأسيسه - فيما أرجو - لبيان أن الصراع المزعوم بين دين المسلمين (وغيرهم من أهل الملل الكتابية الموروثة) وبين ما يسمى بالعلم الطبيعي؛ إنما هو في الحقيقة صراع بين الدين الإلهي والدين اللاإلهي، بين نظم اعتقادية تثبت خالقًا حيًّا مريدًا فاعلًا قيومًا يأمر وينهى ويحب ويكره ويسمع ويبصر.. إلخ، ونظم اعتقادية تنفيه بالكلية، أو على أحسن الأحوال تجعله كالعدم أو تجعله هو الطبيعة نفسها [2]؛ لإباء أصحابها ورؤوسها - استكبارًا وجحودًا - أن يخضعوا رقابهم لرسول من رسل رب العالمين! أي أن الصراع في الحقيقة صراع بين ملتين، لا بين شيء كلي اسمه "الدين" وشيء كلي آخر اسمه "العلم"! ولعل هذا المعنى يتفق معنا عليه أكثر المشتغلين بالرد على الملاحدة من المسلمين وغيرهم! ولكن ما هو تحرير المسمى المراد بكل من الدين والعلم معًا في هذا؟ وما هي حدود الدين الطبيعي وما آحاد عقائده ومفرداته ومصادر التلقي المعرفي الغيبي عند أصحابه، وكيف للمسلم أن يسلم بدينه من جميع ذلك، ويبين علو المعرفة الدينية الموروثة الراجعة إلى وحي السماء، على جميع ما عند الطبيعيين من تخمين وهذيان في الغيب وما فيه؟ هذا ما كان لزاما أن نقدم له ونؤسس لبيانه بما كتبناه في هذا الباب. والله الموفق للصواب.

المجلد الثاني والثالث: باب في بيان منهج أهل السنة في الطبائعيات والتجريبيات.

وهو أنفع - فيما نرجو بإذن الله تعالى - للمتخصصين في البحث التجريبي وفلسفة الطبيعيات والباحثين في الفيزياء والفلك وغيرهما من العلوم الطبيعية المعاصرة؛ فمن استطاع أن يصبر على قراءته من طلبة العلوم الشرعية، الباحثين في القضايا الفكرية المعاصرة؛ فلعله أن ينتفع به كذلك في تعميق فهمه للمعيار الصناعي المنطقي الذي نفرق به بين ما هو تنظير تجريبي مفيد للمعرفة، وما هو تنظير ميثولوجي دهري لا نفع فيه، ولا يفضي إلا إلى الضلالة والزندقة!

ففي هذا الباب أخذت - بحول من الله وقوة - في بيان مسلمات الملة الطبيعية وكلياتها الوجودية والمعرفية عند الفلاسفة، وكيف أنشأت تلك المسلمات آحاد العقائد الغيبية عند الفلاسفة اليونانيين ومن جاء بعدهم، وكيف أدى دخول الطريقة التجريبية Scientific Method على تلك الأكاديمية (التي أخذها الفلاسفة الطبيعيون الغربيون أصالة عن العرب المسلمين في القرون الوسيطة) إلى تحول جذري (بارادايمي) في منطق الاستدلال المعتمد أكاديميًّا في بناء النظريات الميتافزيقية الكونية (الدعاوى الكلية بشأن العالم بكليته) عندهم، جريًا على مسلمات الطبيعية المنهجية، فصارت الخرافات الطبيعية تنشأ باستعمال مبدأ الافتراض التفسيري

في التنظير التجريبي، بعد أن كانت تنشأ Abductive Hypothesis باستعمال منطق القياس الشمولي والاستنباطي القبلي A-priori Deduction في قالب السيلوغية المشائية Aristotlian Syllogism؛ فترتب على ذلك أن أصبح لدى الدهرية المعاصرين طريق مضمونة لتزيين ميتافزيقاهم وميثولوجياهم الغيبية الدهرية بزينة تلك الصنعة النافعة (الطريقة التجريبية)! فبينت حدود الغيب المحض، ودرجات الغيب النسبي، وكيف يتعين على الباحث المسلم أن يكون على دراية وذكر بهذه المسألة حتى لا يجري آلة البحث التجريبي حيث لا يصح لها أن تجرى! وفي ذلك الإطار، بينت السبب في كون نظريات النشأة وغيرها من النظريات التي تفترض كيانات أنطولوجية غيبية تملأ جنبات العالم بكليته، تعاني كلها من تكافؤ الأدلة الحسية أو التكافؤ في دلالة المشاهدة / Indetrmination Underdetermination by Observation، وهي تلك الآفة التي لم يلتفت إليها الطبيعيون ولم يأخذوها مأخذ الجد، بالنظر إلى أن تلك الفئة من فلاسفة العلوم الذين ناقشوها واستعرضوها في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي؛ كانوا طبيعيين دهرية بالأساس، فكانوا لا يبالون بما يفضي إليه الحكم على كثير من نظريات الطبيعيين بأنها تتبع الهوى الأكاديمي العام تأصيلًا وتفريعًا؛ بل كان ذلك عند بعضهم هو حال المعرفة البشرية كلها؛ أنها تنبني بناءً تناسقيًّا لا قيام له على شيء يصح أن يقال إن له قيمة موضوعية في الثبوت Objective Truth Value!

وعليه بينا - بحول الله - كيف أن الضابط الحق والفرقان بين ما هو علم طبيعي وما هو خرف طبيعي أو ميثولوجيا طبيعية (وهو ما يمكن أن نسميه كما سماه بوبر بالعلم الزائف Pseudoscience)؛ إنما هو التفريق الدقيق والمنضبط بين أنواع المطالب البحثية عند الطبائعيين والتجريبيين التي يمكن أن توصف بأنها تنظير في الغيب المطلق، وتلك التي لا تبلغ أن تكون كذلك، مع النظر – بالضرورة - في الغاية والقصد والثمرة المرجوة من المطلب البحثي نفسه؛ فما كان من الصنف الأول رددناه، وما كان من الصنف الثاني قبلناه بشرطه وضابطه؛ ومن ثم بينا ما سميناه بمعيار قابلية القياس، أي قابلية قياس الفرض التفسيري نفسه على شيء مما في الحس والعادة، وهي تلك القابلية التي يستكشفها الباحث باستخراج المصدر الذي منه جاء بالفرض التفسيري نفسه ابتداء.

ثم بينا معايير الطبيعيين في الترجيح والموازنة بين النظريات التفسيرية المتنافسة في المسألة الواحدة، وكيف أنها كلها ترجع إلى الذوق الأكاديمي العام، وإلى التناسق الداخلي بينها وبين ما سبق منهم ترجيحه بالذوق الأكاديمي العام كذلك! وبينا -بناءً على ذلك- تكافؤ تلك الأقيسة التي بها

يقدر القوم الأزمان السحيقة فيما قبل التاريخ المدون، والمسافات البعيدة في جو السماء! وخصصت فصلًا ضربت فيه مثلًا افتراضيًّا لبارادايمات ثلاثة متفاوتة تفاوتًا عظيمًا في الأسس الميتافيزيقية والفرضيات الأنطولوجية التي تقوم عليها؛ في تفسير وتوصيف نظامية طبيعية افتراضية معينة في عالم افتراضي، وبينت كيف تتفق تلك النظريات - مع ذلك - في العبارة الرياضية وفي موافقة المعادلات المستعملة في كل منها للقدر المحسوس المشاهد من تلك النظامية؛ وذلك حتى أبين للقارئ المتخصص انفكاك الجهة وعدم التلازم بين موافقة المعادلة الرياضية للقدر الواقع تحت الحس والعادة من الظاهرة محل البحث، وبين موافقة الفرضيات التفسيرية والميتافزيقا الكلية التي تقوم عليها تلك المعادلات نفسها للواقع في نفس الأمر! هذه القضية لها أهمية عظيمة في بيان سبب قبولنا معادلات النسبيتين (التي كانت ولم تزل توافق الواقع المحسوس) ورفضنا الصارم - في نفس الوقت - للمفاهيم الميتافزيقية والفرضيات الأنطولوجية التي تقوم عليها تلك المعادلات نفسها! وكذلك يقال في ميتافزيقا وأنظولوجيا معادلة شرودينغر في ميكانيكا الكم؛ على اختلاف النظريات التأويلية التي ظهرت عند الفيزيائيين في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي.

ولهذا لزم كذلك أن نخصص مبحثًا ضخمًا للكلام على فلسفة الرياضيات وأنطولوجيا علم الهندسة (جيومتري) ونبين المفهوم الصحيح للانهاية العددية في كل استعمال لها عند الرياضيين (على اختلاف تلك الاستعمالات)، ونبين مفهوم التوازي ومفهوم البعد الفراغي والبعد الزماني والمطوية (مانيفولد) في الطبوغرافيا الهندسية (التي تصف أسطحًا لا توازي فيها)، ومفهوم الامتداد والانفصال والاتصال، ونقرر قاعدة مهمة في منطق الجهة الرياضي، وكيف أن العبارة الرياضية ليست في الحقيقة إلا عبارة لغوية منطقية رمزية (نوعًا)، يرد عليها ما يرد على أي عبارة لغوية؛ فقد تستقيم العبارة الرياضية وتنضبط بمقاييس الصنعة، ومع ذلك يكون موضوعها محض الخرافة، بل مما يمنعه العقل الصريح؛ فليس الجواز الرياضي مقتضيًا للجواز المنطقي فضلًا عن تحقق الوقوع!

ثم انتقلنا بعد ذلك التقديم إلى نقد ميتافزيقا النسبية الخاصة، ومفهوم الزمان والتزامن فيها، وبيان ما يقتضيه ذلك المفهوم من تعطيل شامل لصفات رب العالمين، وإحالته إلى ذلك الصانع الربوبي العدمي الذي كان يثبته أينشتاين! فالرجل لم يصل إلى تقرير دينه واعتقاده في الإلهيات إلا تأسيسًا على ميتافزيقاه في النسبيتين كما بيناه في موضعه!

وأكثر هذا الكلام -كما ترى- قد لا يدركه ولا يحسن تصوره والانتفاع به إلا من كانت له دراية واشتغال سابق بتلك النظريات ومنهجية البحث فيها؛ فإن

تعذر فهم مبحث من مباحث هذا الباب أو جزء من أجزائه على بعض القراء؛ فلا عليهم إلا أن يتجاوزوه لما بعده، أو أن يراسلوني بالسؤال عنه إن كانوا يحتاجون لفهمه لسبب ما أو لآخر. والله يوفقني وإياهم للرشاد.

ثم انتقلت في مختتم الباب إلى تحرير مبحث مفصل في بيان علو مصادر التلقي المعرفي في دين محمد -صلى الله عليه وسلم- وظهورها على كافة مصادر التلقي وطرق الاستدلال عند التجريبيين والطبائعيين؛ من حيث إفادتها العلم والمعرفة في موضوعها أيًّا ما كان، وتناولت بعده مسألة الاحتمالات والترجيح الاحتمالي وما اعترى الطبيعيين من مغالطات فجة في استعماله حيث لا يستساغ في العقل أن يستعمل البتة، مع بيان تأثير ذلك على اعتقاد القوم في الغيبيات!

المجلد الرابع: باب في نقض بدعة التفسير بالطبيعيات، أو ما يسمى بـ"التفسير العلمي"، وبيان الأصل المنهجي الكلامي تحت ما يسمى بـ"الإعجاز العلمي"

وهنا أخاطب الباحثين في الاعتقاد وعلوم الشريعة على وجه الأولوية، لا سيما علم أصول التفسير، ثم غيرهم من المهتمين بذلك الشأن من العامة وأشباههم؛ فأبين -بحول الله وقوته- قيام أصول الدكتور زغلول النجار وغيره من منظري الإعجاز العلمي على أصول جهمية الطبيعيات، وعلى الطبيعية المنهجية (التي هي مصدر التلقي المعرفي في الغيبيات عند الطبيعيين الدهريين كما بيناه في الباب الثاني)، وأنهم أصحاب إفساد عظيم في علم أصول التفسير؛ إذ أحدثوا بدعة كلية في طريقة التوصل إلى معرفة مراد الله -تعالى- من كلامه، وأصحاب تناقض منهجي ظاهر في الجمع بين التفسير العلمي ودعوى الإعجاز العلمي في الآية الواحدة؛ إذ تصبح الآية دليلًا على صحة النظرية، وتصبح النظرية -في نفس الوقت- دليلًا على صدق الآية، وأن ما سماه النجار بـ"الآيات الكونية" إنما هو تلك الآيات في القرآن التي اتخذ الدكتور من الكوزمولوجيا العصرية ونظريات الطبيعيين في غيب السماوات والأرض مستندًا معرفيًّا في فهمها وتأويلها!

ثم استعرضنا في هذا الباب مشروع الفيزيائي الجهمي المتفلسف الدكتور محمد باسل الطائي في "تجديد علم الكلام" (زعم)؛ إذ اتخذ الرجل من ميتافزيقا الطبيعيين المعاصرين مستندًا للقبول والرد في ميتافزيقا الأقدمين، زاعمًا أن مجرد استناد المعاصرين للتنظير التجريبي والرياضي يجعل نظرياتهم الغيبية أجدر بالقبول في نفس الأمر من نظريات السابقين الذين ما كانوا يسلكون ذلك المسلك! فاستعرضنا في ذلك خمسة مبادئ زعم الدكتور أن عليها قوام العلم الطبيعي المعاصر، وأنها هي كذلك ما كان

عليه المتكلمون السابقون فيما سماه (غلطًا وتخليطًا في اصطلاح المتكلمين) بـ"دقيق الكلام"! وبينا في ذلك مقتضيات ولوازم العقائد الكوزمولوجية والكوبنهاغنية (نسبة إلى تأويل كوبنهاغن لميكانيكا الكوانطم) فيما يتعلق بصفات الله -تعالى- وأفعاله؛ بما نرجو أنه قد حصل به مقصودنا من التفصيل والرد.

ففي هذا الباب نبدأ بحول الله وقوته في بيان كيف أنه لما اختلفت النظريات الميتافزيقية الكلية عند كبار الفلاسفة والنظار المرموقين في أكاديميات العلوم الدنيوية، اختلفت مفردات الاعتقاد عند أهل الكلام المعاصرين تبعًا، فيما سماه كثير من الجهمية المعاصرين بـ"لغة العصر"، واضطربوا في التعامل مع ذلك الاختلاف والتغير اضطرابًا عظيمًا، وأخضِع النص الشرعي لإعادة التأويل من جديد، وظهرت الفرق الكلامية الجديدة بالفعل (كما كنا نحذِّر فيما مضى)، تأسيسًا على نفس المبدأ المعرفي الكلي، الذي أفرغنا الوسع في استخلاصه وبيانه في هذا الكتاب، ذلك المبدأ الذي أنبت الفرق الكلامية القديمة من قبل، ألا وهو مبدأ تقديم العقل على النقل إجمالًا، ليجعل هو المصدر الأول لتلقي المعرفة الغيبية!

ولا شك أن انفصال الفلسفة الطبيعية في هذا العصر عن غيرها من مجالات الفلسفة (وعن التعليم الديني على وجه الخصوص) في تخصص أكاديمي مستقل (بل في جملة كبيرة من التخصصات البحثية الدقيقة للغاية) كان له أثره في الاستغراق التعليمي والتعمق البحثي في كل دقيقة من دقائق تلك الفلسفة (التي لم يعد يقال لها فلسفة أصلًا في زماننا)! وكان من ثمرة ذلك أن صار هؤلاء الجهمية العصريون - من حيث لا يشعرون - أشد إغراقًا في تقليد أصحاب تلك النظريات وقصورًا عن فهم أصولها الكلية ومقتضياتها العقلية مما كان عليه متكلمة القرون السالفة بأضعاف مضاعفة! فبينما كنا نرى جهمية القرون السالفة من الفقهاء والأصوليين والمتفلسفة المتصدرين بين الناس بتعليم العلوم الدينية والدنيوية معًا؛ صرنا نرى أن أكثر متكلمة العصر[3] تأليفًا وأكثرهم تابعًا في زماننا هذا من الأكاديميين الجامعيين المتخصصين في بعض التخصصات الطبيعية والتجريبية الدقيقة كالفلك والجيولوجيا والفيزياء الكونية والطب وغيرها؛ لذا تصدروا للكتابة في الرد على الملاحدة بتحرير قضايا كلامية (نوعًا) مع كونهم محمَّلين بحمولة فلسفية دهرية ثقيلة في الغيبيات، قليل منهم من يطرأ في ذهنه مجرد النظر فيها بالسؤال أو المراجعة؛ فهي عند الواحد منهم حقائق علمية قطعية كما اتفق عليه كبار الأكاديميين المعاصرين في مجال تخصصه! فهم - مع ذلك - لا ناقة لهم ولا جمل في العلم الشرعي ولا في علوم الآلة وعلوم القرآن ولا في أصول العقيدة ومباحث الفلاسفة ولا في أصول النظريات

الطبيعية المعاصرة وفلسفاتها؛ بل إن منهم -كما بينا في هذا الباب والذي يليه- من يجادل ويناظر في الكلام والفلسفة وهو لا يدري ما أصوله الفلسفية الكلية التي قبل - بالتأسيس عليها - اعتناق ما اعتنقه من نظريات الطبيعيين، ولا يدري ما أصوله الشرعية التي هجم بها على نصوص الوحيين تأويلًا وتحريفًا، يخوض في فلسفة العلم وهو لا يدري أنه متكلم متفلسف أصلًا. وإلى الله المشتكى!

المجلدين الخامس والسادس: باب في الجهمية الداروينية واللاهوت التطوري Evolutionary Theology (Thesitic Evolution) & Creationism

وهذا الباب كسابقة، يوصى به للباحثين في العقيدة والمذاهب الفكرية المعاصرة، لا سيما المهتمين منهم بنظرية داروين وما بلغه أنصارها من بني جلدتنا من إغراق في الدين الطبيعي ومن تعطيل لصفات الرب وأفعاله ومن تحريف للكتاب والسنة. وفيه نبين كيف اتبع الجهمية الداروينية سنن اللاهوتيين المعاصرين من أصحاب الطبائعيات أمثالهم حذو القذة بالقذة؛ فانقسموا في اعتقادهم في أفعال الرب وصفاته وفي عمله في هذا العالم (على أثر اعتناقهم تلك النظرية المتهافتة) إلى نفس الفرق والطوائف الكلية التي انقسم إليها المعاصرون من أهل الكتاب في ذلك، وجريًا على نفس النظريات. ونبين كذلك تباين مواقفهم من أصل أبينا آدم -عليه وعلى رسولنا وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه- ما بين من يقول إن النظرية صحيحة في كل شيء إلا في أصل آدم (متناقضين بذلك في المنهج المعرفي وفي مصادر التلقي في الغيبيات المحضة من حيث لا يشعرون)، ومن يقول إن النظرية صحيحة في جميع الأنواع الحية بما فيها آدم؛ فيكذب صريح القرآن المعلوم من الدين بالضرورة، زاعمًا أن الأمر يتسع للتأويل.

وفي إطار ذلك نتطرق إلى قضايا دقيقة في فلسفة الاستدلال في نظرية داروين نفسها، ونبين الفساد في مفاهيمها الميتافزيقية الكلية بداية من مفهوم "النوع" ومفهوم "التطور" ومفهوم "الطفرة" ومفهوم "الانتخاب" ومفهوم "العضو" و"الوظيفة" و"البساطة والتعقد" وغير ذلك، ونطيل النفس في بيان تأسيس فريق من النصارى الأمريكيين المشتغلين بالطبيعيات والتجريبيات نظريتهم المسماة بـ"التصميم الذكي" على تلك المفاهيم نفسها. ثم نشرع في رحلة طويلة في بيان أثر اعتناق الميثولوجيا الداروينية على دين واعتقاد رؤوس النحلة التطويرية في بلادنا، وفي مقدمتهم الدكتور عمرو شريف، الذي لم أكن أتصور فداحة وشناعة ما انتهى إليه الرجل (في تتابع مؤلفاته عبر السنوات) من اعتقاد ربوبي اتحادي صرف، أصبح هو

نفسه يسميه بالطبيعية المتألهة، ويروج له في كتابه الأخير (المعلوماتية) يزعم أنه هو دين المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فبينا -بحول الله تعالى- كيف تدرج الرجل في الإغراق في كتب اللاهوتيين النصارى التصميميين أولًا، والقائلين بالتطور الموجه كذلك، منتصرًا لبدعة مصادمة لصريح القرآن، مفادها أن آدم - عليه السلام - لم يخلقه الله بيده من الطين وإنما خلق من ذرية "أوادم" أخرين. ثم انتقل إلى نظريات وفلسفات الطبيعيين الربوبيين يستعين بها في محاجة الملاحدة (زعم)، مارًّا بنظريات بعضهم في تصحيح التجارب الروحية الاتحادية المزعومة لدى الوثنيين المتصوفة mystics من أهل الملل، ومنهم القبوريون من بني جلدتنا (لما وجد في ذلك من موافقة لميوله الصوفية القبورية)، ملتقطًا في الطريق نظريات ميتافزيقا المعلومات الكونية، يجمع فيها بين عقيدة رجل كاثوليكي ألماني مخلط في مبادئ النظر الطبيعي، وعقيدة متفلسف دهري طبيعي ربوبي بريطاني يزعم أن الكون حاسوب كمومي عملاق، مصححًا مذهب المثاليين التعدديين الذين يثبتون العقول البشرية وشيئًا خارجًا عنها لا حقيقة له إلا ما تصيره إليه تلك العقول في إدراكها الفردي، مستندًا إلى ميتافزيقا مدرسة كوبنهاغن الخرافية في مسألة القياس الكمومي والاحتمالية الأنطولوجية، وكيف أن الإدراك البشري هو الذي يخلق الواقع خلقًا، في إطار ما سماه (تبعا للطائي) بالترجيح الإلهي، إلى غير ذلك من تخليطات عريضة فاحشة، أغرقت قراءه في الزندقة من حيث لا يشعرون، وهو مع ذلك يعد أشهر المتصدرين في الرد على الملاحدة في زماننا، بل يعد على رأسهم وفي مقدمتهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

هذه كلها فلسفات أطلنا النفس في شرحها وبيان فسادها ومقتضياتها الكفرية الشنيعة في شطر عظيم من هذا المجلد لشدة الداعي إلى ذلك. ثم عرجنا على بعض سفسطات الدكتور عدنان إبراهيم، المتفلسف السوري المعروف، في نظرية داروين وما ينبغي أن يكون عليه موقف المسلم منها. ثم انتقلنا إلى استعراض مذهب الفيزيائي الجزائري الدكتور نضال قسوم الذي يؤول بالداروينية إلى الربوبية اللابلاسية المحضة! ثم أفردنا جزءًا للكلام على قرطمة هؤلاء جميعًا في قصة آدم - عليه السلام - مارين على كلام فاحش للدكتور يوسف زيدان، الكاتب والمؤرخ المتفلسف المعروف. ثم أفردنا مبحثًا لكشف معتقد الكاتب الاتحادي الماسوني القبوري التركي عدنان أوكتار (المعروف باسم هارون يحيى).

المجلد السابع: مباحث واستطرادات واستدراكات ذات صلة

وهو مما يهمنا أن يعتني بقراءته الباحث الشرعي والتجريبي على السواء؛ فإن فيه جمعًا لجملة من المباحث المهمة التي تستكمل المقصود من هذا الكتاب في بيان إفساد مبدأ التنظير الميتافزيقي والقياس في الغيبيات (عند الفلاسفة والمتكلمين على السواء) للعقل والدين واللسان جميعًا! كما أوردت فيه مقالًا قديمًا كنت قد نشرته في بعض المنتديات في التحذير من أنموذج الانفجار الكبير، فأدخلت عليه بعض التعديلات والتعليقات وأعدت نشره على أنه إصدار ثان في هذا المجلد. ثم وضعت مبحثًا طويلًا في نقض بدعة خطيرة من بدع اللاهوتي النصراني الأمريكي الأشهر "ويليام لين كريغ" رأيت اتصالها الوثيق بميتافزيقا الأشاعرة التي أسس الرجل عليها براهينه وفلسفاته العصرية، فيما أراه أعمق محاولة في تاريخ الفلسفة واللاهوت والكلام للجمع بين مقدمات الغزالي في برهان الحدوث لديه، وبين ميتافزيقا النسبية العامة وكوزمولوجيا الانتفاخ الزمكاني المزعوم؛ إذ قد رأيت عامة المشتغلين بالرد على الملاحدة في عصرنا يعجبهم برهان الرجل وكلامه ومقدماته الأشعرية في مناظراته العلنية (فيما يسميه هو ببرهان الكلام الكوزمولوجي)، غير ملتفتين إلى لوازمها الخطيرة، سواء كانوا منتسبين إلى مذهب الأشاعرة أم لم يحسبوا أنفسهم من الأشاعرة، لا سيما الداعية الشاب اليوناني المتكلم المدعو حمزة تزورتسيس، وهو داعية لبق له مناظرات على اليوتيوب وقطاع عريض من المحبين في شبابنا المهتم بهذه القضايا، والله المستعان.

ثم وضعت فصلًا في التعليق على اختراع فلسفي ساقط للزنديق المدعو عدنان إبراهيم انتهى به إلى الجمع بين القول بقدم العالم والقول بحدوثه في عبارة واحدة، وهي قوله "قديم مخلوق"! ثم أعقبت ذلك بمراسلة جرت بيني وبين باحث من الباحثين يستشكل موقفي (في آلة الموحدين) من نظرية الانفجار العظيم ومن الظن السائد بأنها تحرج الملاحدة وأنهم يثبتونها على الرغم من إلحادهم، وغير ذلك من كلام قد أتينا في هذا الكتاب - فيما نرجو - بما يكفي لبيان بطلانه من أصوله الأولى.

ثم سقت إلى القارئ مبحثًا طويلًا في بيان أصل إفساد الفلاسفة لعقول البشر وألسنتهم، وكيف أنهم من كبرهم وحرصهم على بناء النظريات الكونية الميتافزيقية الكلية التي تتناول كل موجود، ولا يخرج عنها جزء من أجزاء الكون؛ كان دأبهم التلاعب بمعاني كثير من الألفاظ الكلية في ألسنة الناس وإعادة تعريفها في صورة اصطلاح فلسفي طبيعي أو ميتافزيقي، كمفهوم الزمان ومفهوم المكان ومفهوم التزامن ومفهوم السرعة ومفهوم الاحتمالات ومفهوم الصدفة والفوضى عند المعاصرين.. إلخ، ومن قبل ذلك في ميتافزيقا اليونانيين القدماء مفهوم الجوهر والعرض والحادث والصورة

والخلاء والحركة والتغير وغير ذلك؛ لتناسب قياسهم الكوني وتنظيرهم الغيبي الفاحش في بناء العالم وتركيبه الكلي، على أساس أنه لا موجود إلا ما هو محسوس في هذا العالم بالفعل أو بالقوة!

فلما أخذ المفتونون بهم وبميتافزيقاهم من أهل الملل الأخرى (كاللاهوتيين والمتكلمين وغيرهم) تلك المفاهيم ليؤسسوا عليها براهينهم واعتقاداتهم الغيبية؛ اضطروا إلى تعطيل باريهم عن جملة كبيرة من الصفات والأفعال التي لها اشتراك معنوي مع مخلوقات الرب - جل وعلا -؛ لأنهم لو أطلقوها أو ما يقتضيها أو ما تقتضيه على باريهم جريًا على تلك التعريفات والحدود الميتازفيقية؛ للزم جعل الصانع كالعالم الذي صنعه، أو جزءًا منه حادثًا فيه! ولهذا اضطرب القوم (المتكلمون ومن تابعوهم في ميتافزيقاهم الطبيعية) أعظم الاضطراب في مفهوم الضرورة العقلية! إذ من المتوقع ولا شك أن تنماع بدهيات العقل وضرورياته على أثر ذلك العبث في معاني الألفاظ، وتصبح كلها تابعة للتنظير الميتافزيقي ولكلياته المعنوية وتعاريفه وحدوده الكلية، لا أن يصبح التنظير نفسه هو التابع لبدهيات العقل وضرورياته كما لا يزال الفلاسفة يزعمونه! وهو ما يفضي لا محالة إلى تكافؤ الأدلة الذي شهد به كثير من كبار المتكلمين، ولا يترك للحكم بالضرورة العقلية والبداهة المنطقية مستندًا أو أساسًا إلا الذوق الفلسفي أو الكلامي العام، وما ينتصر به المخاصم على خصمه عند المناظرة، فيجعل جحده من جحد الضرورة تحكمًا! هذا الخلل العقلي واللغوي وثمرته الاعتقادية الغيبية لا سيما في الإلهيات؛ اعتنينا ببيانه وضرب الأمثلة عليه في المبحث المومى إليه.

ثم أوردت مبحثًا فيه رد مفصل طويل على بحث هزلي نشره جهمي من جهمية الطبيعيات العصريين في مدونته على الشبكة في الرد على زغلول النجار في مسألة مسامتة البيت المعمور في السماء السابعة لبيت الله الحرام في مكة، فجعلته نكالًا وعبرة لمن يعتبر! ثم سقت مراسلة كنت قد سئلت فيها عن مسألة الحتمية السببية وطلب مني التعليق على كلام لكاتب من الكتاب في تلك المسألة، فنشرته في هذا الباب لأهميته ولتعلقه الوثيق بموضوع الكتاب. كما رأيت الحاجة داعية لتخصيص مبحث في بيان بعض الاستدراكات والمراجعات لمواضع في كتاب آلة الموحدين لما استشعرته فيها من سوء عبارة أو فساد في المعنى، والله نسأل أن يغفر لنا كل زلل؛ فقد أبى الله أن يكون الكمال لكتاب في الأرض غير كتابه - سبحانه وتعالى -. ثم أوردت بحثًا مهمًّا كنت قد كتبته في الرد على شاب زنديق من الشباب المنخرطين في مسألة "تبسيط العلوم"، يسمي برنامجه على اليوتيوب بـ"الدحيح"، فأوردته كذلك لصلته الوثيقة بمسائل مهمة قد قررتها في هذا الكتاب. والله الهادي للحق والصواب. ثم ختمت المجلد بخاتمة حاولت فيها

أن أجمع رؤوس الأقلام في موضوعاته، وأن أبين أهم ما انتهى إليه، والله الموفق لما يحب يرضى.

في أسلوب الكتاب ولغة العرض والخطاب

لقد راعيت في تصنيف هذا الكتاب وتخطيط أبوابه وموضوعاته وترتيبها -كما تقدم- اختلاف الخلفية المعرفية والتخصصية والفكرية لقرائه من المسلمين؛ فترتب على ذلك كثير من التكرار لجملة من الأفكار والمبادئ الأساسية التي يؤصلها الكتاب، في مواضع شتى بأكثر من أسلوب، لا سيما عند نقض نظريات ودعاوى المخالفين من جهمية العصر وبيان وجه الخلل العقلي والمعرفي في كلامهم (وهو ما يشغل المساحة الكبرى من مجلدات هذا الكتاب بطبيعة الحال). فليس هو كتابًا موجزًا ولا قريبًا من ذلك، وما كان في الوسع والإمكان اختصار الكلام في أقل مما ترى، دون تفويت المقصود من تأليفه. ثم إني لأدري أن لغته - على الرغم من تسهيلها والتجوز فيها إلى حد الركاكة في أكثر أنحاء الكتاب كما أشرنا - عسيرة على الكثيرين؛ فليس هو بالقراءة السهلة التي تناسب القارئ المتثقف الذي لا ينتمي إلى شيء من تخصصات طلبة العلوم الشرعية أو العلوم الطبيعية والتجريبية! وليس ما يناسب بعض القراء المخاطبين بمواضع من الكتاب، مناسبًا لغيرهم من المخاطبين بمواضع أخرى في نفس الكتاب. ولقد لمست فيمن قرؤوا كتاب "آلة الموحدين" استثقالًا لأسلوبه وللغته وتراكيبه اللفظية، فكيف بهذا الكتاب الذي يقع في قريب من خمسة أضعافه طولًا وعرضًا وعمقًا، ولا يعدو "آلة الموحدين" أن يكون مقالا موجزا مقارنة به؟ فلهذا أرجو من القارئ الكريم ألا يمل من كثرة التكرار، بالنظر إلى دقة ووعورة نظريات الطبيعيين وعقائدهم التي تناولناها بالنقض المنهجي في هذا الكتاب على نحو نجزم بأن أكثر القراء ما تعرض لمثله من قبل. والله الموفق الهادي للرشاد. فإن مررت -أيها القارئ الكريم- بكلام لم تفهمه في مسألة ما؛ فلا تجزع، واعلم أنك إن تجاوزت ذلك الموضع فستظفر بإذن الله تعالى -غالبا- بموضع لاحق غير بعيد يعاد فيه الشرح والبيان بعبارة أخرى تناسب خلفيتك المعرفية، وتوصل المقصود إليك بصورة ما أو بأخرى، في سياق هو أسهل فهمًا وأقرب إلى ذهنك من سابقه. فإن لم يحصل لك ذلك؛ فلا تسارع بالنقد والتخطئة حتى تستكمل الفهم، إلا أن يكون محل الغلط ظاهرًا لك من غيرما التباس، فحينئذ فسارع -مأجورًا بإذن الله تعالى- إلى مناصحتي؛ لأعلن التراجع عنه وإصلاحه في نفس الملأ الذي أنشر فيه ما أنشر، وإن راسلتني بطلب التوضيح؛ فسأحاول ما استطعت أن أجيبك بما يفتح الله به علي. والله أسأل أن يرزقني ألا أسمع الحق إلا رأيته حقا وقبلته ممن أداه إلي كائنًا من كان، وأسأله -سبحانه- أن يبصرني بعيوبي وألا يغرني ولا أحدًا ممن يقرؤون كلامي بشيء مما آتانا، وألا يستدرجنا إلى

ما استدرج إليه من قبل من لا يحصي عددهم إلا هو –سبحانه- من أصحاب الأهواء الخفية. نسأل الله السلامة والعافية!

كتب الإصدار الأول منه وحرره

حُسَـــام مَحمُود مَســـعُود (أبو الفداء ابن مسعود)

باحث في العقيدة والمذاهب الفكرية المعاصرة

وأستاذ مساعد في العلوم الإنسانية ودراسات البيئة الحضرية ومنهجية البحث العلمي

بكلية الهندسة بجامعة عين شمس

في الثامن والعشرين من رجب في عام أربعين وأربعمئة وألف من الهجرة،

الموافق للرابع من إبريل عام تسعة عشر وألفين من الميلاد.

Beaconofguidance@yahoo.com

مقدمة الإصدار الثاني

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد، فهذا هو الإصدار الثاني من كتابي "معيار النظر عند أهل السنة والأثر"، نفع الله به، قد اخترت أن أجعله رقميا في صيغة "بي دي إف" من أجل أن يسهل وصوله إلى من يطلبونه من الإخوة المهتمين بموضوعه من طلبة العلم والباحثين، الذين تعذر عليهم الحصول على نسخة مطبوعة منه. وفي الحقيقة فقد كنت عازما على نشر الكتاب على الشبكة من قبل أن يطبع، ولكن كرهت أن يتأذى من ذلك الإخوة الناشرون – جزاهم الله خيرا – فأرجأت النشر على الشبكة على ما عليه العرف في ذلك، حتى اقترح علي بعض إخواني جزاهم الله خيرا أن أنشره في عيد الأضحى، بعد أن انصرم عام كامل من صدوره مطبوعا، فانشرح الصدر لذلك ولله الحمد.

وقد اتفق لي في تلك الفترة (منذ أن صدر الكتاب مطبوعا وإلى الآن) أن نبهت إلى أخطاء في بعض المواضع، وإلى مواطن فيها سبق لوحة مفاتيح ونحو ذلك، فعزمت على جعله إصدارا ثانيا، بعد أن كنت قد نويت أن أنشر النسخة المطبوعة كما هي. ولكن لضيق الوقت، لم أتمكن من مراجعة المجلدات السبع كلها، وإنما اكتفيت بمراجعة نصف المجلد الأول، ثم راجعت مواضع معينة في غيره من مجلدات الكتاب. ومن ثم آثرت، مع إصلاح الأخطاء المشار إليها فيما راجعت من الكتاب، أن أضيف كلاما في مواطن، في نفس المتن أحيانا وفي حواشي إضافية في أحيان أخرى، وهو ما كان أكثره في المجلد الأول خاصة، مع كونها بالجملة مواطن قليلة، ولا تلجئ من سبق منه أن أتم قراءة المجلد الأول لأن يعيد قراءته. ولقد فاتني في الحقيقة أن أسجل مواضع التعديل والإضافة من أجل أن أرفع مع الكتاب ثبتا ببيانها تسهيلا على من سبق منه قراءة الكتاب كله أو بعضه، وهو يريد مع ذلك أن يقف على ما أضفته من كلام جديد، فأرجو معذرة الإخوة من ذلك، جزاهم الله خيرا، ونفعنا وإياهم بما نكتب، والحمد لله أولا وآخرا.

المؤلف،

في الحادي عشر من ذي الحجة، عام ثنتين
وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة!

الباب الأول:

بيان عقائد الملة الطبيعية المعاصرة Naturalism

وأهم الطوائف الدهرية المعاصرة في أوروبا وأمريكا

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه.

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)) [آل عمران: 102]

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)) [النساء: 1]

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً)) [الأحزاب: 70]

أما بعد، فقد بات من مهمات هذا العصر لطلبة العلم والباحثين المعتنين بصيانة دين المسلمين من الإلحاد وفلسفاته وأدرانه ومداخله الهدامة وأذرعه الضاربة في بطون كثير من أكاديميات الفنون الطبيعية والإنسانية في العالم اليوم؛ أن يقفوا على تحرير محكم وتعريف جامع مانع للنحلة الدهرية الطبيعية أو الفلسفة الطبيعية Naturalism كما يسميها الفلاسفة المعاصرون، وعلى بيان لأصولها الكلية سواء على مستوى مصادر التلقي المعرفي Epistemological / Methodological level (أي أنواع الأدلة التي يوصل منها إلى بناء المعارف بشأن الواقع الخارجي عند الدهرية الطبيعيين، وحدودِ تلك الأدلة وأنواع الموضوعات التي تصلح لها) أو على المستوى الوجودي Ontological level في عقائدهم (أي تصورِ الواقعِ كما هو بالخارج لديهم والحكمِ على ما فيه من الموجودات بالإثبات أو النفي).

والدهرية على اصطلاح علمائنا -رحمهم الله تعالى- هم تلك الطوائف التي أنكرت المعادَ، ونسبت أفعال الربوبية للدهر من دون الله، سواءٌ كانوا يرون أنه لا موجود في الخارج إلا الدهرُ والمادةُ (العالمُ نفسه) أم أثبتوا للعالمِ مع ذلك ربًّا خالقًا. ومن هؤلاء طوائف من كفار قريش، وهم الذين قال الله في الرد والتشنيع عليهم: ((وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)) [الجاثية : 24]، ومنهم كثير من فلاسفة اليونان الذين قالوا بقدم العالمِ ونفوا البعث والنشور، وأثبتوا ربًّا لم يزد عندهم على أن يكون هو المحركَ الغيبي القديم أو العقلَ الأولَ الفعالَ لآلة هذا العالم القديم بحسب نظرياتهم الطبيعية الميتافزيقية، وتابعهم على القول بقدم العالم ابن سينا والفارابي وابن رشد وغيرهم!

فكل دهري هو طبيعي من حيثُ كونُه ينسب للطبيعة صفاتِ الربوبيةِ، كلّها أو بعضَها، وكل دهري أو ملحد هو مشركٌ بالضرورة للسبب نفسه كما سيأتي! وهم إن أثبتوا في الخارج ربًّا صانعًا؛ فلن يجعلوه إلا حالًا في ذلك العالمِ مركبًا فيه بصورة ما أو بأخرى، أو موصوفا بكونه والعالمِ شيئًا واحدًا على طريقة أهل الاتحاد، أو بكونه قوةً صانعة لا إرادة لها ولا عِلم ولا حياة، على طريقة الربوبيين؛ لأنهم بالجملة لا يثبتون من الموجودات إلا ما كان جاريًا على أقيستهم في تصور كيفية العالم ونظامه ونشأته كما سيأتي! ذلك أنهم لا يقال في تعريفهم على اختلاف التفصيل في نحلهم وفلسفاتهم شيءٌ أجمع ولا أمنع من كونهم أولئك الذين اعتقدوا بأنه لا موجود في الأعيان بحق إلا هذه الطبيعةُ (ما في العادة البشرية وما يناظره من أنواع الموجودات)! فإن قدر لهم أن أثبتوا في الغيب ربًّا؛ فلن يجعلوه إلا معطلًا عن صفات الربوبية، مكملًا لتصورهم لنظام العالم الطبيعي أو لأصل نشأته؛ فيكون مذهبهم هو ما حررناه في التعريف آنفا سواءٌ بالتصريح أو بالاقتضاء، وسيأتي معك بيان ذلك والتمثيل عليه -بحول الله وقوته-.

ولأن الشيء بالشيء يذكر؛ فقد أبعد النجعة من قال من إخواننا المعاصرين بأن القول بنفي وجود الباري -جل وعلا- بالكلية إنما هو قول حادث شاذ لم يعرف في القرون السالفة البتة، مستدلين على ذلك بأدلة لا تنهض بالمطلوب. فيقال في جوابهم إن عدم العلم لا يعني العدمَ، والمثبتُ في ذلك عنده زيادةُ علم. فالحق أن نفي وجود الصانع لا تعرف له بداية في التاريخ المدون لفرط قدمه -على اختلاف صوره- بين أهل الملل، وإن كان القائلون به لم يزالوا شراذم صغيرة من الفلاسفة وأتباعهم في كل زمان ومكان. وقد وجد ذلك القول في ملل الهند القديمة كبعض طوائف البوذية والجانية القائلين بأن العالم كان من الأزل بلا صانع، وبأنه ليس في الوجود إلا الأجسامُ والأرواح، وأن الأرواح أزليةٌ أبدية لا تزال تتناسخُ من الأزل، وقد تترقى حتى تبلغ منازل الآلهة، ولكنها لا تنفع ولا تضر ولا يُتوجه إليها بالعبادة!

كما وجد نفيُ الباري في بعض النحل الفلسفية الدهرية اليونانية القديمة، كما كان مذهب ثيودورس القوريني أو القورينائي Theodorus of Cyrene (نسبة إلى إحدى المدن الليبية حيث ولد) الذي ألف كتابًا في القرن الرابع قبل الميلاد سماه "حول الآلهة" نفى فيه وجودَ الصانع واستهزأ بآلهة اليونان وطورد من أجل ذلك. وقد كان أولَ من سماه الفلاسفة القدماء بلفظة Ho Atheos اليونانية التي تترجم إلى Atheist الانكليزية بمعنى الذي لا إله له! وقد تابعه أبيقور على دهريته الطبيعية إجمالًا، وكان مقلدًا للوسيبوس وديموقريتوس في نظريتهما الذرية المادية التي حولت الواقعَ كله والوجودَ كله إلى ذرات متناهية الدقة تتكون منها الصور والأجسام والحركات، بما في

ذلك الآلهةُ نفسُها! فلم يجرؤ على التصريح بنفي الصانع، ولكنه هو حقيقة قوله ومآله، مع كونه قد صرح بنفي تدخل الآلهة في شؤون العالم بالكلية. كما وجد من الفلاسفة الشرقيين (كالهنود والصينيين) والغربيين في القرون التالية من يصرح بنفي الصانع أو يشكك فيه ويجمع لنفسه على ذلك من الأتباع ما يجمع. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في غير موضع من مصنفاته أن الأصل فيمن يقولون بقدم العالم أنهم ينكرون الصانعَ، كقوله في مجموع الفتاوى (المجلد الخامس ص: 540): "والمشهور عن القائلين بقدم العالم أنه لا صانع له، فينكرون الصانع -جل جلالُه-." اهـ.

وعلى أي حال فالأمر الذي يجب أن يدركَه القارئ الكريم وينتبَه إليه ابتداء؛ هو أن الإلحاد (على المعنى الذي شاع استعماله بين الناس في بلادنا اليوم) لم يكن في يوم من الأيام نفيًا مجردًا عن الإثبات، كما يزعمه دعاة "الإلحاد الجديد" Neo-Atheism في أوروبا وأمريكا (أمثال الهالك كريستوفر هيتشنز وغيره)، ومن لف لفهم وتشرب ببضاعتهم من أذنابهم في بلاد المسلمين! وإنما سمي إلحادًا (على المعنى اللغوي) لأنه انحراف عن التوحيد الذي فطر الله الناس عليه، إلى شرك الدهرية على صورة من صوره! فالحق الذي لا محيد عنه هو أن الدهرية دين كامل الأركان؛ فإنه لا يتصور فيمن ينفي ما ينفيه الملحد من أمر الغيب ألا يثبت في محله اعتقادًا ميتافزيقيًّا معينًا، يقطع به قطع المخالف في نفس الأمر، مهما زعم لنفسه أنه متوقف أو غير جازم أو لم يبلغ منزلة القطع بما يزعمه من اعتقاد بشأن الغيب!

فالذي ينفي وجود الباري -جل وعلا- يدري أنه ينفي بذلك علة العلل وسبب الأسباب كلها؛ فلا يصح له ولا يمكن أن يقبل الناسُ منه الزعم المطلق بأن هذا العالمَ وجميعَ ما فيه من الأحداث لا سبب له فيما وراءَ ما هو حاضرٌ منه الآن تحت حسنا وتجربتنا المباشرة! ثم إن السببية خلفَ هذا العالمِ العظيمِ ليست مجردَ سببيةٍ تكوينيةٍ (أي تعليلِ وجوده وحسبُ)، فإنه لا يخفى حتى على الصبيةِ الصغارِ أن العالمَ يجري على نظام محكمٍ تامِّ الإحكام، وأنه لولا هذا الإحكامُ الجلي البينُ ما عرفنا نحن عدد السنين والحسابَ والمواقيتَ والهندسةَ وغيرَ ذلك من علوم تطبيقية نستعملها ما وسعنا في ضبط كل ما هو منضبط من أنواع الصنائع التي سُخرت لنا أسبابها!

فمن الواضح أنه لولا هذا الإحكام والانضباط الصارم في نظام العالم؛ ما أصبح لدينا مفهوم لما نسميه بالوحدة القياسية للمقادير Standard Unit، وهو ذلك المفهوم الذي به يصبح "المتر الطولي" (مثلًا) وحدة ثابتة المقدار لقياس الأطوال، يمكن للبشر أن يتفقوا على استعمالها مرارًا وتكرارًا لتحصيل منافعهم على اختلافها، دون خوف من أن تتغير قيمتها عشوائيًّا بين

عشية وضحاها! ومن الواضح كذلك أنه لولا هذا الإحكام والانضباط في العالم نفسه ما أصبح لدينا مفهوم للقياس الجيومتري ولا تصور تجريدي للمقاديرِ المتصلة على اختلاف أنواعها؛ إذ نتوقع في كل مرة نفكك بنية تلك الأشكالَ التجريدية، أن نراها تتركب من نفس الوحدات القياسية المنفصلة ومن نفس العلاقات المطردة بين تلك الوحدات في كل مرة! فمجردُ حقيقةِ أننا نقدر على اكتساب العلم التجريدي بما في العالمِ من أنواع المعلومات، وعلى استعمال أسبابه استعمالًا مثمرًا يرجى نفعه في كل مرة؛ هذه تصرخ في وجه كل ملحد (كما تصرخ في وجهه كل آية جلية من آيات ربه في نفسه وفي الآفاق) ببداهة وضرورة أن يكون للعالم خالقٍ حكيم عليم يضع الشيء في موضعه، لولا هو ما علمنا ولا فهمنا ولا وجدنا أصلًا!

فإذا كذب الرجل بباريه وصانعه ومالك أمره بالغيب، الذي بيده مقاليد كل شيء، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ويقدره تقديرًا؛ فلابد ولا مفر له -إذن- من أن يثبت في محله ربًّا مخلوقًا في هذا العالم المحسوس، ينزل عليه صفاتِ الربوبيةِ وينسبُ إليه أفعالَ الرب وتدابيره مما لا يُنسب عند العقلاء الأسوياء إلا إلى رب العالمين -جل شأنه-! ثم إنه كذلك لابد له من اتخاذ إله من دون الله لا يحل إلا حلاله ولا يحرم إلا حرامه، يجعلُ سلطانه في الحكم والتشريع هو السلطانَ الأعلى الذي لا يعلوه سلطانٌ ولا تجوز معارضته، ويجب على الجميع أن يذعنوا له إذعانًا! فإنه لا ينفك المجتمع البشري عن الافتقار إلى مرجعية أخلاقية وتشريعية يتفقون عليها وعلى ما تحققه لهم من مفهوم العدالة وما تقرره لهم من حقوق وواجبات على مستوى الفرد والجماعة. والملحد الدهري ما ألحد ولا أعرض عن الدين إلا لكراهيته ما جاء به المرسلون أو من ينسبون أنفسهم إلى المرسلين من رب العالمين، من تشريع وأمر ونهي وتكليف، ومن نظام يلزمه بأن يكون عبدًا تام الخضوع للرب بالغيب، تابعًا تام الانقياد لرسوله! فهم يكرهون -من كبر نفوسهم ومرضها- مبدأ العبوديةِ والاتباعِ وأن يؤمروا بما يثقل على نفوسهم الخبيثةِ الإتيان به، وأن ينهوا عما تشتهيه تلك النفوس! فإذا كان ذلك كذلك، لزم أن يكون الملحدُ معرضا -لا محالة- عن ذلك التشريع السماوي، متبعًا في محله هواه هو وأمثالِه، متخذين من أهوائهم الجماعيةِ إلهًا يحل لهم الحلال ويحرم الحرام! وهو ما وضع له الأكاديميون القدماء من فلاسفة اليونان نظرية سياسية سموها بالديموقراطية، خلاصتها أنه لا سيادة لقانون ما أو لتشريع ما على مجتمعنا نحن البشر؛ إلا أن يكون قانونًا قد اتفقنا جميعًا على قبوله فيما بيننا، على اختلاف أدياننا وعقائدنا ومذاهبنا في الغيب وما فيه، جريًا على أهوائنا كيفما اتفقت!

فهذا هو القسم الثاني من أقسام النحلة الطبيعية المتعلقُ بالمعيار الأخلاقي والسيادةِ التشريعية الفاصلةِ في قضايا القيم والأخلاق وسياسة العامةِ وما يتعلق بها! فإذا كان الدين يتكون عند سائر الأمم من شقين كليين: الشق المتعلق بالاعتقاد الغيبي (الشق العلمي)، والشق المتعلقِ بالعمل التعبدي والسلوكي والأخلاقي (الشق العملي)؛ فسنبين -بحول الله وقوته- في هذا المبحث كيف أن النحلةَ الطبيعيةَ أو الإلحادَ الأكاديميَّ قد استوعب هذين الشقين واستوافهما تمامَ الاستيفاءِ؛ فلا ينفي عنه اسمَ الدينِ Religion أو الملةِ المتكاملةِ Doctrine إلا مكابر مماحك!

والقصد أنه مهما زعم الملحد أنه لا دين له ولا يدخل اعتقاده وعمله في معنى الدين لأنه ينفي ما يثبته أهل الملل الأخرى في الغيب؛ فهو مكابر كذاب! فحتى وإن سلمنا تنزلًا بأنهم يعتقدون نفي الغيب ولا يثبتون شيئًا في محل ما نفوه على الإطلاق؛ فإن هذا لا ينفي عنهم اسم الدين مبدئيا!

ذلك أن الدين الحق هو العلم برب العالمين وبمراده من عباده المكلفين، بما يشمله ذلك من وعد ووعيد وما يتعلق به من خبر الغيب الذي يحصل به ذلك المراد، ولا يوصل لذلك إلا بالسماع من رسول من رسل الله -جل وعلا-. والدين الباطل، في المقابل، هو كل ما اتخذه الناس لأنفسهم من اعتقاد أو عمل يخالف ذلك، يخترعونه اختراعًا ثم يورثونه أبناءهم من بعدهم. فمن جاء بزعم ما بشأن الغيب يتخذه اعتقادًا في صفة رب العالمين إثباتًا أو نفيًا، أو في مراده من عباده، أو في أمر الغيب والمصير بعد الموت، بغير سلطان من الله على رسول من رسله؛ فقد جاء بدين باطل قطعًا، وهو على ملة مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان، سواء اعترف هو بأن ما هو عليه دين أو من الدين، أو من جنس مسائل الدين، أم لم يره كذلك! فإنما العبرة عند العقلاء بالحقائق لا بالأسماء!

فالدين الحق هو كل ما أنزله رب العالمين على رسول من المرسلين، سواء كان موضوعه خبر الغيب (أبواب العلم) أو التكليف والأمر والنهي (أبواب العمل). فكل ما جاء به الناس مما يخالف ذلك في نفس موضوعه فهو دين قطعًا، وهو دين باطل مبتدع مردود على أصحابه يوم القيامة، وكل ما يتخذونه مصدرًا لتلقي ذلك المذهب المخالف فهو مصدر من مصادر تلقي الدين عند أصحابه بالضرورة، وهو مصدر مردود على أصحابه بالضرورة، ولا يجوز الأخذ عنه في موضوع الدين. ولا شك في أن موضوع الرسالة الإلهية قد استوعب بطبيعة الحال كافة الأسئلة الكبرى التي يتنازعها الفلاسفة بشأن الوجود الإنساني؛ لأنه بجوابها تحصل الهداية للناس، والهداية هي مقصود الرسالة!

فإذا كان ذلك كذلك؛ فكل ما يعتقده الإنسان فيما يتعلق بسبب وجوده في هذا العالم (مسألة الأصل والمنشأ) وبسبب الموت وحقيقة المآل الذي يصير إليه بعد موته (مسألة المآل والمصير)، وما يقتضيه ذلك الاعتقاد الغيبي من عمل وسلوك يستغرق عمره بأكمله مهما طال به (لأنه لا يدري متى يموت)، ويحدد له هويته ومعنى حياته بأسرها، مع ما يعتنقه من منهج معرفي يشكل مصادر التلقي عنده لذلك كله (أنواع الأدلة التي يقيم عليها معرفته في العلوم ذات الصلة)؛ فهو دينه الذي يدين به. وإذن فمن الواضح أن كل من بدع للناس جوابًا عن تلك الأسئلة من كيسه، سواء كان في ذلك الجواب إثبات لرب خالق يرزق ويحيي ويميت ويبعث ويحاسب في يوم المعاد، أو كان فيه نفي لجميع ذلك؛ فقد قدم لهم ما يدينون به حتى الممات؛ إذ يجعلونه هو معنى حياتهم وسببها والغرض منها من أولها إلى آخرها، يعتنقونه مد عمرهم في محل ما جاء به المرسلون!

وقد سميت الفلسفة الطبيعية أو النحلة الطبيعية "بالإلحاد الأكاديمي"؛ لأنه لا عبرة في معرفة دين من الأديان بما يقوله العامة من أهل ذلك الدين، وإنما العبرة فيه بالنظر في كلام كبرائه وعلمائه ومنظريه، فهم الأئمة المتبوعون وغيرهم تبع لهم! والشأن في هذه النحلة محل هذا البحث أنها لم تنشأ في الأصل نشأة الديانة النظامية التي يتخذ أصحابها لأنفسهم مؤسسة للعبادة تقام فيها شعائر تعبدية ثابتة يرجع فيها إلى نصوص منسوبة إلى رب العالمين أو إلى من يقيمونه مقامه، أو يرجع فيها إلى تراث شفهي تناقلته أجيال من رؤوس الملة المرجوع إليهم في معرفتها! فهي ملة لا يُتخذ فيها إله معين متفق على تسميته إلهًا، يُلتمس رضاه ويتجنب سخطه من طريق أعمال مخصوصة ينسب إليه الرضا بها وقبولها من أهل الملة، كما هو الشأن في غيرها من الملل! ولهذا قلّ من يعدها من جملة الأديان والملل، وهو ما يلبس أمرها على كثير من الناس!

ولكنهم في الحقيقة طائفة تتخذ من العالم المحسوس نفسه أو الطبيعة نفسها ربًّا، فهي عندهم الفاعل والصانع والمدبر، الذي أسْقِطت عليه أكثر صفات الربوبية كما تقدم، وقانونها هو الذي أحدثها وأحدثهم وأحدث كل حادث! ومن ثم تراهم يتألهون أنفسهم ومن يقومون على دراسة الطبيعة وقانونها وعلى إفادتهم بما ينفعهم من أسبابها التي يطمعون منها فيما لا يطلبه أهل الملل الأخرى إلا من إلههم المعبود، ولا يقدر عليها على التحقيق إلا رب العالمين وحده لا شريك له! فأصحاب "العلم الطبيعي" يكونون -إذن - هم الواسطة بين أحدهم وبين ربه (الطبيعة)، فلا يرجو الملحد الشفاء إلا من أحدهم، ولا يرجو النجاة مما ينزل به من كوارث ينسبونها إلى الطبيعة نسبة الفعل والتعليل التام (يقولون كوارث طبيعية وغضب الطبيعة.. إلخ) إلا

بما عندهم من علوم ومعارف! ولهذا تصبح أكاديميات الطبيعيين ومعاملهم التي تجري فيها دراسة الطبيعة وبحث أسبابها، بمنزلة المعابد عند أهل الملل الأخرى، ويصبح "العلم الطبيعي" هو أشرف العلوم وأعلاها وأعظمها، بل لا علم غيره! ويصبح هو منتهى المحبة والرجاء والقصد والإنابة والتوكل وغير ذلك من أنواع الأعمال القلبية التي لا تكون من العقلاء إلا لرب العالمين وحده لا شريك له! فالباحث الطبيعي عند الملاحدة هو الكاهن الذي يرجى منه ما يرجوه المشرك الوثني من كهنة معبده!

ولهذا سميتهم في مقال قديم "بكهنة المعاطف البيضاء"؛ لاشتهار المعطف الأبيض لباسا موحدا في معامل التجريبيين. ولست غير مسبوق على أي حال، في إنزالي تلك المعامل منزلة المعابد الدينية عند الطبيعيين؛ فقد سبق من بعض الفيزيائيين (كفيكتور فيسكوف مثلًا) تسمية مصادم الهادرونات الكبير في أوروبا Large Hadron Colliderبـ"كاتدرائية القرن العشرين"! قال الفيزيائي الأمريكي "لورانس كراوس" (وهو من رؤوس الدعوة لملة الإلحاد الجديد في أمريكا) في مقال له بعنوان "تستحق كل مليم" Worth Every Penny (وهو مقال مكتوب لدعوة جماهير االناس لقبول إنفاق الحكومات بلايين الدولارات سنويًّا على إنشاء وتشغيل تلك المصادمات)[4]: "لقد كانت الكاتدرائيات تصمَّم (فيما مضى) لتعظيم مجد الإله، وهو ما تظهر ثمرته عبر الروح البشرية في الكلمات والموسيقي والفنون. (واليوم) صُمم المصادم الهادروني الكبير لتعظيم وإبراز مجد العالم الطبيعي Natural World وقدرتنا المذهلة على فهمه، وهو ما يظهر من خلال العلم التجريبي." اهـ. كما نشر الرجل مقالًا في دورية New Scientist العلمية (العدد 199، سبتمبر 2008) في نفس الموضوع ترجم له بالعنوان: In Praise of the LHC "في حمد المصادم الهادروني العظيم"!

بل لقد شبه الفيلسوف الدهري الداروويني البريطاني مايكل رُوز M. Ruse في مقال له بعنوان Is Darwinism a Religion? "هل الداروينية دين؟" [5] متاحف التاريخ الطبيعي Natural History Museums بالمعابد الدينية الطبيعية، وقرر أن صاحب فكرة ما يسمى بمتحف التاريخ الطبيعي، ومؤسس أول متحف للتاريخ الطبيعي (وهو توماس هنري هاكسلي، من تلامذة داروين ومن أهم الدعاة إلى نحلته في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي) ما أسس تلك المتاحف إلا لتكون بمنزلة المعبد الديني للطبيعيين! قلت: ولا عجب؛ فالمتحف المذكور يلبس زائره بتجربة دينية أو شبه دينية على التحقيق؛ إذ يعرضه لميثولوجيا النحلة الطبيعية المعاصرة فيما يتعلق بأصل الأنواع الحية على الأرض، ونشوء كافة الأنواع الحية بعضها من بعض،

يظهر له تلك الأسطورة الأكثر تعقيدًا وضخامة في تاريخ الأساطير الغيبية على الإطلاق، على مظهر يحببه فيها ويرغبه في اعتناقها كما تعتنق العقيدة الدينية، ويشبعه بالشغف والحرص على الغوص فيها والتنقير في تفصيلاتها! فهي من هذا الوجه "تجربة دينية" ولا شك، وهي معبد ديني بشهادة من يعد من فلاسفة الدهرية الطبيعيين لا بشهادتنا نحن! فإذا وصفتهم أنا بـ"كهنة المعاطف البيضاء"؛ فليس لهم أن يعترضوا علي بشيء!

وقد سبق أن علقت في غيرما موضع (كما في كتاب "آلة الموحدين" وغيره) على مسألة الإنفاق الفاحش الذي تستدعيه كثير من موضوعات البحث التجريبي عند الطبيعيين الغربيين، المتجهة في كثير منها إلى غيرما غاية تطبيقية ينتفع بها الناس، وإنما تتجه إلى تحقيق مقصود اعتقادي ميتافزيقي محض عند الفيلسوف الدهري، كان هو السبب الأول في حرصه على توسعة بنائه الميثولوجي الطبيعي Naturalistic Mythology الذي يزعم أن فيه شفاء ما في صدور بني آدم من أسئلة كبرى بشأن أصل العالم وما كان قبله وما يكون بعده والغاية من وجودنا فيه (كأسطورة أصل الأنواع هذه التي يقال لها "التاريخ الطبيعي" Natural History)! ولا يخفى على قارئ هذا المقال المحال عليه آنفًا للورانس كراوس أنه في الحقيقة مكتوب كدفاع لالاهوتي أو إلحادي Atheological Apologetic؛ إذ ينتصر كاتبه للغرض الميتافزيقي الاعتقادي الذي يسوغ له ولأقرانه من أهل ملته أن يمتصوا دماء "دافعي الضرائب" وأموالهم في تلك النفقات الباهظة الفاحشة على كل شطحة من شطحاتهم في التنظير الفيزيائي والكوزمولوجي (الذي هو في واقع الأمر تنظير ميتافزيقي محض)!

تأمل -على سبيل المثال- قول كراوس في المقال المذكور: "عادةً ما يُحتفى بالعلم (يعني الطبيعي) على أنه مصدر التكنولوجيا ... ولكن القيمة العظمى لأمثال تلك الأبحاث العلمية قد لا تكون تكنولوجية، وإنما ثقافية. فالعلم (الطبيعي) كالفنون العظيمة والموسيقى والأدب؛ تحدُونا إلى أن نعيد النظر في موقعنا من هذا الكون، وعلى أن نطرح الأسئلة: من أين جئنا وإلى أين نحن ماضون. فلو أننا رمينا تلك الأسئلة وراء ظهورنا فإننا بذلك نسقط ميراثنا الثقافي. فعلينا إذن أن نحرص على مواصلة استكشافاتنا للكون بوصفها واجبًا ثقافيًّا." اهـ.

قلت: لا يخفى ما في التعبير بلفظة "ثقافي" cultural في هذا النقل من تلبيس وتعمية؛ فلو صدق هذا الرجل لقال "دينية " أو "اعتقادية" في محل "ثقافية"، ولقال "واجبًا دينيًّا" في محل "واجبًا ثقافيًّا"! فإن عموم البشر لا يطرحون تلك الأسئلة التي أشار إليها من باب "التثقف" أو المعرفة العامة، وإنما هي عند كل عاقل من بني آدم أسئلة كبرى تتوقف على أجوبتها هويته

ودينه واعتقاده العميق، أصولًا وفروعًا بداية من مصادر التلقي نفسها، والغاية العليا التي تسوغ له منظومته القيمية بأسرها، فمنها يستمد القيمة المعيارية والأخلاقية لكل فعل أو ترك يتلبس به إلى أن يفارق هذا العالم، وهذا ما يشعرهم بضرورة البحث عن جوابها؛ أنها يترتب عليها معرفة ما يدين به المرء ويعقد عليه قلبه ويُقرر به مصيره الأبدي! فحقيقة هذا الكلام إنما هي تقرير أن استكشاف الكون بالطريقة التجريبية Scientific Method هو واجب ديني إيماني؛ لأنه يلتمس منه تحصيل الجواب عن تلك الأسئلة الكبرى التي طالما زعم أهل الأديان الكتابية اختصاصهم بجوابها!

قال "كراوس" عقب هذا الكلام: "عندما استُدعي روبرت ويلسون - وهو أول مدير لمعمل فيرمي الوطني للتعجيل الجزيئي على مقربة من شيكاغو - للاستجواب أمام لجنة من لجان البرلمان الأمريكي ليقدم تسويغه للكلفة الباهظة التي تكلفها ذلك المعجِّل؛ طرح عليه السؤال عما إذا كان ذلك المعجل سينفع في أغراض الدفاع عن البلاد. فأجاب قائلًا: ليس له علاقة بالدفاع عن الدولة بشكل مباشر؛ إلا أنه يجعلها تستحق الدفاع عنها"! اهـ. قلت: فهذا جواب رجل صاحب اعتقاد ديني (نوعًا) كما لا يخفى! فإذا كان هذا الإنفاق الفاحش هو ما من شأنه أن يجعل البلاد "تستحق" الدفاع عنها عسكريًّا، وإن لم يظهر للناس فيه نفع مادي يلمسونه بصورة مباشرة في حياتهم اليومية؛ فلابد أن قيمته قيمة دينية اعتقادية وليست نفعية تطبيقية! وإلا فكيف وعلى أي أساس – إذن - يرون وجوب الدفاع عن ذلك البلد الذي فيه هذا الشيء لمجرد أنه فيه، مع أنهم لا يعرفون له نفعًا ماديًّا يظهر في حياتهم اليومية؟؟

فالمصيبة التي يجب أن ينتبه إليها المسلمون في هذا الزمان ليست في تلبس الاعتقاد الديني والنص الشرعي بلبوس العلم التجريبي المعاصر وحسب؛ ولكن في دخول الاعتقاد الديني الطبيعي الدهري (وهو اعتقاد ديني محض وإن رغمت أنوف أصحابه) على عامة الناس من مدخل العلم الحديث المحقق الذي به تحصل الحضارة والرقي وكذا، مع أنه ليس إلا اعتقادًا دينيًّا باطلًا يورث أصحابه الضلالة ويحول بينهم وبين الإيمان بخبر الغيب في دينهم، فيقذف بهم في هوة سحيقة لا خروج منها إلا على أيدي ملائكة العذاب، من غير أن يشعروا أنه هو ما أرداهم وأهلكهم. نسأل الله السلامة!

والذي يتأمل ويتدبر في هذا العدوان الخطير للطبيعيين على قضايا الغيب وفي الخطوات والدركات التي تدركوا عليها حتى أسسوا لأنفسهم ملة كاملة الأركان، متخذين من أدوات النظر في النجوم وفي الطبيعة بعامة طريقًا إليها ومصدرًا لتلقي الاعتقاد فيها، يوهمون به الجهلاء وضعاف العقول

أنهم بذلك على شيء وعلى علم رفيع الشأن عظيم القيمة، لا يطمع أهل الملل الأخرى في مضاهاته من حيث القيمة المعرفية وقوة الثبوت (زعموا)؛ من تأمل في ذلك فإنه يدرك رحمة الله -جل وعلا- بالمسلمين إذ أوحى إلى رسولهم -صلى الله عليه وسلم- ما هدى به سلفنا الصالح للإجماع على المنع من التنطع بالنظر والتعمق فيه على وجه العموم، ومن التعمق في النظر في النجوم على وجه الخصوص! فعن ابن مسعود -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا". رواه الطبراني في الكبير وصححه الألباني في الصحيحة (34).

فكما كان من أصول أهل السنة الإمساك عما شجر بين الصحابة -رضي الله عنهم-، والإمساك عن الخوض في القدر وإعمال النظر فيه؛ فكذلك من أصول أهل السنة الإمساك عن النجوم وترك التوسع بالنظر فيها. قال الإمام البربهاري -رحمه الله تعالى- في "شرح السنة": "وأقِلَّ من النظر في النجوم، إلا ما تستعين به على مواقيت الصلاة، والهَ عما سوى ذلك؛ فإنه يدعو إلى الزندقة" اهـ. أي اقتصر من البحث في النجوم ودراستها والنظر فيها على ما تحصل لك به المنفعة الدينية والدنيوية الصحيحة، المعلومة بقطع ويقين، كالاستدلال على المواقيت والجهات والاهتداء بها في البحار ونحو ذلك! أما التخوض بالنظر والبحث فيها لأيما غرض وراء ذلك فهو مما أمرنا بالإمساك عنه لحكمة عظيمة؛ لأنه يفتح الباب لما لا تحمد عقباه من الرجم بالغيب والقول في أمر السماء وفيما وراء القدر المنظور منها بغير علم، وهو ما يجر صاحبه إلى الزندقة بل وقد يصل به إلى الإلحاد والتكذيب بأصل الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله! قال قتادة: "خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يقتدى بها؛ فمن طلب فيها غير ذلك فقد ضل وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به." قلت: وهذا ما نراه الآن عند هؤلاء تحقيقًا!

فلا شك أنه ليس مما يطلب بالنظر في النجوم؛ العلم بما هو غيب محض من مستقبل حوادث الأرض من طريقها، كما عند المنجمين ومن شاكلهم! وليس مما يطلب بالنظر في النجوم العلم بالكيفية التي خلقت بها تلك النجوم وخلقت بها السماوات والأرض في محض الغيب من الزمان الماضي! وليس مما يطلب بالنظر في النجوم العلم بما إذا كانت لم تزل تمضي مقتربة منا باطراد أو مبتعدة عنا باطراد إن قدرنا وقوع ذلك (لأنها إذن لن تظهر منها حركة في رصدنا والحالة هذه)! وليس مما يطلب بالنظر في النجوم العلم بما تتركب منه تلك النجوم نفسها وما إذا كان يدور من حولها كواكب كتلك التي تجري في سمائنا القريبة، وما إذا كان في تلك

الكواكب ما هو شبيه بالأرض وفيه ماء وفيه كذا وكذا .. إلى آخر ما ساح فيه الطبيعيون المعاصرون بأوهامهم مؤسسين القياس فوق القياس والفرض فوق الفرض؛ خدمة لأسطورتهم الدهرية العملاقة في قصة أصل العالم والكيفية التي نشأ بها، والتي بها نشأت الحياة فيه! ولكن طالما كان ذلك البحر المظلم الفسيح الذي تزدان صفحته بتلك النجوم؛ مجالًا سانحًا لكل غمر متهوك يريد أن يعتلي أكتاف الخلق بادعاء العلم بما فيه وما هو خافٍ منه عن أعين الناس. وإلى الله المشتكى![6] فإذا تدبرت فيما ذكرنا من أنواع النظر المتعمق في النجوم؛ ظهر لك بجلاء كيف يفضي النظر فيها إلى الزندقة والإلحاد!

وسبب ذلك أنه لا يملك صاحب تلك البضاعة من مستند لبنائها وتشييدها إلا القياس العريض والتوهم الفاحش، والتأويل الواسع بالهوى المحض لمشاهدات شحيحة للغاية، لا يزيد المعلوم فيها من جهة الحس على رصد مواقع تلك النجوم وشدة استضاءتها وتغير تلك الشدة إذا وقع وتحليل الموجات الضوئية والكهرومغناطيسية وغير ذلك من أنواع الأشعة الواصلة إلينا منها، لا أكثر ولا أقل[7]! فبهذه المرصودات القليلة مهما كثرت؛ شيد القوم أسطورة بل أساطير بالغة الضخامة والتفصيل والتعقيد، على أساس من ملتهم الدهرية القائلة بأنه لا موجود في الخارج إلا الطبيعة، فليس وراء العالم شيء بخلافه، وليس في الجزء المرصود من هذا العالم ما يختلف في البنية والتركيب والنشأة والنظام الحاكم عما هو واقع فيما وراء ذلك منه!

رصد أصحاب المراصد صفة معينة للطيف الضوئي للنجوم، فتأولوه وفسروه بأن قاسوه على الضوء المنبعث من الأجسام المتحركة المضيئة التي تمضي مقتربة من راصدها أو مبتعدة عنه (أو ما يسمى "بانزياح الأحمر" Redshift)! فكيف لهم الحكم بأن هذا ليس هو حال ضوئها المنبعث منها وهي ثابتة في مكانها؟ بأقيسة أخرى مشابهة لا أساس لها، بعضها فوق بعض كالهواء فوق الهواء، والله المستعان! فما الذي حملهم على ذلك القياس؟ قياس آخر متقدم عليه زعموا به أن النجوم كلها لم تزل ماضية في تباعد وانتشار مطرد، فإذا أردنا أن نتصور كيف كانت في الماضي، فلابد – بالقياس أيضا – أن تكون كلها راجعة إلى نقطة واحدة انبثق منها كل شيء، ثم أخذ في التباعد حتى بلغ ما عليه الحال اليوم! فبهذا الهذيان أصبحت لديهم "نظرية كونية" أو أنموذج كوزمولوجي Cosmological Model كما يسمونه، يصف نشأة العالم كله وجميع ما فيه، والكيفية التي خلق بها، ولا حول ولا قوة إلا بالله! وهم في ذلك كله لم يختلفوا عما صنعه الفلاسفة القدماء وما شيدوه لأنفسهم من أساطير كزمولوجية أسسوها انطلاقا من معتقدهم الدهري المخلوط بميثولوجيا الوثنيين الذين عاصروهم، إلا في

تفصيل ما أفرزته تلك الأصول الكلية عندهم من نظريات مفصلة بشأن العالم وأصله وهيئته ومجاري السببية بل والفاعلية فيه، يتأولون ما بين أيديهم من مشاهدات واهنة ضعيفة (مع كون المعاصرين قد ازداد حظهم منها على الأولين ولا شك) على أعجب ما أنت سامع من أنواع الأساطير، تحت شعار العقل والعلم والفلسفة! ولو أنهم انطلقوا من اعتقاد الموحدين في غيب السماوات والأرض وما فيهما، وفي منهجية تحصيل المعرفة بغيب السماوات وما وراءها، ما ذهبوا تلك المذاهب وما انتهوا إلى تلك الأساطير، بل ما نظروا وما قاسوا في أمر النجوم أصلا، للنهي الذي ذكرت لك، فتأمل!

ولعل القارئ الكريم الآن يسأل، هل يعني هذا أن علم الكوزمولوجيا الغربي (الكونيات) وعلم الهيئة المعاصر (الفلك) هما علمان زائفان أسطوريان، قائمان على أسس دهرية إلحادية؟ الجواب: أما علم الهيئة Astronomy فأكثره كذلك بكل أسف، وأما علم الأستروفيزياء (الفيزياء النجمية أو الفلكية) Astrophysics فمبناه على قياس حقائق وكيفيات الأجرام السماوية البعيدة على ما لا نملك مستندا لقبول قياسهم عليه من أنواع المحسوسات والنظم الطبيعية القريبة التي قاسوا عليها! فالأصل فيه بناء التخمين فوق التخمين والوهم فوق الوهم! وأما الكونيات Cosmology، فما هو إلا ميثولوجيا طبيعية محضة Naturalist Mythology، وليس من العلم في شيء البتة! وهذا واقع يجب أن يتحلى المسلمون من أهل هذا الزمان المشتغلون بالبحث الطبيعي والفلكي، بالتجرد للحق وبالشجاعة اللازمة للاعتراف به إذا ما ظهر لهم! فما كان من العلوم الطبيعية والتجريبية زائدا على قدر الحاجة العملية التطبيقية المباشرة، فالمتعين علينا معاشر المسلمين أن نهمله، وأن نرده على أصحابه، وأن نقتصر في استيراد علوم الغربيين على ما يتحقق منه النفع الظاهر للمسلمين، الذي هو نفسه – بطبيعة الحال – ما كان منه سالما من القياس المتنطع على غيب السماوات، وكان مداره على الرصد البصري المباشر، والحساب المحكم الدقيق الذي يصدقه الرصد البصري المباشر تصديقا مطابقا لا تأويل فيه، أما ما سوى ذلك فليس علما على التحقيق ولا خير فيه، بل تأسيس زندقة وضلالة، وإغراق في الوهم فوق الوهم، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فكيف اجترأنا على إطلاق هذا الحكم العام على فرع علمي كامل عند الفيزيائيين كعلم الكوزمولوجيا، له أكاديمياته ومعاهده وكلياته في كل مكان في العالم؟ من تأملنا في موضوعه ومنهجية النظر ومصادر التلقي فيه، (فيما يقال له عند الفلاسفة المعاصرين: النقد مما وراء المجال التخصصي نفسه Metadisciplinary criticism)، وهو حكم كلي على هذه الصنعة

الأكاديمية التخصصية أو تلك، ينبغي أن يكون المسلم العاقل قادرا على الوصول إليه بمجرد التأمل في تعريف القوم لموضوع ذلك العلم المزعوم!

فما هو علم الكونيات أو الكوزمولوجيا؟ هو عند أصحابه تلك الصنعة الأكاديمية المعنية بدراسة "الكون" بكليته: نشأته، وتطوره، ومصيره! هذا هو التعريف المعتمد في عامة الموسوعات والمعاجم وغيرها (وانظر الآن في تعريفه على ويكيبيديا إن شئت). فنحن نسأل عقلاء المسلمين، هل هذه المسائل المذكورة مما يصح – من الابتداء - أن يطرح بين أيدي الفلكيين والتجريبيين ونحوهم ليجيبوا عنها من طريقهم؟ خلق السماوات والأرض وما كان وما هو كائن من حال العالم بكليته منذ أن خلق، ووصلا إلى "نهايته" وتصورها وتفصيل العلم بها، هذه مسائل يصح أن تطرح لأصحاب المراصد والمعامل لبحثها؟ سبحانك ربي هذا بهتان عظيم! هذه القضايا من أعظم الغيبيات التي لم يشهدنا الله عليها ولا على نظير لها نقيسها عليه، فبأي عقل يستجيز القوم النظر فيها من طريقهم؟ لا عقل ولا علم ولا شيء، وإنما هو التسليم الدهري المحض بالطبيعية المنهجية Methodological Naturalism القائلة بأنه ليس في الوجود إلا الطبيعة، وليس في الماضي ولا في المستقبل إلا ما هو قابل للقياس على ما في الحاضر مما يقع تحت الحس، وليس في غيب المكان إلا ما يناظر ما هو واقع تحت الحس من هذا العالم!

هذا هو المبدأ الكوزمولوجي Cosmological Principle ومبدأ الثابتية أو الاستمرارية المطلقة Uniformity Principle وهما هذان المبدآن اللذان يعلم القوم أنهما لا دليل عليهما في العقل ولا في الحس، وأنهم إن لم يتخذوهما من المسلمات الكبرى فسينغلق باب الغيب في وجوههم بالكلية، وتبقى مفاتحه بأيدي أهل الأديان الأخرى، وهو أمر ما كانوا ليقبلوه بحال من الأحوال! بل يجب أن يكون أصل الكون ومآله ومصيره مما يقبل – منهجيا – أن يتلقى العلم به من طرق القياس، حتى يجلس الفيلسوف في كبره ونزقه على أريكته يتأمل ويقول: "لو كنت صانعا عالما كهذا العالم، فكيف عساي أن أصنعه؟؟" ثم يخرج على الناس بالنظريات الكونية والنماذج القياسية التي يحسب السفهاء من الناس والمفتونون منهم بجامعات القوم وأبحاثهم، أنها هي غاية ما وصل إليه "العلم الحديث" من إحاطة بالكيفية التي خُلق بها العالم (إن لم يكن على نظريتهم المعتمدة أكاديميا قديما لا ابتداء له)، والمراحل التاريخية التي مر بها، والمصير الذي ينتهي إليه لا محالة (بحسبهم)، وكأنما ينزل الكلام عليهم منزل الوحي الإلهي، ولا حول ولا قوة إلا بالله! وحسبك بما كشفته نظرية الانفجار العظيم المزعوم في قلوب كثير من المسلمين في هذا العصر من عظم تلك الفتنة، إذ توافروا عليها

وكأنها هي طوق النجاة الذي أثبت أخيرا أن العالم حادث غير مخلوق، و"أحرج" الملاحدة وغير ذلك مما توهموه في أمرها، مع أنها نظرية دهرية محضة، تقوم على أسس دهرية محضة، يلزمهم من قبولها قبول الأساس والمنهج والمسلمات الدهرية التي تقوم عليها!

يقول الفيزيائي والكوزمولوجي الأمريكي "ميتشيو كاكو" في كتاب له بعنوان "العوالم المتوازية: رحلة عبر الخلق، الأبعاد العليا، ومصير الكون" (وحسبك بعنوان الكتاب دليلا على نكارة موضوعه!!) ص. 357: "في كل مرة كان أينشتاين يصطنع نظرياته الكونية، كان دائما ما يسأل نفسه السؤال: كيف كنت أفعل لو أردت أن أصمم الكون؟ فكان أن مال إلى فكرة أنه ربما لم يكن لدى الإله خيار في المسألة أصلا." اهـ. قلت: فهذا أيها القارئ المحترم، هو بإيجاز، صنعة الكوزمولوجي عندما يجلس ليضع نظرياته بشأن الكيفية التي خلق بها الكون! يقيس ربه على نفسه، يخضعه لنفس تلك السنن والقوانين الكلية التي يرى نفسه خاضعا لها في معمله إذا ما أراد أن يصنع شيئا ما أو "يصمم شيئا ما"، ثم يقول: لو كنت خالقا عالما لخلقته على نحو كذا أو كذا، أو لم يكن أمام "الإله" من خيار حتى يخلق هذا العالم إلا أن يجعله على هذا النحو الذي هو عليه، (على اختلافهم بين من يجعله هو الكون نفسه ونظامه الحاكم، كما هي عقيدة سبينوزا التي اعتنقها أينشتاين، ومن يجعله خرافة محضة لا حقيقة ولا معنى لها على الإطلاق)!

والقصد بيان أن التعمق في مسائل البحث، والخوض الأكاديمي المتنطع عند أصحاب البحث الطبيعي، واستعمال آلة البحث التجريبي والقياس على المحسوس فيما لا يدخله القياس والتجريب أصلا من أنواع الموضوعات، يفضي بأصحابه لا محالة إلى دين غير الدين وملة غير الملة، يقاس فيها الرب على خلقه وأفعاله على أفعالهم، وينتهي المشتغلون به إلى الإلحاد والزندقة والتكذيب بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم لامحالة ولو بعد حين، نسأل الله السلامة!

فالخطر الأكبر على دين المسلمين اليوم ليس في إلحاد العامة والجهلاء، ممن لا علم لهم بغور التأسيس الفلسفي لتلك الملة الدهرية المعاصرة التي انتسبوا إليها وهم يزعمون أنهم لا ملة لهم ولا دين! وإنما الخطر كل الخطر في الطريقة التي يروج بها ذلك التأسيس الأكاديمي نفسه، وأعني به دين الطبيعيين الدهريين الذي يرجع أصله التاريخي إلى الأكاديمية اليونانية القديمة، وإلى تأسيس رؤوسها الأوائل، طاليس الملطي Thales [8] ولوسيبوس وديموقريتوس وأناغزاغوراس ومن جاؤوا بعدهم، وقد استوردناه في بلادنا بعجره وبجره، ونحن نظن أنه العلم الرصين والعقل المتين، وإلى الله المشتكى! ليس التأسيس الأكاديمي Disciplinary Foundation

مقصورا (تاريخيا وسوسيولوجيا) عند أصحابه الذين قاموا عليه على مجموع الأبحاث التي يجاب بها عن آحاد الأسئلة التي تطرح في مجال اختصاصهم، وعلى الطريقة المنهجية التي تتبع في بناء ذلك البنيان التراكمي عند أصحابه، وإنما يدخل فيه ابتداء، وعلى سبيل الأولوية، تصور هؤلاء للغاية التي من أجلها تطرح الأسئلة في ذلك المجال، ومن ثم تصورهم للمسار الذي تتوالد عليه تلك الأسئلة وحدود التوسع المقبول في ذلك التوالد، والنهاية المراد الوصول إليها ببناء المعرفة المتراكمة بين أيديهم من أثر ذلك كله! والآفة هنا، أيها القارئ المحترم، تكمن في أن المسلمين قد استوردوا ذلك كله عن تلك الأكاديمية الفلسفية الغربية العريقة، كما هو دونما تمحيص!

فالأمر الذي يجب أن يفهمه المسلمون هو أن القوم الذين أسسوا تلك الأكاديميات الطبائعية في بلاد الغرب قبل قرون بعيدة، كانوا على التحقيق مشركين في الربوبية، يتخذون من الطبيعة ربا من دون الله، إذ اعتقدوا أنه ليس وراء الطبيعة رب بالغيب يتعلل بإرادته جميع ما يجري فيها من أنواع الحوادث، وإنما تنحصر سلسلة أسباب الحوادث كلها وعللها في داخل هذا العالم من الأزل وإلى الأبد! وهم كذلك معطلة للأسماء ولأكثر الصفات مشركون في بعضها كما سيأتي، ثم إنهم مشركون – بالتبعية – في الألوهية، إذ يرجو أحدهم من الأسباب المادية ما لا يرجى إلا من رب العالمين، ويطلب من القائمين على تلك الأسباب ما لا يُطلب إلا من رب العالمين! ((قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)) [المائدة : 76] فهذا دينهم مهما زعموا أنهم لا دين لهم! فلا يقال لأحدهم آمن بالغيب وبما جاء به رسول رب العالمين إلا قال ساخرا هازئا: "أي غيب يا هؤلاء، بل أنتم قوم مغيبون! العلم الحديث لا متسع فيه لغيبكم هذا!"

ومنشأ ذلك أنه لما كان الرجل لا يقام له وزن بين صفوة أهل الصنائع والفنون الرفيعة في أمته إلا بأن يكون لديه معتقد غيبي يجيب به عن تلك الأسئلة الكبرى التي يعرف بها الإنسان مكانه من هذا العالم الفسيح، ويعرف من أين جاء وإلى أين هو ذاهب بعد الموت، لم يكن من المتصور أن يكتفي كل مجرم صاحب هوى، معترض على دين رب العالمين وعلى ما يجب عليه من اتباع رسوله، بمجرد الرفض والنفي والتكذيب بوجود الباري بالغيب، بل كان لزاما على المتنطعة المسفسطة من هؤلاء أن يأتوا بما به يسوغون لأنفسهم ولأتباعهم ما اختاروه من نفي ما في الغيب، بأن يحرروا شيئا يثبتونه في محله، ليس هذا وحسب، بل وكان ينبغي أن يكون ذلك الذي عندهم صالحا لأن يعامل معاملة العلم الرصين، الذي يستحق صاحبه أن يكون أستاذا يعلم الناس العلم وتؤخذ منه الحكمة! ولهذا لم يكن من

المتصور للملحد أن يجد لنفسه منزلا بين العقلاء إن هو اكتفى بالنفي (أي نفي المربوبية والمخلوقية) دون إثبات البديل، ليس هذا وحسب، بل والسعي الحثيث في تزيين ذلك البديل وإقناع نفسه وغيره بأنه هو الحق وبأنه أجدر بالقبول من دعوى مخلوقية العالم وخضوعه لرب قيوم يدبر أمره آناء الليل وأطراف النهار! ذلك أن الإنسان عبد مهما ساد وعلا، مخضع رقبته لمعبود ينتقيه لنفسه لا محالة مهما زعم البراءة من ذلك! ولهذا لم يعرف التاريخ ملحدا نافيا لوجود الباري إلا وهو بالضرورة دهري، يثبت الدهر في محل ما ينفى، كما وصف الرب جل شأنه اعتقادهم بقوله: ((وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)) [الجاثية : 24] فإنه لا يحيى الإنسان إذا ولد إلا بفعل رب يحييه ويقيمه، ولو شاء ما أحياه ولا أوجده ولا أبقاه حيا، ولا يموت إذا مات إلا بفعل رب يميته ويهلكه، ولو شاء ما أماته وما أهلكه، فهو مربوب لا محالة، رضي بذلك أم لم يرض! فإن أبى الإنسان إلا أن يماري ويكابر وينفي كون القائم بذلك كله هو رب العالمين بالغيب سبحانه لا شريك له، كان لزاما أن يجعله أحدا ما أو شيئا ما من دون الله! فما كان لهم من بد من أن يأتوا بالوهم والخرافة (الظن) حتى يوهموا أنفسهم ويوهموا من يتبعهم من الأذناب بأنهم على شيء، وإلا فقد علموا أن الذي ينفونه ليس بالشيء الهين، وأنه ليس نفيه بالموقف الذي يترك الإنسان سالما من التهمة في عقله ونيته!

والحق أن المسألة أعمق من هذا عند التدبر، ومن أنعم التأمل فيها، وقف على أصل الآفة والمرض الذي أحدثته الأكاديمية اليونانية القديمة في عقول البشر. فإننا نقول إن جميع مصادر تلقي المعرفة عند الإنسان، أي أسباب حصول كل ما يستسيغ الناس تسميته بالمعرفة المكتسبة، وكذا الإقرار بالمعارف الفطرية غير المكتسبة، هذه تقوم قياما أساسيا على جملة من المسلمات الوجودية (أي الدعاوى المعرفية بشأن ما هو موجود في الأعيان) التي يجب أن يبدأ منها العقل وينطلق منها في اكتساب المعارف المكتسبة بشأن الواقع الخارجي، أيا ما كان مجالها وموضوعها. أي أن الإنسان يبدأ أولا بالضرورة باستصحاب مسلمات وجودية أولية، سواء حرر القول بها وصرح بها لنفسه أو لغيره أو لم يتكلف ذلك، وبناء على تلك المسلمات، يقرر ما هو صالح لأن يكون مصدرا للمعرفة المكتسبة بشأن العالم وما فيه، في هذا العلم أو ذاك، وما لا يصلح لأن يكون كذلك، ويفرق، فوق ذلك، بين ما هو مقبول معتبر من فنون البحث والنظر والاستدلال في الإثبات والنفي الوجوديين وما ليس بمقبول ولا معتبر.

فأما الإنسان العاقل السوي، سالم النفس من الأهواء الحاملة على السفسطة والتنطع على البديهيات رجاء مغالبتها ورجاء الفرار من مقتضيات

التسليم للرسل برسالاتهم وسيادتهم الواجبة على أمم البشر، وأحقيتهم في أن يكونوا هم المتبوعين وغيرهم تابع لهم، من كان من البشر سالما من تلك الأهواء، فهو مقر ومعترف بما جبله الله عليه من فطرة وبداهة تحمله على إثبات الباري جل وعلا بالغيب، وعلى إثبات علوه على العالم وبينونته منه، وإثبات أن للعالم نهاية ما، ينتهي عندها في المكان والزمان، وإثبات مخلوقيته ومربوبيته وقيام الرب جل وعلا به، وإثبات تقديره سبحانه لجميع أمر العالم وتدبيره لجميع ما فيه، وتسييره إياه على سنن سببية لا تتبدل إلا بأمره ولا تنخرم إلا بمشيئته جل شأنه، وإثبات كمال صفة الرب جل وعلا كمالا واجبا لا نقص فيه بحال، واستحقاقه لكافة المحامد سبحانه، واستحقاقه لأن يحمد ويعبد وحده لا شريك له. هذه المعاني كلها مركوز في فطرة الإنسان التسليم بها، دونما حاجة إلى تصريح أو تقرير أو تحرير أو عبارة عنها، فضلا عن النظر والاستدلال لإثباتها. فليست هي عند عقلاء البشر دعاوى نظرية تفتقر إلى إثبات أو استدلال. وهي كما ترى دعاوى وجودية (أنطولوجية) تصف حقائق بشأن الواقع الخارجي، لا قيام للعقل عند البشر إلا بها! فبناء عليها، يقبل الإنسان العاقل (السالمة نفسه من الأهواء الصارفة عن قبول الحق) دعوى الرسول أنه مرسل من رب العالمين، قبولا فطريا بديهيا اضطراريا لا يماري فيه طرفة عين. إذ يصبح ظاهرا جليا مطابقة دعوته لما في الفطرة، يؤيده الله بذلك وبغيره من الآيات التي على مثلها آمن الناس، فلا يرتاب في صحة رسالته ونبوته ولا يتأخر عن قبولها والانقياد لها قيد أنملة! وإذن يصبح السمع من ذلك الرسول والتلقي عنه هو مصدر المعرفة الوحيد المعتبر في عقله بتفصيل ما في الغيب، إثباتا ونفيا (أي فيما يجاوز ذلك القدر الذي يجده العقلاء مركبا في فطرهم ابتداء)، فلا يتطرق عقله لاستجلاء شيء من أمر الغيب المحض استقلالا بالنظر، لأنه يقطع بالبداهة وبما يجد عليه دين رب العالمين وطريقة المرسلين وأتباعهم أجمعين، بأن ما في الغيب المحض لا يعرف من طريق القياس على ما في الشاهد لعظيم التفاوت بينهما، ولأن تكلف القياس هنالك لا يكون إلا رجما بالغيب ورميا في عماية، وتحكما بالهوى لا يرجحه على نظيره من نوعه مرجح ما ولا ينهض به في تلك البابة مستند ذو بال! خلافا لما في الشاهد من أمور قد تحصّل لدى ذلك العاقل الموحد العلم البدهي الفطري والسمعي النقلي بأن لها نظاما ربانيا تجري عليه، وبأن لها طبائع وأسبابا إذا تتبع مجاري العادة فيها، أمكنه بإذن الله تعالى أن يستجليها ويستكشف منها بقدر ما يؤتيه الله إياه من ذلك ويمكنه منه بفضله ومنته سبحانه! فيقوم مبدأ الاستقراء نفسه لديه (وهو مصدر لتلقي المعرفة بنظام العالم ونواميسه السببية) على تلك المقدمات الوجودية الفطرية البدهية نفسها، وعلى ما يأتي به الدين من تثبيت لها. فإذا جاء السمع بشيء من أمر العالم المشاهد علم بالضرورة أنه لا يأتي إلا بما لابدِ أن تطابقه المشاهدة، وإذا

جاء بخبر عن الغيب وما فيه، علم بالضرورة أنه لا يأتي إلا بالحق الذي لا يوصل إليه إلا من طريقه، وإذا سعى هو في استعمال عقله في الأقيسة التجريبية الجارية على الاستقراء وطرائقه والافتراض التفسيري القياسي وأساليبه، تأسس ذلك كله لديه على تلك المقدمات والمسلمات الوجودية لا على غيرها.

وأما الفيلسوف اليوناني، فلأنه كره وأبى – استكبارا من نفسه – أن يكون تابعا لغيره في أمر الدين والحكمة، وأحب أن يكون سيدا للبشر في ذلك يتبعه الناس كما يتبعون الأنبياء والرسل، وجد أنه لن يحصل له ذلك إن سلم بما في الفطرة والبداهة من ضرورات تقتضي منه السكوت والإمساك عن أمر الغيب بالكلية، والاقتصار في ذلك على ما جاءت به الرسل، إن كان يعلم إليه سبيلا، وأن يكون – من ثم – تابعا لهم منقادا تمام الانقياد، مسلما لهم تمام التسليم، كما هو شأن أتباع المرسلين من كل أمة. لذلك لم يجد الفيلسوف بدا من إسقاط ما يجده الناس في نفوسهم ابتداء من معارف فطرية أولية، أو على الأقل لم يجد بدا من تكلف المماراة فيها كلها أو بعضها والتشغيب عليها كلها أو بعضها، وإنزالها من منزلتها عند العقلاء الأسوياء إلى منزلة الدعاوى المعرفية الثانوية أو النظرية أو الكسبية التي تفتقر في إثباتها إلى استدلال ونظر! فجعل من البدهيات جدليات، وجعل من الأوليات الفطريات آراء ونظريات، يرد عليها المعارض ويحتمل في العقل انتفاؤها، كلها أو بعضها! فكان هذا هو أول افتراق عظيم وأول جناية كبرى يرتكبها الفيلسوف في حق نفسه وفي حق أتباعه من البشر!

وبناء على تلك الجناية الكبرى والجريمة الشنعاء ضد العقل والمعرفة، أصبح إثبات الغيب نفسه، فضلا عن إثبات مبدأ وجود شيء فيه، أمرا نظريا ملجئا إلى الإثبات والبرهان! فمن أراد أن يثبت ويبرهن على شرط هؤلاء فكيف يتحصل له إعمال عقله على نحو من الأنحاء من أجل ذلك؟ لا يحصل له إلا بالقياس، إذ لا عمل للعقل البشري في اكتساب المعارف بالموجودات في الأعيان، فيما عدا السمع والنقل، إلا القياس! ومن هنا، أصبح الأصل عند الفيلسوف ألا يثبت موجودا في الأعيان ولا حقيقة في الواقع إلا بالقياس، ولا ينفي ما ينفي من ذلك إلا بالقياس! أي أنه لما نفى وجود الغيب وما فيه وكره أن يحترم حرمه الذي يحترمه كل عاقل من الأسوياء السالمين من تلك الأهواء، وتملص من قبول ما في الفطرة من إثبات لذلك، لم يجد بدا من اشتراط القياس طريقا لإثباته إن كان له ثبوت!

ولا يخفى أن الناظر في العالم على ما هو عليه، إذا أسقط ما في الفطرة من إثبات ضروري لغيب عظيم فيما وراءه وفيما قبله، وكان حريصا على ادعاء العلم بما هنالك، فلن يجد بدا من قياس جميع ما هو مغيب عنه من

أمر الوجود على ما هو ماثل أمامه في الشاهد من أمر العالم! وإذن يصبح من يزعم انتهاء العالم إلى حد في الخارج وابتداء شيء آخر بخلافه فيما وراءه، ومن يزعم ابتداء العالم في الماضي بعد أن لم يكن (أو حدوث العالم كما سموه)، يصبح هذا مطالبا بنصب الدليل القياسي على ذلك، على شرطه السوفسطائي في تحصيل المعارف بجميع ما في الأعيان من موجودات إثباتا ونفيا! وإذن يصبح أول ما ينتهجه الفيلسوف من منهج في النظر في الموجودات وفي تحصيل المعارف بها، هو المنهج الدهري بالضرورة، إذ متى سلم الفيلسوف بأنه لا يجد سببا لإثبات شيء ما في الغيب على خلاف ما في الشاهد (نوعا)، لا في غيب الزمان ولا في غيب المكان، أصبح بمجرد ذلك دهريا صرفا، قائلا بقدم العالم (من حيث عينه أو من حيث أصله الذي يتركب منه كل شيء بزعمه وقياسه الواهي)، وقائلا كذلك بلانهائية العالم، أي أنه لا موجود غيره كما أنه لا موجود قبله! فإنه لا ثبوت لحدّ ومنتهى لهذا العالم ونظامه المحسوس في جهات الزمان والمكان إلا بالتسليم لما في الفطرة من ثوابت وبدهيات، ولما يقتضيه ذلك الذي في الفطرة من تسليم بصحة الرسالات والنبوات والتسليم للرسل والانقياد لهم! فالفيلسوف يسقط ذلك، من أجل أن يقنع أتباعه بأنه لا سبيل للمعرفة ثَمّ إلا بتكلف قياس الغائب على الشاهد، ومن ثم يتنطع بالنظريات الميتافزيقية على حقائق لا وصول للعقلاء لإثباتها أو نفيها إلا بالسمع وحده، حتى إذا سأله الناس، قال: هذا هو العلم ومقتضى العقل والنظر، فدعكم مما ورثتموه في كتبكم، واتبعوني أهدكم سبيل الرشاد!

والواقع أن من أسقط الفطرة، فإنه كذلك يسقط بالضرورة كل أساس لمعقولية مبدأ قياس الغائب (أي غائب) على الشاهد (أي شاهد) بالاقتضاء واللزوم لا محالة! إذ ما الذي يوجب أن يكون جريان النظاميات السببية في المستقبل (الغائب) على نظير ما اعتدناه منها في الماضي (الشاهد)، إلا أن يكون في الفطرة وفي السمع ما يقتضي ذلك؟ [9] لهذا وقع ديفيد هيوم في تشكيكه في أصل الاستقراء، وقال مقالته المشهورة بأنه لا يجد أساسا عقليا ينصب عليه تسليم الناس بأن ما اعتادوه في الماضي من ارتباط الأسباب بمسبباتها، لابد وأن يظل قائما غدا كما قام فيما مضى، فيحصل لهم التنبؤ بما في الغد قياسا على ما مضت به عادتهم من المحسوس والمشاهد! فمن لم يسلم بأن للعالم ربا بالغيب يقيم نظامه على سنن سببية مطردة، يحفظ الطبائع في الأشياء من حيث الأصل، يقدرها تقديرا، فلن يجد هذا أساسا في عقله لجعل التكرار واستفاضة العادة بالترابط السببي مستندا لقياس ما في الغد على ما في الحاضر والماضي! وإذن فلن يجد أساسا لتحصيل أي نوع من أنواع المعارف بشأن الواقع الخارجي من طريق القياس البتة! ولمثله أن يستوي لديه احتمال أن يموت إن قفز

من فوق جبل واحتمال أن ينجو من غيرما ضرر! وأن يستوي لديه احتمال أن يموت محترقا إن قذف به في النار واحتمال أن يخرج منها سالما! وأن يستوي لديه احتمال أن ينهض غدا من فراشه فيجد نفسه يمشي على رأسه لا على رجليه، باحتمال أن يجد رجليه تحملانه كسائر الناس! إلى غير ذلك من سخافات يضحك منها الصبية الصغار، ويراها هو – في المقابل – معضلات فلسفية عظيمة، تحتاج إلى بحث طويل ونظر عميق، وإلى الله المشتكى! فأي انتفاع للعاقل بعقله نفسه، وبما فيه من أنواع القياس، إن لم يثبت ما يثبته العقلاء في فطرتهم من معارف أولية يتأسس عليها نظامهم المعرفي وكافة مصادر التلقي المعرفي لديهم بلا استثناء؟ [10]

فمن هنا، ومن تلك السفسطة الجدلية الأكاديمية اليونانية الفاسدة المفسدة، افترق البشر إلى فريقين في نظام المعرفة ومصادر تلقيها بشأن الواقع الخارجي جملة! فريق فيه عموم البشر الذين سلموا بالفطرة أساسا ومصدرا من مصادر التلقي المعرفي، فهم يفرقون بين الغيب المحض وعالم الشهادة، ويتخذون للمعرفة بهذا وذاك طريقا منضبطا لا التباس فيه ولا اختلاط ولا شك ولا وهم ولا خرافة ولا هذيان، وفريق فيه أساتذة الأكاديمية اليونانية ومن تابعهم من المستكبرين المستنكفين أن يكونوا أتباعا لغيرهم من البشر، وإن كانوا هم رسل الله المؤيدون بالوحي الصادق والفطرة والبداهة المركبة في نفوس البشر تركيبا، فتراهم يسقطون الفرقان بين عالم الغيب وعالم الشهادة معرفيا، ينطلقون في تصور الواقع الخارجي من منطلق التسوية بين النوعين منهجيا، ولا يستقيم لهم اخترام الغيب بما يحصل لهم به المقصود من استجلاء العلم بالغيب وما فيه إلا بأن يجعلوا الطبيعة أو المادة أو العالم هو جميع ما هنالك، كان من الأزل وإلى الأبد، لا موجود في الخارج سواه!

ومن ثم تتمهد الأرض وتتأهل التربة الفكرية في أكاديمياتهم ومدارسهم وعند تلامذتهم لأن يقبلوا منهم كل خرافة يخترعونها بعقولهم وأقيستهم بشأن العالم بكليته، أوله وآخره، مبدئه ومنتهاه، ما تحته وما فوقه وما وراءه وما يتركب منه كل جزء منه .. إلخ، كما جرت عليه نظرياتهم ولا تزال تجري، على أنها هي المعرفة وهي العلم الذي لا يستساغ في العقل طريق لإثبات شيء في الخارج أو نفيه إلا هو، ومهما مدد القوم أقيستهم لتطال كل موجود، ولتشمل كل حادث من الأزل وإلى الأبد، قبل الأتباع منهم ذلك وسلموا بمنهجهم فيه تسليما، والله المستعان!

ولهذا فلن تجد للفيلسوف (الطبيعي – من حيث التخصص الأكاديمي - أو غيره) مستندا ولا دليلا في زعمه التساوي النوعي الوجودي (الأنطولوجي) بين ما في الغيب وما في الشهادة إلا التحكم المحض، يتخذ لنفسه الدعوى

الدهرية على أنها حقيقة وجودية أولى لا على أساس إلا هوى التصدر بين الخلق باختراع الأقيسة الغيبية الكبرى التي ينافس بها الأنبياء وينقض عليهم ما جاؤوا به في نفس الأمر! من هنا نشأت الإبستمولوجيا الدهرية التي تسوي بين الغيب والشهادة في مبدأ القياس، التي جرى الاصطلاح عليها عند الفلاسفة المعاصرين بالطبيعية المنهجية Methodological Naturalism، والتي هي فيما نزعم مصدر التلقي الأوحد للمعارف المعتبرة عند الدهرية الطبيعين، ولا أساس لها كما ترى إلا الدفع بالصدر، والتقرير الديني الاعتقادي الخرافي، المصادم للبداهة والفطرة!

وبناء على تلك المسلمات الوجودية الأولية، والمنهج المعرفي المترتب عليها، أصبح لدى الدهرية الطبيعيين مسلمات وجودية أخرى، فصارت الموجودات الخارجية عندهم كلها قابلة للتفكيك والتحليل على غرار ما يشهدونه في مادة العالم، وكلها تتركب مما تتركب منه مادة العالم، والواقع الخارجي إذن ليس فيه إلا تلك المكونات الأولية أيا ما كانت، تملأ الوجود كله بلا حد ولا نهاية، وقد يثبت الفيلسوف لها مع ذلك حاويا يحتويها لا نهاية له ولا حدّ كذلك، يؤثر فيها ويتأثر بها، ثم هو مع ذلك يثبت لتلك المكونات الأولية طبائع معينة، مع حركة مطردة سرمدية، فيجعل تأثير بعضها في بعض وتأثر بعضها ببعض، خاضعا كله من أوله إلى آخره إلى نظام سببي منغلق في داخل هذا العالم (الذي هو عنده كل موجود ولا موجود في الخارج سواه)، ينشأ عن تلك الطبائع في المادة وفي حاويها الذي يحتويها أيا ما كانت حقيقته، ويصبح ذلك النظام هو القانون الطبيعي الذي حسبُ الفيلسوفِ أن يتكلف النظر فيما هو جار منه تحت حسه وتجربته ومشاهدته، حتى يصبح بذلك قد أثبت جزءا من سنة الكون بكليته، الجارية فيه من أوله إلى آخره بلا بداية ولا نهاية ولا حد! فالجاذبية التي شهدها نيوتن على التفاحة ودرس أثرها على المقذوف الأرضي، لابد أن يعتقد الفيلسوف الطبيعي – كما اعتقد نيوتن نفسه – أنه لو سافر في أيما جهة من جهات المكان، وطال به السفر ولو إلى بلايين الكيلومترات، مهما ابتعد عن الأرض فلابد أن يجد تلك "الجاذبية" نفسها سنة ماضية جارية حيث ينتهي لا محالة! أو بعبارة أخرى، أينما انتهى بك سفرك في الكون، فلابد أن تجد قانون الجاذبية عاملا من حولك في جميع الجهات، هو نفسه، على نفس النمط وبنفس المعادلة! ولو أنه رجع إلى الماضي فلابد أن يجدها (أي ظاهرة الجاذبية) كذلك سنة جارية مطردة على مادة العالم وفي حاويه (أو الفراغ المطلق كما كان يسميه) مهما انتهى به رجوعه في الماضي لا محالة، بلا مرجح لخلاف ذلك يمكن تصور ظهوره أو معارض يتصور في عقله أن يأتي من خارج قياسه المفترض لديه الذي به طرد السنن المعتادة لستسغرق الكون كله في كل زمان ومكان! وأنى للمرجح أن يأتي ومن أين يأتي، إن كان الفرض المسلّم

به عند الفيلسوف هو أنه ليس في النفس فطرة أو جبلة يثبت بها منتهى أو حد لهذا لعالم المحسوس يبدأ من ورائه غيب محض لا يعلم حقيقته ولا كيفيته ولا نظامه وما فيه إلا صانعه وباريه سبحانه؟؟

وكما تقدم فإنك لن تنفي الغيب وما فيه كما نفاه هؤلاء، إلا لزمك أن تنزل صفات الربوبية في الباري جل شأنه على العالم بعضه أو كله، سواء بالتصريح أو بالاقتضاء واللزوم!

وإذا بالفلاسفة يمددون القياس فوق القياس ويؤسسون الرأي فوق الرأي والنظر فوق النظر في كل ما هو غيبي من أمر العالم، يعدون ذلك انتصارا "للعلم" و"العقل" على "الجهل" و"الخرافة"، مع أنه ليس على ظهر البسيطة من هو أحق باسم الجهل والخرافة وخفة العقل منهم عند التأمل، وإلى الله المشتكى!

ولهذا ما زلنا نسمع دعاة الإلحاد الجديد يقولون في كل مناسبة (كريتشارد دوكينز وغيره) إن داروين قدم خدمة عظيمة لملاحدة هذا العصر، إذ أمدهم أخيرا بما كانوا يفتقرون إليه من قبله من تصور غيبي مفصل لنشأة الحياة على الأرض، ولنشأة تلك المخلوقات البديعة التي كان ولم يزل أهل الملل الأخرى يضربون بها المثل تلو المثل على بديع خلق الباري جل شأنه، وطلاقة قدرته سبحانه، فيأتي داروين فيها – أخيرا – بقياس ألمعي يجعل من الطبيعة نفسها تفسيرا لذلك الإبداع المذهل! وإذا بصفات الربوبية تنتزع من رب العالمين لتُنزّل على "الطبيعة" نفسها Nature فتصبح هي التي تخلق وتفطر وتبرأ وتصور وهي التي تختار وهي التي تحدث الحوادث، فتنتج المخلوقات معيبة كلها منحطة كلها (كما يقع من الصانع البشري في مصنعه أو معمله، ينتج ما ينتج بالتجربة والخطأ، بما يلجئه إلى التحسين والتطوير مرة بعد مرة)، في إطار ما هي محكومة به من قوانين أصبحت تفسر هي نفسها بأنها إنما نشأت عن قوانين مثلها سابقة عليها انتخبتها الطبيعة بالصدفة المحضة كذلك، وهكذا، بلا ابتداء ولا انتهاء! فالذي ينبغي أن يتقرر لدى المسلمين هو أن داروين إنما انطلق في تأسيس نظريته، وفي تطلعه للتوصل إلى "آلية طبيعية" لنشأة الأنواع الحية على غير مثال سابق، من اعتقاد ميتافزيقي كلي مفاده أن نشأة النوع الحي على الأرض (أي نوع حي) إنما هي حادث "طبيعي" Natural Event نوعا، بمعنى أنه من نوع الحوادث التي نشهدها في تجربتنا وعادتنا في هذا العالم، سواء من حيث الكيفية أو من حيث السبب والتعليل المتقدم عليه! ولهذا أصبح الدراونة يشيرون إلى تلك المسألة "بالنشوء" أو "النشأة" أو "الأصل" Origin وليس "الإنشاء" أو الخلق Creation! قال داروين في كتابه "في أصل الأنواع":

"عندما ينتخب الإنسان فإنما ينتخب من أجل صالحه هو، وأما الطبيعة فإنما تنتخب لمصلحة ذلك الكائن الحي الذي تعتني به" [11] اهـ.

فالقانون الطبيعي عند داروين هو الذي خلق فسوى وقدر فهدى، ولولا أن كان القانون الطبيعي على نحو كذا ونحو كذا، ما تنوعت المخلوقات، وما خرجت على تلك الصور والصفات والهيئات! وهذا الأصل الكلي هو مذهب الدهرية الطبيعيين في مصادر التلقي المعرفي، الذي لا يرون المعرفة بما وراء المحسوس سواء في غيب الزمان أو غيب المكان، تحصل للإنسان إلا من طريقه! وهو محض الشرك في الربوبية كما لا يخفى! إذ الحق الذي عليه العقلاء كافة أن الرب جل وعلا إنما يجري السنن الكونية والنواميس السببية في أرضه وسمائه على ما يريد وعلى ما تقتضيه حكمته سبحانه في خلقه ما خلق، لا أنها هي التي تحكم أفعاله وتفرض عليه ما يحدثه من حوادث وما يخلقه من أنواع، فلا يحدث شيء في العالم، بما في ذلك خلق العالم نفسه وما فيه، إلا على وفق ما تجيزه تلك السنن والقوانين! فعند داروين وأتباعه لا سلطة في العالم فوق سلطة القانون الطبيعي، ولا خالق غيره ولا فاعل من فوقه، إذ هو الذي به لا بغيره يتعلل كل شيء، يستقل بمسببه الطبيعي استقلالا تاما غير منقوص، وهذا هو وجه كون النظرية من شرك الربوبية في أصل أصولها، فتدبره فإنه عزيز!

لذا فعندما يزعم داروين نفسه في غيرما مناسبة أنه ما كان يدعو إلى الإلحاد بما ذهب إليه [12]، فهو كاذب مماحك! إذ واقع الأمر أنه أسس نظريته على منهج معرفي يقتضيه اعتقاد وجودي لا محل فيه للغيب والسبب الغيبي أصلا، وليس فيه من موجود في الأعيان إلا الطبيعة ونظامها (نوعا) من الأزل وإلى الأبد! ولولا هذا الاعتقاد الكلي والمنهج المعرفي الدهري الملازم له ما استجاز داروين لنفسه أن يقتحم هذه المسألة المغيبة تغييبا محضا (الكيفية التي خلقت بها كافة أنواع المخلوقات على الأرض على اختلافها، والتي بها تنوعت وانتشرت) بالتنظير والقياس الطبيعيين، بما يجعل الطبيعة Nature هي الفاعل المريد الذي ينتخب ما يبقى وما يهلك من أنواع الدواب، ويُجري ما اختار له البقاء منها على ما اختار له من مصير في التطور والارتقاء!

فلو كان الرجل يؤمن بخالق ما بالغيب يخلق ما يشاء ويختار، ويجري نظام الطبيعية وقانونها على مجرى تلك المشئية والاختيار، لجعل السلطان المعرفي في أمر ذلك الغيب العظيم (حادث خلق الدواب على الأرض بعد أن لم تكن) مقصورا على خبر الغيب في الوحي الإلهي لا غير! فإنه لا يعلم كيف خُلقت السماوات والأرض إلا خالقها، ولو أن مخلوقا قد قدر له بمشيئة ربه أن يشهد خلقهما من خارجهما أو يطلع على خلق ما يناظرهما مما سواهما، فهذا منفي عن الإنسان قطعا! ولا يعلم كيف برئت الدواب في

الأرض بعد أن لم تكن وبثت فيها بثا إلا بارئها، ولو قدر أن نوعا مخلوقا قد شهد ذلك كله فعلم منه شيئا ما، فليس هو نوع الإنسان قطعا! ولا يعلم الإنسان كيف ركبت في هذا العالم تلك السنن الكونية نفسها التي عبدها داروين من دون الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولكنه ما كان يرى للغيب حدا ولا حرمة، وما كان يقيم للوحي وخبر الغيب وزنا ولا قيمة، ولا يرفع بهه رأسا، بل نقطع بأنه كان يريد (كما يهواه كل فيلسوف مستكبر) أن يجلس نفسه مجالس الأنبياء في تعليم الناس أمر ذلك الغيب العظيم! فمجرد استصحاب أصل كلي مفاده قدرة الإنسان على أن يتوصل إلى معرفة الغيب المحض مهما ضرب في عمق المكان والزمان بالقياس على المحسوس من هذا العالم والنظر في المعتاد منه، هذا من مذهب المشركين الدهرية، بل هو أساس مذهبهم، لأنه لا ينشأ إلا عن اعتقاد استغراق نوع "الطبيعة" للواقع كله مكانيا وزمانيا (من الأزل وإلى الأبد)، بما يجيز قياس غائبها على شاهدها بلا حد ولا قيد، وهو أصل أصول الدهرية، فلا يجوز أن يرتضي المسلم ذلك المنهج الدهري من أصحابه أو أن يقرهم عليه أو على ما ترتب عليه عندهم من مذاهب وأقوال [13]!

قال داروين في كتابه المفكرة: "قد نقبل أن تكون الأقمار والكواكب والشموس والكون بل ومجموعات كاملة من الأكوان، محكومة بالقوانين (الطبيعية)، ولكننا نأتي إلى أحقر حشرة، ونرجو أن تكون مخلوقة في خطوة واحدة بفعل مخصوص" [14] قلت: هذا هو المنهج الكلي الذي قامت عليه النظرية من أصولها كما ترى، فالرجل نظر إلى فلاسفة الطبيعيات في عصره ومن قبلهم، لا سيما أصحاب التنظير الجيولوجي الذي لا يرى حدا للقياس والافتراض في أصل الأرض وبنيتها وما كانت عليه في الماضي، فوجدهم جميعا يرجعون كل شيء إلى القانون الطبيعي تأريخا وتفسيرا، فقال في نفسه: فلماذا نفرق إذن بين نشأة الكائن الحي ونشأة الطبيعة الميتة في نسبة الجميع إلى السبب الطبيعي؟ ما دام باب الغيب مفتوحا – بالفعل – على مصراعيه في الأكاديمية الغربية للفيلسوف الطبيعي ليدلي فيه بدلوه ويأتي فيه بما يرى، فلماذا يتحسس الناس – كما لمسه في معاصريه من أهل الكتاب وغيرهم – من تناول مسألة خلق الأنواع الحية (ومنها الإنسان) بنفس المنهج وعلى نفس الوتيرة؟

فإن قال قائل إن نسبة مذهب داروين إلى إشراك القانون الطبيعي برب العالمين في الربوبية والخلق والتدبير تقتضي نسبة أصحاب العلوم الطبيعية كافة إلى شرك الربوبية لقولهم بأن القانون الطبيعي تتحول بسببه الأنواع كما تتحول وتتغير فيه صفاتها وهيئاتها كما تتغير، قلنا إن هذا لا يلزمنا، لأننا لا ننفي كون السنن السببية والطبائع المخلوقة قد جعلها الله أسبابا لما نراه

الآن جاريا من حوادث النظام الحيوي، كتأثير قوانين وسنن الوراثة الجينية – مثلا – في صفات السلالات والأجيال المتعاقبة في النوع الواحد! فمن تتبع تلك الأسباب معتقدا أنما هي جارية على إرادة الله ومشيئته وحكمته وعلمه، فليس هذا مشركا ولا قريبا منه! وإنما نرد ما زعمه الدراونة من جريان تلك القوانين على أصول أنواع الدواب في العالم، فلا يكون نشوء النوع ولا بقاؤه إلا منها وبها! فإن داروين ما قال بذلك إلا لاعتقاده سلفا بأن أصول الأنواع كلها لا ترجع إلى خالق غيبي يخلق ما يشاء ويختار، وإنما يرجع إلى القانون الطبيعي الذي لولاه ما كان العالم كما نراه، فجعل طريق العلم بقصة نشأة جميع الأنواع بعد أن لم تكن، مقصورا على القياس الطبيعي، ثم أخذ يفصل الفرية بعد الفرية والأسطورة فوق الأسطورة حتى تحصل له من ذلك أسطورة غيبية لعلنا لا نبالغ إن قلنا إنها أعظم الأساطير الشركية اتساعا وتفصيلا وأعمقها تنظيرا وأشدها تكلفا وتنطعا وأبلغها جذبا وفتنة للجهلاء من أهل الملل كافة في تاريخ النوع البشري على الإطلاق!

ثم إنه لا يلزمنا – في المقابل – ما التزمه الغزالي وغيره من الأشاعرة في ردهم على الطبيعيين المعاصرين لهم من تعطيل نوع السنن السببية والطبائع في هذا العالم ونفيها بالكلية! فإن أهل السنة لا يكابرون في تلك البدهيات ولا يمارون في المحسوسات ولا يرون لزوم الإشراك في الربوبية من مجرد نسبة الحادث إلى سبب حادث مثله (في سلسلة من الأسباب والمتولدات لا يعلم منتهاها إلا الله) وفقا لسنة سببية ماضية قد جعلها الله كذلك، ولو شاء لجعلها على غير ذلك، أو لعطلها كلية أو جزئيا، لا مستكره له ولا حاكم عليه من فوقه، سبحانه وتعالى وتقدس! صحيح أننا ننسب الدراونة لشرك الربوبية فيما يتعلق بأصل الأنواع، وفي كونهم قد أنزلوا القانون الطبيعي منزل الباري جل شأنه في الاختيار والانتخاب والإنشاء والإبقاء والإفناء .. إلخ، [15] إلا أننا لا ننفي مبدأ السنن الطبيعية نفسه كما هو مذهب الأشاعرة، وإنما ننفي دخول القانون الطبيعي (سببيا) [16] في تلك القضية (قضية أصل الأنواع)، لأن موضوعها هو أصل خلقة العالم وما فيه (بما في ذلك تلك السنن والطبائع نفسها التي طردها داروين حتى يقيس الغائب على الشاهد)، كما أننا نحكم بالشرك على كل من جعل تلك السنن والأسباب المادية مستقلة بتعليل حوادث هذا العالم المنظور، كما بينه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى في غيرما موضع من مصنفاتهما. فلا يقال لنا إن مذهبنا يلزم منه نفي السببية عن نفس السنن الكونية التي نراها جارية في حوادث النظام الحيوي الواقعة تحت الحس والعادة!

فقد زعم بعض من لا خلاق لهم أننا إن نفينا جريان السنن الطبيعية على أصل الأنواع، لزمنا أن ننفي ما يراه الطبيعيون التجريبيون في معاملهم كل يوم عند دراستهم لتلك التحولات والتغيرات التي تظهر على أنواع الباكتيريا الدقيقة تحت الميكروسكوب تكيفا واستجابة لتغير ظروف البيئة التي زرعت فيها! وهذا غير لازم قطعا! فإن التغير والتكيف والتحول في صفات النوع الحي عبر أجياله بما يلائم ما يجري على البيئة من تغير وتحول، هو من جملة سنن النظام الحيوي التي جعلها الله فيه حال خلقه إياه، وهو من آيات العناية الإلهية وكمال التدبير الإلهي والتقدير في الخلق، أما أنتم فتريدون أن تجعلوه هو الذي به خُلق النظام الحيوي نفسه وبه نشأ كل نوع فيه بعد أن لم يكن! فلا يلزمنا من نفي ما أثبتّم أنتم أن ننفي وجود تلك السنة نفسها وتأثيرها كما تؤثر! أنتم من جعلتم التكيف ارتقاء، والتغير تطورا، وهذا لا يلزمنا ولا نقبله! [17]

نحن نقول إن الله هو صاحب الخلق والأمر وحده لا شريك له، فإن شاء لنوع من الأنواع أن ينقرض ويهلك فلا تبقى منه باقية، أجرى السنن والطبائع والأسباب بما يفنيه ولا يبقي له نسلا ولا أثرا، وإن شاء لنوع من الأنواع أن يبقى مع ما قضاه من تغير أحوال البيئة التي يستوطنها ذلك النوع تغيرا لا يناسب صفاته، كتب له من التحول والتغير في الصفات عبر الأجيال ما يبقيه في تلك البيئة، ويقيمه فيها على أكمل قيام، مهما تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال! هذا فعله ومشيئته جل شأنه، وليس فعل الطبيعة أو الجينات الوراثية! وليس هو انتخابا أصلا على المعنى الاختزالي السخيف الذي بدعه داروين، يقيسه على الانتخاب الصناعي Artificial Selection الذي هو من صنع بني آدم! وهو كله لا علاقة له بالطريقة التي خلق الله بها هذا النوع أو ذاك من قبل على غير مثال سابق، ولا مدخل للقياس في ذلك أصلا! وأما القانون الجيني (بما يعتريه من تغيرات) فمخلوق مركب في كل نوع بحسبه، وليس نظاما متقدما على الأنواع الحية وجوديا، حتى يكون وجودها ونشوؤها على أيما وصف نشأت عليه، ناتجا عنه سببيا، أو عن صفة مخصوصة لمادة الشريط الوراثي أو الجينات أو نحو ذلك! فالواجب على المسلمين أن يفرقوا بين أصل النظام الحيوي وأسباب خلقه بعد أن لم يكن، وبين العمليات الجارية في إطار ذلك النظام نفسه وفي إطار الأنواع القائمة فيه، فإن الأول لا يقاس على الثاني إلا عند من لا دين لهم ولا عقل!

والواقع أن داروين لم يزد على أن جرى على المذهب الدهري الطبيعي مستعملا في ذلك طريقة أهل زمانه في التنظير الطبيعي في الغيبيات المحضة، كما صرح بنفسه في غير موضع، فكان الجديد الذي جاء به هو النظرية نفسها، نظرية التطور بالانتخاب الطبيعي كما سماه، وإلا فلم تخل

الأكاديمية الغربية في عصر من العصور من تنظير طبيعي في الغيبيات المحضة، يناسب أدوات أهل العصر وطرائقهم في الإثبات والنفي في نفس الأمر، ويحقق غاية كل فيلسوف دهري في أن يقدم لأتباعه ما يبدو وكأنه جواب علمي محكم لتلك الأسئلة نفسها!

فإنه لما أراد الفلاسفة القدماء أن يتحللوا من اتباع المرسلين ومن الخضوع لهم، وزينت لهم شياطينهم ونفوسهم المستكبرة الزعم بأنه ليس في الغيب رب خالق، لم يجدوا إلا الزعم بأنه ليس ثم إلا الدهر، وبأن الحياة والموت والحدوث والحركة وجميع ذلك إنما يرجع (سببيا) إلى جنس الأسباب المحسوسة نفسها (أو ما يسمى مجموعه إجمالا بالدهر أو المادة أو الطبيعة)، فتارة تراهم ينزلون صفات الربوبية على الكواكب والنجوم والأفلاك العلوية، وتارة تراهم ينزلون تلك الصفات على الماء أو على "الذرة" التي جعلوا العالم كله مركبا منها، ثم ها نحن الآن نراهم ينزلونها على جملة من القوانين والسنن الكونية المطردة التي أرجعوا إليها أسباب كل شيء! بل لقد رأينا منهم من بلغت به سخافته أن ألف كتابا سماه "الجين الأناني" Selfish Gene فنسب إلى الجينات الوراثية جملة من صفات الربوبية، إذ زعم أن الجينات هي التي توجه المنظومة الحيوية (البيوسفير) على الأرض في أيما وجهة يتفق لها أن تتوجه إليها، وهي التي تجعل من التناسل والتكاثر مهمة غائية (تليولوجية) لكل كائن حي، بما يحفظها ويضمن لها البقاء والاستمرار بالتناسخ عبر الأعصار، وأنها هي التي تخلقنا على هذه الصورة أو تلك، تركبنا كما تشاء وتختار! ومن ثم راح يصف تلك الجينات – في سفاهة منقطعة النظير – بأنها جينات "أنانية" إذ تحرص على مصلحتها بصرف النظر عما سوى ذلك، وأن الإنسان هو أول نوع من أنواع المخلوقات الحية قد استطاع أخيرا أن يتحدى إرادة تلك الجينات بألا يجعل سلوكه كله متوجها إلى مصلحة التناسل والتكاثر ونسخ الجينات!

ومع أنه كان يزعم أنه يتكلم بالمجاز، ولا يفوته التأكيد على ذلك في كل مناسبة، إلا أن حقيقة اعتقاد الرجل في نفيه ما نفاه من ربوبية رب العالمين، ونفي الغيب بالكلية، تلزمه بإثبات تلك المعاني كلها ونحوها على الحقيقة لا على المجاز كما يدعي! فإذا ملك ذلك النفي الدهري عليه زمام نفسه، لم يجد بدا من أن يشحن كتابه بتقرير أن الطبيعة تفعل كذا وكذا، تنتخب وتضبط وتخفض وترفع، تفني ما تشاء وتبقي ما تختار، وأن الجينات أنانية لا تعرف إلا مصلحتها ولا تطلب من المخلوق إلا أن ينسخها بالتناسل نسخا، ثم تراه يرجع ليقول ويحذر (في سخافة قلّ نظيرها): إنما أتكلم بالمجاز، فإن مالت بك نفسك – يا من تقرأ كلامي – إلى اعتقاد الفاعلية أو العاملية Agency في الطبيعة، فعض على لسانك وأمسك عليك عقلك

وارتق بوعيك، فإنما هو وهم تتوهمه أنت لا غير! وهم قد أزاله نبي الطبيعيين في هذا الزمان تشارلز داروين، وقضي الأمر! كل ما يبدو لك "وكأنه" مخلوق محكم الصنع بليغ في ضبطه وإحكامه، فإنما "يبدو" كذلك لا أكثر! كل ما يبدو لك وكأنه فعل إلهي محكم له من الحكمة والتعليل ما يليق بصانعه، فإنما يظهر وكأنه كذلك لا غير! فكلما أغرتك نفسك وتحركت فيك دواعي الفطرة والبداهة لأن تسمي الخلق خلقا والتدبير الإلهي تدبيرا إلهيا والقدرة الربانية الباهرة قدرة ربانية، فعليك أن تعالج نفسك و"ترقى بوعيك" حتى لا تستدرجك نفسك إلى قول ترتد به عن دين القرن العشرين، دين العلماء الطبيعيين! فأي شيء هذا إن لم يكن نصيحة كاهن لأتباعه، يدعوهم لئلا يلتفتوا إلى كل داع يدعوهم في نفوسهم لإبطال تلك الملة الفاسدة التي أورثوها وأشربها إياهم الآباء والكبراء؟! أي شيء هذا إن لم يكن ضربا من "اللالاهوت" الدفاعي، على غرار "اللاهوت الدفاعي" عند أهل الكتاب وغيرهم؟؟

ثم مع هذا كله وغيره، ترى القوم يتبجحون غاية التبجح كلما قيل لهم أنتم أصحاب اعتقاد ديني تثبتون ما تعتقدونه في أمر الغيب إثباتا جازما صارما لا تقبلون عنه حيادا، كما هو الشأن في أهل الملل كافة، يقولون: "بل نحن ننفي ما تزعمونه أنتم ولا نثبت شيئا"! فالحمد لله الذي فضل بعض عباده على بعض في الرزق من العقل والدين كما في الرزق من المأكل والمشرب والملبس!

والقصد أن تفصيلات الاعتقاد الغيبي وآحاد مسائله عند الطبيعيين قد تختلف من عصر لعصر، النظريات قد تتغير وتتبدل وتختلف من عصر لعصر، ولكن تبقى أصول الملة الطبيعية واحدة، ويبقى الإلحاد الأكاديمي المنهجي واحدا عبر العصور! فلم يوجد في العالم على امتداد التاريخ فيلسوف أكاديمي ينفي وجود صانعه، إلا وهو يثبت – في محله – خرافة ميتافزيقية كبرى لا محالة، ويدعو الناس لاتباعه عليها وعلى طريقته في تأسيسها لا محالة! هذا النوع من الخرافات الشركية هو ما يسمى صاحبه بالدهري أو الطبيعي أو الطبيعاني Naturalist، لأنه يؤول اعتقاده في النهاية وبإيجاز إلى الزعم بأنه ليس في الغيب إلا كما في الشهادة، وليس ثم إلا امتداد هذا العالم نفسه، أو النظام السببي الطبيعي الذي يقوم عليه، في جميع الجهات إلى حيث لا تصل مداركنا، من الأزل وإلى الأبد، وليس – إذن – من محل لصفات الربوبية الواجبة للباري جل وعلا التي بها قيام هذا العالم، إلا هذا العالم نفسه، لأنه لا موجود في الخارج عنده سواه! فلا رب ولا يوم آخر ولا جنة ولا نار ولا عرش ولا كرسي ولا شيء من ذلك! وإذن فلا يفسر الطبيعة إلا الطبيعة، ولا يسبق الطبيعة إلا الطبيعة، وليس وراء الطبيعة إلا الطبيعة،

وليس في الوجود إلا الطبيعة، أو الدهر أو الكون Universe أو Multiverse أو ما شئت له من اسم بعد!

ولهذا فلن تجد ملحدا ينفي وجود الباري جل وعلا إلا وهو صاحب اعتقاد وجودي (أنطولوجي) مفاده تنزيل صفات الربوبية على الدهر أو المادة أو الطبيعة بعضها أو كلها، بصورة ما أو بأخرى، مهما اختلف التفصيل! لن تجد ملحدا ينفي وجود الباري إلا وهو يقول – لا محالة – كما نقله الله في كتابه: ((مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)) الآية [الجاثية : 24]، فكما نقول نحن الموحدين: "لا يحيينا ولا يميتنا إلا الله"، يقول الدهري: "لا يحيينا ولا يميتنا إلا الدهر"! وإنما يختلفون في الوهم والظن الذي كذبوه على أنفسهم وعلى أتباعهم واتخذوه لأنفسهم دينا واعتقادا في محل الاعتقاد بوجود الباري! فلا عجب ألا يكون لهم شغل، والحالة هذه، إلا تفصيل صفات الدهر وأفعال الدهر وكيف يقوم مقام الباري عند أهل الملل الأخرى!

والسبب في كون الزعم الكلي باطراد الطبيعة (أو النظام المادي المحسوس) كما هي عبر الزمان بلا بداية ولا نهاية، وعبر المكان بلا بداية ولا نهاية، هو المخرج الوحيد في الإثبات لكل من التمس نفي وجود الباري في الغيب وجحده حقه جل شأنه، هو حرص ذلك النافي على أن يقطع الطريق (معرفيا) على أهل الملل المثبتة للغيب، إذا ما ادعوا أن لديهم كلاما قد أوحى به الرب في الغيب لنبي قد اصطفاه من البشر! فلو أنهم قالوا إن العالم لا صانع له من ورائه ومن قبله، ومع ذلك لم يقرروا في نظريتهم الكلية أن هذا العالم المنظور قد استوعب الواقع كله واستغرق الوجود كله، فقد جوزوا إذن ثبوت المعارض الذي يهدم لهم أسطورتهم الكونية التي أرادوا أن يجعلوها في محل اعتقادات أهل الملل الكتابية بشأن الغيب وما فيه، والأخطر أنهم إذن يجوزون ثبوته (أي ذلك الموجود الغيبي المتجاوز للعالم الطبيعي) من طريق غير طريقهم، ومن مصادر معرفية بخلاف مصادرهم، كالوحي مثلا، وإذن يبقى لأتباع المرسلين مستند في نقض ما عليه هؤلاء معرفيا، وهو ما لا يقبلونه قطعا، وما جاؤوا بنظرياتهم الكونية إلا فرارا منه!

لذا لزم أن يستحكم المنهج الدهري فلا يترك في الوجود شيئا لا يناله بالتنظير والافتراض، قياسا على أنواع المحسوسات في العالم! فمع أن الدهرية المعاصرين قد تدرجوا عبر القرون الأربعة الأخيرة في بناء طبقات أسطورتهم الكوزمولوجية والبيولوجية وتوسعتها، ولا يزالون يتدرجون ويتوسعون، إلا أنهم كانوا ولم يزالوا يتحركون انطلاقا من ذلك الاعتقاد الغيبي الدهري (القول بأن نظام الطبيعة قد استغرق الواقع كله) والمنهج

المعرفي المترتب عليه (تجويز قياس كل غائب على ما هو شاهد في الطبيعة)، صرح منهم من صرح، وأخفى من أخفى! وقد كان من الطبيعيين القدماء من يجمع بين ذلك المعتقد الدهري وبين الاعتقاد في وجود الصانع، وربما زاد عليه الاعتقاد بوجود آلهة متعددة من دونه، وهو ما كان يضطرهم لجعلهم جميعا حلولا في هذا العالم، بصورة ما أو بأخرى، كما وقع لنيوتن (كما يأتي بيانه في موضع لاحق من هذا المبحث). فالقاسم المشترك الأعظم بين فلاسفة الطبيعيات، إنما هو اعتناق المنهج الدهري في النظر في العالم وما وراءه، ثم التعامل مع ما يترتب على مخرجاتهم في ذلك الغيب العظيم من مقتضيات بشأن الإلهيات وما يتعلق بها، كل بحسبه!

ونقول إنه لا معنى ولا وجه لأن يكون الرجل نافيا لوجود الباري في الغيب، ثم هو مع ذلك يعتقد جواز وجود نوع من أنواع الموجودات فيما وراء العالم، له حقيقة لا قياس لها على شيء فيه، أي لا يمكن الوصول إلى معرفة حقيقته وكيفيته بالقياس على ما في هذا العالم المنظور من أنواع الموجودات! هذا يترك الملاحدة مفتقرين – معرفيا – إلى غير أدوات أولئك الفلاسفة في الإثبات والنفي، ليحصلوا ما يفتقر إليه العقلاء كافة من جواب لأهم الأسئلة الوجودية حول هذا العالم وسبب وجوده وسبب وجودهم هم فيه! فلابد إذن أن يتكلف الفيلسوف الملحد وضع نظرية كونية وميتافزيقية شاملة تستوعب كل ما يصح أن يقال له مكان وكل ما يصح أن يقال له زمان، فلا تترك موجودا يجيزه العقل إلا تناولته، ولا تجيز وجود موجود تعجز عن استكشافه من طريقها وبأدواتها! وإلا فما الذي يضطر الفيلسوف الدهري المستكبر لأن يجيز وجود موجودات لا تتناوله نظرياته، ولا يعرف عنها شيء من طرق القياس التي اعتمدها في تحصيل المعرفة بالعالم بكليته وما فيه وما يتركب منه .. إلخ؟ وكيف يأمن أتباعه من ظهور المعارض الجذري الهادم لاعتقادهم وتصورهم للوجود وما فيه، إن علمهم في نظريته أن الدهر ليس هو كل ما هنالك، وأن وراء الطبيعة ما يخالفها مما ليس يبلغه هو بنظره وقياسه؟! وما فائدة النظرية الكونية إذن، وما الاعتقاد المستفاد منها، إن جوز صاحبها أن يخرج عنها نوع من الموجودات لا تتناوله ولا يمكن إخضاعه لها؟ لهذا نقول إن مبدأ التنظير الميتافيزيقي مبدأ دهري محض من الأساس، لأن الفيلسوف لا يتصور لنفسه، من كبر نفسه، أن يُسأل عن شيء ما، أي شيء، أيا ما كان، موجودا كان أو معدوما، جائزا كان أو ممتنعا، مشاهدا كان أو غائبا، فلا يجد في نظرياته وأقيسته ما يجيب به عنه! كيف يقول لا أدري، وهو من هو؟ وكيف، وهو الأهم، يقول: هذا مما لا يوصل إليه بالقياس، ولا يستفاد إلا من الوحي من رب العالمين؟؟ هذا الكبر هو منشأ تلك الطريقة في التنظير: أن تكون النظرية على شرط

الإطلاق والوجود، فلا يخرج عنها موجود، كما يأتي الكلام عليه بتفصيل فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فصل في الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism التي هي ركن أركان الملل الدهرية كافة.

من هنا جاء الأساس الثاني للملة الدهرية أو الطبيعية، أو الأصل الكلي الثاني، المتعلق بمصادر التلقي المعرفي لأمر الغيب وما فيه، أو منهج الإثبات والنفي! فلا يمكن أن يكون الرجل نافيا لباريه وصانعه بالغيب، إلا وهو مع ذلك يعتقد عدم إمكان التوصل إلى إثباته أو نفيه (مبدئيا) من غير طريق الفلاسفة الدهرية في اقتحام الغيب بالنظر والقياس! لن تجد ملحدا يتفلسف لنصرة إلحاده إلا وهو جار على تلك المنهجية المعرفية الكلية لا محالة! وإلا فإنه ما ألحد بنفي باريه إلا وقد سبق منه التكذيب بما تمليه عليه فطرته وبداهة عقله من إثباته جل وعلا بالغيب، والتكذيب بما جاء به المرسلون من دعاوى مؤسسة عند البشر على تلك الفطرة نفسها! فإن لم تكن الفطرة طريقا لإثبات المعرفة بوجود الباري أو نفيها، فأي شيء يبقى إذن إلا القياس (قياس الغائب على الشاهد)؟ من هنا نقول إن نفي المعرفة الفطرية بوجود الباري وإلجاء البشر إلى إثباته من طريق الأقيسة العقلية على اختلاف أنواعها، إنما هو منهج الدهرية الطبيعية على التحقيق، الجاري على أصولهم في أمر الغيب وما فيه، أو ما يسمى إجمالا بالطبيعية المنهجية Methodological Naturalism! فلما خضع المتكلمون لشرط الدهرية هؤلاء في إثبات وجود الباري، لم ينتبهوا إلى أنهم بذلك قد لزمهم التلبس بأصل من أصول المنهج المعرفي الطبيعي أو الدهري، إذ نفوا المعرفة الفطرية بوجود الباري كلية (التي هي طريق المعرفة عند العقلاء كافة بوجوده جل شأنه)، ومن ثم تطرقوا إلى إثباته من طريق يحيله (سبحانه وتعالى) إلى موجود قياسي (نوعا)، تثبت له الصفات والأفعال وتنفى عنه بالقياس الميتافزيقي (منهجيا)! فهم لما سلكوا مسلك القياس الميتافزيقي في حق باريهم حتى يثبتوا وجوده على شرط الخصم الدهري، لزمهم القياس في صفاته وأفعاله كذلك، فلم يجدوا إلا أن ينفوها ويعطلوها كلها فرارا من ذلك اللازم المنهجي الذي جلبوه هم على أنفسهم ولم يحيروا منه فكاكا، ولهذا ذكر أئمة السنة رحمهم الله تعالى أن القوم ما عطلوا إلا لأنهم شبهوا ومثلوا ابتداءً!

على أي الأحوال، نقول إن هذا المنهج المعرفي هو الأساس الذي قام عليه الركن الثاني من أركان الملة الطبيعية (على اختلاف تفصيل الأسطورة الميثولوجية التي يعتقدها الطبيعيون اختلافات واسعة كما تقدم)، ألا وهو اعتقاد أنه لا يمكن الوصول إلى إثبات موجود من الموجودات في الخارج أو نفيه، أو إثبات صفة لموجود من الموجودات أو نفيها، إلا بنوع القياس المعتبر أكاديميا عند الفلاسفة في التنظير الكلي أو الكوني Universal Theorization عموما! وهو المنهج نفسه الذي يتبعه الفيلسوف في دراسة

العالم المحسوس دراسة مستغرقة لا تترك منه شيئا إلا شملته: يقيس الغائب منه على الشاهد، فلا يحده في ذلك حد ولا يقيده قيد ولا يفرق بين عالم الغيب وعالم الشهادة! العالم كله يجب أن يكون مشمولا بنظريته، لماذا؟ لأنه كما قدمنا يطمع من كبره في إغناء الناس عن سؤال أحد سواه عن الغيب وما فيه!

ومن هنا نشأ مبدأ الثابتية أو الاستمرارية المطردة Uniformitarianism أو Uniformity ألا وهو المبدأ القائل بثبات واستمرار واتصال نوع النظام الطبيعي أو المادي المحسوس من الأزل وإلى الأبد، وكذا مبدأ التساوي أو التناسق المكاني المطرد Homogeneity، وهو الاعتقاد بأن ما يصح طرده على هذا القسم المنظور من العالم من أنواع القوانين والنظم السببية، فلابد أنه مطرد كذلك على كل مكان من العالم، مهما امتدت أنحاء العالم في جهات الفراغ (أو بعبارة أخرى: ينطبق على الواقع الخارجي كله All Reality بلا تفريق بين جهة وجهة أو مكان ومكان)! ولا شك أن الفيلسوف الدهري الطبيعي يحتاج إلى استصحاب هذين المبدئين الكليين عند بنائه لأسطورته الميتافزيقية بشأن الكون بكليته والعالم بكليته، سواء عندما زعم أن العالم كله ينقسم في بنيته الدقيقة إلى جواهر وأعراض، أو عندما تطور ذلك المذهب عنده نوعا ما فقال إنه يتركب من جسيمات أولية، أو عندما قال إن العالم يملؤه ما يسمى بالأثير، أو عندما زعم أخيرا أنه يتكون من نسيج وجودي مركب من امتزاج "المكان" و"الزمان" في "متصل" كوني واحد Universal Space-Time Continuum! هؤلاء كلهم ما أطلقوا تلك المزاعم الكونية العريضة إلا وهم يريدون بها استغراق كل ما هو موجود في الخارج، في إطار ما يسمونه "بالعالم" أو "الكون" أو "الواقع" Reality!

فإذا كان القياس بأنواعه هو سبيل "العقل" عند الفلاسفة الطبيعيين في جميع العصور، للوصول إلى توصيف الواقع الخارجي وتصور الكون والعالم بكليته، وتحصيل المعرفة بكل موجود في الخارج سواء كان مشاهدا نوعا أو مغيبا تغييبا نسبيا أو تغييبا مطلقا، وسواء كان وجوده في دائرة الإمكان أو الوقوع، فلا انفكاك للفيلسوف الطبيعي عن استصحاب هذين المبدئين الكليين في تنظيره لأنه من دونهما لن يتهيأ له من المنهجية ما يُجوّز له ادعاء معرفة الغيب الزماني المحض بالقياس على الزمان الشاهد، أو معرفة الغيب المكاني المحض بالقياس على المكان الشاهد، ومن ثم بناء النظرية الكونية الشاملة التي يدخل تحتها كل شيء، ويرجى منها أن تغني صاحبها عن خبر الغيب عند أتباع الرسل، بل وأن تصبح هي "العلم" و"العقل" الذي يحكم به على ما جاءت به الرسل في نفس الأمر!

هذا المنهج الدهري (الذي هو مصدر التلقي في المعارف الغيبية عندهم كما بينا) هو الذي به استجاز القوم فتح قضية النشأة وأصل العالم وأصل الحياة للبحث التجريبي والتنظير البيولوجي والكوزمولوجي، فجوزوا أن تكون حوادث النشأة كلها من نوع الحوادث المحسوسة الخاضعة لنظام الطبيعة وسنن العالم، وهذا باطل من الابتداء! ولكنهم قائلون به لا محالة! الأصل الكلي المسلم به عندهم هو أن المعرفة لا تحصل في تلك البابة وغيرها من أبواب الغيب إلا من طريق القياس على ما هو شاهد من أمر الطبيعة، لأنهم يعتقدون أنه لا موجود في الخارج إلا الطبيعة! ولهذا أغرقوا في تشبيه الأفعال وأغرق اللاهوتيون والمتكلمون في تشبيه الأفعال بالتبعية، لتأسيسهم بضاعتهم على التسليم بتجويز ذلك المسلك على أن يكون مصدرا لتلقي المعارف الغيبية الكونية عند مجادلتهم من جادلوهم من الفلاسفة! فعلى المسلمين أن يجهدوا في هذا الزمان في بيان بطلان مصادر التلقي في أمر الغيب عند الدهرية الطبيعيين، لأنه من أبطل الباطل وأفسد ما يكون من المذاهب عند العقلاء، أن يرى الرجل بطلان ملة من الملل، ثم تراه مع ذلك يعترف بمصادر التلقي في خبر الغيب عند أصحاب تلك الملة، ويقبل دعاواهم في ذلك من حيث لا يشعر!

لذا كان منهجنا عندما نأتي على مثل نظرية داروين بالنقض – كما ينبغي أن نبينه للمسلمين – هو بيان أن نشأة العين الأولى (مثلا) في أول مخلوق حي موصوف بالبصر في هذا العالم (التي ظهرت على غير مثال سابق بالضرورة) هي غيب محض، وكذلك أول أنف وأول فم وأول أذن ...إلخ، والكلام نفسه يقال في نشأة أول حوت في الماء وأول طائر له جناحان وأول زاحف على بطنه وأول دابة تمشي على أربع، وكذلك أول فرد في عائلة القرد وأول فأر وأول حشرة تمص الدم وأول كائن طفيلي وأول ميكروب وأول دودة وأول ثعبان .. إلى آخر الأنواع الكبرى الداخلة تحت كل قسم من الأقسام المذكورة آنفا.. هذا أمر توجبه لهم تلك الأولية نفسها.. إذ تقتضي عدم النظير لحوادث تلك النشأة الأولى وأسبابها في عادتنا وخبرتنا البشرية (إذ يمتنع أن تكون تلك النشأة قد خضعت لأسباب مما رأينا نظيره في عادتنا)، ومن ثم يمتنع قياسها من جهتنا على شيء مما في محسوسنا كما تكلفه داروين في بناء آلياته التفسيرية التي بها أنشأ أسطورته العملاقة فيما يسمى بالتاريخ الطبيعي!

هذه قضية بديهية لا تحتاج إلى برهان. ومن يخالفها، يتلبس بمغالطة نوعية في استعمال منطق القياس التفسيريcategorical fallacy in applying abductive reasoning. فمهما شهدنا في إطار تلك المنظومة الحيوية العملاقة على الأرض من حوادث نشأة لتفريعات تلك

الأنواع ولتغيرات الصفات الوراثية داخل كل نوع، فلا نملك سلطانا لادعاء مشابهة حوادث نشأة الأنواع نفسها وما هو مركب فيها من الأعضاء لتلك الحوادث المعتادة، بل إن البداهة تقضي باختلاف النوعين (من أنواع الحوادث السببية) اختلافا يمنعنا من قياس أحدهما على الآخر في الكيفية وفي الأسباب من حيث المبدأ كما تقدم! فالواقع تحت حسنا ومشاهدتنا إنما هو حوادث جارية في إطار طبائع النظام القائم كما هو، سواء النظام الحيوي أو نظام الجمادات وما هو جار عليها من سنن سببية ناشئة عن طبائعها المركبة فيها، خلافا لتلك الحوادث التي نشأ عنها ذلك النظام نفسه (الذي نحن ومحسوسنا وتجربتنا جزء منه) في الابتداء! فالبداهة تقضي بألا يكون أي حادث من الحوادث التي نشأ بها النظام (أي نظام) خاضعا لذلك النظام نفسه، لأنه لم يكن قد خلق بعد حتى يكون سبب نشأته خاضعا له نوعا، حتى نقيسه على ما هو جار من حوادث تحت النظام، وهذا واضح!

ولكن مجرد هجوم الأحيائيين الدراونة على مسألة النشأة وأصول الأنواع الحية، يريدون بحثها من طريقهم، هذا ينقض عليهم تلك الحقيقة البديهية، ويستلزم أن يكون ما يتكلفونه من تنظير، محض خرافة وهذيان، أيا ما كان ومهما زعموا أن المشاهدات الحالية في النظام الحيوي تعضده! مبدأ الطرح نفسه (طرح مسألة النشأةthe question of origins) للبحث التجريبي هو مجاوزة صارخة لحدود آلة البحث الطبيعي نفسها، يجب علينا أن نردها بكل حزم وصرامة، وأن نقول للتجريبيين: الزموا حدودكم ودعوا عنكم ذلك الخرف والهذيان، سواء زعمتم أن نظرياتكم تثبت الصانع الغيبي أو أنها تنفيه!! نقول لهم كما قالت العرب: "ليس هذا بعشك فادرجي ..."، ولا نرى أحدا من البشر أحق بأن يقال له منهم!! ليس هذا هو منهج المسلمين في استعمال آلة البحث التجريبي Scientific Method، وليست هي طريقة العقلاء في طرح المطالب والمسائل البحثية لآلة القياس على المحسوس! لا حاجة لنا في خرافات الطبيعيين الدهرية في أمر الغيب فقد كُفيناها، وإنما نأخذ من أبحاثهم ما ينفع الناس بمعيارنا نحن لا بمعيارهم، وبضوابط الكتاب والسنة عندنا لا بضوابطهم القيمية الدهرية المنحطة! نقولها بحزم وقوة ولا نبالي، مهما اتهمونا بالسفاهة والجهل وخفة العقل، فإن الحق عزيز، وأعز منه من يصبرون على الصدع به، نسأل الله السداد والتوفيق ورسوخ القدم!

والقصد أن الأحيائيين والكونيين والفلكيين والفيزيائيين ما استجازوا طرح تلك الفئة من المسائل الغيبية للبحث من طريقهم إلا لتلبسهم بالطبيعية المنهجية Methodological Naturalism . وما تلبسوا بهذا الأصل إلا لسبق اعتقادهم بأنه لا موجود في الخارج إلا الطبيعة ونظامها، وإذن فلا

أصل ولا نشأة ولا شيء يحدث في الخارج إلا ما كان راجعا لحادث "طبيعي" نوعا natural cause، وهو ما حقيقته أن يكون السبب حادثا أو جملة من الحوادث المماثلة لما هو واقع تحت الحس والعادة من أنواع الحوادث بالفعل أو بالقوة. بناء على هذا النظام الاعتقادي الدهري ينتفي مبدأ الغيب بالكلية، وتستعمل الآلة التنظيرية التفسيرية التجريبية في بناء الأساطير الغيبية التي تؤسس للدهريين اعتقادهم الغيبي!

ولأن اللاهوتيين وأهل الكلام من كل الملل لم يخاصموا الفلاسفة الدهرية إلا جريا على شرطهم الميتافزيقي والمعرفي في الإثبات والنفي، وهو ذلك الشرط القائم على أصول الملة الطبيعية الدهرية كما تقدم (ألا نثبت موجودا ما، ولا نثبت له صفة ما، إلا بقياس الغائب على الشاهد!)، كان المتكلمون واللاهوتيون ولم يزالوا أتباعا للفلسفة الطبيعية الميتافزيقية السائدة أكاديميا في عصرهم، ينقلبون معها حيثما انقلبت بأصحابها! مع زيادة في المتكلمين من شتى الفرق أنه يبقى لديهم موروث من أسلافهم في تأسيس الاعتقاد على فلسفة الأولين، فتبقى معهم تلك الفلسفة وتحفظ بحفظ العقائد التي قامت عليها [18]، ثم يزيد المتكلم المعاصر بأن يتكلف الجمع بين تلك العقائد وأساسها الفلسفي القديم، وبين الفلسفة الأكاديمية المعاصرة في ميتافزيقا الكونيات والطبيعيات ونحوها، فتراه يتكلف من ذلك ما لا يتكلفه غيره ولا يضطر إليه أحد من أهل الملل سواه! [19] ذلك أن نظريات الطبيعيين والميتافزيقيين تتغير من عصر إلى عصر، وقد سبق للقوم أن أسسوا دينهم على نظريات السابقين منهم، فكيف يحصل للمعاصرين من أهل الكلام ما حصل لأسلافهم من اقتحام دوائر الفلاسفة الأكاديميين ببضاعتهم إن لم تكن قائمة على النظرية الكونية المعتمدة في هذا العصر، كما قامت بضاعة أسلافهم على نظريات الأولين؟ ولهذا ترى من رؤوس أهل الكلام المعاصرين أمثال سعيد فودة وعدنان إبراهيم ومحمد باسل الطائي والانكليزي اليوناني حمزة تزورتسيس والأمريكي حمزة يوسف وغيرهم، في محاولات الجمع والتوفيق بين تراث المتكلمين وفلسفات المعاصرين العجب العجاب!

فالعالم عند سعيد فودة – مثلا – يظل مبنيا من جواهر وأعراض كما كان عند المتكلمين القدماء، وقد باتت تلك النظرية عنده كما عندهم من بدهيات وضروريات العقل، وهو (أي العالم) مع ذلك مركب من جسيمات ذرية تحدث في خلاء الزمكان، فلا يكون زمان ولا مكان إلا بحدوث المادة (الجسيمات والطاقة) معهما (وهو محل اتفاق مزعوم فرح به صاحبنا بين تراث الأشاعرة الكلامي وميتافزيقا الفيزيائيين المعاصرين)، وهو ذلك النسيج الذي حدث بعد أن لم يكن، في الانفجار الكبير المزعوم، وحدثت

معه الجواهر الفردة التي لا تتجزأ، ومنها تتركب الجسيمات الذرية التي يدرسها الفيزيائيون المعاصرون في ميكانيكا الكم! ثم لما وجد أن أكثر الفيزيائيين يجعلون من العدم السابق على نقطة الانفجار كيانا وجوديا حصلت فيه بداية الزمكان المزعوم، طردا لنفس مذهبهم المعرفي الدهري الذي به قالوا بالانفجار الكبير وبفكرة الزمكان الوجودي هذه نفسها من الابتداء، رفع الرجل عقيرته حينئذ، وحينئذ فقط، بمواجهتهم ومخالفتهم في ذلك، حتى لا يترتب على قبول إثباتهم شيئا وجوديا ماديا (على اصطلاح المعاصرين) قبل الانفجار: نفي وجود الصانع، وإسقاط تراث أساتذته وأئمته من متكلمة القرون السالفة! بل يجب أن يبقى الانفجار بداية لمبدأ الحدوث نفسه، من أجل أن تظل نظريات السابقين قائمة، مع ما تفرع عليها من براهين تراثية وما نشأ عنها من لوازم ومقتضيات اعتقادية خالف القوم عليها ونازعوا ونافحوا عنها لقرون طويلة!

قال الأستاذ فودة في كلام له على صفحته على الفيس بوك: "علما أن دليل المتكلمين على وجوب حدوث الكون غير متوقف على نظرية الانفجار العظيم، كما تعلم، بل على أدلة عقلية، تكون تلك النظرية من شواهدها وأمثلتها لا دليلا منتجا لها.... وهذا وحدَه يثبت فعالية بعض الأدلة الكلامية حتى زمان النظرية النسبية العامة والخاصة ونظرية الكوانتم وغيرها من النظريات المعاصرة" اهـ. قلت فالرجل تعلم فيما تعلم اعتقاد المتكلمين الأولين بأن نظريات الميتافزيقا الكونية عند فلاسفة اليونان القدماء التي التقطها المتكلمون الأوائل وكيفوها وزادوا عليها ما زادوا وحذفوا منها ما حذفوا، هي من صريح المعقول ومن مقطوع العقل الذي يوصل إليه بقليل من التدبر والنظر! ولهذا يرى كما يرى تلامذته أن جنس أدلة تلك النظريات لابد وأنه أرقى وأعلى معرفيا من جنس أدلة الطبيعيين المعاصرين، فهو مقدم عليها في القبول والرد! والسبب في ذلك إنما هو سبب اعتقادي محض كما أشرنا! لأن الأشاعرة قد سبق منهم تأسيس دينهم على ما حرره أئمتهم من براهين وتأصيلات وتفريعات على تلك النظريات اليونانية القديمة! فإن لم تُجعل تلك النظريات التراثية من قطعيات العقل وبدهياته، أو على الأقل أقرب ما يكون – في قوة الثبوت المعرفي - إلى البدهيات والضروريات، كان أصل الدين عندهم معرضا لمثل ما تعرض له الفلاسفة من تقلب في تلك الأبواب، وتقارب في الأدلة، حتى يصبح أحدهم على نظرية ثم يبيت على خلافها، تقوم ملته على نظرية فلسفية يغيرها بين عشية وضحاها كما يغير أحدنا نعله أو إزاره!

ولا يخفى أن إطلاق اسم "الأدلة العقلية" على نظريات الأشاعرة في ميتافزيقا الجوهر والعرض ونزعه عن نظريات المعاصرين في نفس الأمر

هو ضرب من التحكم المحض! وإلا فلماذا يريد سعيد فودة إلزام خصمه الدكتور الطائي بتقديم أدلة "السادة الأشاعرة" خاصة على أدلة الفيزيائيين المعاصرين في تصورهم للواقع الخارجي، ولميتافزيقا الكون على المستوى الدقيق وعلى مستوى ما وراء السماوات المنظورة على السواء، بجعل الأولى "أدلة عقلية" – على عبارته المنقولة آنفا - والثانية (كنظرية الانفجار العظيم مثلا) أدلة من درجة أدنى في المنزلة المعرفية، بصورة ما أو بأخرى، حتى إن غايتها أن تكون شاهدا مؤيدا لها أو مثالا لها إن صحت، لا غير؟ لأنه لو رفع استدلالات الطبيعيين المعاصرين فوق استدلالات الأوائل (كما سلكه الطائي) أو حتى سوى بينهما في القوة "العقلية"، لترتب على ذلك فتح أصول النحلة الأشعرية نفسها للنقض والأخذ والرد، وهو ما تنماع معه أصول الدين عند القوم ويصبح صاحبها كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه! وهم يدركون ذلك ويعلمونه تمام العلم! مع أن تعريفات الغزالي – مثلا – للمكان والزمان ونظرياته في تصورهما ليست أرقى في المنزلة العقلية ولا أولى بالقبول من نظريات خصومه، ولا من نظريات أينشتاين – مثلا – في نفس الأمر!

بل إن من تأمل فيما تأسس عند المعاصرين من بنيان رياضي وتجريبي عملاق على أساس من معادلات أينشتاين الجارية على تلك التصورات الميتافزيقية عنده، على نحو لم يقع نظيره لميتافزيقا الغزالي وغيره من الفلاسفة القدماء، فلا يبعد أن تميل به نفسه المفتونة إلى رفع ميتافزيقا المعاصرين على ميتافزيقا الأوائل في ميزان العقل نفسه، وجعلها هي العقل الصريح والعلم الرجيح، كما سلكه الطائي! لا سيما وهو معلوم عند كل مطلع على أصول النسبية عند أينشتاين، أنه إنما ذهب إلى ما ذهب إليه من تصور ميتافزيقي بشأن حقيقة الزمان والمكان بسبب تجربته الذهنية المحضة وتنظيره العقلي A-priori في تصور حركة مركبة فضاء تسابق شعاع الضوء، مع اعتقاده ثبات سرعة شعاع الضوء في كافة الأطر القصورية! وإلا فأي اسم يليق بتغيير أينشتاين لمعنى الزمان نفسه على أثر ذلك التأمل العقلي المحض، إن لم يكن تنظيرا ميتافزيقيا محضا نظير ما صنعه الغزالي من قبل عندما تحكم (تبعا لفلاسفة اليونان) في معنى الزمان وأعاد تعريفه ليجعله مقصورا على العبارة عن تقلب الأعراض على الجواهر المزعومة، فأصبح لا يصح في اللغة عنده أن يقال "قبل العالم" أو "قبل خلق العالم"؟ هي طريقة واحدة تخرم العقل باسم العقل و"أدلة العقل"، تفرض عليه من الأقيسة الغيبية والشمولية ما تمجه الفطرة السوية، وتأباه النفوس المستنيرة بنور الوحي وميراث النبوة، سواء صيغ في قالب المنطق الصوري الأرسطي، أو في قالب جيومترية مينكوفسكي وريمان، والله المستعان!

وإني لأقطع بأنه لولا أن كان الأستاذ فودة رأسا متبوعا في تحرير المذهب الأشعري وتدريسه للناس في هذا الزمان، لمال إلى نظير ما مال إليه صاحبه الدكتور الطائي في نفس الأمر! ولكنه أراد أن يسلك سبيلا يقبل معه بضاعة المعاصرين في التنظير الميتافزقي، من غير أن يضطر إلى أن يرد بضاعة أسلافه وأساتذته الأقدمين في تصوراتهم لحقيقة العالم، لأن هذا يلزم منه انهيار النحلة الأشعرية كما لا يخفى، ومن ثم زوال أصل الدين عندهم، وهو ما لا يتصورونه! فإن أمكن أن يُجعل نوع الاستدلال الإمبريقي المعاصر متأخرا في المنزلة المعرفية (قوة الثبوت المعرفي) على الاستدلال القياسي الأرسطي القديم في تنطع الجميع على تلك المعاني الكلية التي أرادوا أن يؤسسوا بها تصورهم الكلي الشامل لحقيقة هذا العالم وما وراءه، كان ذلك أحسن عند الأشعري المعاصر ولا شك، لأنه يوهم – إذن - بأن نظريات المتكلمين القدماء تمتاز على ما جاء بعدها بأنها تعرف صحتها ببداهة العقل، أو على الأقل بالنظر الأولي A-Priori خلافا لنظريات الفيزيائيين! والواقع أن تحقيق الأمر خلاف ذلك كما تقدم، وكما يتبين للقارئ في مجلدات هذا الكتاب، بحول الله وقوته!

ولهذا اجتهد المتكلمون الأوائل في أن يظهروا أصول نظرياتهم وحدودهم وتعريفاتهم الميتافزيقية في قالب الحقائق اللغوية، حتى لا يسلك عاقل من العقلاء في تصور الواقع الخارجي مسلكا مخالفا لتلك النظريات إلا اتهم بأنه مصادم "للعقل" مخالف للسان العرب، والله المستعان! فلا يقول قائل في معنى المكان إلا بقولهم، ولا في معنى الزمان إلا باصطلاحهم، ولا في معنى الجسم والحادث والعرض والحد والتحيز والجهة .. إلى آخره، إلا بحدودهم وتعريفاتهم، وإلا كان مخالفا "للعلم الصحيح" و"العقل الصريح"! وما ذاك إلا لأنه إن قال بخلافه، لزم الترجيح، وهو ما من شأنه أن يرجع على أصول براهينهم في إثبات الصانع بالانتقاض، وهذا عندهم ممتنع بطبيعة الحال، لأن عليه قيام الدين كله!

وأما البروفيسور الفيزيائي العراقي المتفلسف "محمد باسل الطائي"، فعنده أن العالم هو كما عند سعيد فودة إجمالا، بيد أنه مسبوق بعدم وجودي، يراه موافقا لما نسبه إلى عموم المعتزلة من القول بأن العدم معلوم، وما دام معلوما فهو شيء والشيء موجود! ثم إنه (أي العدم) يتألف من جواهر وأعراض كالوجود، بيد أنها غير متحيزة، فإن قدر أن تحيزت تلك الجواهر، صارت إذن "موجودة" ومحلا للأعراض! فبناء على هذا، رجح الطائي ميتافزيقا المعتزلة (بحسب فهمه هو لمذهب بعضهم!) على ميتافزيقا الأشاعرة، لأنه رآها أوفق لدعاوى الكوزمولوجيين المعاصرين القائلين بأن الانفجار المزعوم إنما نشأ عن اضطراب كمومي في العدم

المزعوم السابق على لحظة الانفجار المزعوم! فرأى الرجل أن القول بجواهر غير متحيزة هذا يمكن أن يلبس بلبوس القول بعدم وجودي يتحول (عشوائيا) إلى مادة وطاقة وزمكان (جواهر متحيزة)، فيصبح هو هو، في إطار ما أسسه لنفسه من اعتقاد غيبي قائم على رفع السلطان المعرفي لفلاسفة الطبيعيين المعاصرين على كل ما يخالفها، وجعلها هي المرجح والمعيار في قبول مذاهب المتكلمين القدماء أو ردها! فالرجل نزل على كتب أهل الكلام والفلاسفة الإسلاميين القدماء على اختلاف مذاهبهم، فلم يجعل له هما إلا انتقاء ما كان منها موافقا لميتافزيقا الكونيين المعاصرين المعتمدة في أكاديمياتهم، ليجعله هو الحق وما خلافه وهما وجهالة، أو على أحسن الأحوال اجتهادا يرجى لصاحبه أجر المخطئ!

والقصد، وحتى لا يطول بنا الاستطراد ويخرجنا عن موضوع هذا المبحث، أن المتكلمين على اختلاف مذاهبهم، التزموا بقبول مصادر التلقي المعرفي عند الفلاسفة الأكاديميين المعاصرين لهم إجمالا، في بنائها للتصور بشأن الواقع الخارجي بكليته، وأعني بذلك استكشاف غيب السماوات والأرض وما وراءهما وما كان قبلهما وما يكون بعدهما بالقياس، وتقديم ذلك القياس المعاصر (نوعا) على النقل، بعد توفيقه مع قياس الأولين في نفس الأمر، فلا يقبل من النقل إلا ما أمكن تأويله تبعا لذلك القياس الميتافزيقي الذي هو عندهم العلم الأعلى الذي لا مدخل لنقضه على أصحابه! ولو تفطن المتكلمون لكونهم قد استدرجوا – في أصل طريقتهم التي بها يصبح المتكلم متكلما - للتلبس ببعض أصول نظرية المعرفة الدهرية نفسها، لأدركوا عظم الجناية التي جنوها على دين رب العالمين وهم مع ذلك يحسبون أنهم يجاهدون في سبيل الله، وأنهم أقدر الخلق على إفحام الملاحدة الدهرية وإلزامهم ببطلان ملتهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ووجه ذلك أن من أصول ومسلمات الملة الطبيعية في نظريتها المعرفية (مصادر التلقي فيها) اعتقاد أنه ما من موجود في الخارج إلا والعلم به عند البشر ممتنع (إثباتا أو نفيا) إلا من طرق القياس العقلي المعتمدة أكاديميا عند الطبيعيين أيا ما كانت. (وهي تلك الطريقة التي كانت فيما مضى طريقة طاليس وأرسطو وغيرهما من أصحاب النظريات الكونية والميتافزيقية، ثم أصبحت اليوم طريقة أينشتاين وهوكينغ وغيرهما من رؤوس تلك الصنعة في عصرنا هذا)! وهو ما ذهبوا إليه حتى ينزعوا عن وجود الباري جل وعلا كونه حقيقة فطرية معلومة بالبداهة، ومن ثم يصبح مجرد دعوى نظرية تفتقر إلى دليل قياسي خارج عنها يثبتها (على الطريقة المذكورة آنفا)، وأن أهل الأديان الأخرى إن لم يأتوا بالدليل المطلوب فليسوا على شيء ولا عقل لهم، لأنهم إذن لا يكون ما عندهم علما ولا يرقى

لأن يكون ضربا من ضروب "المعرفة" الجديرة بالقبول الأكاديمي! فلما أراد قوم من المسلمين أن يبرهنوا لهؤلاء العتاة المستكبرين على وجود الصانع الذي يعبدونه، من طريق تلك الأقيسة التي اشترطوها عليهم حتى يثبتوا التفوق عليهم في صنعتهم، وهم يحسبون بذلك أنهم يكسرون سطوتهم وسلطانهم على عقول أتباعهم، ظهر علم الكلام بين أيديهم من أثر ذلك، فكان مؤسسا من أول يوم على التسليم بصحة تلك الطريق الفاسدة في إثبات وتحصيل هذا الصنف من المعارف عند البشر، وإلى الله المشتكى!

والصواب في الرد على الطبيعيين عندما يزعم أحدهم أنه لا يجد "دليلا" على أنه مخلوق، ليس كما قبل هؤلاء دعواهم عدم الدليل أو خفاءه، فأجابوا طلبهم تأسيس الدليل على شرطهم الميتافزيقي الفاسد! ولكن أن يقال للفيلسوف الدهري الطبيعي "أنت سفساط مكابر جاحد، تكذب إن زعمت أنك لا تجد في نفسك علما فطريا سابقا بضرورة وجود رب بالغيب قد خلقك وخلق كل شيء، يملك أمرك وأمر كل شيء، فيجريه كله على ما يشاء وحده لا شريك له، فلا يحدث في خلقه شيء إلا بإرادته وحكمته، وأن ذلك الرب هو المستحق وحده لأن ينسب إليه النفع والضر وجعل الأسباب أسبابا والطبائع طبائع والسنن الكونية سننا، والاستقلال بتعليل كل شيء في هذا العالم، وهو المستحق لأن تخضع أنت نفسك ورقبتك لأمره ونهيه وإن رغمت أنفك، سبحان الله وتعالى عما تصفون!" ثم يقال له: "هذا هو الحق الجلي الواضح الذي إن رددتموه وزعمتم أنه لا يظهر لكم فلا عقل لكم عندنا ولا كرامة! فلسنا نقبل الخضوع لمصادر تلقي المعارف الغيبية عندكم حتى نبين لكم هذا المعنى الظاهر الجلي، بل إنا نجلّ عقولنا وننزهها عن ذلك السفه الذي أنتم غارقون فيه! ثم عند الله الموعد والملتقى، وإنما ننظركم إلى أجل مسمى، وليس الموت منا ولا منكم ببعيد، وحسبنا الله ونعم الوكيل!" هؤلاء ما يريدون الإيمان على أي حال، وهم قوم تأبى عليهم نفوسهم المريضة المستكبرة أن تخضع لرسول من رسل الله، فتنقاد له انقيادا وتسلم تسليما، ولولا هذا ما خاضوا في تلك اللجج بالنظر والقياس أصلا، وما أسسوا من أكاديميات ومدارس السفسطة في غيب السماوات والأرض وما وراءهما ما أسسوه من زمان المعلم الأول طاليس، عليه وعلى أمثاله من الله ما يستحقون!

فمن زعم من الملحدين أنه لا ملة له ولا دين، وأنه لا يزيد على أن ينفي ما يؤمن به غيره من أهل الملل والنحل ولا يثبت شيئا في محله، فهذا كذاب مكابر وهو يعلم أنه كذاب! وإنما هو على دين الدهرية الطبيعيين، الذين وصفنا لك أصول اعتقادهم الغيبي ومصادر تلقي ذلك الاعتقاد عندهم فيما مر معك، على ما في أفراد عقائدهم من تنوع واسع فيما يثبته كل واحد

منهم وما ينفيه في جوابه عن تلك الأسئلة الوجودية الكبرى التي يقرر بنو آدم ملتهم وما يدينون به بناء على أجوبتها! حتى عندما يزعم الملحد أنه "ربوبي" Deist، بمعنى أنه يعتقد بأن للعالم خالقا بالغيب، لكنه ليس "شخصا" فلا إرادة له ولا فعل ولا اختيار ولا وحي ولا رسالة ولا أمر ولا نهي ولا تكليف، فهذا في الحقيقة إنما يثبت لنشأة العالم سببا طبيعيا ميتا، لا حياة فيه، فيؤول مذهبه في النهاية إلى مذهب الدهرية في اعتقادهم الوجودي ولا فرق: أنه ليس وراء الطبيعة الميتة إلا سبب طبيعي ميت، بصرف النظر عما إذا كان بوسعنا الوصول إلى استكشافه ومعرفته – مبدئيا – أم لا! ولو أنه تدبر في مذهبه لما منعه مانع من التنظير الميتافزيقي في تصور ذلك السبب "الخالق"، وإذن فلن يملك إلا أن يقيسه على موجودات هذا العالم، فيجعله نوعا من "الطاقة" أو "القوة الطبيعية القديمة" أو "المعلوماتية" أو "الوعي الكوني السابغ" أو نحو ذلك! ولأنه لا يرى في ذلك الخالق فاعلية ولا تأثيرا إراديا على مجاري الأسباب والسنن الجارية في هذا العالم بعد خلقه، فسيعبد – لا محالة - الطبيعيين من أصحاب الصناعات العاملة على استعمال أسباب الأرض واستخراج المنافع الدنيوية منها، من دون الله تعالى، وإن لم ير نفسه عابدا متألها، لأنه إذن لن يملك إلا أن ينزل صفات الربوبية (كالاستقلال بالنفع والضرر وفعل ما لا ينسبه العقلاء الموحدون إلا لرب العالمين) على هؤلاء إجمالا، فتراه يطلب منهم ويؤمل فيهم ويرجو منهم ما لا يرجى إلا من رب العالمين! فالإنسان عابد متأله لا محالة، لأنه يدري أنه محدود قاصر في العلم والقدرة، مربوب خاضع لأسباب لا يملكها لنفسه مهما زعم ذلك لنفسه! فإما أن يعبد الإله الحق رب العالمين وحده لا شريك له، موحدا إياه في سلطانه على الأسباب كلها، وإما أن يشرك معه غيره أو يعبد غيره في محله بالكلية، بعدما ينزل عليه تلك الصفات بعضها أو كلها، نسأل الله السلامة والعافية!

ولا شك أنه عندما تكون الملة والفلسفة الغيبية على هذا النحو الرخو، واسع التنوع والتباين في موضوعات العقائد فيه، وهي مع ذلك موصوفة في أوساط "النخبة" بأنها نظام أكاديمي محكم Strict Academic Discipline في مجمل نظرياتها التي يؤسسها أصحابها لأنفسهم على أنها هي "العلم الحديث"، فإنها تصبح الملجأ والملاذ الاجتماعي لكل ناقم على أهل إحدى الملل الكتابية التي كان ينتمي إليها من قبل أو يجد في نفسه نقمة على أصحابها في مجتمعه القريب، يتترس بها ضد التهمة في الدين، بل وينطلق منها لاتهام أهل الملل ومحاربة الدين نفسه إن مالت نفسه إلى تلك الوجهة، بما يلجئ ضعاف النفوس والمفتونين من أهل الملل الكتابية لسلوك مسالك الدفاع اللاهوتي والكلام في الرد عليه، وكأنهم هم المتهمون المطالبون بدفع التهمة أمام البناء "العلمي" الأكاديمي العملاق الذي يؤسس عليه

الملحد منظومته الاعتقادية! ويصبح غاية مرام اللاهوتي أو المتكلم أن يثبت بالبرهان أن دينه لا يعارض "العلم الأكاديمي"، بل يوافقه تمام الموافقة! فهل فهمت الآن، أيها القارئ الكريم، السبب التاريخي في ظهور التأسيس الأكاديمي القديم لسفسطة الفلاسفة في الغيبيات وتنطعهم عليها بالنظر القياسي؟ إنها ملة الفلاسفة التي لا تقدم فيها القرابين والشعائر ولا تتلى فيها النصوص الدينية ولا تعامل معاملة الدين، وإنما يتخذ فيها الفيلسوف نبيا، والأكاديمية معبدا، والنظرية عقيدة دينية، من غير أن يسمى شيء من ذلك بتلك الأسماء!

فصل في بيان أن الكوزمولوجيا Cosmology أو "علم الكونيات" علم زائف [20]، وأنه ليس إلا طريق الدهرية الطبيعيين المعاصرين لتشييد أسطورتهم الميتافزيقية.

إذا كان الدين الطبيعي هو الاعتقاد القائل بأن العالم أو الكون Cosmos هو كل ما هنالك، وأنه هو الموجود القديم الذي منه ومن قانونه (الذي هو صفته الذاتية عندهم) نشأ كل حادث، وهو القائم بنفسه وبغيره، فمن غير المستغرب أن يصبح لعلم الكونيات Cosmology لدى الطبيعيين تلك المنزلة التي يجعلها أهل الملل الكتابية للعلوم المعنية بالاعتقاد الغيبي كعم العقيدة عند المسلمين وعلوم اللاهوت Theology عند أهل الكتاب! ولا يحتاج الإنسان إلى أكثر من مطالعة عبارة لعناوين وفهارس أشهر كتب ذلك "العلم" العصري حتى يتبين له مصداق ما نقول! فهو اليوم المجال الأكاديمي الرسمي الذي يتخصص أصحابه في بحث الأسئلة الغيبية الكبرى بشأن أصل هذا العالم بكليته، ما كان قبله إن كانت له بداية، وما وراءه إن كان له وراء، وما يكون بعده إن كانت له نهاية، يبحثون ذلك كله بحثا طبيعيا!

في عام 1988 الميلادي، نشر الفيلسوف الطبيعي البريطاني "ستيفن هوكينغ" كتابا هو الأشهر والأكثر مبيعا في كتب الطبيعيين في عصرنا هذا على الإطلاق [21]، سماه – بكبر وغرور لا يخفى -: "موجز لتاريخ الزمان" A Brief History of Time. نعم، تاريخ الزمان نفسه، هكذا، وليس ما انتهى إليه علمنا مما حدث في الزمان الماضي، مثلا! والكتاب مصنف على موسوعة الوكيبيديا على أنه من كتب ترويج العلوم بين العامة [22] Popular Science، ويعامل محتواه على أنه محتوى "علمي" يجمع للقارئ العامي غير المتخصص في الفيزياء النجمية الحديثة Astrophysics والكوزمولوجيا المعاصرة Cosmology آخر ما اجتمع لأصحاب تلك العلوم من أبحاث في دراسة تاريخ الكون، يعرضه عليهم في لغة "سهلة الفهم"، مع أنه في واقع الأمر كتاب ديني طبيعي صرف، من أوله إلى آخره، وحسبك بعنوانه دليلا على ما أقول! فإن صاحب الكتاب يدعي أن ما ستقرأه فيه هو تأريخ لما يسميه الناس "بالزمان"، هكذا!! فكل ما يزعم أهل الأديان، أنه جرى في أصل نشأة العالم من حوادث، وما كان قبل ذلك إن كان قبله شيء، وما يكون بعد فناء العالم إن كان بعده شيء، فالحق في ذلك كله هو ما يقدمه

لك صاحب الكتاب (بزعمه) يوجزه لك إيجازا! فأي شيء هذا إن لم يكن كتابا دينيا بالضرورة؟

قال هوكينغ في تمهيده لطبعة متأخرة من طبعات الكتاب: "إن نجاح كتاب التاريخ الموجز يدل على أن ثمة اهتماما واسع الانتشار (بين الناس) بالأسئلة الكبرى كالسؤال: من أين جئنا (نحن البشر)؟ والسؤال: ولماذا يوجد الكون على ما هو عليه؟" اهـ.

ثم قال في صدر الفصل الأول من الكتاب (الذي ترجم له بقوله: "تصورنا للكون"):

> في يوم من الأيام، ألقى عالم معروف (قيل إنه كان برتراند راسل) محاضرة عامة في علم الفلك. فقام بوصف الكيفية التي تدور بها الأرض حول الشمس، والكيفية التي تدور بها الشمس – بدورها – حول مركز تجمع نجمي عظيم الاتساع يقال له "المجرة". وفي نهاية المحاضرة، قامت سيدة عجوز قصيرة القامة في مؤخر القاعة وقالت: "ما أخبرتنا به قمامة كله. فالعالم في حقيقة الأمر إنما هو طبق مستو، محمول على ظهر سلحفاة عملاقة". فتبسم العالم ابتسامة عريضة قبل أن يقول مجيبا: "وعلى أي شيء تقف السلحفاة؟" فأجابت السيدة: "أنت ذكي للغاية أيها الشاب، ذكي للغاية، ولكنها السلحفاة فوق الأخرى نزولا إلى الأسفل!"
>
> أكثر الناس سيجد صورة كوننا على أنه برج لا نهائي من السلاحف، تصورا سخيفا نوعا ما، ولكن لماذا نظن أننا أحسن علما من هذا؟ ما الذي نعلمه بشأن الكون، وكيف توصلنا لمعرفته؟ من أين جاء الكون وإلى أين هو ذاهب؟ هل كان للكون بداية، وإن كان كذلك، فما الذي حدث قبلها؟ وما طبيعة الزمان؟ وهل سينتهي أبدا إلى نهاية؟ وهل بمقدورنا السفر إلى الماضي؟ إن منجزاتنا الأخيرة في علم الفيزياء، التي مكنتنا منها (جزئيا) تقنيات حديثة مذهلة، تقترح أجوبة لبعض تلك الأسئلة التي طال بقاؤها بين الناس. وفي يوم من الأيام، قد تبلغ تلك الأجوبة أن تكون في وضوح وجلاء الاعتقاد بأن الأرض تدور حول الشمس، أو أن تكون في سخافة برج السلاحف. الزمان وحده (أيا ما كانت حقيقته) هو الذي سيكشف ذلك.

قلت: تأمل كيف يستغل الرجل حقيقة أن هذه الصورة التي نسب وصفها للسيدة المذكورة لا وجود لها في دين النصارى (الذين هم جل من يخاطبهم

بكتابه أصالة) ولا في دين اليهود ولا عند أحد من أتباع الملل الكبرى الأكثر انتشارا في العالم، ليجعل من التهكم عليها والاستهزاء بها مدخلا لتسفيه كل عقيدة تخالف اعتقاد الطبيعيين وخرافتهم الغيبية التي يجعلها هي العلم والحق الذي لا يعلى عليه في جواب تلك الأسئلة! فدع عنك – أيها القارئ لكتاب الرجل – ضياع الفلاسفة القدماء وتخبط أهل الملل كلها وأساطيرهم السخيفة، واستمع إلى ما جئتك أنا به، فها هو العلم قد أقبل علينا أخيرا بعدما تهنا وضعنا في تلك القضايا الخطيرة لقرون طويلة! وإذا جاء نهر "العلم" بطل نهر "الخرافات"! والآن أصبح القارئ مهيئا نفسيا لأن يتلقى اعتقاده الغيبي ومن ثم دينه كله (القائم بالضرورة على أجوبة تلك الأسئلة التي ذكرها ونحوها) من "علم الفيزياء"، وأن يسقط كل دعوى تخالفه في أمر الغيب وما فيه! وهو ما غايته أن يخرج من دينه المخالف أيا ما كان، ويدخل فيما عليه "الفيزيائيون"! فأي شيء هذا إن لم يكن من قبيل الدعوة الدينية المحضة Indoctrination؟

والرجل كما ترى لا يبالي إلى أي اعتقاد ينتهي به النظر الفيزيائي في شأن الغيب وما فيه، حتى وإن حمله على الاعتقاد بالسلاحف الحاملة للعالم في الغيب! المهم أن يكون مصدر التلقي المعرفي (أو "العلمي" كما يسمونه) الأعلى والأعظم والمقدم على كل ما سواه في أبواب الغيب وفي جواب تلك الأسئلة هو علم الفيزياء والكوزمولوجيا، على طريقة الطبيعيين في قياس الغائب على الشاهد! هذا هو مدخل التأسيس الأول للملة الطبيعية الدهرية الجديدة عند دعاتها المعاصرين بداية من "كارل ساغان" (الذي راقه هذا الكتاب جدا وكتب التمهيد لطبعته الأولى في عام 1988 الميلادي)، ووصولا إلى "لورانس كراوس" وكتابه المناظر، الأشد إغراقا في الإلحاد والعدمية Nihilism، المسمى "كون من لا شيء" A Universe from Nothing!

ويقول هوكينغ في موضع آخر من نفس الفصل المذكور (ص. 3-4): "لقد تبنت الكنيسة النصرانية (أنموذج بطليموس الفلكي) على أنه هو هيئة الكون وصورته المتفقة مع النص الديني، لأنه تميز بتلك المزية العظيمة بتركه متسعا كبيرا خارج كرة النجوم الثابتة الأخيرة (الفلك الأخير) لوجود الجنة والنار" اهـ. قلت: فعلى هذا الكلام، يكون الفيلسوف الطبيعي اليوناني "بطليموس" قد حمل إلى البشر ذلك العلم الغيبي الذي لولاه ولولا ما ظهر للكنيسة (فيما توهمته) من تجويزه لإثبات الغيب وراء العالم المنظور بصورة ما أو بأخرى، ما وجدت الكنيسة أساسا تبني عليه زعمها بأن في الغيب إلها وجنة ونارا! ويكون الأنبياء إذن تبعا لبطليموس، وتكون "معقولية" اتباعهم مشروطة بموافقتهم لبطليموس، ويكون علماء الدين في جميع الملل

مضطرين للتلقي عنه والأخذ منه، حتى يستقيم لهم فهم ما ورثوه من نصوصهم، وحتى يحصل لهم من العلم بغيب السماوات والأرض (الذي أصبح هو موضوع ذلك العلم الدهري الخرافي الذي يقال له علم الكونيات Cosmology وصنوه المسمى بعلم الفيزياء النجمية Astrophysics) ما لا يستقيم لهم اعتقادهم في صفات الرب وأفعاله إلا به! فوالله إن لم يكن هذا الكلام تأسيسا اعتقاديا دينيا محضا لملة دهرية يراد لها أن تقوم مقام الملل الأخرى عند المخاطبين بذاك الكتاب، فليس في الأرض عقيدة ولا دين!

لقد أغرق الطبيعيون في التأسيس الدهري الإلحادي في أكاديمياتهم الطبيعية المعاصرة إغراقا والله ما عاد يجوز للمسلمين أن يتغافلوه أو أن يسكتوا عنه، لا سيما وقد بات أولادنا يتساقطون في الإلحاد والزندقة من حيث لا نشعر ولا يشعرون، ونحن نحسب – كما يحسبون – أنهم لا يدرسون في جامعات الطبيعيين من العلوم الدنيوية إلا ما ينفعهم وينفع المسلمين، فإنا لله وإنا إليه راجعون! هذا العلم الذي يقال له "علم الكونيات"، إنما هو في الحقيقة ضرب من التنظير الميثولوجي الدهري المحض، وحسبك حتى تحكم بذلك أن تتأمل في وصف موضوع ذلك العلم! نقولها ولا نبالي بما يرجع علينا الجهال والمفتونون من اتهام في العقل والعلم، فإن الحق أحب إلينا من أنفسنا، ولا نخاف في الله لومة لائم، هو حسبنا ونعم الوكيل ((وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ)) الآية [آل عمران : 187]! هذا العلم المزعوم، أيها القارئ الكريم، قد جُعل موضوعه دراسة تاريخ "الكون بكليته" The Cosmos، أي وضع النظريات التي تصف أوله وآخره وهيئته بكليته وحقيقته ونظامه المطرد الذي لا يتخلف (بحسب عقيدتهم الدهرية) في أي جزء منه، ونشأة ذلك كله وكيفيتها وما كان قبلها إن كان قبلها شيء وما يكون بعد هلاكه كله إن كان بعده شيء.. إلى آخره!

فبالله بأي حق يزعم الإنسان لنفسه القدرة على الوصول إلى العلم بذلك الغيب المطلق في السماوات العلا استقلالا بحسه وعقله، فيقرر هيئة السماوات (التي هي عندهم من جهلهم وقصورهم البشري سماء واحدة لا تتجزأ أصلا!) وامتدادها وطبيعتها وحدودها ونظامها وما يجوز عليها وما يمتنع .. إلخ، وهو لا يزيد إدراكه لما فيها على إبصار تلك الكواكب والنجوم والأجرام السماوية السابحة منها والثابتة التي زُينت بها سماؤه الدنيا القريبة، التي لا يرى من خلفها وفيما حولها إلا السواد والعتمة التامة، يرصدها بالمراصد والأقمار الصناعية ويتتبع ما تبثه من ضوء وإشعاعات وموجات وغير ذلك؟؟ أي حق هذا الذي تزعمه لنفسها نملة تقف على قطعة صخر في الصحراء، في أن تصف ما يكون في بطن البحر من أنواع الحيتان، مثلا، إذا كان منتهى عادتها وخبرتها هي وجميع من سبق لها اتصال

بهم من أفراد نوعها هو تلك الصخرة في تلك الصحراء؟؟ أوَيقبل من مثلها أن تعتقد بالقياس أنه ليس في الوجود إلا الصخور والرمال؟؟ بأي مستند من العقل يستجاز قياس ذلك الغيب العظيم بكليته (الذي يقطع العقل السوي بأنه أعظم – ولا بد – من هذا القدر المشاهد المحسوس من السماء الدنيا)، على شيء مما في الشاهد، حتى يوصل إلى العلم بما وراء المحسوس من هذا العالم الفسيح؟ أي كبر فوق هذا وأي غرور بالعقل أهلك وأردى لصاحبه من هذا يا عقلاء البشر؟!

نحن عندما نقيس الغيب النسبي (كمسألة طلوع الشمس غدا مثلا) على ما هو مستقر في استقرائنا من عادة الحس والمشاهدة (أننا نرى الشمس تطلع كل يوم من المشرق) فنقول إننا إذا أصبحنا يوما ما، فوجدنا ضوءا يدخل إلى الغرفة بالنهار، ففسرنا ذلك على أنه ضوء الشمس، وقلنا إن لدينا في هذا التفسير ثقة بالغة اعتمادا على العادة المطردة والتجربة البشرية المستفيضة، فهذا قياس مقبول نوعا، يقوم على استقراء معتبر لعادتنا البشرية! ولكن هل أقيسة الكونيين (الكوزمولوجيين) وافتراضاتهم التفسيرية هي من هذا النوع؟ الجواب: كلا، بل ولا تقترب منه! وإنما يفترضون ما في الغيب المحض افتراضا قياسيا Abductive hypothesis لا مستند له من استقراء العادة ولا من التجربة الحسية ولا غيره (لأننا من الواضح أننا لم يسبق لنا في تجربتنا البشرية أن اطلعنا على عالم كعالمنا، فشاهدنا سماواته كلها وحدوده كلها وهيئته الشاملة من أولها إلى آخرها، نفحصه بين أيدينا كما نفحص قطعة الصخر في معاملنا، نقيسها وما تتركب منه على نظائرها التي وقعت من قبل تحت عادتنا الحسية)!

فإذا ما فرغوا من الافتراض والتنظير والنمذجة الرياضية (التي هي ضرب من القياس في أنواع المقادير المتصلة له خصوصيته عندهم وللمعاصرين فيه اعتقادات ميتافزيقية قد بيناها وتكلمناه عليها في مواضع أخرى من هذا الكتاب)، قالوا ننظر في التجارب والمراصد ونرى، فإن شاهدنا من المشاهدات ما نجد متسعا لأن نتأوله تأولا يوافق ما فرضناه في الغيب (بناء على ذاك القياس الذي ضربوه تحكما كما تقدم)، دل ذلك على أرجحية ما فرضناه وعلى أنه أولى بالقبول من غيره من الفرضيات في نفس الأمر، وإلا رددناه وانتظرنا ظهور افتراض جديد وتنظير جديد! وكذلك إن وجدنا النظرية الجديدة والفرض القياسي الجديد ملائما لما هو مجموع لدينا من أقيسة وافتراضات ونظريات ونماذج سابقة، متناسقا معه بالجملة، كان ذلك أدعى لقبوله، وإلا رددناه أو طالبنا صاحبه بمراجعته!

هذا هو الطريق والمسلك الاستدلالي الذي يراه الطبيعيون للتنظير بشأن ما يسمونه بالكون بكليته Universe (أيا ما كان معناه عندهم)، وهو طريق لا

أقول أوهى من خيط العنكبوت، بل هو ضرب من التخمين والتخرص والرمي في عماية عريضة، لم يعرف النوع البشري ما هو أوهى منه ولا أشد تهافتا في طرائق النظر، ولا نظيرا له في حجم ما تراكم لديهم من خرافات مفصلة تفصيلا دقيقا على أثر تطبيقه في أبواب الغيب، ومن نفقة فاحشة في إجراء التجارب من أجل الانتصار له في كل قضية ميتافزيقية رفعوا به عقيرتهم فيها! فإنه يقينا لم يشهد أحدهم نظيرا لهذا الذي استجازوا لأنفسهم أن يفترضوه إثباتا ونفيا بشأن غيب السماوات وما وراء هذا القدر المشاهد المحسوس منها، وهم يعلمون ذلك جيدا، ولا يبالون!

قال هوكينغ في ص. 141: "أود أن أؤكد هاهنا على أن هذه الفكرة، فكرة أن الزمان والمكان ينبغي أن يكونا متناهيين بلا حافة Without Boundary هي مجرد اقتراح: (بمعنى أنه) لا يمكن استنباطها من أي مبدأ (فيزيائي) آخر. فكأي نظرية علمية، فقد تقدم في أول الأمر لأسباب صورية جمالية Aesthetic أو ميتافزيقية، ولكن يبقى الاختبار الحقيقي (لصحتها) فيما إذا كانت تمدنا بتنبؤات تتفق مع ما هو مشاهد محسوس." اهـ. قلت: سنبين في هذا الكتاب بحول الله وقوته وباستفاضة وهاء هذا المعيار الكلي في اكتساب المعارف بشأن الغيب وما فيه، وأنه ليس الجمال والتناسق المنطقي والأناقة الرياضية في النمذجة والتوصيف الرياضي دليلا على صحة الزعم القياسي الميتافزيقي في وصفه للواقع الخارجي، كما أنه لا يكاد العاقل يحصر الاحتمالات الغيبية التي يمكن افتراضها في نفس الأمر، التي يمكن – مبدئيا - أن تفرز لنا نبوؤات تتفق مع ما هو مشاهد محسوس بنفس القدر من الاتفاق!

أي أن منطق الافتراض بالقياس هنا فاسد واه من الابتداء، ومنطق الاستدلال بالمحسوس والمشاهد لنصرة ذلك الافتراض أغرق منه في الفساد والوهاء! ومع ذلك، يتشدق القوم بغرور وغطرسة منقطعة النظير بتسفيه بضاعة أهل الملل كافة فيما يتعلق بغيب السماوات والأرض وما وراءهما، يزعمون أن طريقتهم هي الأجدر بإنتاج المعرفة في تلك الأبواب! ونحن نقول بكل قوة: كذبتم، بل والله طريقتكم هي الأوهى والأفرغ والأبعد عن تحصيل المعرفة في أمر الغيب وما فيه! فحتى اليهود والنصارى – الذين جعلهم الرجل غرضا لكتابه – عندهم على الأقل ولو شبهة دليل سمعي في تلك القضايا، ينسبون شيئا من العلم فيها إلى كلام الملك الشهيد جل في علاه! أما أنتم فليس عندكم إلا الذوق والقياس والتنطع بالتعميم الكوني الشمولي بالمزاج والهوى، ثم تصميم التجارب وتأويل المشاهدات الرصدية كلها على ما هو أوفق لذلك، ثم يخرج السفيه منكم على السفهاء أمثاله

يقول: "ها قد جئناكم بما لم تستطعه الأوائل، فذروا ما معكم من الخرافة والأسطورة وخذوا عنا دينكم"، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وعلى الرغم من هذه الفهاهة والخفة العقلية التي عليها القوم في الأصول الفلسفية لنحلتهم الطبيعية الكوزمولوجية هذه، وعلى الرغم من أن جملة كبيرة من فلاسفة العلم المعاصرين (لا سيما في النصف الثاني من القرن العشرين) قد انكشف لهم رخاوة ووهاء الأساس المعرفي الذي يقيم عليه القوم أهراماتهم وأبراجهم الشاهقة في تلك الأكاديميات العلمية والدوريات المحكمة، إلا أنهم لم يزد أكثرهم جرأة على نقد ذلك الأساس (أمثال توماس كيون وويلارد كواين وغيرهما) على أن ادعى أن هذه الحالة البائسة من تقارب الأدلة (بل تساويها على التحقيق) إنما هي مما يعاني منه النظام المعرفي البشري كله، وليس منهج الدهرية الطبيعيين في استكشاف الغيب بأدواتهم، فلا يملك الباحث الطبيعي إلا أن يبني لنفسه القياس فوق القياس بالمزاج والهوى، ثم يتأول كل ما يراه على وفق ذلك القياس، ليمضي إلى مزيد من القياس والنظر، يوفق بين ذلك كله كيفما اتفق أن جرى به المزاج العام للمجتمع الأكاديمي في زمانه، ثم إذا شاء أن يتحول عن ذلك كله لأي سبب كان، رأيته ينزل إلى المفاهيم الأولى (الميتافزيقية) ليعيد تعريفها ثم يبدأ من جديد (كما فعله نيوتن ثم أعاده أينشتاين فيما بعد)، وكأنما يخلع الرجل قميصه وإزاره ونعليه ليلبس لباسا غير ذلك! فإذا اكتمل له ما أراد، واتفق أن لقي الأمر قبولا عاما في المجتمع الأكاديمي، أخذ الناس بعدئذ يعيدون معالجة بنائهم الاعتقادي كله حتى يتوافق بعضه مع بعض ويتناسق داخليا، وكأنه ليس في أصول الاعتقاد عند البشر شيء يُجزم به أو تعقد عليه النفس انعقادا منصرما، والأمر كله ذوق في ذوق، واتفاق اجتماعي غالب، لا أكثر ولا أقل! هذا هو ما انتهى إليه مذهب نقاد ما بعد الوضعية Post-positivists للطريقة التجريبية Scientific Method، ما بين مستقل ومستكثر!

ومع أن الطبيعيين لم يعجبهم هذا النقد بطبيعة الحال، وانتقدوا كلام هؤلاء الفلاسفة انتقادا لاذعا واتهموهم بالقول بنسبية الحقيقة، إلا أنهم لم يحكموا عليهم بالبتر الأكاديمي كما كان سيقع لهم يقينا لو أنهم صدقوا مع أنفسهم وبينوا أن أهل الدين الكتابي (أي الذي يزعم أصحابه أن بين أيديهم وحي من السماء في كتاب موروث فيه كلام الباري نفسه) هم أحظى بالمستند المعرفي الأعلى في أمر الغيب وما فيه بالضرورة (على الأقل ولو مبدئيا)، لأنهم لو صحت نسبة كتابهم إلى السماء كما يزعمون فإن العقل يمنع من أن يسري عليهم ذلك النقد المنهجي الشامل، ومن أن يرفع فوق ما عندهم من إرث معرفي أي قياس من أقيسة الطبيعيين في نفس الأمر مهما بدا

جذابا ومتناسقا منطقيا ورياضيا! فلو أنهم صرحوا بالسبب الحقيقي وراء تكافؤ أدلة الطبيعيين في شطر عظيم من نظرياتهم، وبينوا أنما هو عدوان القوم على الغيب، وأنه لا طريق لمعرفة ما هنالك إلا السمع، لألحقوهم – أكاديميا - بالخلقويين ودعاة "الأرض المسطحة"، وهو ما يعني الحكم عليهم بالإعدام أكاديميا! من هنا لزم أن يُبقي القوم على سيادة المنهج الطبيعي (إجمالا) فوق جميع أنواع المعارف البشرية في أمر الغيب كما هي عند الطبيعيين، على الرغم مما بدا لهم بينا جليا من تهافت أصحابه في نفس الأمر، حتى لا يطردوا من كنيستهم! فسحقا لتلك الأهواء التي تسوق الناس من رقابهم سوق النعاج، نسأل الله السلامة!

قال هوكينغ:

> لما كان أغلب الناس يعتقدون أن الكون ثابت إجمالا وغير متغير (يعني من جهة التمدد أو الانكماش)، كانت مسألة ما إذا كانت له بداية أم لا، مسألة من مسائل الميتافزيقا أو الثيولوجيا في الحقيقة. فقد كان من الممكن تفسير جميع ما هو مشاهد بنفس القوة سواء كانت النظرية المعتنقة هي القائلة بأزلية الكون أو القائلة بأنه قد بدئ تكوينه في نقطة من نقاط الزمان الماضي بحيث يبدو لنا وكأنه كان على هذه الحال من الأزل. ولكن في عام 1929 الميلادي، أثبت إدوين هابل ملاحظته Observation بالغة الأهمية التي مفادها أنك أينما نظرت، فسترى المجرات البعيدة تجري سريعا مبتعدة عنا. أو بعبارة أخرى، فإن الكون يتمدد. وهذا يعني أنه في الزمان الماضي، لابد أن كانت الأجرام كلها أقرب إلى بعضها البعض مما هي عليه اليوم. بل في الحقيقة إنه يبدو أنه كان ثمة زمان في الماضي، قبل حوالي عشرة أو عشرين ألف مليون عاما مضت، كانت فيه جميع الأجرام مجموعة في نقطة واحدة، وحيث كانت، من ثم، كثافة الكون لا نهائية. هذا الاكتشاف أدخل مسألة بداية الكون أخيرا في دائرة العلم الطبيعي Science.

قلت: هذا الكلام مشحون بالمغالطات التي سنبين للقارئ الكريم بحول الله تعالى كيف تلبس بها الميثولوجيا الميتافزيقية الدهرية بلباس العلم الطبيعي تلبيسا منهجيا، حتى يتوهم السفهاء والجهلاء من الناس أن الطبيعيين عندما يتكلمون اليوم عن علمهم ببداية الكون ونشأته وكذا، فإنهم أولى الناس بأن يقبل كلامهم، وإذن فلا عبرة بكلام من يخالفهم من خارج دائرة "العلم الطبيعي"، سواء من الفلاسفة أو من أهل الأديان الأخرى على اختلاف نحلهم ومصادر التلقي عندهم!

فأولا: قوله "لما كان أغلب الناس يعتقدون أن الكون ثابت إجمالا وغير متغير (يعني من جهة التمدد أو الانكماش)، كانت مسألة ما إذا كانت له بداية أم لا، مسألة من مسائل الميتافزيقا أو الثيولوجيا في الحقيقة." هذا كذب أقرع من وجهين، فأما الوجه الأول فإن الرجل يعلم جيدا أن كلا الاعتقادين (القول بعدم تمدد الكون أو انكماشه، والقول بحدوثه أو قدمه) كانا يرجعان إلى مصدر واحد عند القائل بأي منهما، ألا وهو النص الديني أو التنظير الفلسفي الميتافزيقي، وأنه لم يقل أحد من الناس قط سواء أصحاب المصدر الديني أو المصدر الفلسفي، بأن إدخال مسألة حدوث العالم أو قدمه في دائرة البحث الديني أو البحث الفلسفي سببه أن العالم كان يبدو ساكنا ثابتا غير متمدد!

وأما الوجه الثاني فهو التلبيس في استعمال كلمة ميتافزيقا في هذا السياق! فالكلام مشعر بأن معيار الحكم على المسألة بأنها من مسائل الميتافزيقا أو الفيزيقا، إنما هو إمكان إدخالها بوجه من الوجوه تحت طائلة "البحث الطبيعي"، وهذا غير صحيح! فإن نحن عرفنا الميتافزيقا على أنها النظر في أمر الغيب المحض للسماوات والأرض الذي لم يشهده البشر ولم يشهدوا له نظيرا قط [23]، تبين لنا أن كلتا المسألتين كانتا فيما مضى من مسائل "الميتافزيقا" (نوعا) عند الباحثين فيها (أي من غير طريق النص الديني)، وهما اليوم كذلك عندهم ولا فرق! وإنما غاية ما في الأمر أن أصبحت جملة من موضوعات الميتافزيقا مادة لبحث الطبيعيين التجريبيين في القرنين الماضيين (كما كان هو دأب الفلاسفة الطبيعيين منذ زمان طاليس)، بعدما صارت لهم مؤسسات أكاديمية مستقلة عن أكاديميات الفلسفة الميتافزيقية، وصار الفيلسوف الطبيعي المتخصص في أي مجال من مجالات التنظير الطبيعي (بما في ذلك تنظيرهم في أمر "الكون" بجملته) يقال له "عالم" Scientist تمييزا عن "الفيلسوف" Philosopher، مع أنه يأتي من عنده بحدود وتعاريف ميتافيزيقية صرفة، من غير أن يشعر بأنه جار فيها على طريقة الفلاسفة، يطلق إطلاقاتهم من غير أن يشعر بما ترجع به عليه من لوازم ومقتضيات! وهو ما لأجله أنكر أينشتاين على تلامذته تقصيرهم في دراسة فلسفة العلم، كما نقلناه في موضعه من هذا الكتاب، إذ كيف يعلمهم تعريفه الفلسفي الجديد للزمان والمكان، مثلا، وهم لا دراية لهم بمفهوم التعريف الفلسفي نفسه؟! إذن يقلدونه تقليد العميان!

قول هوكينغ: "فقد كان من الممكن تفسير جميع ما هو مشاهد بنفس القوة سواء كانت النظرية المعتنقة هي القائلة بأزلية الكون أو القائلة بأنه قد بدئ تكوينه في نقطة من نقاط الزمان الماضي بحيث يبدو لنا وكأنه كان على هذه الحال من الأزل .. إلخ" قلت: ولا يزال الأمر كذلك قطعا، حتى بعد ما

ذهب إليه إدوين هابل في تفسيره لألوان أشعة النجوم المرصودة البعيدة بأن سبب كونها على ما هي عليه هو ظاهرة "الانزياح الأحمر" Redshift! فإنه تظل التفسيرات الممكنة المتساوية في الجواز العقلي لا حصر لها، وكلها تتفق تمام الاتفاق مع ما هو مشاهد محسوس ولا فرق! أليس من الجائز أن يقال إن النجوم المرصودة على هذه الألوان إنما تنبعث منها الأشعة على هذا النحو مع كونها ثابتة في مكانها (على التسليم تنزلا بأن الأرض هي التي تدور بالنسبة إليها)، لا أنها ترسل أشعة بتردد يبدو مختلفا بسبب كونها تتحرك مبتعدة عنا؟ الجواب بلى! بل أليس من الجائز عقلا أن يقال إن الأصل في النجوم كلها أنها ترسل أشعة حمراء اللون، وإنما مال طولها الموجي المرصود عندنا إلى اللون الأبيض لأن النجوم كلها تمضي إلى مزيد من الاقتراب منا وليس الابتعاد كما زعم؟ اللهم بلى! فإن جوزنا أن يكون الطول الموجي الحقيقي مخالفا لما نرصده بسبب كون النجوم تتحرك مبتعدة عنا أو مقتربة منا، فأي شيء يرجح فرض الابتعاد على فرض الاقتراب أو على فرض السكون؟ هم يقولون العبرة بالرجحان الاحتمالي وليس بالجواز العقلي، إذ كل ذلك جائز عقلا، ونقول صدقتم! فمن أين يأتي الترجيح الاحتمالي إذن؟ هذا على أساس أنه قد تراكمت لديكم الخبرة السابقة بأكوان متعددة رأيتم فيها بأعينكم أن النجوم تتباعد، فعرفتم أن هذا هو السبب في كون الأشعة فيها تميل إلى الأحمر، ومن ثم لما نظرتم في عالمنا هذا، ووجدتم الميل نفسه، فسرتموه بذلك تأسيسا على الخبرة والعادة؟؟ أبدا!! لا خبرة ولا عادة ولا قريب من ذلك! فعلى أي أساس ينتهض بالترجيح؟؟

تأمل كيف أنه هو نفسه عندما ذكر افتقار السابقين إلى مرجح قياسي طبيعي فيما إذا كان العالم حادثا أو قديما، قال إن الكون كان فيما مضى "يبدو لنا وكأنه كان على تلك الحال من الأزل"! فبأي شيء يترجح اليوم أيٌّ من تلك التفسيرات لمشاهدات هابل على الآخر؟؟ لا شيء إلا محض التحكم في تأويل المشاهدات، بعد الإغراق في بناء التأويل فوق التأويل، والافتراض فوق الافتراض، والتفنن في إحكام الربط بين تلك الأساطير والأوهام كلها بحيث يخرج المجموع في النهاية متناسقا داخليا، ليبدو في النهاية "وكأنه" تصور للعالم Worldview مطابق للواقع!

دعني أيها القارئ المحترم أضرب لك مثلا يتضح به المراد بإذن الله تعالى. أقول بعون الله تعالى إن كلنا يرى ما هو مبثوث في الأرض في كل ركن منها من أنواع الدواب والمخلوقات الحية التي قال الله فيها: ((فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) الآية [النور : 45]،

فمن كان عاقلا صادقا مع نفسه، مؤمنا بالحق الذي بعث الله به رسله، فسيشهد قاطعا جازما بأنه ما تنوعت أنواع الدواب على هذا التنوع إلا بقدرة الله ولحكمته سبحانه، وبكيفية غيبية متمحضة في التغييب، سواء في أصل الأمر أو بعد الطوفان، ولا يزيد في أصل ذلك كله وكيفيته على أن يقول بما جاء في الكتاب والسنة، لأنه يعلم أنه لا قياس لشيء من ذلك على ما هو واقع تحت عادتنا من نظام الدواب وتكاثرها وتغيرها عبر الأجيال ونحو ذلك! فهو نظام مخلوق مربوب، خلقه ربه على نحو وبترتيب لا يُعلم إلا بالسمع، ولا يقاس على شيء البتة. أما الناظر الدهري الطبيعي فيبدأ من مقدمة مفادها أنه لا موجود بالخارج إلا ذلك النظام نفسه، فليس في غيب الزمان الماضي عنده إلا قوانين الطبيعة، وليس قبل قوانين الطبيعة الجارية إلا نظيرها من نوعها، فإذا كان اعتقاده الغيبي الوجودي هو هذا، لزم ألا يكون ثمة فرق عنده (منهجيا) بين الحادث المغيب تغييبا نسبيا والحادث المغيب تغييبا مطلقا! فكما يفسر ظهور نوع البغل – مثلا – بجريان سنة طبيعية على تزاوج الحمار والحصان، يفسر ظهور جنس الدواب التي تمشي على رجلين من تزاوج دواب من جنس آخر، كالزاحفة على بطنها أو التي تمشي على أربع! مع أن الفارق واضح بين المسألتين، وهو أن المسألة الأولى جرت العادة بمشاهدتها ونظائرها في كل مكان، خلافا للمسألة الثانية! فيجد العقل أساسا للأولى دون الثانية! لذا نقول إنه بينما يصح إعمال منهج الافتراض التفسيري والاستقراء التفسيري Abduction في دراسة نوع المسألة الأولى، فإنه لا يصح على الإطلاق في نوع المسألة الثانية! ومن زعم اتحاد الجهة أو النوع فهو مكابر مماحك!

فما الذي جعله عندنا لا يجوز ولا يصح ولا يفيد علما ولا يفضي إلى معرفة؟

أننا نشهد بما يشهد به العقلاء الصادقون من أن المسألة الثانية مسألة غيبية محضة، لا نظير لها في عادتنا (أعني ظهور أول نوع من أنواع الدواب يمشي على رجلين)، وأنها إذن لا مصدر لتلقي المعرفة فيها إلا السمع وحده! فلأننا موحدون نعتنق دين الفطرة، ترانا نفرق تفريقا صحيحا بين الغيب النسبي والغيب المحض، ولا ندخل هذا تحت هذا، ولا نسوي بين النوعين في طرق تلقي المعرفة بكل منهما! خلافا لمن جعل الواقع كله خاضعا لنوع النظام الطبيعي، فاستجاز أن يقيس الغيب المحض على ما هو مشاهد معتاد من أمر العالم!

لذا فعندما يسخر هوكينغ في محاضرة من محاضراته من بعض قبائل الأفارقة التي تعتقد أن الإله "بامبا" المزعوم تقيأ السماوات والأرض فخلقهما بعد أن لم يكن لهما وجود، فحق لنا أن نسخر منه كما يسخر منهم، لأن كلا الفريقين يقيس في غير مقاس، ويضرب بالنظر في غير محل للنظر،

يرجم بالغيب رجما فاضحا لا علم فيه ولا عقل، مهما بدا للناس مزخرفا بالمعادلات الرياضية والتجارب العلمية باهظة الكلفة دقيقة الصنع والتطبيق! بل إن الخرافة الطبيعية أسخف وأغرق في الخرف والسفاهة تحقيقا! ذلك أن القبيلة المذكورة عندما زينت لها شياطينها أن تخترع من أكياسها قصة مزعومة لنشأة السماوات والأرض، قاس بعض كبرائها ابتداء العالم ونشأته بعد عدمه على عملية القيء والإخراج في الإنسان، أعزكم الله، مع نسبتهم ذلك الفعل إلى الباري الذي يثبتونه بالغيب، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا! أما الدهرية الطبيعيون فعندما غرتهم الشياطين بعقولهم وفلسفاتهم وأدواتهم، اخترعوا من أكياسهم قصة للنشأة قاسوا فيها ابتداء العالم بعد عدمه على حادث الانفجار وانتشار الشظايا المنفجرة في كل جهة، مع نفي الباري ومبدأ الفاعلية والتعليل وراء تلك النشأة من الأساس، يجعلونه حدثا "طبيعيا" يقاس بجملته وتفصيله على ما هو "طبيعي" من نظام هذا العالم كما يرونه! فأغرقوا في الهذيان بناء على ذلك القياس الذي جوزوه إغراقا، حق للإفريقي الذي يعبد الصنم ويرقص حول شعلة النار أن يضحك منه ملء شدقيه، والله المستعان على هؤلاء وهؤلاء جميعا!

فبالله أيها العقلاء، إن نحينا جانبا فداحة البطلان البدهي الراجع إلى ضرورة العقل والفطرة، فأي شيء يرجح قياس الطبيعيين الدهريين الكوزمولوجيين على قياس الوثنيين الأفارقة في قضية يشهد العاقل السوي بأنها من الغيب المحض الذي لا يوصل إلى العلم بشيء منه إلا بالسمع الصحيح على رسول من رسل رب العالمين، بعد الفطرة السوية المستقيمة؟؟ كلا الفريقين يقال لهما: ((إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)) الآية [يونس : 68]! أي فضل يكون لخرافة الطبيعيين على خرافات من عداهم؟ ألأن الدهرية عندهم أموال طائلة وصناعات باهرة تمكنهم من تصميم التجارب التي يتأولون مخرجاتها لنصرة فرضياتهم الواهية بالتحكم المحض؟؟ ألأنهم متفننون في سباكة خرافاتهم في قوالب التعبير الرياضي المنمق والقياس الجيومتري البديع أشكالا وألوانا، بما لا يحسنه أصحاب "نظرية القيء" الكوزمولوجية؟ ألأنهم اكتشفوا فيما اكتشفوه من سنن العالم السببية ما تخلف عنه هؤلاء الأفارقة الجهلاء، ففاقوهم في العلم بأسباب الأرض والسماء؟ ما الذي يجعل لهؤلاء سلطانا على الغيب ليس لأولئكم، وبأي عقل يرجح ما عندهم على ما عند غيرهم في ذلك، إلا أن يكون هو الاعتقاد الدهري الإلحادي المحض في الكفر بالغيب وما فيه، الذي تواطأ الأكاديميون المشتغلون بالطبيعيات في زماننا هذا على جعله أساسا لمنهجهم المعرفي كله من أوله إلى آخره، إلا من رحم ربك وعصم؟

بمثل هذا التحكم العقلي والفلسفي في أمر الغيب، مضى فلاسفة الميتافزيقا الطبيعية في القرون الغابرة في بناء ميثولوجياهم طبقة فوق طبقة ولا فرق، ولا جديد إلا في زيادة المرصودات والمشاهدات التي اخترع لكل واحد منها من التأويل ما يوافق النظرية، وصيغت في أبهى القوالب الرياضية والجيومترية! أرسطو عندما تكلم عن الأفلاك المتحركة ذاتيا بعقول واعية (قياسا على المخلوق العاقل)، ثم نيوتن عندما تكلم عن نفس الأجرام فجعلها لا نهاية لأعدادها في كل جهة، يتحرك المتحرك منها ويسكن الساكن بتأثير طبيعة أو قوة ذاتية جاذبة (قياسا على طبائع الأجسام القريبة من الأرض)، تجعلها تسبح في بحر "الأثير" المزعوم الذي يملأ الفراغ المطلق بلا حد ولا نهاية، ثم أينشتاين عندما اختار أن يجعل حركة الأجرام نفسها ناشئة كلها عن تأثير كتلتها على نسيج فراغي مزعوم مشابه لأثير نيوتن (قياسا على ضغط الكرة على المستوى المطاطي)، بيد أنه مركب من خليط وجودي بين الزمان (هكذا) والمكان (هكذا)، ألم يكن هؤلاء جميعا يعلمون أن ما يزعمونه، وجوديا، في غيب السماوات، لا يمكن أن يدرك بالبصر، ولا إحاطة لحواسنا بنظير له، وأن المشاهدات المحسوسة تقبل أن "تفسر" بما يوافق جميع تلك الدعاوى الغيبية وغيرها على السواء (إن سلمنا بسلامتها كلها من الخلف العقلي ومناقضة الفطرة)؟ بلى! فما الذي يرجح هذا الأنموذج الميتافزيقي على الآخر أو هذا التفسير الغيبي على ذلكم في مرجحات أصحاب التجريبيات؟! لا شيء إلا الذوق والمزاج الأكاديمي العام، السائد في ذلك الوقت عند سادة الأكاديمية الطبيعية وأساتذتها!

فإذا قدر لنظرية ما أو فرضية تفسيرية معينة أن تلقى قبولا عاما لديهم في عصر من العصور، جعلوها هي العلم وخلافها هو الجهل والأسطورة والخرافة .. إلخ، ثم كان الناس تبعا لهم! ثم تراهم يتوافرون كلهم على التفصيل فيها والتكلف والتعمق البالغ بالأقيسة والتأويلات بعضها فوق بعض طبقات، إلى أن يتفق أن يتغير الذوق الأكاديمي العام بعد قرنين أو ثلاثة أو أكثر، ويصاب القوم بالملال والضجر مما أغرقوا فيه من الوهم العميق، فيكتب لنظرية جديدة أن تبدأ بهم في صفحة جديدة، ليعاد مسلسل التوهم العميق من أوله، ولتصبح نفس المشاهدات التي استعملت من قبل على أنها أدلة لنصرة النظرية الأولى، أدلة لنصرة النظرية الثانية، وتصبح الفرضية الأولى جهلا وكلاما تاريخيا قديما، والفرضية الثانية هي العلم "الحديث" الذي لا يليق بالعاقل أن يتخلف عنه! وقد تناولنا مسألة تكافؤ الأدلة الحسية عند الطبيعيين في أمر الغيب بتوسع في مباحث مطلوبة من هذا الكتاب، والله الهادي للصواب.

والحاصل أنه من التلبيس والمغالطة الفجة أن يقال كما قال هوكينغ إن إدوين هابل توصل أخيرا إلى "مشاهدة" Observation مفادها أن النجوم تتباعد عنا في كل اتجاه، وأن هذا من شأنه أن ينقل المسألة من كونها موضوعا للخرف الميتافزيقي إلى كونها موضوعا للتنظير التجريبي القابل للاختبار بالحس والتجريب! ليست هي مشاهدة ولا غيره، وإنما هو تفسير متعسف لترددات الموجات الواردة إلينا من النجوم كما رصدها الرجل! ولو شئنا أن نهدم عليهم نظريتهم تلك بنفس أدواتهم الواهية في الترجيح، لقلنا إن هذا التفسير الذي ذهب إليه هابل تفسير فيه فرض أنطولوجي ثقيل للغاية، زائد على غيره من التفسيرات الجائزة عقلا، ألا وهو فرض الحركة المسرعة بالغة السرعة لكل نجم يدخل تحت رصدنا ومشاهدتنا في جو السماء! فعلى طريقة الاقتصاد في الافتراض، تكون نظرية هابل أجدر بالرفض والرد من القول بثبات النجوم في أماكنها، وتفسير ذلك الميل للحمرة بما سوى ذلك من التفسيرات الجائزة عقلا!

ثم إن هابل لا يقف عند حد تفسير المشاهدة بأن النجوم الآن تتباعد، بل يزيد فيفرض – تحكما وتعسفا أيضا – أنها كانت ولم تزل تتوسع وتتباعد على نفس الوتيرة بداية من نقطة في الماضي كانت كلها مجموعة في محل واحد (بناء على صورة من الصور الانتقائية لمعادلة المجال كما بينته في محله من هذا الكتاب)! ليس هذا وحسب، بل ويزعم أنها كانت نقطة عظيمة الكثافة كان من صفتها كذا وكذا! مع أن نفس هذه المشاهدات التي استند إليها هابل وغيره من أصحاب نظرية الانفجار المزعوم، تبقي كما هي لو صح أن بدأت النجوم كلها في التباعد قبل ألف سنة فقط، بعد أن كانت غير متباعدة لفترة أطول! ونتوقع كذلك أن نرى المشاهدات نفسها لو صح أن كانت النجوم فيما مضى تتقارب، ثم توقفت لفترة من الزمان لأيما سبب كان ثم أخذت في التباعد، واتفق أن رصدناها نحن اليوم على ما نراها عليه (أي فيما هو تأويل الأرصاد عندهم)، وسواء كانت سرعتها المزعومة ثابتة أو متقلبة عبر مئات أو آلاف السنين! ونتوقع كذلك أن نرى المشاهدات نفسها لو صح أن كان التباعد مبتدئا من جسم ضئيل الكثافة عظيم الحجم، كانت كتلة النجوم كلها مجموعة فيه، ثم تفرقت، خلافا لجعلهم إياه نقطة لا نهاية لكثافتها! فلو طبقنا "شفرة أوكام" على تلك التفسيرات والتأويلات المتكلفة بعضها فوق بعض طبقات، من باب المقارنة والمفاضلة، لكان اختيار هابل هو الأولى بالترك لا بالقبول!

ولكننا لا نرى في تلك الطريقة ولا في غيرها من طرائق القوم مرجحا بين الفرضيات النظرية كما يوهمون هم به أنفسهم، مهما استحسنوا ما استحسنوه من نظريات وفرضيات، والأمر يبقى في عصرنا هذا كما كان في

زمان فيثاغورس وطاليس وأفلاطون، عدوانا عظيما بالعقل والنظر على الغيب المحض، والله المستعان! سمها بحثا فلسفيا ميتافزيقيا، أو بحثا طبيعيا تجريبيا، أو بحثا كوزمولوجيا فيزيائيا، أو ما شئت من اسم بعد، فالعبرة بالحقائق لا بالأسماء!

فالآن إن نحن حكمنا على هذا المنهج القياسي عند الكوزمولوجيين (ضرب الأقيسة التفسيرية للغيب المحض وما فيه) بالفساد وبأنه لا يعدو أن يكون ضربا من الخرافة والتخمين الفارغ، وأنه لا يوصل منه إلا إلى تلك الأساطير المتراكمة التي يرجو أصحابها أن يُخضعوا لها رقاب أهل الأديان المخالفة وأن يجعلوهم تبعا لهم فيها، فلا يقال لنا أنتم جهال لا تعقلون، لمجرد أننا نرفع ما نزعم أنه وحي الرب تبارك وتعالى فوق ذلك الهراء، الذي هو عندنا موضوع تحت الأقدام! بل إن هذا والله لهو العقل بعينه والحكمة بعينها وإن رغمت أنوف الطبيعيين! ينبغي أن يقال لهؤلاء ولكل مفتون بهم، بكل قوة وبكل حزم: أقصروا يا هؤلاء ولا تتطاولوا على الغيب وعلى علوم لا يوصل إليها من طرائقكم الواهية السخيفة تلك، التي بلغت بكم سفاهتكم أن أنفقتم عليها من الأموال ما يكفي لإطعام سائر الجوعى وعلاج سائر المرضى لعدة أعوام متتابعة في قارتين كاملتين من قارات هذا العالم المبتلى بكم وبغروركم منقطع النظير، واشهدوا بما يشهد به كل عاقل سوي النفس من انقطاع الطريق إلى العلم بذلك الغيب العظيم وما فيه إلا من طريق السمع والوحي الصحيح وحسب!

سأنقل إليك الآن – أيها القارئ المحترم – مزيدا من الفقرات من كتاب "هوكينغ" حتى أبين لك أن علم الكوزمولوجيا والفيزياء النجمية هذا إنما هو البديل الدهري المعتمد أكاديميا لعلوم الاعتقاد في صفات الرب وأفعاله وعلوم اللاهوت والإلهيات والنبوات عند أهل الملل الأخرى، وأنما هو تأسيس ديني "لالاهوتي" محض Atheological Doctrine، رضي من رضي وأبى من أبى! فالرجل خلاصة ما عنده أنه يقول: لقد نظرنا في هذه النجوم وتوسعنا في تتبعها ودراستها، ففرضنا لها من أكياسنا نظاما كليا يحكمها بأنواع من القياس على جملة النظم الجارية تحت عادتنا هنا على الأرض، وفرضنا من ثم للكون بكليته تاريخا ماضيا ومستقبلا بأمثال تلك الأقيسة كذلك، ثم ركبنا القياس فوق القياس والوهم فوق الوهم طبقات كثيرة، ولبسناه بالأقيسة الجيومترية لبوس أنموذج رياضي معين يصفه كله وصفا كاملا، حتى حصل لنا "العلم" من مجموع ذلك بجميع ما هنالك، وبأنه لا غيب ولا خالق بالغيب ولا جنة ولا نار ولا عرش ولا آخرة ولا شيء من ذلك!!

ونحن نعقب ونقول: بحسب امرئ مسلم أن يتأمل في كتاب "هوكينغ" هذا الذي بين أيدينا، بل في عنوانه وحده، حتى يدرك السبب الوجيه والحكمة

البالغة في قول النبي صلى الله عليه وسلم "وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا" كما تقدم بيانه، والله الهادي إلى سواء السبيل!

قال في صفحة 146:

> إن فكرة كون المكان والزمان يشكلان سطحا متصلا بلا حافة لها مقتضياتها العميقة فيما يتعلق بالدور الذي يلعبه الإله God في شؤون الكون. فمع النجاح الذي أظهرته النظريات العلمية في توصيف الحوادث (الأحداث Events)، فإن أغلب الناس قد انتهوا إلى الاعتقاد بأن الإله يسمح للكون بأن يترقى وفقا لجملة من القوانين، ولا يتدخل في الكون ليخرق تلك القوانين. ولكن هذه القوانين لا تخبرنا كيف كان للكون أن يبدو عند بدايته، بل يظل الأمر خاضعا (لإرادة) الإله في ضبط تروس الساعة واختيار الكيفية التي يبدأ بها العالم. فطالما كان للكون بداية (يعني في الزمان)، فبوسعنا أن نفترض أنه كان له صانع. ولكن إن صح أن كان الكون في الحقيقة محتويا لنفسه تمام الاحتواء Completely Self Contained، بلا حافة ولا حد (يعني في الزمان والمكان)، فإذن لن يكون له بداية ولا نهاية: وإنما سيكون موجودا لا أكثر it would simply be. فأي محل يبقى إذن للصانع؟

قلت: لا محل على الإطلاق ولا شك، وهذا هو مطلب الفيلسوف الطبيعي وغايته الأخيرة بطبيعة الحال! ولكن حتى على المذهب القائل بأن الزمكان المزعوم هذا سطح له حافة وحدّ، فإنه لا يبقى للباري محل على التحقيق، إلا أن يكون صنما معطلا عن صفات الأفعال إن قدرنا وجوده مع انعدام هذا العالم المخلوق، لأن الحدوث والحوادث ينحصر معناهما الميتافزيقي في نسبية أينشتاين العامة على ما هو واقع داخل الزمكان المزعوم لا خارجه، لأنه لا يتصور للحدوث معنى إلا في إطار معاني المكان والزمان، وهما (أي الزمان والمكان) يشكلان ذلك الكيان الوجودي الذي زعم الكوزمولوجيون وفقا لأنموذج الانفجار العظيم أنه قد نشأ في الانفجار بعد أن لم يكن! فلا شيء يجري عليه معنى الزمان أو المكان خارج الزمكان، وإذن فلا حدوث لشيء على الإطلاق ولا تجدد للأفعال والإرادات ولا شيء من ذلك، إن قدر وجود رب فاعل مريد دون أن يكون وجوده محايثا ومقارنا للزمكان المزعوم! وهو ما يلزم اللاهوتيين من أجله أن يحكموا بوجوب وجود الزمكان هذا ما دام في الوجود رب صاحب أفعال وإرادات، وإلا صار وجوده كعدمه، وإذن فلا يمكن أن يكون هو صانع الزمكان هذا من خارجه، لأنه لا خارج له

أصلا، ولا قبل يتقدمه، إذ لو كان هو من أحدثه للزم أن يكون له وجود متقدم زمانيا على وجود الزمكان نفسه، خارجا مكانيا عنه، وهذا عندهم ممتنع!

وقد أطلت النفس في بيان بطلان نظرية الزمكان الوجودي المتمدد هذه وما اخترعه اللاهوتيون المعاصرون (كويليام لين كريغ الأمريكي، ومن تابعه وتلقف كلامه من الأشاعرة وغيرهم) من بدع بشأن علاقة الباري وصفاته وأفعاله بالزمان خروجا من تلك المآزق التي تلبسوا بها من قبولهم فلسفة الكوزمولوجيين المعاصرين، في غير هذا الموضع، وإنما أردت أن ألفت نظر القارئ الكريم هاهنا إلى الطريقة التي يقرر بها هوكينغ (نبي الكوزمولوجيا وكاهنها الكبير في هذا الزمان) الطريق الصحيح منهجيا (بحسب دينه الطبيعي) لتصور صفة الإله وفعله إن قدرنا وجوده، بالنظر إلى ما انتهى إليه هو وأصحابه من تنظير كوزمولوجي! فسواء السؤال: "هل يوجد صانع للكون أم لا يوجد؟"، والسؤال: "ما هي صفة هذا الصانع وما فعله وما علاقته بهذا العالم؟" فكلا هذين السؤالين يجعلهما الطبيعيون المعاصرون من اختصاص الفيلسوف الكوزمولوجي كما ترى! فهل تقوم الأديان والملل إلا على جواب هذين السؤالين؟؟ الجواب واضح! ولعل قائلا أن يقول هنا: هذا الكلام هو رأي هوكينغ، وليس يمثل آراء جميع الكوزمولوجيين، فليس لكم أن تتهموا العلم كله لرأي واحد من المشتغلين به!

ونقول: ليس هذا الرأي بعينه هو ما نقلت هذا الكلام من أجله، وإنما نقلته لأبين للقارئ منهج القوم في التنظير في أمور الغيب المحض، وكيف أنهم لا يحدهم فيه حد ولا ينتهون فيه إلى نهاية! فالقضية ليست في إلحاد ستيفن هوكينغ تحديدا، وإنما في المنهج المعرفي الدهري الكلي الذي قامت عليه تلك الصنعة الأكاديمية نفسها عند أصحابها، الذي كتب هوكينغ هذا الكتاب لترويجه بين عامة الناس ولدعوتهم لاتخاذه أساسا لتحصيل المعرفة بالغيب وما فيه، بصرف النظر عن النظرية التي ينتهي بهم إليها! فهو لا يمانع من أن يعتقد الناس أن العالم محمول على ظهر سلحفاه كما تقدم، أو أنه قد نشأ عن قيئ كائن حي يتقيأ، أو ما شئت من الأساطير، ولكن بشرط أن يكون الطريق للقول بالأسطورة الخلقية Creation Myth هو التنظير الكوزمولوجي العصري دون غيره، وأن يكون من الممكن صياغتها في معادلات النسبية العامة أو فيما يجعلونه حلا من حلول معادلة المجال، وأن يكون صاحب النظرية محملا، مع ذلك، بالتأويلات الملائمة التي تؤول بها جميع المشاهدات، وبما تربط به الأسطورة بعامة ما هو معتمد حاليا من القوانين والنظريات!

إنه ذلك المنهج الذي به يستجاز أن يقاس في أصل العالم ونشأته كما قاس هوكينغ جوابا عن السؤال: "ماذا كان قبل الانفجار الكبير؟"، فقال إنه ليس

قبل الانفجار "قبل" Before أصلا كما أنه ليس بعد القطب الجنوبي جنوب، على أساس أن الزمكان المزعوم كروي من جهة الانفجار المزعوم فلا حافة له، كما أن الأرض كروية السطح فلا حافة لها! [24] هذا النوع من الأقيسة الدهرية الميتافزيقية الجيومترية السخيفة شديدة التهافت والفساد في صريح العقل، التي تحيل العقائد الغيبية الدهرية المحضة إلى ما يتوهم الناس كونه "علما حديثا" قد "أثبتته التجارب الدقيقة والمعامل المتقدمة والمراصد باهظة النفقات"، هو قضية من القضايا التي يجب أن يعتني المسلمون بتحريرها وتحقيق الموقف السلفي الصحيح منها في زماننا، كما حرر أئمة العقيدة في القرون السالفة الموقف الصحيح من مصادر التلقي عند أهل الملل والنحل الفاسدة التي عاصروها على اختلاف أنواعها! فإنه لم يعرف في تاريخ الملل والأديان البشرية ملة هي أبلغ في التخفي تحت ستار منهج من مناهج العلوم الأكاديمية المنظمة النافعة إجمالا، وأبلغ في فتنة الجهلاء من أهل الملل والأديان الأخرى بها وفي تلبيسهم بعقائدها الغيبية من حيث لا يشعرون، من تلك الملة الطبيعية الدهرية المعاصرة التي لا يكتفي أكثر أصحابها بنفي اسم "الدين" عنها تحكما وجهلا، في مقابل ما يسمونه "بالعلم"، بل يجاهرون بتسفيه الأديان الأخرى وأهلها على أساس أن ما معهم من "العلم" (زعموا) قد أثبت بطلانها ووهاءها كلها أخيرا على نحو ونهج معرفي بالغ الانضباط، لم يسبق للبشر أن توصلوا إلى مثله من قبل بزعمهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله! مع أن حقيقة الأمر أن العقل البشري لم يبلغ في عصر من العصور من الانحطاط ما بلغه على أيدي هؤلاء في عصرنا هذا، والله المستعان لا رب سواه!

فإذا كان إسقاط العقائد الباطلة عند أهل الملل لا يتحصل بشيء أبلغ ولا أقوى من إسقاط مصادر التلقي المعرفي في أمر الغيب وما فيه لدى أصحابها وبيان أنهم ليسوا بها على شيء البتة، فكذلك الشأن عند أهل تلك الملة! وإذا كان الداعي لذلك ظاهرا في تلك العقائد التي تلبس على المسلمين مع كونها وافدة إليهم من أهل الملل القديمة المعروفة كالنصرانية والبوذية والهندوسية وغيرها، فهو أظهر وأعظم ولا شك في تلك العقائد التي تروج اليوم في الجامعات والمعاهد والأكاديميات العلمية التجريبية الكبرى (التي هي عند الجهلاء والمفتونين أعلى وأرفع أنواع المعاهد والأكاديميات من حيث المحتوى العلمي الذي تتخصص فيه)، على أنها هي العلم الحديث الثابت الذي لا يماري فيه إلا جاهل خفيف العقل!

يروى عن "سيمون بيير لابلاس"، الرياضي والفيلسوف الطبيعي الفرنسي الدهري المعروف في القرن الثامن عشر الميلادي، أنه لما قدم لنابليون بونابارت نسخة من كتابه "الميكانيكا النجمية"، وكان قد بلغه أن الكتاب

ليس فيه ذكر للخالق البتة، قال معلقا: "بلغني أنك وضعت كتابا كاملا عن نظام الكون ليس فيه ذكر لخالقه"! فأجاب لابلاس قائلا: "لم يكن بي حاجة لوضع تلك الفرضية يا سيدي"! قلت: فأي أحمق سفيه هذا الذي قرر أن يحول وجود رب العالمين بالغيب وعلمنا الفطري البدهي به إلى "فرضية تفسيرية"، على غرار فرضيات الطبيعيين في التفسير القياسي، وأي عقل يقبل هذا الهراء؟؟ إنه ذلك الأحمق الذي سفه نفسه بطمس صوت الفطرة فيها، ليوطنها على اعتقاد أنه لا موجود في الخارج إلا الطبيعة، فلا غيب ولا خلق ولا قيامة ولا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ولا شيء من ذلك! وإذن فلا غرو أن يكون المنهج المعرفي في إثبات الموجودات في الخارج محصورا (إبستمولوجيا) في نوع الفرضيات الطبيعية لا غير! هذا هو المنهج المعرفي الذي قامت عليه الأكاديمية الطبيعية الغربية من يوم إنشائها وإلى يوم الناس هذا، وهو الإلحاد بعينه والدهرية بعينها كما ترى! صحيح أن الأقيسة الطبيعية والفرضيات التفسيرية الطبيعية كانت ولم تزل تنبت في دوائر العادة والتجربة الحسية المباشرة استقراءات وقوانين صحيحة إجمالا ونافعة للناس، ولكن هذه الحقيقة لا علاقة لها بالمنهج الدهري الطبيعي! المنهج التجريبي الذي يطبقه الباحثون على المحسوسات بالفعل أو بالقوة ليستنبطوا به النظم السببية الجارية في هذا العالم التي سخرها الله لهم، ليس هو المنهج الدهري الطبيعي الذي ننتقده ونحذر المسلمين منه في هذا المبحث وغيره! وإنما نرفع عقيرتنا هاهنا بنقض طريقة الدهرية الطبيعيين في اغتصاب ذلك المسلك القياسي نفسه وإدخاله حيث لا مدخل له ولا متسع، وتحويله إلى مصدر لتلقي الاعتقاد الديني!

فأنت عندما تدخل إلى غرفة طعام – على سبيل المثل – فتجد على المائدة صحنا فيه فتات وبقايا طعام، وإلى جواره كوب من شراب القهوة ممتلئ إلى نصفه أو أقل قليلا، فإنك تفترض تفسيرا قياسيا Adbuctive Explanation لسبب كون الغرفة على هذه الحال، مفاده أن ثمة من كان يأكل طعام الإفطار في تلك الغرفة قبل دخولك إليها! والسبب في معقولية هذا الفرض التفسيري بالنسبة لك هو سابق خبرتك الاستقرائية الفردية (مهما كانت ناقصة ومحدودة) بما تكون عليه أحوال صحون الطعام وأكواب الشراب بعد فراغ الناس من تناولهم وجبة الإفطار فيها. هذا الأثر يدلك على ذاك المؤثر، لأن خبرتك وعادتك في نظائر ذلك التأثير تفيدك بأن هذا كنظائره مما اعتدته!

فالسؤال الآن: لو لم يكن لديك تلك الخبرة السابقة، ولم يسبق لك أن رأيت أناسا يأكلون طعام الإفطار على مائدة ما، في صحون وأكواب، أفكان يصح لك – عقلا - أن تفرض ذلك الفرض في التفسير؟ الجواب لا! من أين يأتيك

تصور ذلك الفرض والحال أن الخبرة تخلو من أصل له؟ لن تجد له مصدرا معقولا على الإطلاق! لهذا نقول إن تطبيق هذا المنطق نفسه في تفسير وجود العالم أو نشأته أو كونه على ما هو عليه لا على خلافه، يتطلب خبرة سابقة لا سبيل لأحد من البشر إليها على الإطلاق! فإنه لم يسبق لأحدنا أن شهد بعينيه عملية خلق العوالم المختلفة بسماواتها وأراضيها كيف تجري وكيف تكون، حتى يرجح كون عالمنا هذا قد نشأ على هذا نحو كذا لا على نحو كذا! فما الذي سوغ لدى القوم تجاوز هذه القضية والاجتراء – مع ذاك الخواء والوهاء الجلي الواضح – على ضرب الفرضيات في أمر الغيب وما فيه أشكالا وألوانا، حتى جعلوا وجود الباري جل وعلا نفسه ضربا من الافتراض، وحتى قال لابلاس كما تقدم نقله "هذا فرض لم أجد ما يدعوني إليه"؟ إنه الاعتقاد الدهري الطبيعي! لولا سبق ذلك النظام الاعتقادي الدهري لديهم، وتغلغله في نظامهم الأكاديمي الموروث من قرون خلت، ما جوزوا لأنفسهم أن يتكلفوا الخوض في قضايا الغيب المحض بأقيستهم وفرضياتهم وأوهامهم السخيفة الباردة على هذا النحو!

كثيرا ما ترى اللاهوتيين والمتكلمين ومتكلمة الحزبيين ومن دار في فلكهم يستنكرون ما يزعمه الطبيعيون من كون عامة الفيزيائيين والكوزمولوجيين والفلكيين الكبار ملاحدة دهرية، ثم تراهم يسوقون إليك أسماء ثلة من الفيزيائيين والكيمائيين ونحوهم الحائزين على جائزة نوبل في تلك المجالات، ممن هم في نفس الوقت منتسبون إلى ملة كتابية، يظنون أنهم بذلك يدفعون "شبهة" أن الأكاديمية الطبيعية الغربية تدين بالدهرية الطبيعية من حيث الأصل، وهذا منهم وهم وتمحك يدل على سذاجة وسطحية قلّ نظيرها! فالحق أنه لا يتصور في رجل قد تعمق في علم الأستروفيزيقا والكوزمولوجيا خاصة، وتفنن في التنظير الطبيعي الأكاديمي في الغيبيات عامة كما تفنن هوكينغ، إلا أن يكون قد تشرب بالمنهجية الدهرية حتى جرت منه مجرى الدم في العروق! ومن كانت هذه حاله، فإن لم يكن ملحدا مصرحا بإلحاده وتسفيهه للملل الكتابية الثلاثة (الإسلام والنصرانية واليهودية)، فأحسن أحواله أن يكون زنديقا يبطن الإلحاد والاستهانة بتراث دينه الذي ينتسب إليه، والاستخفاف بخبر الغيب الموروث، أو جهميا غاليا لا يقبل من النصوص إلا ما رآه غير مخالف لعقائد الطبيعيين، أو قابلا للتأويل على ما يوافقها، ولو سلك من أجل ذلك مسالك الباطنية القرامطة الغلاة! وما ذاك إلا لأن منهج تلك الأكاديميات، كما استورده المسلمون، منهج دهري محض في تناول الغيبيات والماورائيات يقتحمها بالتنظير الطبيعي اقتحاما! والعبرة في الحكم على النظام الأكاديمي المعين Discipline إنما هي بمصادر التلقي ومسالك الاستدلال فيه وبالمنهج

المعرفي الذي يتبناه القائمون عليه، لا بالديانة المعلنة لآحاد المنتسبين إليه، فتنبه!

في لقاء تلفزيوني أجري في عام 1988 الميلادي، قال "كارل ساغان"، الكوزمولوجي الأمريكي الهالك الذي كان من أخبث دعاة الإلحاد الطبيعي في أواخر القرن الميلادي الماضي، بعدما أشار إلى خروج المقادير الفلكية الفاحشة التي ينسبها الكوزمولوجيون المعاصرون إلى عمر الكون وإلى انتشار السماء الدنيا بأجرامها ونجومها، عن حدود الحدس البشري وقدرة عقل الإنسان على التصور: "لدي نقطة أود أن أدلي بها بهذا الشأن، وهي أن كل ثقافة بشرية لديها مجموعة من أساطير الخلق Creation Myths، ولكنها تقع في إطار الميثولوجيا أو الدين أو الفلكلور، وبالطبع فهي كلها غير متناسقة منطقيا فيما بينها، والشيء العظيم الذي يحدث في زماننا هذا، هو أننا صرنا قادرين من خلال طريقة منهجية يمكنها أن تحرز تقدما في اتجاه (العلم)، أن نعلم بالكون الحقيقي كما هو في الخارج، وأن نكتشف شيئا عن النشأة الأولى، وهي الطريقة العلمية Scientific Method المطبقة على علم الكوزمولوجيا!" اهـ.

قلت: فتأمل كيف جعل ما عند جميع أمم البشر مما سوى بضاعة الطبيعيين في أمر الخلق والنشأة، أساطير وميثولوجيا وكلاما بائدا لا وزن له في سوق المعارف والعلوم، تماما كما يصنعه المنتسب إلى كل ملة عندما يحط على ما عند أهل الملل المخالفة من خبر ذلك الغيب العظيم وما فيه! وتأمل كذلك كيف أنه لا يثني على موضوع الاعتقاد نفسه ولا يفاخر به بقدر ما يفاخر بالطريقة التي توصل القوم بها إليه أيا ما كان! فالطريقة المسماة "بالطريقة العلمية" هذه عند الطبيعيين المعاصرين هي الآن بمنزلة القرآن والسنة عند المسلمين! وهي في الحقيقة لا تختلف عن طرائق الفلاسفة الطبيعيين القدماء في التنظير في الغيبيات نفسها من حيث مجمل أصول المنهج الدهري الطبيعي التي تقدم بيانها، وإنما تختلف في بعض التفصيلات في طريقة الافتراض التفسيري والترجيح بين الفرضيات التفسيرية والاعتضاد بالمشاهدات والتجارب والأرصاد.. إلخ! فهي تلك الطريقة التي تكونت معالمها عند الفلاسفة الطبيعيين في القرن السادس عشر الميلادي، وبلغت الذروة في النزق الفلسفي والجحود والبطر عند القوم في أوائل القرن العشرين، مع ظهور المذهب الوضعي المنطقي والمذهب الإمبريقي الغالي، واليوم أصبح لدينا من دعاة الإلحاد من يمكن تسميتهم "بالعلمويين" نسبة إلى ذلك الغلو المنهجي الذي بلغ بهم أن زعم بعضهم أن تلك الطريقة هي السبيل الأوحد لاكتساب العلم وتحقيق المعرفة بكل باب خاض فيه أهل الأديان الأخرى من طريقهم، بما في ذلك مسائل الأخلاق والسياسة

والتشريع وغير ذلك، كما سيأتي بيانه في قسم لاحق من هذا المبحث بإذن الله تعالى. أو بعبارة أخرى يقال: "ليس ثمة ما يمكن أن يعلم به إلا وجب أن يكون طريق العلم به هو الطريق التجريبي".

سأل الإعلامي الأمريكي المعروف "لاري كينغ" الداعية الدهري الطبيعي "نيل ديغراس تايسون" سؤالا صريحا، في حوار تلفزيوني طويل أجراه معه، فقال: "ماذا تظن أنه يحدث لنا بعد أن نموت"؟ فأجاب الرجل بحماسة بالغة مقررا مبلغه من العلم بظاهر الحياة الدنيا، وكأنه هو العلم الذي لا علم بعده، ومنتهى ما يحتاج الإنسان لأن يعلمه في تلك المسألة العظيمة، فقال:

> نعم.. يمكنني أن أقدم تصريحا أمينا سهل الترويج بشأن ما يحدث عندما تموت. فأنت تقضي عمرك في تناول الطعام، والطعام فيه محتوى كالوري، والكالوري مصدر للطاقة، بل الكالوري وحدة لقياس الطاقة، تمتصها فتصبح الطاقة متوفرة لك لتحافظ على درجة حرارة جسمك، عند مئة درجة (فهرنهايت) تقريبا، فكيف تبقي شيئا عند درجة مئة مع أنه لا شيء من حولك عند هذه الدرجة؟ أنت تحرق الطاقة من أجل ذلك. لأننا نحتاج – بيولوجيا – لأن نكون عند تلك الدرجة من الحرارة حتى تعمل أجسامنا. حسنا؟ ثم إنك تحتاج إلى الحرارة حتى تمشي وتتحرك. لهذا تأكل الطعام. فعندما تموت ما الذي يحدث؟ لا تبقي في جسدك الطاقة. فتهبط درجة حرارتك، فإلى أي حد تهبط؟ إلى أن تبلغ درجة حرارة الغرفة. في الجنازة في التابوت، عندما تلمس يد الشخص (الميت) المسجى في التاوبت، فإن أول ما يخطر ببالك هو: إن جسده بارد. ليس كذلك بل هو عند درجة حرارة الغرفة. ولكنه بارد مقارنة بالمئة درجة. فهو لم يعد يحرق تلك الطاقة. حسنا. فالآن، كل جزيء من جزيئاتك فيه طاقة بداخله. فلو أنك أحرقت (بعد الموت)، فإن هذه الطاقة تنتشر في صورة حرارة تسخن الهواء، والهواء ينتشر في الفضاء. فإذا دفنت، وهي الكيفية التي أريد لجسدي أن يُتخلص منه بعد موتي، ادفنوني .. ادفنوني.. أتدري لماذا؟ لأني لا أريد لمحتوى الطاقة في جسدي أن ينتشر في الفضاء بلا استعمال لأي أحد! ضعوني في الأرض! دعوا الديدان والميكروبات تدخل وتخرج من جسدي! ودعوا محتوى الطاقة في جسدي الذي تراكم عندي خلال سنوات عمري التي استهلكت فيها النباتات التي تنبتها تلك الأرض، دعوا جسدي يرجع بعدئذ إليها، وهكذا هي دورة الحياة! أنا أعلم أن هذا سيحدث، لأن بوسعك أن تقيس إلى أين تذهب الطاقة. وهكذا أحب أن أموت!

قلت: صدق الذي قال شر البلية ما يضحك! تأمل المحاولة السخيفة المضحكة لإمداد الدهرية الطبيعيين المعاصرين ببديل اعتقادي مزخرف، مخلوط بقيمة معيارية شعائرية، لعله يشعرهم بأنهم على شيء من العلم بأمر الموت وما يجري بعده وما يحسن منهم أن يفعلوه بأجسادهم بعد الموت، على نحو يرجو أن يغنيهم عما عند أهل الأديان الأخرى في نفس الأمر! فعند هذا الدهري السفيه، ليست الحياة إلا الحركة التي تمكننا منها الطاقة، وليس الموت إلا ذهاب تلك الطاقة وانفكاكها عن أجسامنا! مع أنني أقطع بأنه يعلم أن هذا الذي يقوله سخف محض، وأن روحه وعقله ووعيه الذي به يعرف أنه هو نفسه، وأنه ليس هو غيره، وبه يقول إن سئل: إنه ليس هو جسده، وليس هو يده أو رجله، وليس هو لحمه أو دمه أو مادته أو الكالوريات الداخلة والخارجة منه، هذا الوعي أو الجوهر الواعي في الإنسان ليس هو تلك الطاقة التي تتبدد وتذهب إلى حيثما تذهب! هذه مسألة فطرية بدهية لا تحتاج إلى برهان، ولم يمار فيها إلا أهل السفسطة والإلحاد، الذين نفوا أرواحهم التي بين جوانبهم كما نفوا باريهم، فرارا من القول بالبعث والنشور!

فعندما يحدثنا هذا التافه عن انخفاض درجة حرارة الميت على أنه هو الموت، وخروج الطاقة من الجسم على أنها هي خروج النفس، فهذا لا نجد نحن الموحدين إلا أن نضحك منه ملء أشداقنا، وأن نقول الحمد الله الذي عافانا مما ابتلاك به! ولا يزيدنا تقريره لسبب حرصه على أن يدفن في الأرض بعد موته لا أن يحرق ويذرى في الرياح، إلا ضحكا! الرجل وجد أن الأشجار والطين والديدان والباكتريا لها فضل عظيم عليه، أن أطعمته ورزقته من طيبات الرزق ما أمضى عمره يأكل منه ويشرب، فوجده من غير المستحسن أن يترك طاقته التي استمدها من تلك الأشياء تذهب في جو السماء إذا هلك، بل يحسن به أن يردها إلى الأرض من حيث جاءت، حتى يكون مخلصا "لدورة الحياة" ولأمه الأرض! فتأمل الوفاء والإخلاص! ما شاء الله! هنيئا لديدان الأرض برمتك يا هذا!

ثم من الذي قال إن محتوى الطاقة في جسمك إن انتشر في الهواء بدلا من أن يسري في الأرض فلن ينتفع به أحد؟؟ دعنا نقول إن تلك الحرارة التي تنبعث من جسمك إلى جو السماء إن أحرق بعد هلاكك، ستؤثر في الحالة الجوية فتكون من جملة الأسباب غير المباشرة (وفقا لتلك النظم المسماة عند أصحاب نظرية Chaos Mathematics بالنظم الستوكاستية، وما يقال له تأثير الفراشة) في نزول المطر على أمة من الأمم، وانتفاع النبات والأرض وكثير من الدواب لا تحصيهم، ألا يكون في ذلك ما حقه أن يجعلك ترجح (على نحلتك المتهافتة في تلك البابة) حرق جسدك بعد الموت

على أن تدفنه في التراب؟! لست يا هذا فاعلا شيئا بجسدك أو بغيره، إلا ترتب عليه من المتولدات السببية ما لن تحصيه ولن تحيط به بعقلك ولا بمئة عقل مثله معه مهما جهدت في المحاولة، فدعك من ذاك السخف!

لا شك أن الدفن أحسن وأكرم للإنسان عند موته، لما هو ظاهر من قبح ما يترتب على ترك الميت دون دفن، أو على إحراقه حتى يصير رمادا يذرى في الرياح، من إتلاف لجسده وامتهان له. ولكن الرجل لم يلتمس حتى هذه الحقيقة الفطرية الظاهرة في ترجيح الدفن على عدمه عند التحسين والتقبيح، وإنما حرص على أن يؤسس حكمه بالتحسين العقلي على انتفاع الأرض ونباتاتها وفطرياتها بطاقة جسده بعد الموت، في مقابل "ضياع" تلك الطاقة في الفضاء! فمن أين جاء بذلك المستند الكلي في التحسين والتقبيح؟! ما الذي يجعل للنباتات والديدان والميكروبات علينا حقا أن نتركها تتغذى على رممنا في الأرض بعد الموت وألا نحرمها من جيفنا، كما يزعم هذا الرجل، إلا محض الهوى؟!

نحن العقلاء عندما يأتينا ما نقطع بأنه وحي صحيح من رب العالمين، فيه تكليف شرعي بالدفن بعد الموت، فإنه يحصل لنا بذلك من العلم القطعي المنصرم في باب القيمة المعيارية والتحسين والتقبيح في أفعال البشر ما لا يحصل لغيرنا من أهل الملل، لا سيما إذا كنا نجد في فطرنا ما يوافق ذلك التحسين الشرعي ويواطئه. أما هؤلاء فلا يحسن عندهم ما يحسن بوحي من رب العالمين الذي هو أعلم بما خلق، ولا بداعي الفطرة التي طمسوا معالمها في نفوسهم، وإنما هو التحسين بالهوى والمزاج لا غير، وهو ما يجعلهم أحرى أهل الملل بالذم في تلك البابة كما سيأتي لاحقا في هذا المبحث، وأحقهم بالنسبة إلى نسبية المعرفة Relativism، تلك الآفة التي لم يزل الواحد منهم يتبجح في كل مناسبة يزعم أن منهجه الطبيعي Scientific Method هو الحصن الحصين الذي يعصمه من التلبس بها! هذا هو منهج الدهرية في اصطناع الدين لأنفسهم، كل كما يحلو له، وهو مع ذلك يزعم أنه لا دين له! تراه يتفنن في اختراع ما يروق له من العبادات والشعائر والشرائع، وهو – مع ذلك – يصر على أنه لاديني! فأي سفاهة فوق هذا؟! ولا يبعد أن ترى قوما يستحسنون هذا الخطل الذي جعله صاحبنا هذا مقصدا تشريعيا من دفن الموتى، فتراهم يزيدون بتحري المواضع الأشد رطوبة وعطنا في الأرض – أعزكم الله – ليدفنوا فيها موتاهم، حتى يعجلوا من تحلل أجسامهم ونضجها في الأرض ما أمكنهم! ولعلك تراهم مع الوقت يتخذون لأنفسهم مقيم شعائر عند الدفن (لما في الإنسان من حاجة فطرية للجري على نوع مخصوص من أنواع الشعائر الدينية عند ذلك) [25]، وهو ما صنعته كثير من طوائفهم بالفعل، وأصبح يقال له عندهم "المحتفل"

Celebrant! ثم ترى ذلك الرجل يعد كلمة يلقيها عند دفن تايسون هذا وأمثاله فيقول (مثلا): "باسم الأرض والطين والدود والباكتيرا، نستودع طاقتك في بطن أمك الأرض التي منها خرجت وإليها تعود، آمين!" ولعل بعضهم يتفتق ذهنه عن فكرة يضاعف بها انتفاع الدود من جيفته المنتنة بعد موته، فيوصي بجثته لتطلى بعد موته بمادة تعجل من تحلله وتجعله أشهى لأنواع الدود والهوام مما يكون عليه بدونها! أو يوصي بأن يدفن في تابوت محشو بالدود والقوارض بأنواعها ابتداء، تسهيلا وتعجيلا بحصول المطلوب!

ولم لا؟ أليسوا قد نفوا عن ربهم معنى الإحياء والخلق، وزعموا أن الأرض والطين والدود والنبات هو ما يمنحهم الحياة والطاقة، وأنهم من ثم يحسن بهم أن يردوا تلك الحياة وتلك الطاقة وتلك "الهبة الطبيعية" إلى الأرض والدود بعد الموت؟ فهذا شركهم وهذا خزيهم، أن صاروا عبيدا للدود والباكتيرا والنتن من دون الله، فالحمد لله على نعمة الإسلام والعقل!

ثم يعلق لاري كينغ، ليرجع به إلى سبب السؤال، فيقول: "ولكنك لن تكون واعيا (أي بعد الموت)، وهذا إلى الأبد، صحيح؟" فيقول الرجل (كما توقعه كينغ، الذي هو – بالمناسبة - يهودي جلد): "ليس ثمة دليل Evidence على أني سيكون لدي إذن وعي بأي شيء Consciousness of anything، وبالمناسبة، أهو أمر بهذه الغرابة؟؟ هل كان لديك وعي قبل أن تولد؟ عندما تقول: كيف لن أكون على الأرض؟ يا إلهي، أحتاج لأن أكون على الأرض، أو أين أنا؟ كلا! إنما هي حالة عدم وجود non-existence!" اهـ.

قلت: هذه والله سفاهة ما بعدها سفاهة! يتكلم هذا الرجل وأقرانه من الطبيعيين الدهرية بلفظة Evidence وهم إنما يقصدون في الحقيقة نوع الدليل الحسي أو التجريبي الذي لا يرون لمعنى كلمة "دليل" تحققا في الخارج إلا فيه. فبالله يا سفهاء، ما الطريق للوصول إلى دليل من هذا النوع، يثبت به انتقال وعي الإنسان ونفسه إلى عالم آخر بعد موته، والحال أنه قد مات وانقطع سبيل الاتصال به بمقتضى معنى الموت نفسه؟؟ كيف يثبت ذلك من طريقكم أو ينفى، وأنتم تشهدون بأن الميت لا يسمعكم ولا يبصركم ولا يرجع إليكم قولا، ولا يخاطبكم بشيء البتة؟! ثم أي قياس بالغ السخف والوهاء هذا الذي جاء به في قوله "هل كان لديك وعي قبل أن تولد؟"؟ نقول إن السبر في هذه المسألة يخرج لنا احتمالين: إما أن يكون الإنسان بحيث يولد معه وعيه ونفسه ثم تهلك معه عند موته وتذوب في الأرض كما يعتقد هذا الرجل، وإما أن الإنسان يولد معه وعيه، ثم يبقى بعد موته، ينتقل إلى عالم غيبي محض، كما هو عند العقلاء من أهل الملل الأخرى كافة. والمراد من كلام الرجل هو أن يقنعنا بأن الاحتمال الأول هو الحق، وليس الثاني. فأي شيء يكون نفي الغرابة عن افتقارنا لذكرى الوعي بما قبل

الميلاد، إلا أن يكون مصادرة جلية على المطلوب، وتشغيبا لا يوصل منه إلى شيء؟!

عند هذا الموضع، يقاطعه محاوره ويقول: "آها.. ولكني قد ولدت بالفعل، ولا أستطيع أن أتحمل فكرة العدمية! لأني عندي الآن وجود بالفعل ف..." فيداخله تايسون ويقول: "حسنا، هذا صحيح. إننا نخاف من الموت لأننا نولد ولا نعلم إلا الحياة. وأنا أتفهم هذا. ولكني أتخذ موقفا آخر، لأني قد سئلت من قبل. إن كان بوسعك أن تعيش إلى الأبد، أفتفعل ذلك؟" قال كينغ: "نعم!" فضحك تايسون ثم قال: "طبعا، بالتأكيد هذا تصور جذاب للغاية، ولكن وجهة نظري في الأمر هي أن معرفتي بأني سأموت، هي التي تخلق هذا الاستغراق الذي يكون مني في كوني حيا. الحاجة العاجلة للإنجاز، الحاجة للتعبير عن الحب، الآن، وليس فيما بعد. لو عشنا إلى الأبد، فلماذا نبالي بالنهوض من الفراش كل صباح؟ لأنك دائما عندك الغد. هذه ليست هي الحياة التي أود أن أحياها." قال كينغ: "ولكن ألا تخاف من عدم وجودك (في العالم)؟" قال: "أخاف من أن أحيا حياة كان بوسعي أن أنجز فيها شيئا ولم أنجزه! هذا ما أخشاه. لست أخشى الموت." اهـ.

قلت: كفاكم كذبا على أنفسكم يا هؤلاء! مهما زعمت أنك لا تخشى الموت فأنت تخشاه قطعا! بل إنك من أشد أهل الملل خشية من هادم الملذات، لأنك تنتمي إلى أشد الطوائف حرصا على طين الدنيا ومتاعها وملذاتها العاجلة، مع كونهم يعلمون في قرار نفوسهم أنهم إذا ماتوا على ذلك لم ينقلبوا إلا إلى بئس المصير! هذه، أيها القارئ الكريم، طريقة داعية ديني يحاول بأي طريق أن يزين دينه الباطل للناس رجاء أن يدخلوا فيه!

لا يعمل أحدنا في هذه الحياة الدنيا إلا طمعا في ثمرة يجنيها لنفسه من ذلك العمل، في العاجل أو في الآجل أو فيهما جميعا، وخوفا من عاقبة تنزل به إن تركه، في العاجل أو في الآجل أو فيهما جميعا! فإن كان الرجل يرى أنه لا يعيش إلا هذه الحياة الدنيا ثم يفنى بعدها، فلا بعث ولا حساب ولا آخرة ولا شيء، فلن يعمل إلا طمعا في ضمان ما يبقيه متمتعا بمتاعها الزائل تمام التمتع، سالما من المكاره والآلام لمئات بل آلاف الأعوام، بل أبد الدهر إن استطاع لذلك سبيلا! يطمع أن يظل شابا عفيا صحيح البدن ما أمكنه ذلك، متلذذا بما هنالك من ملذات الدنيا على أحسن ما حصل له أو لغيره من ذلك ما أمكنه! تنزل به النوازل والنوائب والبلايا فتقسم ظهره وتحرق قلبه نقمة وجزعا من فرط تعلقه باللذة العاجلة، فهو لا يتصور عن نعيم الدنيا زوالا، مع أنه يعلم أنه زائل عنه لا محالة! أي أن الإنسان إذا أغرق نفسه في الدنيا فإنما يغرق فيها لطول أمله في البقاء فيها، وشدة حرصه على التمتع بما

فيها أبد الدهر، لا لأنه يعلم أنه قد يفارقها غدا، فيخشى أن يأتيه الموت ولم يحقق فيها شيئا عظيما ينفع به الناس!

فكفاكم كذبا على أنفسكم!

ولهذا كان الخير والصلاح والسلامة في الدنيا وما بعدها بالتزهد فيها والتقلل منها، لا بالإغراق فيها والتوسع في ملذاتها ومتاعها وكأنه لا يزول ولا ينقلب! فإن تحصيل تلك الملذات وجمعها لا يحصل إلا بعد عمل وجهد وبذلك عظيم، ولا يحصل للمرء منه – مع ذلك – إلا ما قدر له! فلا خسران أعظم ولا ظلم للنفس أبلغ من أن يفنى العمر والجهد والصحة في التمتع بملذات لا تلبث إلا قليلا ثم تزول كأنها لم تكن! ولهذا نقول إن نفس الإنسان عصية على الإصلاح إلا بوحي من خالقها وباريها، الذي هو أعلم بها وبما خلقها من أجله وبما يصلح لها وما تصلح له، فيبشرها بنعيم آجل أعظم من كل نعيم الدنيا إن انضبط صاحبها على مراد ربه منه وأخضع نفسه لباريه جل وعلا، وينذرها من عذاب آجل أشنع من كل عذاب الدنيا إن أبى واستكبر ونأى بجانبه!

فإنه لا يعمل الإنسان إلا طمعا في مصير يحبه أو ثمرة يرجوها، وخوفا من مآل يكرهه، فإن عدم لديه من أصول الإيمان ما يحببه في المآل الحسن بعد الموت ويكرهه في المآل القبيح، فلم يرغب فيما عند ربه ولم يرهب من غضبه وسخطه، بل آثر أن يكون هو إله نفسه وهو معبودها، توجه بتلك النوازع والميول القلبية الجبلية إلى عاجل أمر الدنيا، فصار يرغب في المزيد من زخرفها ويرهب من فواته عليه، وإذا بنفسه تصبح كالريشة في مهب الريح، تخضعه وتذله وتكسر رقبته في كل يوم لما لا يحصيه إلا الله من أنواع المخلوقين أمثاله، يستعبدونه ببطنه وفرجه وأهواء نفسه، يسحبونه منها سحب البهيمة، فتطمِّعه فيما يهلكها وتنفره مما يزكيها، وهو كالسكران الذي لا يريد أن يفيق، تهلك عمره وماله وصحته فيما لا خير فيه على التحقيق، حتى إذا مات وبعث ورأى بعينيه تأويل ما جاء الرسول بخبره، تمنى لو يحشره ربه خنزيرا أو جرذا أو تيسا رجاء أن يصير ترابا! فالحق الذي يعلمه هؤلاء المهرجون هو أنه إن لم يخضع الإنسان نفسه للحنيفية السمحة، لحكم ربه وخالقه الذي هو عين الحكمة المواطئة للفطرة التي فطر الله الناس عليها، فلا حد ولا نهاية لصور السفاهة والفهاهة والسخافة التي سيأتي بها في تقرير القيمة العليا التي يختار أن يفني عمره من أجلها، وتقرير ما تقتضيه تلك القيمة من التحسين والتقبيح في حقه، ومن الأخلاق والشرائع!

فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة!

ثم يعاود كينغ الدفع بالقضية التي من أجلها سأل سؤاله من البداية فيقول: "ماذا يخطر ببالك عندما ترى أهل الأديان، عندما ترى البابوات أو الأحبار أو أولئك الذين يؤمنون بحماسة بالغة، كبيلي غراهام وغيره هؤلاء قوم مخلصون وأفاضل جدا، هل هم أصحاب وهم كلهم، في اعتقادهم أنهم ماضون إلى مكان ما (بعد موتهم)؟"

فقال تايسون: "كلا، إنهم .. إنهم متشبعون بنظم اعتقادية معينة. وعندما أنظر أنا إلى الأمر، أرى جميع النظم الاعتقادية عندما تضعها جنبا إلى جنب، ليس فيما بينها تناسق Compatible، فأيا كان ما يؤمنون به، فلا يصح أن يكون حقا ينطبق على الجميع، لأن الآخرين يؤمنون بما يؤمنون به بنفس الحماسة، ولهذا أتأمل بوصفي رجلا مهتما بالحقيقة الموضوعية، وأقول: حسنا، لا يبدو وكأن هذا طريق يوصل منه إلى الحقيقة الموضوعية Objective Truth. فدع الناس تستمر في قول واعتقاد ما يحلو لهم!" اهـ.

قلت: أنت مغالط مسفسط، وأنا أقطع بأنك تعلم أنك مغالط مسفسط، ولا حول ولا قوة إلا بالله! عندما أقارن جميع الدعاوى التي يدعيها البشر في جملة المسائل التي تتناولها الأديان، أجد عقائدهم فيها غير متناسقة، وأجد كل فريق منهم يعتقد صحة ما هو عليه وبطلان ما عليه الآخرون اعتقادا جازما، وإذن يلزم ألا يكون شيء مما عندهم هو الحق الذي ينطبق على الجميع! أهكذا يكون الترجيح يا عقلاء؟؟ كيف أثبت يا أستاذ تايسون بطلان جميع الأديان؟ بأن كل دين يناقض الدين الآخر، وبأن كل فريق من أهل الأديان يجزم بصحة ما عنده ووهاء ما عند أهل الملل الأخرى! فبالله تأمل هذا المنطق جيدا، أيها القارئ الكريم، ثم كبر على العقل أربعا!

أما أن النظم الاعتقادية عند أهل الملل لا تتناسق منطقيا في مجموعها، فهذا أمر لا غرابة فيه على الإطلاق، وليس من شرطها أن تتناسق كلها فيما بينها حتى يصح واحد منها ويثبت له أنه دين رب العالمين! إن مثل هذا كمثل من يقول: "كلامك باطل، والدليل على بطلانه، أنه غير متناسق مع كلام مخالفيك في نفس الأمر، وأنك – مع ذلك – تعتقد صحته بحماسة بالغة، كما يعتقدون هم صحة ما عندهم بحماسة بالغة"! فأي سفاهة هذه؟؟ إن أمثال هذا التافه هم أبعد الناس عن أن يقوم دينهم ونظامهم الاعتقادي على "الحقائق الموضوعية" بشأن الغيب وما فيه!

فإذا كان المقصود "بالحقيقة الموضوعية" هو الدعوى التي يقطع العقل بمطابقتها للواقع بصرف النظر عما عليه الناس في موضوعها، فهذا الذي سلكه صاحبنا من مسلك في إسقاط الأديان كافة والتسوية بينها في البطلان، لو سلكه بين يديه طالب من طلبته في الترجيح بين النظريات

المتباينة في مسألة من مسائل البحث الطبيعي لبصق في وجهه، ولحكم عليه بأنه أبعد الناس عن "الحقيقة الموضوعية"! الذي يقول: "كل الأديان باطلة لأنها ينقض بعضها بعضا ويبطل بعضها بعضا"، هذا يريد "الحقيقة الموضوعية"؟! الذي يشترط الدليل الحسي التجريبي حتى يقبل القول بأن وعي الإنسان يبقى بعد موته، هذا يريد "الحقيقة الموضوعية"؟؟ الذي يرى أن الدفن بعد الموت أحسن من الإحراق لأن الطاقة إذن تمتصها الأرض ولا تنبعث في الفضاء، هذا يريد "الحقيقة الموضوعية"؟؟ سبحانك ربي ما أحلمك!

هذا الهذيان ما الذي فتح الباب لأصحابه ليتصدروا في الناس كما تصدروا، وليؤخذ منهم ما يقولونه في موضوعه وكأنهم به على شيء؟ إنه تلبيسهم على العامة والجهلاء بأنهم أصحاب علم محكم منصرم قد كشف للبشر أخيرا الأصل الذي جاؤوا منه، والمنشأ الذي نشأ منه عالمهم وما فيه، والمآل الذي هو صائر إليه!

من أجل هذا نقول إنه يجب على القادرين من المسلمين أن يجتهدوا في تحرير الفرقان الواضح بين المنهج الدهري الطبيعي في النظر في الطبيعيات، وبين المنهج السلفي الصحيح في هذه الأبواب، أو بين أصول الدين الطبيعي وأصول العلم الطبيعي، فإنه في الحقيقة فرقان بين مصادر التلقي المعرفي بالغيب وما فيه عند أتباع الفلاسفة الدهرية وورثة فلاسفة اليونان من كهنة الإلحاد، وبين مصادر التلقي عند أتباع المرسلين وورثة الأنبياء في نفس الأمر! هو فرقان بين ملتين تختلفان في مصادر تلقي الاعتقاد الغيبي، وفي مفهوم العلم والمعرفة والعقل نفسه! الأولى صار ينظر إليها على أنها دين Religion، والثانية أصبحت يقال لها "العلم" (هكذا!) Science في المقابل، وأصبح يروج لها في أوروبا وأمريكا وبعض الدول الإسلامية تحت شعار توعية الجماهير والعوام بالعلم والعلوم الحديثة Science Popularization! فإن لم يحرص كل منتسب إلى "الدين" على إظهار دينه في قالب يوافق ذلك المنهج الفلسفي العلموي العلماني الذي سموه "بالعلم" تلبيسا، فهو إذن في حرج من أمره، إذ لا يقبل عاقل أن يقال له إن دينك يصادم "العلم" (هكذا)، فإن مخالفة "العلم" جهل قطعا، لا اسم لها إلا هذا! فأي شيء هذا الذي سماه الطبيعيون "بالعلم"، وما التحقيق في ذلك؟؟ وما مبلغ البحث والتمحيص المطلوب منا، نحن طلبة علم المتخصصين في العقيدة والمذاهب الفكرية المعاصرة، حتى يكتمل تصورنا لهذه القضية الأكاديمية الدقيقة؟ هذه مسألة في غاية الأهمية!

فاليوم بعدما أغرقنا الغربيون إلى أعناقنا في أبحاثهم الطبيعية والتجريبية في كل باب وفن، التي صارت تستورد منهم بالجملة بلا فحص ولا تمحيص،

وصرنا نقف بإزائها موقف المتلقي المغلوب على أمره، المفتون بما عند القوم من علو ظاهر في الصناعات كافة، وبعدما شاعت الدعوة الغربية للإلحاد تحت ستار "العلم الحديث"، وتهيأت الظروف الاجتماعية والسياسية في أوروبا وأمريكا أخيرا لأن يجترئ هؤلاء الفلاسفة على التصريح بالدعوة إلى نحلتهم التي كانوا من قبل يخفونها في أروقة الأكاديميات والمعاهد ولا يصرحون بها، أصبح النهوض بهذا العمل الثقيل لصيانة دين المسلمين المنخرطين في الدراسة في تلك الأكاديميات فرضا كفائيا تأثم الأمة كلها إن لم يتوافر عليه منها القادرون المأهلون، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

قال هوكينغ (في ص. 11 من نفس الكتاب): "إن الغاية النهائية للعلم (الطبيعي) هي تقديم نظرية واحدة تصف الكون بكليته"! قلت: فإن لم يكن هذا تقريرا دينيا أيديولوجيا محضا، فأي شيء هو؟؟ من الذي يقرر الغاية "النهائية" أو القيمة العليا لصنعة من صناعات النظر والقياس، وعلى أي أساس يقررها؟ ولماذا يتعين على القراء أن يقبلوها من الكاتب ويساقوا إليها سوق النعاج دونما اعتراض؟! من الذي قرر أن كل ما يتصور أصحاب البحث الطبيعي إمكان طرحه للنظر من طريقهم من أنواع الأسئلة، فإنه يجوز لهم طرحه؟ أليس هذا السؤال ونحوه من الأسئلة حول المقصد والغاية والثمرة المعرفية المرجوة من بحث الباحثين، جديرا – لخطورته وعظم تبعته على حياة البشر – بأن يلتمس في جوابه دليل صحيح من النوع اللائق – معرفيا – بهذا الصنف من الأسئلة؟ وكذلك السؤال بشأن حدود القدرة البشرية على تحصيل المعارف بشأن العالم وما فيه وما بعده وما قبله وما وراءه؟ هذا الرجل يحدثكم عما يسميه بعجرفة وغرور لا نظير له "نظرية كل شيء"! كل شيء؟؟ سبحان الله العظيم! الله تعالى يقول: ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)) [الإسراء : 85]، وهذا يدفع بتلامذته وأقرانه دفعا لتطلب الوصول إلى "نظرية" تعرف البشر بكل شيء، فإن لم يكن هذا المطلب الفاحش دينا غير الدين، وملة غير الملة، فبالله أي شيء هو؟؟

يقول هوكينغ في تقريره للقيمة العليا التي من أجلها يريد الرجل أن يتوصل إلى "نظرية كل شيء": "إن تمكنا بالفعل من التوصل لنظرية كاملة، فسيكون من السهل فهمها لكل أحد من حيث المبدأ العام، وليس فقط لثلة من العلماء. وحينئذ سيكون بوسعنا جميعا، فلاسفة وعلماء وحتى عامة الناس، أن نشارك في مناقشة السؤال عن السبب في وجودنا نحن وهذا الكون. فإذا توصلنا إلى جواب لذلك السؤال، فسيكون ذلك هو النصر الأعظم للعقل البشري، لأننا حينئذ نكون قد توصلنا إلى معرفة عقل الإله." هـ.

قلت: تأمل كيف تمر أمثال تلك التقريرات في كلام الرجل وأقرانه من غير أن يُستوقفوا ويقال لهم: من أين لكم بها وما دليلكم عليها؟ وما ذاك إلا لأن القيمة الدهرية العليا التي تحمل الطبيعيين على توسعة دائرة السؤال والطرح الطبيعي حتى يشمل الواقع الخارجي بكليته فلا يترك فيه شيئا لا يطاله بالتنظير والقياس، تلك القيمة التي عبر عنها هوكينغ بهذا الكلام، قد ضربت في مفاصل الثقافة الغربية عامة وفي أساس النظام الأكاديمي الطبيعي الغربي بصفة خاصة، حتى صارت من جملة المسلمات التي لا يرى سامعها من المنتمين لتلك الثقافة داعيا لمساءلتها أو حتى طلب الدليل عليها، أيا ما كانت ديانته! يجب أن يظل "العلم الطبيعي" ماضيا في مسيرته الملحمية تلك التي ارتسمها له كهنة الأكاديمية الطبيعية، رجاء أن يصل إلى تحقيق تلك الغاية التي يحلم بها هوكينغ وغيره، لأنه لا يزال الغربيون يطمعون في أن يروا في "نظرية كل شيء" تلك ما يشبع رغبة كل امرئ منهم في تحقيق المعرفة الضرورية لبني آدم بالغيب وما فيه، تلك الرغبة التي لم يعد أحدهم يرى لها إشباعا من غير ذلك المصدر!

فصل في بيان أن الدهرية يجعلون الصانع هو عين المصنوع أو من نوعه، إما بالتصريح وإما بالمقتضى!

وبيان ذلك أن:

الدهرية قالوا إنه ليس في الوجود إلا الدهر والطبيعة، وليس وراء الطبيعة شيء،
فإذا كان متقررا في البداهة أن العالم منظم محكم التنظيم، منبضط تام الانضباط، مركب على أبدع وأحسن ما يكون،
لزم ألا يرجع سبب ذلك إلا إلى الطبيعة نفسها أو إلى شيء فيها،
فيكون الصانع هو عين المصنوع، كله أو بعضه!

وهذا ما نشير إليه بشرك الطبيعيين، الذي هو أساس ما يسميه بعضهم بوحدة الوجود الطبيعية Scientific / Naturalistic Pantheism. فإنه مهما زعم الفيلسوف الطبيعي أنه لا يثبت صانعا فاعلا يتعلل به النظام الحاكم للسماوات والأرض تعللا تاما، فهو كاذب على نفسه وعلى الناس! وإنما يستكبر على الخضوع بالعبادة لرب العالمين الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب، فلا يجد إلا أن ينسب تلك الصفات والأفعال التي هي من خصائص الربوبية، إلى الطبيعة التي جعلها هي الموجود الحق الذي ليس في الوجود سواه! وما ذاك إلا لأن العقل والبداهة واللغة الطبيعية نفسها تفرض على الإنسان أن ينسب تلك الأفعال إلى شيء ما! فتراه يحول فعل الخلق – مثلا – إلى فعل تفجير ونفخ، أو إلى فعل انتخاب وانتقاء، أو تناسخ ذاتي، أو نحو ذلك، وبدلا من أن يقرر الاعتقاد في رب متعال على خلقه، بائن منه كما هو مقتضى الفطرة والبداهة الظاهرة، تراه يقرر أن الطبيعة تنشئ القانون الطبيعي، والطبيعة تنتخب الأنواع الحية الصالحة للبقاء، والطبيعة تفعل وتفعل .. إلخ! وإذا باعتقاده يؤول به إلى اتخاذ الطبيعة ربا من دون الله، شعر بذلك أم لم يشعر!

فمنهم من ينكر ذلك ولا يعترف به، مع أنه لا يكل ولا يمل من الدعوة إلى قصد الطبيعة بجملة من الأعمال التعبدية التي لا تصرف إلا إلى الله وحده، فيمضي أحدهم في التأمل والتفكر – مثلا – في عظمة الطبيعة وكيف أنها أنشأت كل تلك النظم البديعة بعد أن لم تكن، وتراه يرجو من أسباب الطبيعة ما لا يرجى إلا من ربها الذي خلقها الذي بيده النفع والضرّ ومقاليد كل شيء، فيرجو منها الشفاء مما يصيبه، ويرجو منها أن تمده بأسباب السلامة من نوازلها وكوارثها المدمرة، وهكذا. فإذا به يتخذها إلها كما اتخذها ربا، من غير

أن يرى نفسه متألها أو عابدا لشيء ما على الإطلاق! فيكون دينه هو وحدة الوجود وإثبات الإله الاتحادي بالاقتضاء واللزوم لا بالتصريح! ومنهم من يجنح بالفعل إلى التصريح باعتقاده فاعلية الطبيعة، يجعلها ربا ربوبيا Deistic God لا حياة فيه ولا علم ولا حكمة ولا إرادة ولا شيء من ذلك، بل يجعل ذلك كله من قبيل التمثيل الأنثروبومورفي Anthropomorphism (أي إنزال صفات البشر الأحياء على ذلك الخالق المادي الميت الذي يثبته هو)، فإنما هو عنده لا يزيد على تلك الطاقة الكامنة المزعومة في الكون التي تُبقي على نظامه كما هو، من بعدما كانت سببا في إحداثه ابتداءً، فهي تسيّر الطبيعة وتضبطها وتحفظ نظامها لا غير، وأما الإنسان فلا علاقة لها بأفعاله واختياراته واعتقاداته! وإني لأقطع بأنهم لا يخفى عليهم ما في اعتقادهم من تناقض، إذ يجعلونه خالقا وغير خالق معا، فاعلا وغير فاعل معا، مرجحا لنظام العالم على ما يخالفه، وغير مرجح، معللا تعليلا تاما لجميع ما في العالم من نظم وقوانين، ومعلَّلا هو نفسه بنفس تلك النظم والقوانين أو بما هو سابق عليها من نوعها في نفس الوقت، وهكذا! ومنهم من ينتهي إلى الدخول في دين من أديان الدهرية الوثنيين الهنود كالبوذية أو الكنفوشية أو نحوها من ملل لا تثبت صانعا بالغيب ولا حدوثا للعالم من الأساس!

في لقاء تلفزيوني أجري في 2005 الميلادية، قال ريتشارد دوكينز، الذي يعد رأسا لواحدة من أشد طوائف الدهرية الداروينية الملاحدة تطرفا وإغراقا في الإلحاد في زماننا: "إن نوع الإله الذي أحترم من يؤمنون به، هو إله الربوبيين، Deists، الذي وضع نظام الكون في ابتدائه، وضبط قوانين الفيزياء، ربما على هذا النحو الذي يرفع من احتمالية ظهور الشروط اللازمة للارتقاء الحيوي، شيء من هذا القبيل، ولكن هذا الصنف من الآلهة، الإله العظيم الذي يؤمن به الفيزيائيون، ليس هو نوع الإله الذي قد يكون لديه أدنى اهتمام بالاستماع إلى دعاء عابر من هنا أو هناك!" اهـ. [26]

وكتب كذلك في كتابه "توهم الإله" يقول (ص. 59) [27]: "إن الإله الربوبي Deist God الذي اعتنقه تنويريو القرن الثامن عشر، هو كائن أعظم بكثير على جميع المستويات: فهو لائق بخلقه الكوني، مترفع عن الاهتمام بشؤون البشر، غير مكترث بأفكارنا الخاصة وأمانينا، لا تعنيه خطايانا الفوضوية أو همهماتنا النادمة. الإله الربوبي هو فيزيائي يقف عند نهاية الفيزياء، وهو الأول والآخر في الرياضيين، ومنتهى المصممين، مهندس فائق وضع قوانين وثوابت الكون، ضبطها كلها بدقة مذهلة وعلم كاشف، فجر ما نسميه الآن بالانفجار العظيم الساخن، ثم انسحب ولم يسمع منه أحد شيئا بعد." اهـ.

قلت: قد يبدو هذا الكلام للوهلة الأولى ضربا من التجويز العقلي لا غير، أي أن الرجل وإن كان لا يقول بصانع البتة، إلا أنه لا يرى مانعا من تجويز وجود

ذلك الصانع الربوبي، المهندس والمصمم الأعظم الذي يؤمن به الفيزيائيون! ولكن واقع الأمر أن جميع الدهرية بلا استثناء يتأرجحون ذلك التأرجح الانتقائي البارد بين النفي المحض والإثبات المقيد فيما يتعلق بالصانع، وليست المسألة تجويزا عقليا على التحقيق! كيف يكون الضبط والإحكام البالغ الذي يشهد به الفيزيائيون كافة، وتنطق به الرياضيات أبلغ ما يكون النطق، كيف يكون ذلك الضبط غير معزو إلى ضابط حكيم عليم يضع الشيء في موضعه؟؟ هذه مسألة بدهية ضرورية هم يعلمون أنهم أهل سفسطة محضة كلما زعموا أنهم ينكرونها! وإنما مشكلتهم الكبرى كما قدمنا هي في إثبات الرب الذي يأمرهم بما يكرهون وينهاهم عما يشتهون!

هذه هي القضية، وهي المانع من التصريح بإثبات ذلك المعنى البدهي الضروري الذي لا يماري فيه صبي صغير! فهم يعلمون أنهم بنفيهم الصانع بإطلاق، يضطرون – لا محالة - إلى وصف غيره بصفاته العليا التي يوجب العقل تخصيصه بها، تلك الصفات (صفات الربوبية) التي كانت سببا في ظهور هذا العالم على هذا النحو البديع لا على غيره، ورجحانه على غيره! فإن العالم ثمة من نظمه أو ما نظمه، فأجرى كل شيء فيه على سبب ومقدار، وهذه حقيقة ظاهرة لا يماري فيها أشد الدهرية إلحادا وجحودا، وإنما يمارون في ماهية العامل المنظم الذي ينسب إليه ذلك العمل العظيم! إلى حد أن سمعنا دوكينز هذا يخترع لفظا جديدا في اللغة فيقول Designoid بدلا من أن يقول Designed كما هو الشائع عندهم، أي الشيء الشبيه بأن يكون "مصمما" وليس "مصمما" على الحقيقة! الشيء الذي يشبه أن يكون مخلوقا وليس مخلوقا على الحقيقة! فما معنى أن تكون الطبيعة هي صانع الطبيعة، وأن يكون القانون الطبيعي هو الخالق والمخلوق معا؟؟ أو أن تكون الطبيعة "شبه مصمِّم" و"شبه مصمَّم" معا، أو أن تكون هي المنتخِب وهي المنتخَب معا، وأن تكون هي الصانع والمصنوع، وهي الحادث والمحدِث، وهي المنظَّم والمنظِّم، معا في آن واحد؟؟ كلام ساقط بيّن التناقض لا يخفى تناقضه على عاقل!

ولهذا، فحين يعييهم المراء والمكابرة في مسألة النفي المطلق، تراهم يقولون كما قال صاحبنا هنا ما معناه: لا بأس، فليكن ثمة خالق عظيم عليم، ولنشهد ونقر بوجود ذلك الخالق الأعظم فائق القدرة والذكاء الذي أحدث هذا النظام (على القول بحدوثه) بل ولا بأس بأن نجعل العالم قائما به قياما دائما بصورة ما أو بأخرى، ولكن لن نؤمن أبدا ولن نقبل بأن يكون هو ذلك الرب الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب فيما تزعمون! فالمسألة ليس نفي الصانع فيها مقصودا لذاته، وإنما هو طريق يسلكونه أحيانا للوصول إلى نفي النبوات والتكذيب بالرسل والرسالات بالأساس! هذا هو المقصود بالنفي والتكذيب، وليس مبدأ مخلوقية العالم من حيث هو مخلوق، ولا وجود الباري من حيث هو

موجود! ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً . أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً﴾ [النساء : 150-151] هم لا يريدون الرسول ورسالته، لا تعجبهم ولا تأتي على هوى أحدهم، وهذا هو منتهى المسألة، وهو جوهر الإلحاد! ولهذا ترى التكذيب بالرسل والرسالات هو القاسم المشترك الأعظم بين جميع نحلهم ومذاهبهم! لسان حالهم: "نؤمن بالخالق وبكمال علمه وقدرته، لكن على شرط ألا يكون له رسل ولا رسالات ولا يبعث الموتى ولا يؤاخذ الناس بما يعملون، أما أن يكون ربا مألوها معبودا يأمر الناس وينهاهم ويعذب الكافر منهم، فهذا لا نقبله ولن نؤمن به"! كيف يكون الواحد من هؤلاء، هو من هو في العلم والعقل وكذا، ثم يقال له اتبع فلانا النبي أتم الاتباع، وعليك بالانقياد له أتم الانقياد، فلا تقدّم بين يديه ديانة، ولا تقدم على قوله قولا، ولا تعصى له أمرا، تنزل عن رأيك إلى تعليمه وتوجيهه وأنت راغم، إن أردت النجاة في الآخرة؟؟ هو يراه خيرا من هؤلاء الأنبياء جميعا، وأعظم منهم عقلا وعلما، فكيف يصبح وقد صار تابعا لهم؟؟ وهو قول إبليس الملعون، الذي اغتر بنفسه وبأصل خلقته لما أمره الله بالسجود لآدم، فأبى واستكبر وكان من الكافرين!

ولهذا نقول إن الأصل في الإلحاد أنه كفر إباء واستكبار محض، ينشأ عن تعظيم المرء نفسه التي بين جنبيه، وكراهيته أن يصيرها تبعا لمن يزعم الناس أن الرب قد أمرهم بالخضوع والانقياد له في جميع أمرهم! مهما بدا لك أن الملحد أو المرتد قد وقع فيما وقع فيه لأسباب خلاف هذا السبب، فاعلم أنها راجعة لا محالة إلى نفس ذلك السبب الخفي وتلك الآفة القلبية الكبرى: الاستعلاء بالنفس والتمرد على مبدأ العبودية نفسه، نسأل الله السلامة! ولهذا لا يرجع المرتد الملحد المجاهر بإلحاده إلى الإسلام إلا فيما يندر جدا، وإن رجع، فلن تراه إلا راجعا بشروطه وعلى هواه، يحرص على أن يكون رأسا برأيه وهواه في الإسلام كما حاول أن يكون رأسا في الناس بالردة والإلحاد! يقبل من الدين ما يأتي على هواه ويرد ما لا يعجبه! فلن يرجع إلا على زندقة أو جهمية غالية، إلا أن يشاء الله!

تأمل قول دوكينز: "ولكن هذا الصنف من الآلهة، الإله العظيم الذي يؤمن به الفيزيائيون، ليس هو نوع الإله الذي قد يكون لديه أدنى اهتمام بالاستماع إلى دعاء عابر من هنا أو هناك" قلت: فلم لا يعدو نفسك؟ وما المانع من ذلك؟؟ وكيف يعقل أن يكون سماعه دعاء الداعي وسؤال السائل منا معاشر بني آدم نقصا في حقه؟؟ بل والله إن النقص كل النقص أن يعتقد الإنسان أن صانعه الذي خلقه وركب فيه هذا العقل الذي ركبه فيه، وجبل نفسه على تلك الجبلة التي يجد نفسه مخلوقا عليها، وأغرقه في النعم والعطايا التي لا تحصى، وأنزل عليه – كذلك – من الآلام والمكاره ما أنزل، النقص كل النقص

في أن يكون ذلك كله قد صنع بلا غاية عنده ولا قصد ولا حكمة، ولا شيء إلا اللهو واللعب والعبث، سبحان الله وتعالى عما يقولون علوا كبيرا! ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون : 115]! فهذا الذي يحرص أصحاب ذلك المعتقد على نسبته إلى ربهم وخالقهم هو محض نقص وسفه، وهم مع ذلك يزينون لأنفسهم اعتقاد أنه هو الأكمل والأليق به، وإلى الله المشتكى! يقولون هو "مترفع" عن سماع "همهمات" الناس ومحاسبتهم بما يفعلون، وهو الأليق به! الأليق بالخالق كامل العلم والحكمة أن يخلق الخلق عبثا ويتركهم هملا، ولا يبالي بما يعتقدون وما يقولون وما يفعلون؟؟ سبحان الله وتعالى عما تقولون!

تأمل كيف يتكلف دوكينز تقرير نقيض هذا المعنى البدهي الصريح (أن الرب الذي يسمع الدعاء ويرسل الرسل ويأمر وينهى ويحشر البشر ليحاسبهم يوم القيامة على ما كسبت أيديهم في الحياة الدنيا، أكمل وأعظم بالضرورة والبداهة من ذلك الصانع الذي أحدث العالم ثم تركه هملا ولم يعبأ بما يجري فيه!) فيأتي بكلام أنا أقطع بأنه لا يصدقه ولا يقبله في سريرة نفسه! فأي جحود وأي مكابرة إبليسية أعظم من هذا؟ يقول (فض الله فاه): "فهو لائق بخلقه الكوني، مترفع عن الاهتمام بشؤون البشر، غير مكترث بأفكارنا الخاصة وأمانينا، لا تعنيه خطايانا الفوضوية أو همهماتنا النادمة" فهو يريد أن يشعر القارئ بأن سماع الدعاء وإجابته، والمؤاخذة على الخطايا، وقبول توبة التائبين النادمين، ثم محاسبة الخلق المكلفين في يوم الدين، هذا كله مما لا يليق بالرب الكامل العظيم أن يلتفت إليه أصلا، فضلا عن أن يكون هو القصد الأسمى والغاية العليا التي من أجلها خلق ذلك الكون العظيم!

فمن أين جاء دوكينز بهذا الحكم المناقض لبداهة العقل في تقرير ما هو أكمل وما هو أليق بالرب خالق السماوات والأرض؟؟ جاء به من تشبيه الأفعال الذي لا ينفك عنه الدهرية طرفة عين! فإن أحدهم عندما ينفي عن رب العالمين صفاته ويعطله عن فاعليته وإرادته وحياته وكلامه وجميع صفاته، فإنما يفعل ذلك على أثر نفس تلك الطريقة القياسية التمثيلية البشرية Anthropomorphism التي يتهم بها أهل الملل الأخرى، يزعم بأنهم كلهم قد جعلوا الرب إنسانا مثلهم لأنهم ما كان يسعهم إلا ذلك! مع أنه هو الذي قاس وشبه ومثل على الحقيقة! إذ جعل الرب فيزيائيا من الفيزيائيين، ورياضيا من الرياضيين، ومهندسا مصمما من جملة المصممين! فلا شك أني لو كنت مصمما للساعات مثلا، فسأصممها وأبذل فيها غاية وسعي ومهارتي كمصمم، ثم لن يعنيني بعد ذلك ماذا يُفعل بها، بل تنقطع علاقتي بها بمجرد أن يشتريها من يشتريها ويذهب بها إلى حيث يذهب! وقد أجد نفسي مشغولا عما صنعت بشأن آخر أو بصنعة أخرى أكبر منها، أطلب المزيد من الصنع والتوسع في المصنوعات، فلا ألتفت لما صنعت قبل ولا أبالي بما يكون من

أمره لانشغالي بما أرجو أن يكون أحسن منه، هذا كله من عمل المصمم البشري والمهندس البشري، ومن نقصه الذي تقتضيه مخلوقيته، يخلق لغيره لا لنفسه، ويخلق عبثا ولعبا وظلما، ويخلق غلطا وخطأ، يجرب ثم يطور ثم يجرب ثم يحسن .. إلخ! فالصانع البشري إما أن ينقل ملكية صنعته إلى غيره، أو أن يفقدها أو يهملها أو يفسدها، أو يزول عنها ليرثها غيره من بعده، أو يكون ما صنعها من الأصل إلا لهوا وعبثا، بلا غاية وقصد لديه من ورائها! هذه كلها خصال الصانع المخلوق المربوب، وليس الخالق الأعلى الذي لا يخرج إلى الوجود إلا ما كان من خلقه وتدبيره سبحانه!

فهو ما استجاز أن يقيس الرب الباري سبحانه وتعالى على المصممين البشريين والمهندسين البشريين، وما اختار بالهوى المحض والتحكم المحض أن يقطع الصلة بين الرب وخلقه بعد الخلق جريا على ما يجوزه ذلك القياس "الأنثربومورفي"، إلا لأن هذا هو مقصوده من القياس بالأساس: أن يفرّق بين الله ورسله، ليستقيم له أن ينفي سماع الرب أفكاره وما تحدثه به نفسه، وينفي كتابته كل عمل يعمله ليؤاخذه به بعد موته!

فكل دعوى يزعم الفيلسوف أنه بها ينزه الرب الخالق عن النقص، فإنما حقيقتها تنزيه نفسه هو عن أن يكون تبعا لرسول قد أرسله الرب سبحانه، أو عن أن يكون قائلا بقول لا يأتي على هواه ولا يخدم طمعه في تحصيل الرياسة بين الناس! ونحن نقول إن الرب سبحانه ليس مصمما بشريا ولا صانعا مخلوقا، يرد عليه ذلك النقص الذي جعلته أنت كمالا! فلا يخلق شيئا عبثا ولا يترك الخلق هملا، ولا يزول ولا ينقص سلطانه على خلقه بعدما خلقهم طرفة عين، ولا تنتقل ملكية المخلوق منه إلى غيره بعد تمامه، سبحانه لا شريك له ولا مكره له ولا ند له ولا مكافئ، بيده ملكوت كل شيء وهو السميع العليم! قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان : 38-39] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون : 115]! ولهذا كان من صفات الكمال التي يوجبها العقل للرب جل في علاه، أنه القيوم الصمد الذي يقوم به كل شيء، الذي بيده مقاليد كل شيء وخزائن كل شيء، ينزل منه الأمر ثم يعرج إليه، فلا يجري شيء من حوادث العالم إلا بمشيئته وأمره وتدبيره وتقديره، وكل ما دون ذلك فهو ناقص لا يرقى لأن يكون هو صانع هذا العالم بأرضه وسمائه وما بينهما، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا!

وهذا المعنى (تكذيب الرسل بدعوى أن الرب ينبغي أن يكون أعلى شأنا من أن يغضب لما يصنعه أحدنا بأعضائه التناسلية أو لشيء يأكله أو يشربه أو لكلمة يقولها أو لإله يعبده .. إلخ) لم يزل دعاة الإلحاد الجديد (لا سيما سام هاريس والهالك هيتشنز) يتعلقون به ويدندنون حوله في كل مناسبة، ولم تزل

جماهير أتباعهم ومعجبيهم تصفق لهم بحرارة كلما سمعوا منهم السخرية والحط على ربهم – سبحانه وتعالى عما يصفون علوا كبيرا – لاتصافه بتلك الأفعال التي لا تأتي على أهوائهم، لعنهم الله! مع أن هذا الموقف فيه مغالطة من أسخف ما أنت راء عقلا، ألا وهي الاستناد إلى الهوى المحض أو التفضيل الفردي! وصورتها أن يقال: أنا أفضل أن يكون الرب الذي صنعني غير ملتفت إلى شؤون حياتي ولا يبالي بما آكل وما أشرب وبما أفعل بنعمه وعطاياه، ولا يبالي بما أعبد أو لا أعبد من دونه، ولا يبالي مهما شتمته وحططت عليه بالتصريح أو بالمقتضى! والرب الذي تدعو إليه الرسل يحصي على الناس أفعالهم وأقوالهم وأفكارهم ويجزيهم على طاعة تلك الرسل خلودا في النعيم وعلى الرفض والاعتراض والتكذيب خلودا في الجحيم! إذن لا وجود لذلك الرب ولا حقيقة لثبوته! أو على الأقل، لا يستحق – إن وجد – أن يكون موصوفا بصفات الكمال، أو أن تصرف له أنواع العبادات كما تطالبنا به الرسل!

فلا يقال في جواب هذا الاعتراض الصبياني السخيف إلا نحو من هذا: بل هو كذلك وإن رغمت أنفك، ويميتك على جحودك هذا ثم يبعثك يوم القيامة ويحشرك إلى جهنم!

فليكن يا هذا أن الرب جل شأنه وتقدس اسمه، أراد وأحب أن يخلق هذا العالم العظيم كله من أوله إلى آخره من أجل أن يبتلي نوعا مخصوصا من المخلوقات لا يبلغ حجم الفرد منه أن يكون فيه كذرة تراب في فلاة شاسعة، فكان ماذا؟ أتراه قد اتخذك شريكا له في ملكه وخلقه؟؟ أجعلك حكما عليه من فوقه فيما له أن يحبه وما ليس له أن يحبه سبحانه؟ بل لنفرض أنه أراد بحكمته أن يحرّم عليك أنت بعينك، أنت وحدك دون غيرك من البشر، يا من لا تبلغ أن تكون كذرة تافهة في أرضه وسمائه سبحانه، شيئا تحبه وتشتهيه، أو يكلفك بعمل يثقل على نفسك، تستعين فيه ببعض نعمه عليك التي لا تحصى من أجل أن تعمله، فأي عيب أو نقص يلحقه سبحانه من ذلك؟! رب مليك ذو سلطان، يخلق بقدرته ما يشاء ويختار، ويكلف من خلقه من يشاء بما يشاء مما ركب فيهم القدرة على تكلفه وجعلهم محلا قابلا له، فمن ذا الذي يملك أن يعترض عليه، إذا اختار أن يخلق عالما كعالمنا ليبلو به تلك المخلوقات الضئيلة أو ما هو أصغر منها؟ سبحانه، له المثل الأعلى، لا يُسأل عما يفعل وأنتم تُسألون!

ثم من الذي قال إن الحجم هو معيار الأهمية والقيمة الذي يتقرر على أساسه ما ينبغي أن يكون هو أعظم شيء قيمة في ملك صاحب الملك؟ من ذا الذي يقرر أي شيء أقيم من أي، وأي شيء يستحق أن يكون هو "مركز الكون" الذي سخرت من أجله أسباب السماوات والأرض؟؟ بأي حق يزاحم أحدكم ربه وخالقه في حقه سبحانه في أن يكون له الخيرة فيما يخلق؟؟ ((وَرَبُّكَ

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [القصص : 68] يا هذا لو ألزمناك بهذا المعنى الذي تتخذه معيارا للطعن على حكمة ربك (جعل أكبر الأشياء حجما هو أعظمها قيمة!)، في تقريرك القيم النسبية لمقتنياتك أنت الشخصية في داخل بيتك ما استطعت أن تلتزم به طرفة عين! لو كانت قيمة الشيء بحجمه، لما كان من فضل للآلئ على حبات الحصى! فأي عدوان وأي جناية أعظم من هذا، ومن تحسبون أنفسكم يا لعنكم الله؟! صدق القائل جل شأنه: ((وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ)) [المؤمنون : 71]!

هذا هو جوابه بإجمال، وبما لا مزيد عليه!

ونقول إن هذا الصنف من الاعتراضات السخيفة، إنما هو ضرب من التذمر النفسي والتضجر العبثي بحقيقة ما يقتضيه الإيمان برسالة رسول بشري جاء بأمر ونهي من رب العالمين، إذ يتعين عليهم إذن طاعته والخضوع له أتم الخضوع، وهذا ما تبغضه نفوسهم الجاحدة المستكبرة أشد ما يكون البغض، قاتلهم الله! وقد أجمل ربنا تبارك وتعالى العبارة عن تلك الحالة إجمالا بليغا في قوله: ((وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً)) [الإسراء : 94]! فيجعلون متمسك الاعتراض في أن يبعث فيهم رجلا منهم! فماذا تريدون إذن، قاتلكم الله؟ تراهم يقولون: ((لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ)) الآية [الأنعام : 8] وهذا من المماحكة قطعا! فإن نوع الرسول (إنسا كان أو جنا أو ملكا أو غير ذلك) لا تأثير له على صدق رسالته أو كذبها! فإن كانت حقا في نفسها وجب على من يتلقاها أن يقبلها، لا أن يردها بدعوى أن الرسول ينبغي أن يكون ملكا، لا سيما والرسول المصطفى لحمل الرسالة ليس من نوع مستحقر أو مطعون في صدقه وأمانته! وتراهم يتنطعون بشروط أخرى للقبول تنطعا هم يعلمون كما يعلم ربهم أنهم ما يريدون به إلا التعنيت والمماطلة ودحض الحق! يقولون أرنا آية! فإذا أراهم آية من الخوارق قالوا له: بل سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون! ثم يقولون لن نؤمن لك حتى ترقى في السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تأتينا بكتاب نقرؤه، فإن قدر أن أجابهم إلى ذلك، قالوا فما يأمننا أن تكون قد سحرت أعيننا؟ فلن نؤمن لك حتى تسقط علينا السماء كما زعمت كسفا، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا! وفي كل مرة يعترضون على كل آية بأنما هي سحر يسحرهم به، يتفلسفون كما يتفلسف ملاحدة هذا العصر يقولون: لعلها كانت "هيستيريا" فردية أو جماعية، لعلهم توهموا، ما يأمننا أن يكون الأمر كذلك؟؟ لعل ولعل .. إلخ! فكأنما جاءهم هؤلاء الرسل بدعوى أن بابا نويل – مثلا – هو الذي أرسلهم يدعوهم للإيمان به، وكأن الأمر المدعو إليه أمر يرد في العقل كذبه وفساده (على طريقة إبريق راسل)! فهم يعلمون وهاء وبطلان ما هم عليه لأن

الرسل إنما تدعوهم لعبادة خالقهم وخالق كل شيء، الذي هو واجب الوجود والكمال في عقول العقلاء كافة، لا للإيمان بمجهول عين أو بممكن من الممكنات العقلية، يجيز العقل وجوده كما يجيز عدمه!

ومع ذلك فالله يعلم أن قلوبا من قلوب عباده فيها من الكبر والإباء والجحود ما يجعلها تصر على الكفر والتكذيب ولو أراهم من الآيات ما أراهم، بل ولو أراهم نفسه جهرة سبحانه! ((وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ)) [الأنعام : 111] ووالله لا يفيقهم من غرورهم وتنطعهم إلا أن يجدوا لفح النار على أبشارهم يوم لا ينفعهم الندم! ((لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)) [الشعراء : 201] وساعتها يقال لهم ((أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ)) [الطور : 15]!! هذه قلوب نتنة هو خلقها سبحانه ليبتليها وليبتلي بها، وهو أعلم بها! ((سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ)) [الأعراف : 146]، فلا نجزع من كبرهم وإبائهم ولا نلتفت إليهم أصلا، لا بجدال ولا كلام ولا شيء، إلا أن يقوم عليهم إمام مسلم بما يجب عليه في أمثالهم، والله المستعان!

الله تعالى خلق آدم وكرمه وأسجد له ملائكته، لأنه أراد من خلقه آدم وذريته من بعده أمرا عظيما! نعم، أراد سبحانه من ذلك المخلوق الضئيل أمرا عظيما للغاية، وحمّله أمانة التكليف التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها، وهذا هو الحق وإن رغمت أنوع الكوبرنيكيين! فهو سبحانه يحب أن يُعبد بالغيب فوق ما يحب أن يعبد بالشهادة. ويحب أن يعبده المخلوق طوعا واختيارا فوق ما يحب أن يعبده قهرا وإجبارا، وهو سبحانه القادر على أن يخضع رقاب الخلق جميعا لعبادته بكلمة من حرفين لا غير! قال تعالى ((إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)) [الشعراء : 4]، وقال تعالى: ((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)) [إبراهيم : 19] وقال جل شأنه: ((وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ)) [الأنعام : 133] ولكنه سبحانه يحب أن يرى عبده المكلف المخاطَب بالرسالة، يتعرض للبلايا والمحن أشكالا وألوانا، يمتحن بها إيمانه بالغيب امتحانا، ومع ذلك يثبت ويصبر ولا يزداد إلا إيمانا وتسليما! ((إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)) [آل عمران : 140] وله سبحانه في بلاياه حِكم يثبتها المؤمنون الموقنون إجمالا دون أن يشترطوا على ربهم التفصيل! فالإيمان ابتلاء بالغيب،

وهو ابتلاء ليس بالهين، حتى لقد حفت الجنة بالمكاره كما حفت النار بالشهوات، فليس المقصود أو المراد (إرادة تكوينية) أن يحصل للمكلفين كلهم نفس القدر من التصديق والانقياد والقبول، وإنما المقصود أن يظهر فيهم درجات من الصادقين العقلاء المتقربين إلى ربهم بالغيب المتحببين إليه بما يحب، مهما اشتد عليهم البلاء الذي يزاد عليهم مع تقربهم، وأن تظهر فيهم – كذلك – دركات من المجرمين الجحدة المستكبرين على قبول الحق الجلي البدهي، جريا وراء شهوات لا تنال إلا بالكفر والإعراض! فهو يحب سبحانه أن يمكر بأهل الأهواء المستكبرين فيمكنهم من أسباب تزيين سوء العمل لأنفسهم ومن تبعهم من أمثالهم! ((أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)) [فاطر : 8]!

وخذ إن شئت قصة المسيح عيسى ابن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، ففيها آية في الاستدراج والمكر بأهل الأهواء! فلما أراد الله تعالى أن يرسل المسيح عليه السلام إلى بني إسرائيل، وكان قد اقتضت حكمته أن يبتلي به أمما من البشر لا يحصيها إلا هو سبحانه، رتب في تقديره السابق عند المستكبرين وأهل الأهواء من الأمم السابقة على بني إسرائيل، أسبابا زينوا بها لأنفسهم – على أمراض قلوبهم - اختراع أسطورة زعموا فيها أن الرب لما أراد أن يتقرب إلى البشر، اتخذ لنفسه ولدا في رحم امرأة عذراء فاضلة، فجعله نصف إله ونصف إنسان! ولعله كان من تلك الأسباب السابقة التي رتبها سبحانه لهذا الابتلاء، أن خلق الله في رحم امرأة من أهل تلك الأمم الغابرة رجلا صالحا أو نبيا من الأنبياء بلا أب، كما صنع بعد ذلك مع عيسى عليه السلام، يجعلها آية من آياته التي يبتليهم بها كما ابتلى بعيسى من بعد! فلما وقعت تلك الأسطورة للزائغين والمحرفين من أمم الأولين على أثر ذلك، صارت هي اعتقاد ملل وثنية قديمة فشت في تلك الإمبراطورية التي أخضع لها رقاب بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام!

فلما أراد أن يتبلي بني إسرائيل بإرسال المسيح، لم يقتصر في ابتلائه إياهم به على أن جعل بين أيديهم وفي قلوبهم أسبابا تزين لهم بها قلوبهم المريضة الإعراض عنه في وقت رسالته، ومحاربته هو وأتباعه حيثما ذهب! بل اقتضت حكمته سبحانه أن جعل في مولده وفي بعض الخوارق التي أظهرها على يديه آيات مخصوصة ترسخ إيمان المؤمنين به من جانب، وتضيف إلى أسباب الابتلاء به أسبابا تبقى في الأرض لأمم تأتي من بعده! فلم يجعله الله ابتلاءً لأمته وحسب، بل لسائر الأمم التي تأتي بعده إلى قيام الساعة. فنقول إن الحكمة في اختصاصه سبحانه هذا النبي الكريم بآية الخلق في رحم امرأة من غير أب، والكلام في المهد، وخلق الطين على هيئة الطير فتكون طيرا، وإحياء الموتى بإذن الله، الحكمة في ذلك كله، أن أجراه على يدي هذا النبي

بالذات، أنه سبحانه قد أراد أن يجعله وأمه سببا في ابتلاء العتاة من مجرمي بني إسرائيل أولا، الجحدة المستكبرين المتفننين في اختراع الملل وإحداث البدع واستمالة الجهلاء إليها ومحاربة النبيين وقتلهم، يستدرجهم حتى يتفتق ذهن أحدهم عن استغفال عامة الوثنيين في ذلك الوقت بإيهامهم بأن المسيح هو ابن الإله الذي كانوا يعبدونه، وبأن أمه العذراء البتول هي بعينها أم الإله التي يؤمنون بها، وبأن تلك الخوارق إنما تدل – عند من بقي ممن شهدوها من أهل الأهواء – على أن المسيح هو ابن الإله الذي قال به الأولون، وإلا ما أحيا الموتى وما خلق الطير من الطين، وما ولد من غير أب، إلي آخر ذلك! فكان بذلك ما قدره الله تعالى من مضاهأة قول الأولين في إفكهم وكذبهم عليه وعلى رسله: ((وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)) [التوبة : 30]

ثم مكر الله بهم مزيدا من المكر، لما أجمعوا أمرهم في مؤامرة شيطانية على أن يصلبوا المسيح عليه السلام وينكلوا به أبلغ التنكيل! فقضى بحكمته سبحانه أن يستدرجهم للظن بأنهم قد تمكنوا منه، فيرفعه سبحانه إليه سالما، مكرما غير مقهور ولا ممتهن ولا مصاب بأي سوء، ثم يلقي شبهه على منافق من المنافقين، ممن ساهموا في تلك المكيدة الخبيثة، جزاء وفاقا، فيؤخذ هو في مكانه ويصلب وينكل به، ثم يهلك على الصليب ذليلا مخذولا! والظاهر – والله أعلم – أنه من تمام المكر أن قدر الله تعالى فقد أو اختفاء جثمان ذلك المجرم بعدما دفنوه، استدراجا لبدعة أخرى وكذبة أخرى! وعلى أي حال فقد تهيأت الأسباب الكاملة بذلك – في حكمته سبحانه - لأن يخرج من أهل الكبر والتجارة بالدين والكذب والتحريف، من يقول: "لقد نزل علي المسيح من السماء وقال لي يا فلان: قد اصطفيتك رسولا للناس لتبلغهم بأني أنا ابن الله الحي، وأني قد بعثت من الموت بعدما قدمني ربي للصلب فداء لخطاياهم!" أو نحوا من ذلك! ولعله أن يكون كاذبا لم ير شيئا البتة، ولربما سلط عليه شيطان من الشياطين يتمثل في صورة المسيح فيكلمه بما كلمه به، فقبل منه ذلك الشرك البين لسبق شهوة التنبي والرياسة إلى نفسه! فخرج على الناس يزعم أن المسيح هو الذي مات على الصليب لأن أباه الذي في السماء ضحى به من أجل خطايا الناس! كل ذلك من مكر الله بالمجرمين، ((وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)) [الأنفال : 30]! الله يمكر؟ خالق السماوات والأرض يمكر؟ صانع هذا الكون الواسع المذهل، الذي ساحت عقول الفلاسفة في تصوره، يمكر بفلان وفلان؟ أيليق هذا به؟؟ نعم يليق ولا شك، بل هو الأكمل والأليق بالحكيم العليم الذي خلق كل شيء بقدر، فلا يظلم مثقال ذرة! أما أن يخلق خلقا يركب فيه من الصفات ما ركب في بني آدم، فيستقيم بعضهم على الخير ويميل بعضهم الآخر للظلم والشر، ويتجبر بعضهم على بعض، ويتخذ

بعضهم بعضا أربابا من دونه، ثم يتركهم جميعا ليفنوا أعمارهم بين عابد له متزلف إليه طامع فيما عنده، يدعوه ويناجيه ويتشوف إليه، ومحارب له يسبه آناء الليل وأطراف النهار ويتدين بشتمه والحط عليه، وهو يبطش بمحبيه ومؤلهيه غاية الوسع، يؤذيهم أعظم الأذى، يخلقهم على هذا، ثم يتركهم جميعا بعد ذلك ليصيروا ترابا وكأنهم ما خلقوا أصلا وما كانوا وما عملوا شيئا، فهذا غاية العبث والسخف، وهو من نقائص المخلوقين التي يتنزه عنها رب العالمين، سبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا! ((أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)) [المؤمنون : 115]

ليس هذا وحسب، بل ويقضي الحكيم العليم في تقديره سببا إضافيا لاستحكام تلك المكيدة الإلهية الكبرى التي نصبها الرب للكيد بأصحاب الأهواء الوثنية وغيرها من الأهواء ذات الصلة، من العتاة المستكبرين على قبول الحق والخضوع له، فيقضي جل شأنه في إمبراطور وثني رومي في القرن الرابع بعد رفع المسيح، أن يلهمه شيطانه بأن الطريقة المثلى لجمع إمبراطوريته على دين واحد، تتحد به ولاءات جيشه ورعيته، هي في جمع سائر أهل الملل المنسوبة إلى المسيح في البلاد على دين واحد يترضيه حتى الوثنيون من رعيته! فيعقد مجمعا كبيرا يجمع فيه رؤوس سائر تلك الطوائف ويفرض عليهم بالقوة أن يتفقوا على دين واحد يصبح هو الدين الوحيد المسموح بممارسته في البلاد، ثم يفرض عليهم فرضا بدعة الثالوث وغيرها من البدع التي ابتدعها بعض رجال الكنائس على عهده! وإذا بتلك الوثنية الجديدة المنسوبة إلى المسيح تصبح هي الدين الرسمي للإمبراطورية القسطنطينية نفسها، وما أدراك ما القسطنطينية وما سلطة ونفوذ الإمبراطورية الرومية في ذلك العصر!

بل وخذ مثلا أثيرا للدهرية الملحدين لا يزال أحدهم يلهج به اعتراضا على الحق الجلي الواضح، إذ يقول: لو كان الرب الذي تؤمنون به موجودا على الحقيقة كما تزعمون، فلماذا خلق العالم بحيث يبدو وكأنه لا خالق له، وبحيث يبدو وكأن نظرياتنا بشأن أصل العالم وأصل الأنواع هي الحق المطابق للواقع؟ لماذا يفتح الباب لأن يصبح في الأرض علوم طبيعية يستعصي على من يتناولها ويتوسع فيها كما توسعنا أن يؤمن به؟؟

ويقال لهذا إن الرب جل شأنه لم يخلق العالم بحيث يبدو وكأنه لم يخلق، فإنه ليس في العقل السوي ولا في البداهة الواضحة التي جبل الله عليها البشر، وأنتم منهم، ما يوجب اشتباه النظام الأمثل والأضبط بالفوضى المتجذرة، ولا اشتباه الخلق والتدبير والقيومية بنقيض ذلك كله! ولكن لأن لله في خلقه هذا العالم حكما بالغة، فقد اقتضت بعض حكمه في ذلك أن يجعل في نفوسكم أنتم أسبابا يتزين بها ذلك الباطل الشنيع، حتى يبدو فيما توهمون به أنفسكم وكأن كل مشاهدة في العالم تدعمه وتقويه، وكأن كل شيء يدل

عليه! تظهر الآية على كماله وطلاقة قدرته، فيراها المؤمن كذلك فيزداد إيمانا وتصديقا، ويراها الكافر الجاحد على نقيض ذلك، فلا يزداد إلا كبرا وجحودا، نسأل الله السلامة! ((إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ)) [البقرة : 26] فصحيح إن القرد قد خلقه الله شبيها للإنسان، إلا أن هذا لا يدل عند العقلاء الأسوياء على أن الإنسان والقرد لابد أنهما قد خلقا من نسل سلف مشترك، لأن الفطرة تضاد ذلك وتأباه أولا، وهي حجة عند العقلاء كافة، ولأن الرب قد أنزل في كتابه خلاف ذلك ثانيا! فحتى إن سلمنا بكون العقل يجيزه مبدئيا، فالحجة السمعية تبطله!

قال ريتشارد دوكينز في واحدة من أكثر مقالاته ذيوعا وانتشارا: "إن الكون كما نشهده، له بالضبط تلك الخصائص التي نتوقع أن نراها فيه، إن كان لا تصميم فيه ولا غاية ولا شر ولا خير ولا شيء إلا اللامبالاة العمياء." اهـ. [28]
قلت: وهذا والله من مكر الله بكم، ومن آيات كماله جل شأنه، إذ يستدرج أمثالكم إلى أمثال تلك المقولات الشنيعة التي يجزم الصبي الصغير بفسادها، حتى يرديكم بما كسبت قلوبكم، يحشركم يوم القيامة على وجوهكم صما وبكما وعميانا، جزاء وفاقا، لما تشربت به قلوبكم من الكبر والجحود، ولا يظلم ربك أحدا! نقول: على التسليم تنزلا بأن شيئا كهذا الكون يجوز في العقل أن يوجد بلا صانع ولا غاية ولا قصد ولا حكمة ولا نظام .. إلخ، فأين سبق لك أنت أن رأيت كونا آخر لا خالق له، ولا نظام فيه، حتى تزعم أنك تجد في معرفتك أساسا استقرائيا أو في عادتك الحسية (على طريقة الطبائعيين) مستندا لتحكم به على عالمنا هذا عند المقارنة وبالقياس، بأنه من ذلك النوع الذي لم يخلقه خالق ولم يصنعه صانع؟؟ على أي أساس في الخبرة يقال كما قال الرجل: إن الكون كما نراه هو بالضبط كما كنا نتوقع أن نراه لو لم يكن له صانع؟؟ من أين يأتي هذا التوقع أصلا وعلى أي أساس يقام؟؟ وكيف كنت يا هذا تتوقع أن تراه حتى تحكم بأن له صانعا؟ أن تجد الأشياء فيه مصنوعة كما تحب أنت وتشتهي؟ أو أن تجد الأشياء فيه جارية على طريقتك أنت – يا أحقر خلق الله – في الصنع والتركيب والتكوين والتنظيم؟ أو أن تجدها جارية على حِكمك أنت وغاياتك أنت وعللك أنت في صنع الأشياء؟ ما أساس القياس الذي به يحكم بأنه لم يصنعه صانع ما ولم تكن له حكمة ولا غاية ولا مقصد أعلى؟؟ غايتك أن تحكم بأنه لم يصنعه صانع بشري مثلك، يجري على مثل علمك وعلى مثل حكمتك، ينتظم على ما أنت مضطر للخضوع إليه من سنن كونية وطبيعية تجري عليك حتى في الهواء الذي تتنفسه! نعم الكون ليس كما كنا نتوقع أن نراه لو كان من صنعة إنسان ناقص جاهل مثلك، لا يملك من أسباب العالم إلا ما مكنه منه ربه ابتلاء واختبارا! فنحن نعلم من الخبرة البشرية ما في صنائع البشر من نقص أصيل لا يكمل مهما كمل، ونرى

بجلاء باهر بديع صنع الكون وإحكام الخلق فيه! فالحكم بهذا بدهي لا توقف فيه ولا خفاء! أما أن يقال إنه لا صانع له البتة، فهذا لا العقل يجيزه، ولا الطريقة التجريبية الجارية على المنطق التفسيري الاستقرائي Abductive Reasoning أو طريقة منطق الاستبعاد Eliminative Reasoning التي اتبعتها في هذا التقرير الهزلي السخيف! أنت لم يسبق لك أن رأيت شيئا غير مصنوع أو غير ناشئ عن سبب متقدم عليه، حتى تحكم بالقياس عليه بأن هذا الكون الذي تراه، تدل هيئته وصفته على أنه ناشئ عن غير سبب! فلا البداهة تخدمك فيما تريد، ولا الطريقة التجريبية التي تسميها بالعلم Science تدعم موقفك، ولست على شيء البتة، والحمد لله أولا وآخرا!

فعندما يقال إن العالم "مشتبه" أو فيه اشتباه بين أن يكون مخلوقا وأن يكون فوضويا غير مخلوق، أو يقال إن الأدلة متكافئة أو نحو ذلك، فضلا عن أن يقال إنه إنما يبدو كما نتوقع أن نراه إن قدرنا كونه لا خالق له من ورائه، فاعلم أن قائل هذا القول قد استدرجه رب العالمين ومكر به لهوى ومرض في نفسه، حتى يهلك على قول يُحشر به يوم المعاد مع ألد أعدائه سبحانه! ومن مكر الله تعالى بأهل الأهواء والضلالات والبدع أن الواحد منهم قد يكون على تردد في أمر بدعته قبل أن ينشرها، فإذا حمله هوى نفسه على نشرها، فلعله أن يبتليه ربه بأن يتوافر عليه من الموافقين والمؤيدين من لا يكاد يحصيهم، وإذا بهم يجعلونه – من أهوائهم – رأسا وإماما لهم، إذ بادر بنشر ما كانت أهواؤهم قد أوحت به إليهم من قبل، أو بقريب منه! فإذا نظر صاحب ذلك السبق الخبيث فوجد نفسه قد صار رئيسا في الناس بتلك المسألة، رأيته يجمع أمره وقلبه على التمسك بتلك البدعة والتصدر بها والمنافحة عنها في كل مناسبة، وكأنه ليس في الدين ما هو أعظم منها أو أجدر بأن يكون هو أساس دعوته وشغله الشاغل!

ثم إذا بالبدعة الواحدة تتضخم وتتشعب عليه، كلما سأله أحد أتباعه سؤالا فيها لم يسبق له النظر فيه من قبل، أو كلما جاءه خصم يناقشه فيها ببراهين وحجج مضادة لم تخطر على باله من قبل! وإذا به تأتيه منيته وقد صار إماما لضلالة عظيمة، أعظم بكثير مما كان عليه جهله في أول أمره، وقد تعلق بعنقه يوم القيامة من لا يحصيهم ممن أضلهم وأفسد عليهم دينهم، نسأل الله السلامة! فهل ظلمه الله بذلك الاستدراج؟ أبدا! وإنما ابتلاه في أول أمره وهو يعلم سبحانه أن الهوى في نفسه سيتعاظم وسيمنعه من قبول الحق إذا ما سمعه من أهله، لأن الهوى والشهوة يأبيان عليه أن يفرط في تلك المنزلة التي طالما حلم بإحرازها لنفسه: منزلة الرياسة الدينية والتصدر بين الناس! فإذا مكر هو برفع الباطل الذي يعلم – في نفسه أو في عقله الباطن - بطلانه وفساده، ويرى الدليل على بطلانه لائحا أمامه، يريد به التوصل إلى مزيد من التصدر والرياسة والسيادة بين الناس، كان من كمال صفة الباري جل في

علاه ألا يعامل مثل هذا إلا بالمكر به، يستدرجه بفتح المزيد والمزيد من أسباب الهلكة والعذاب يوم القيامة بين يديه، يملي له إملاء حتى إذا أخذه لم يفلته! حتى إبليس اللعين نفسه، عندما حجزه كبر نفسه المريضة عن أن يسجد لآدم عليه السلام إذ أمره الله بذلك، فطرده الرب جل وعلا ولعنه كما في قوله جل شأنه ((قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)) [الأعراف : 13]، ماذا كان منه؟ ((قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)) [الأعراف : 14] يريد من حقده ومرض قلبه أن يمكر بذرية آدم كلها من أولها لآخرها لعلها تلحق به في جهنم فلا يكون لها فضل عليه ((قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيم)) [الأعراف : 16] ولم يدر المجرم – في كبره الأسود – أنه إنما مكر الله به أعظم المكر فأرداه بذلك الذي قال حتى بلغه أدنى دركات جهنم! أرأيت لو أنك أضللت رجلا من بني آدم حتى استدرجته إلى الشرك، فكم يكون نصيبك من العذاب في الآخرة؟ وكم يكون إن قدر لك أن كنت سببا في ضلال سائر من ضل من بني آدم جميعا؟ نسأل الله السلامة! وفي النهاية فأي المكر كان هو الأعلى، ومن الذي كانت ثمرة مكره هي الأبقى وهي العدل والحق الذي لا يتطرق إليه الظلم والجهل بحال؟ إنه مكر رب العالمين الذي هو خير المكارين سبحانه.

لذا نقول إنه لا يمكر الله إلا كان مكره عدلا وخيرا بالضرورة، علم وجه ذلك من علم، وجهله من جهل، ولا يدعو سبحانه الخلائق لتكبيره وتعظيمه والذل له والانحناء بين يديه، إلا كان بذلك عادلا حكيما يضع الشيء في موضعه، خلافا للعبد إذا حمل الناس على التذلل له وتعظيمه كما يعظم الرجل ربه وخالقه، كان مذموما ظالما بذلك، وإذا مكر بغيره فقد يكون مكره خيرا وعدلا وقد يكون ظلما وشرا، ولهذا لا يوصف الله بالمكر إلا مقيدا بالإضافة لأنه لا يمكر إلا بمن هم أهل لأن يمكر بهم سبحانه. أما المخلوق فهو الذي يرد عليه أن يكون مكره في محله، يمكر بالمجرمين والظالمين، وأن يكون مكره في غير محله، يمكر بمن لا يجوز له المكر بهم! [29]

فتأمل مكر الرب جل وعلا بالمجرمين من أهل الأمم، واسمع قوله تعالى: ((وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)) [الأنفال : 30]، وتدبر فيما في وصفه تعالى نفسه "بخير الماكرين" من كمال لا تحيط بها العقول، وقل الحمد لله الذي سلم لي فطرتي مما يشوش به أهل الأهواء على ذلك الحق الجلي الواضح!

ومع هذا، فإنه إذا نظر الدهري الملحد إلى تلك المسألة نفسها، وبتلك الأهواء التي تحمله على تكذيب الرسل، فسيختار – عمدا وقصدا – أن ينظر إلى الرب تعالى بعين القياس وتشبيه الأفعال، كما ينظر إلى ملك من ملوك الأرض، ولن يراه بذلك إلا ظالما متجبرا، موصوفا بكل نقيصة! إذ يجمع السبب فوق السبب لتزيين الباطل في أعين الناس، فيضل بذلك أمما من البشر

قصدا وعمدا! فيقول الدهري المكابر: كيف يكون محمودا بذلك؟ وكيف لا يريد الخير كل الخير لرعيته؟؟ هو إذن سلطان جائر، وحاكم ظالم، وديكتاتور من المتجبرين في الأرض لو استطعنا عزله لعزلناه! سبحان الله وتعالى علوا كبيرا عما يقوله المجرمون!

وهذا – والله – من مكر الله بأحدهم، الذي استحقه أتم الاستحقاق وأوفاه! فالمسألة نفسية محضة، يحول فيها الهوى المحض إلى "دليل"، والاعتراض بالهوى إلى "حجة"! فهم يريدون إيهام أنفسهم بأنهم على شيء إذ كرهوا أن يخضعوا رقابهم لرسل الله كما أمرهم! وإلا فمن أوليات العقل والبداهة ألا ينسى العبد أنه عبد مخلوق، يليق به ما يليق بالعبد المخلوق، وأن الرب رب، لا يوصف إلا بما يليق بالرب الخالق، فلا يعلو المخلوق على خالقه، والمربوب على ربه، بل لا يكافئه أو يساويه، ولا يقرب من ذلك طرفة عين ولا أقل من ذلك، إلا عند جاحد ظالم، بالغ في الجحود منتهاه! أي أنك أنت الذي تظلم نفسك وتظلم نفسك أيها الجاحد الأبعد عندما تهبط بمرتبة الرب الباري جل شأنه إلى منازل المخلوقين أمثالك، ثم تقبح أفعاله بالقياس على أفعال المخلوقين! فإنه ليس في الأرض ملك يملك رعيته تملكا تاما مطلقا كما يملك الرب الباري مخلوقاته كلها من أولها إلى آخرها! وليس في ملوك البشر ملك يملك لنفسه ما يصعد في صدره من النفس وما يجري في عروقه من الدم وما يجري في خلايا جسده من إشارات كهربية وتفاعلات كيماوية، فضلا عن أن يملك ذلك لغيره! وليس في ملوك البشر من يرزق نفسه فضلا عن رعيته، أو يملك لها النفع والضر بجميع أسبابه! فالبداهة تقضي بأن يكون العدوان على رب العالمين، خالق الملوك ومالكهم وما ملكوا، أشنع بأضعاف مضاعفة من العدوان على أي ملك من الملوك المخلوقين! فإن الجريمة تثقل – بالضرورة - بمثقال من اقترفت في حقه! والفعل – من قبلك – الذي يليق منك بند لك مكافئ مساو، قد لا يليق بمن هو فوقك من البشر المخلوقين، فكيف بصانع البشر أجمعين، خالق السماوات والأرض وما فيهما؟؟

ولهذا كان من أسخف السخف ما نسمعه من كثير من الملاحدة من اعتراض على عظم عقوبة التخليد في النار! يقولون: أي جريمة هذه التي تستحق أن يعاقب عليها مرتكبها بقضاء قرن كامل يحرق بالنار، فضلا عن ألف سنة، فضلا عن مليون، فضلا عن الخلود في النار أبدا؟ فيقال لهم: يا هؤلاء إن التفاوت بين الجريمة في حق المخلوق والجريمة في حق الخالق، هو بالبداهة فرع عن التفاوت بين مقام المخلوق ومقام الخالق جل شأنه! فمعصية المخلوق ليست كمعصية الخالق، والكفر بأنعم المخلوق وعطاياه ليس كالكفر بعطايا الرب الخالق جل شأنه، وشتم المخلوق مهما عظم قدره في المخلوقين ليس

كشتم رب العالمين والحط عليه وتسفيهه، سبحانه وتعلى وتقدس! تكاد الأرض أن تنشق والسماء أن تنفطر من شناعة ذلك الجرم الأعظم!

تصور الآن أعظم نعمة أنعمها عليك بشر مثلك، أو عطية أعطاك إياها، ثم قارنها بنعمة العين وحدها! أنت مطلق وجودك في هذا العالم من الأساس نعمة ومنة من الله جل شأنه تستوجب الشكر! ألا ترى أنه لو شاء ما خلقك ولا أوجدك من الأساس؟! ثم تأمل في جعله إياك إنسانا كريما حسن التقويم، لا جرذا حقيرا أو خنزيرا أو صرصورا يرعى في شبكات الصرف، أعزك الله، هو كذلك نعمة عظيمة! ألا ترى أنه لو شاء لأوجدك شجرا أو حجرا أو خلقا مما يُحتقر، ولما ظلمك بذلك؟ أأنت اكتسبت تلك الهيئة الحسنة بشيء عملته أو حق كان لك عليه؟؟ أبدا! أأنت استحققت يدك أو عينك أو رجلك التي ركبها فيك سبحانه، بشيء صدر عنك قبل أن تولد؟؟ أبدا! ثم تأمل مولدك كبشر فيه من الأعضاء ما لو شاء لحرمك منه، ولما ظلمك بذلك، وفيه من النظم الحيوية صحيحة العمل والأداء ما لو شاء لحرمك من صحتها وسلامتها، ففي هذا الباب ما لو أمضى أحدنا عمره كله ومثله معه ليحصيه ما أحصاه! ((وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)) [النحل : 18]! ثم تأمل في المنة عليك بالأم والأب وأسباب الأمن معهما، وأنت المولود الضعيف الذي لو ترك وحده ساعة لهلك! بل والمنة عليك بأن ركب في أمك التي ولدتك من الغريزة ما منع من أن يبلغ بها الضجر والسأم من صراخك أن تقذف بك من شباك بيتها أو أن تدهسك بقدميها دهسا! والمنة عليك بجعلك مكلفا قد فتح لك بمجرد التكليف، بابا لرحمة أبدية تخلد فيها بعد موتك لم يجعله لكثير مما خلق، وما كان شيء أهون عليه من ألا يخلقك أصلا! والمنة عليك برسالة الإسلام، سبيل الفوز بجنة الخلد والنجاة من النار، وكفى بها منة، تلك المنة التي ما استحققت وصولها إليك وبلوغها سمعك بشيء قدمته البتة، ومع ذلك أوصلها إليك كما لم يوصلها إلى كثير من الناس! فمن من ملوك الأرض يملك لرعيته ولو معشار معشار معشار أدنى نعمة من تلك النعم؟؟ من من ملوك الأرض يدين له الواحد من رعيته بوجوده نفسه، وبقيامه من فراشه كل صباح، وبالنفس الذي يتلقب في صدره، وبما لو بذل عمره كله يحاول أن يحصيه من أنواع النعم، بل لو مكث أبد الدهر ما وسعه وما كفاه؟؟

لذا نقول إن جحد المخلوق حقه ليس كجحد الخالق حقه، وشتان شتان! بل ليس في الوجود جحود أشد ظلما وأشنع جناية من ذلك الجحود، ولا تتصور جناية تعلوه في القبح والشناعة، وهذا ظاهر واضح إلا لجاحد مجرم، بالغ من الجحود ونكران الفضل ما لا يقبح عند العقلاء شيء فوق قبحه! فصدق القائل جل شأنه ((إن الشرك لظلم عظيم))!

فإذا ذكر الملك العزيز خلقه بحقه القدسي في أن يعترفوا له بفضله عليهم، الذي لا يحصيه بشر وما كانوا ليحيطوا به علما، ثم هم – مع ذلك – يجحدونه ذلك الفضل، يستكبرون عن عبادته والخضوع له وحده لا شريك له كما هو حقه البدهي الفطري، ويرفعون بعض خلقه إلى منزلته، يصرفون إليهم من التوقير والتعظيم والعرفان ما لا ينصرف إلا إليه، كان في ذلك من الإهانة له سبحانه ما لا يقبله كريم عزيز من بني آدم، فكيف والمعتدى عليه في ذلك هو من يملك على ذلك المعتدي كل ذرة يتركب منها جسده الآثم، وكل نفس يتنفسه؟؟ بل كيف وفي الخلق من تبلغ به حماقته وكبر نفسه ومرضها أن يرفع شيئا من تلك البرية إلى منزلة صانعه وباريه، يحمل الناس على أن ينسبوا إليه ما لا ينسب إلا إلى صانع الأرض والسماء ومالكهما وحده لا شريك له، ويمجدوه بذلك وكأنه هو الذي خلق ورزق ودبر وقدر وأمسك الخلق عن أن يزول، وكأنه هو الذي جمع أسباب السماء والأرض وما وراءهما على إنفاذ ما أراد لغيره من النفع والضر! فأي شيء أقبح من هذا عند العقلاء أسوياء النفوس؟ لا شيء والله، ولكنهم قوم لا يعقلون! ولهذا كان أعظم الجرائم على الإطلاق وأشنعها على الإطلاق وأحقها بأعظم العقوبات على الإطلاق، الشرك برب العالمين سبحانه!

ولهذا أيضا جاء في الحديث القدسي قوله تعالى: العزة ردائي والكبرياء إزاري، من نازعني فيهما أدخلته ناري! وجاء أنه يأتي يوم القيامة سبحانه فيقبض الأرض ويطوي السماوات بيمينه ثم يقول أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ فكان من أخص خصائص الربوبية وصفه سبحانه بأنه ملك يوم الدين، إذ ليس في ذلك اليوم ملك سواه! وهو وحده الذي يقال له "مالك الملك"، إذ كل من دونه من ملوك المخلوقين يملك بالوكالة والعارية لا بالتملك الحق! بل والله ليس منهم من يملك يده التي يبطش بها أو رجله التي يدب بها أو قلبه الذي يتكبر به على ربه، ملكا حقيقيا لا ينازع فيه! أمنكم من يزعم أنه اكتسب أعضاء جسده اكتسابا واستحقها استحقاقا عند مولده؟؟ أيكم بذلك زعيم؟؟ ليس من ملوككم من خلق نفسه فضلا عن أن يخلق أفراد مملكته، ففي أي شيء أنتم، تجعلون لربكم أندادا؟! قال تعالى: ((قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [آل عمران : 26] وقال تعالى: ((وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [الزمر : 67]

فالكبرياء والاستعلاء والجبروت إنما تكون صفات مذمومة مقبوحة في المخلوق لأنه إذن ينزل نفسه منزلة ليست له، بل بينه وبين أن ينزلها ما لو قلنا إنه كما بين السماء والأرض لنقصنا من ذلك الفارق أعظم ما يكون النقص! فإن ما بين الخالق ومخلوقه لا يقاس بما بين مخلوق ومخلوق مثله!

فليس لإنسان أن يستكبر على غيره من بني آدم وكأنما خلقوا هم من طين وخلق هو من ذهب أو من فضة مثلا! ولو كان في مطلق التفاوت في أصل مادة الخلق حجة أو مستند للاستكبارعلى الخلائق، لكان لإبليس حجة وعذر في قوله: ((وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً)) [الإسراء : 61]! وإنما كانت علة تقبيح الاستكبار والتعالي في المخلوق هي مطلق المخلوقية نفسها! ولهذا نقول إنه ليس لدى الملحد الدهري تعليل لتقبيح استكبار الإنسان وغمطه الناس إن زعم أنه يقبحه! مع أن قبح ذلك معلوم في الفطرة، مجبول عليه البشر! من أدرك هذه المعاني حق الإدراك، وفهمها حق الفهم، وأنصت لصوت الفطرة فيها حق الإنصات، أدرك كيف عظمت جناية من أشرك برب العالمين واستكبر على الخضوع له، وحرص على أن يبقى ما امتد به عمره على ذلك، حتى بلغت أن تكون عقوبتها التخليد في أشد أنواع العذاب شناعة، جزاء وفاقا! الحكم بأشنع العقوبات لأشنع الجنايات هو والله العدل الذي لا عدل بعده، لو كانوا يعقلون! ولو أرادوا النجاة من تلك العقوبة البالغة في الشناعة منتهاها، لما كان من شيء أهون من أن ينزلوا عن كبريائهم الإبليسي الملعون، ويختاروا الخضوع لرسول رب العالمين، وإذن ينقلبوا من أشد العقوبات لأعظم العطايا والنعم والمنح والخيرات التي يرجوها أمثالنا من البشر لأنفسهم على الإطلاق! ولكنها قلوب قد أعماها الحقد والكبر والإباء، قلوب لو أنطق الله خلاياها وأنسجتها وشرايينها التي في تلك الصدور الآثمة المظلمة، لضجت بأصحابها ولبرأت إليه سبحانه مما أودعوها فيها من كبر واستعلاء على صانعها وباريها، نسأل الله السلامة! من ذا الذي يرى أن له الحق في الاعتراض على حكم الباري بتخليد من يستكبر عليه على عبادته – بعدما جاءه النذير - في أشد ما عنده من العذاب؟؟

فالسبب في عدم السبب المعقول في دين الدهرية لتقبيح جناية الشرك كما هو حقها أن تقبح، هو أن الدهري يزعم من كبره أنه ليس فوقه رب وليس له خالق يتفضل عليه بمطلق وجوده في الأرض نفسه! فما الذي يحجزه – على اعتقاده النجس الخبيث – من أن يعلو على الخلق بالباطل ويستعبدهم استعبادا، يفجر غاية الفجور، إن وجد في الأرض ما يمكنه من ذلك؟ لا تزال النفس البشرية متبلاة – في جملة نقائصها – باشتهاء السيادة والرياسة واستجماع السلطان والزيادة في ذلك غاية الوسع! فمن كان دينه عبادة هواه وشهوته، فليس ثمة حاجز يحجزه عن ظلم الناس والبطش بهم إذا تمكن! ولهذا لا ترى في تاريخ الأمم طاغوتا أفجر ولا أفحش من ذي السلطان الدهري الملحد إذا فجر! وذلك أنه لا يرى ربا بالغيب أعظم منه، ولا يرى حدا لحقه في التجبر على الخلق وإجبارهم وقهرهم على ما يريد، وللأخذ بأسباب الأرض والسماء لإشباع شهوته ونهمته! هو يراه غير مخلوق ولا مربوب ولا يعلوه شيء، فمن أي شيء يخاف وبأي شيء يتعظ؟! يرى نفسه سلطة

مطلقة لا قيد لها إلا ما اتفق له أن اضطر لإلزام نفسه به بين أيدي رعيته من قيود على تلك السلطة، إن قدر أن كان مضطرا! وإلا، فانظر إن شئت في سيرة ستالين الدهري الماركسي، بل وفي سيرة كيم يونغ إيل وابنه كيم يونغ أون، الطاغوتين الدهريين الكوريين، الذين جعلهما ملاحدة البلاد إلهين يعبدان من دون الله! فأي أمة هي كوريا الشمالية، الدولة الملحدة رسميا، شعبا وحكومة؟ أمة لا يرى حاكمها مانعا في دينه من أن يجعل من نفسه إلها معبودا، ولا يرى شعبها مانعا في دينه من أن يعبده من دون الله، والله المستعان!

وأما في حق الباري سبحانه، فإنه ليس في الوجود من يملك أن يقهر أمم البشر قهرا، وأن يحرمهم من العطايا والنعم، بل ومن الحياة نفسها (التي لم يحرزها أحدهم لنفسه ولا استحقها استحقاقا)، من غير أن يرد عليه أن يكون – مع ذلك - ظالما لهم، إلا هو سبحانه، كما في الحديث الصحيح من قوله عليه السلام: "ولو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالمٍ لهم". فإن أحدهم لو مكث ساجدا للرب أبد الدهر لم يف حق نعمة واحدة من نعمه عليه جل شأنه! وليس في الوجود من يملك أن يرفع كلمته يجبر بها غيره على شيء ما، من غير أن يكون بذلك مخالفا لمن هو أعلى منه سلطة وملكا، معتديا على حق ذلك الأعلى في أن تكون كلمته هي العليا، إلا الله سبحانه، لأنه مالك الملك الذي لا سلطان يعلو سلطانه، ولا يسأله سائل عما يفعل سبحانه! ((لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)) [الأنبياء : 23] فمن كان هذا وصفه، كان تحليه بحلة الكبر والعلو والعزة والعظمة وصفا لازما له، لا ينفك عنه! بل لو قدر انفكاكه عنه لكان ذلك نقيصة لا تتصور إلا بأن يكون مضطرا لتقديم غيره على نفسه ولو على سبيل الجواز لا الوقوع! أي أنه لا تكون الذات الفاعلة موصوفة بالكبرياء والعظمة التي لا تدانيها عظمة، والحق المطلق غير المقيد في التجبر على غيرها، إلا أن تكون هي الذات الواحدة العليا التي بها يقوم كل ما سواها، ولا تقوم هي إلا بنفسها، وهو اسم الله "القيوم" سبحانه! فكل شيء مفتقر إليه، وهو وحده العزيز الذي لا يفتقر إلى غيره! هذا هو ما يكون الكبر والعلو وصفين لازمين له، لا يتصور في العقل انفكاكه عنهما! ولا يقال إن التواضع في حقه يكون منقبة أو حسنة تجمل به، كما تجمل بالمخلوق، بل تكون مذمة ونقيصة بينة! إذ التواضع إنما يطالب به المخلوق لأنه رجوع به إلى المنزلة اللائقة به طبعا وماهية، ألا وهي منزلة الفقير القائم بغيره، الذي لا يخرج من صدره نفس إلا كان مفتقرا إلى من يمكنه من استنشاق غيره من بعده، ولا تدق في قلبه دقة إلا كان مفتقرا لمن يمن عليه بالدقة التي تليها، ولا تمر عليه لحظة إلا كان فيها مفتقرا لمن يمسكه عن التفكك والزوال! هذا الكائن الموصوف بالنقص وصفا لازما ضروريا، هو الذي يلزمه أن يسلك سلوك المخلوق الناقص، الفقير إلى غيره، فلا يغفل عن تلك الحال طرفة عين، ولا يستعلي ولا يستكبر وكأنما ملك

أسباب نفسه، فضلا عن أسباب غيره، وكأنما ملك النفع والضر لنفسه وغيره استقلالا! هذا من يذم بالكبر ويحمد بالتواضع اللائق به! وأما الرب الخالق القيوم الذي بيده خزائن كل شيء، الغني الذي يقوم به كل ما سواه، فهذا لو قدر له أن تواضع أو أهبط نفسه إلى منازل المخلوقين لاستحق الذم بذلك لا الثناء، وإنما يثنى عليه بما هو لائق بذاته التي لا مثيل لها ولا نظير، ولا ند لها ولا كفء ولا مثيل! ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)) [فاطر : 15 - 17]

هذا الفرقان بين الرب السيد الكامل صاحب السلطان المطلق والملك التام، الذي لا يأتي ملكه وسؤدده إلا من ذاته سبحانه، وبين العبد الناقص صاحب السيادة الممكنة له تمكينا، والأسباب المسخرة له تسخيرا، الذي لا يأتيه شيء مما يقع في ملكه إلا على سبيل العارية، هذا الفرقان أمر بدهي ضروري لا يحتاج إلى شرح ولا بيان، ولا يتلبس إلا على مماحك جاحد، بالغ من الجحود غايته ومنتهاه!

فعندما يخبرنا رب العزة جل جلاله بأنه ماكر بتلك الثلة من خلقه التي مكرت مكر الليل والنهار رجاء أن تطفئ نوره سبحانه بأفواهها، فيلبسهم – بأهوائهم وأمراض قلوبهم – لبوسا من الكفر والضلال وإضلال أمم من أهل الأهواء أمثالهم لا يحصونها، حتى يرديهم به، يكبهم على وجوههم في قاع جهنم كبا، وهو مع ذلك يشهدهم يوم الحساب على أنهم مستحقون لتلك العقوبة الأبدية، فوالله ما يليق برب العالمين، الموصوف بصفات الكمال وجوبا وضرورة، سوى ذلك، وما يتوقع العقلاء أسوياء النفوس إلا أن يكون منه ذلك، سبحانه وتعالى علوا كبيرا! فإن بداهة العقل تقطع بأن ربا ينتقم من المجرمين المستكبرين على الخلق، لهو أكمل من رب لا يبالي بما يقولون وما يصنعون![30] وبأن ربا يستدرج أعداءه من آحاد خلقه لأن يهلكوا أنفسهم بأقوالهم وأعمالهم وبما تكسبه أيديهم، مستعملا في ذلك أسبابا ومتولدات لا يخطر ببال أحد أنه قد جعلها سببا، محققا كافة الشروط ورافعا كافة الموانع حتى يحق عليهم القول فيدخلوا أشد العذاب بما كانوا يستكبرون، لهو أكمل وأحق بأن يعبد ويعظم من رب لا يفعل ذلك! بل إنه قد علم العقلاء كافة أن من لم يحترم نفسه وينزلها منزلتها، فلا يستحق أن يحترمه غيره! بأي شيء يحترمونه وهو لا يبالي بما يفعلون وما يقولون في حقه؟؟ ثم ما بال هؤلاء يريدون ربا لا يجعل لنفسه حرمة ولا حمى ولا يدري ما يجري في ملكه، ولا يبالي بشتم بعض خلقه إياه؟؟؟ هم لا يريدون ربا ولا دينا ولا عبادة، من كبر نفوسهم ومرضها، فمهما فعل ربنا تبارك وتعالى فهم معترضون عليه لا محالة، قائلون ما حاصله: لماذا لم يفعل كذا وكذا؟ لو كان موجودا على

الحقيقة، مرسلا الرسل للبشر كما زعمتم، مستحقا أن يعبد وحده كما زعمتم، لما فعل كذا وكذا!

والواقع أن الدهرية الطبيعيين لا يبالون بأي شيء يوصف اعتقادهم، أو إلى أي اعتقاد بالغيب ينسبون، ما داموا بعيدين عن القول بذلك الرب الذي يرسل الرسل ويكلف الناس بعبادته وحده لا شريك له، على ما يريده هو منهم لا على ما تهوى أنفسهم هم وما يشتهون! فكما تقدم، فالمقصود من كل اعتراض وكل احتجاج إنما هو قطع الطريق الموصلة إلى إلزامهم بالخضوع للرسل والانكسار بين أيديهم، بأيما وسيلة حصل لهم ذلك! هذه هي غاية الإلحاد وطلبته!

ولهذا يصرح بعض الملاحدة بأنه لا يرى بأسا بأن يسمي نفسه موحدا للوجود Pantheist على أساس أنه ينسب صفات الربوبية إلى الطبيعة نفسها! بل يراه بعضهم طريقا أسهل لاستمالة أهل الملل الأخرى إلى الإلحاد، فبدلا من أن يقال لهم: نحن لا نثبت إلها البتة، ونراه دعوى خرافية أسطورية، يقال لهم: نحن نثبت الإله فوق ما تثبتونه أنتم! فنراه في كل ما هو موجود، بل لا موجود عندنا إلا هو! وإنما نختلف معكم في زعمكم أن دينكم هو الدين الذي يرتضيه من البشر! قلت: ولا شك أنه عندما يكتب أحدهم في خانة الديانة Pantheist، ويعرف نفسه بين الناس بهذا الدين، أفضل له سياسيا واجتماعيا، لا سيما في بلد كأمريكا، من أن يقول Atheist، أو لاديني أو نحو ذلك! وقد مررت بالفعل بملاحدة يتواصون فيما بينهم بهذا المعنى!

والحق أن وحدة الوجود والدهرية وجهان لعملة واحدة، فعندما تقول إن كل شيء في الوجود هو الإله، فهذا حقيقته ومآله أن يقال: لا شيء في الوجود هو الإله! وذلك أن الأشياء المادية التي نراها من حولنا، لا يخفى على عاقل أنها أعيان حادثة تكون بعد أن لم تكن، والبداهة تقضي بأن الرب الصانع أزلي واجب الوجود، فأي حقيقة تكون للشيء الواحد من تلك الأشياء الحادثة على هذا الاعتقاد؟ أهي "أجزاء" أو "أبعاض" للإله مثلا؟ أم هي صفات له؟ وأي شيء أكون أنا نفسي إذن؟ هل أنا الإله؟ فلماذا إذن لا أجد في نفسي صفات الربوبية، ولا يجد شيء من تلك الأشياء من حولي صفات الربوبية في نفسه كذلك؟ وإن لم أكن أنا الإله فهل أنا جزء منه؟؟ وكيف يحكم عاقل على نفسه بذلك، من غير أن يعلم علم اليقين بأنه كذاب أشر؟ وهل تلك المستقذرات والحشرات والفويسقات والحشوش ومواضع الخبث، كلها أجزاء من الرب كذلك؟؟ وأي شيء يحدث له هو بفنائها وهلاكها؟ أتنعدم بذلك بعض أجزائه فتتساقط عنه؟ وأي شيء يحدث له إن قدر زوال العالم بكليته؟ وبأي شيء يوصف ذلك الرب كلما حدث من تلك الأشياء شيء بعد أن لم يكن؟ أيكتسب بذلك جزءا كان فاقده أو صفة كان عادمها؟!

كل ذلك لا ينصرف في عقل الإنسان السوي ولا يقبله عاقل البتة! لا يقبل العقل والفطرة السوية إثبات رب على هذا النقص والوهاء، بل لا يستقيم في العقل إثبات موجود واحد سواء كان هو الرب أو غيره، بحيث يكون هو كل شيء، وكل شيء هو! فإن الشيء في العقل الصريح هو مفرد الأشياء، فإذا قيل الأشياء كلها شيء واحد، كان ذلك تناقضا ظاهرا لا يخفى، ما لم يجعل تلك الأشياء كلها أبعاضا أو أجزاء لذلك الشيء الواحد المزعوم! وإذا صرت أنا الرب، وكل شيء غيري هو الرب كذلك، فلأصنع إذن ما يحلو لي، وليس لأحد عندي حق ولا لأحد علي واجب، ولا مكره لي من فوقي ولا سائل لي يسألني! وإذن فلا حساب ولا ثواب ولا عقاب ولا بعث ولا نشور ولا شيء من ذلك! ولهذا لا تبقى حقيقة لذلك المذهب إلا الدهرية المحضة، والكفر بالله واليوم الآخر، إذ لا يبقى في الوجود إذن إلا ذلك العالم المصنوع وحده، الذي لا حقيقة له إلا أن يكون جملة أشياء مركب بعضها في بعض، لا تزال تحدث ثم تنعدم!

وعلى أي حال، فمن الواضح أنه ما دام الذي يقول بذلك الرب الوهمي لا يثبت له صفة إلا أنه هو كل شيء وكل شيء هو، فلا يزعم له أمرا ولا نهيا ولا فعلا ولا حياة ولا إرادة ولا شيء من ذلك على الإطلاق، فهو إذن دهري صريح في دهريته، لا يقول برب ولا بصانع أصلا، ولا يغير من حقيقة دينه شيئا أن يقول أنا أقول بوحدة الوجود أو بأن كل شيء هو الله، بدلا من أن يقول أنا دهري ملحد!

قال دوكينز في كتابه "توهم الإله" (ص. 19): "موحدة الوجود Pantheists لا يؤمنون بالإله خارج الطبيعة Supernatural، وإنما يستعملون لفظة الإله God كمرادف للطبيعة Nature لا علاقة له بالماورائيات، أو كمرادف للكون، أو للقانونية الثابتة التي تحكم عمله." اهـ. ثم يضيف: "توحيد الوجود Pantheism ليس إلا إلحادا منتفخا Sexed-Up Atheism"! ويفرق دوكينز في نفس الموضع بين ملة الربوبيين Deism وبين توحيد الوجود Pantheism، فيقرر أن ملة الربوبيين هي الاعتقاد "بشيء" خالق أحدث العالم وأجراه على نظامه في الماضي، لكنه ليس "شخصا" Person فلا يوصف بالحياة ولا يوصف بالإرادة ولا بالفعل ولا بالمحبة والبغض ولا بشيء من ذلك، ولا يوصف بأن به أي اتصال أو علاقة بالعالم ونظامه على ما هو عليه الآن. وأما توحيد الوجود فهو الاعتقاد بنفي الرب بالكلية، ثم العبارة عن الطبيعة ونظامها المحكم بعبارة مجازية Metaphorical تنزلها منزلة الشخص الصانع القائم على أمر العالم تجوزا لا غير!

ومن أمثله القائلين بتوحيد الوجود هذا من كبار فلاسفة الطبيعيات في القرون الأخيرة، نيوتن وتلميذه كلارك، اللذان كانا حريصين على تحويل "الفراغ" Space - الذي كان على عقيدتهما وجودا مطلقا لا حد له ولا نهاية – إلى صفة من صفات الصانع الذي ورثا الإيمان به من النصرانية التي تربيا عليها! فجعل

نيوتن الفراغ وخصائصه هي جملة "صفات الحس" في الرب، أي سمعه وبصره وعلمه وما يتعلق بهما، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا. [31] ومنهم كذلك باروخ سبينوزا Spinoza الألماني في القرن السابع عشر الميلادي، الذي تخلص في الرب الذي يثبته من جميع صفات الرب الذي تقول به الكنيسة، فيما يبدو أنه استلهمه من كلام ديكارت، ليجعله هو الطبيعة نفسها، والقوانين الطبيعية إنما هي صفاته كما تتجلى في ذاته التي نشهدها بزعمه في كل مكان! وتابعه على هذا الاعتقاد ألبرت أينشتاين كما يأتي بيانه بتفصيل في موضع لاحق من هذا الكتاب بحول الله تعالى. وقد سمي هذا المذهب في توحيد الوجود بالسبينوزية Spinozism، وينتسب إليه كثير من الفيزيائيين الغربيين المعاصرين. وأما الملة الربوبية Deism في المقابل، فمن أقدم من ينسبون إليها، أناكزاغوراس اليوناني، الذي كان من مؤسسي الأكاديمية الطبيعية في عصر ما قبل سقراط. وممن ينسبون إليها في الطبيعيين المعاصرين، تشارلز داروين، كما يأتي تفصيل ذلك في محله من هذا الكتاب. وكذلك جان بابتيست لامارك، وغوتفريد لايبنيز، وماكس بورن، وكارل فريدريش غاوس، وبنجامين فرانكلين وغيرهم.

والظاهر أن الفيلسوف الطبيعي تكون نظرياته وفلسفاته هي الحامل الأول له، غالبا، على القول بإحدى العقيدتين، على صورة من صورها. فلما كان نيوتن وأينشتاين – على سبيل المثال – معنيين بدراسة النظام الذي يجري عليه العالم، واتخذ نيوتن لنظام الكون قياس الماكينة مدخلا، وتابعه عليه أينشتاين إجمالا، أفضت بهما فلسفتهما إلى الكلام عن تلك القوانين التي يبحثون فيها والحيز الوجودي الذي تجري عليه، على أنها من جملة صفات الرب نفسه، وهو ما تجاوز فيه أينشتاين ما بلغه نيوتن من توحيد الوجود، متابعة لسبينوزا كما تقدم، فبلغ المنتهى في تجريد الرب من صفاته وتنزيلها على مادة العالم ونظامه. فلسان الحال أنه إن كنا ولابد ذاكرين إلها أو ربا ما، فلا نجد – في انبهارنا بقانونية نظام العالم ودقته الرياضية البارعة – إلا أن نجعله هو ذلك النظام نفسه، إذ هو ما نعظمه تعظيم أهل الأديان المتألهة لمألوههم ومعبودهم على التحقيق، فلابد أن يكون هو الرب المستحق للتعظيم عندنا لا غيره! وأما داروين ولامارك وغيرهما من الربوبيين، فلما كانت الأصول التاريخية لنظام العالم هي التي تعنيهم، لأنها هي موضوع بحثهم ونظرهم الطبيعي، كان جوابهم كلما سئلوا عن الرب، أنه لابد وألا يكون إلا تلك القوة التي بدأت تلك القصة كلها في الماضي البعيد، ثم لم "تتدخل" فيها بشيء بعد، وإنما تركت الطبيعة نظاما سببيا ماديا مغلقا لا محل فيه لسبب غيبي! ولا غرو ولا عجب من أن يجعلوا هذا هو اعتقادهم، لأنهم لو فتحوا باب السببية الغيبية في تسلسل حوادث تلك القصة التي اختلقوها بتطبيقهم الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism على غيب الماضي السحيق، لما استقام لهم بناؤها ولما سلم لهم تلامذتهم وأتباعهم بأي سلطان

معرفي للمنظر الطبيعي في تلك البابة من الأساس، وهو أمر ما كانوا ليقبلوه!

والقصد أن هذا التعريف أو التفريق الذي ذكره دوكينز بين العقيدتين صحيح إجمالا، بالنظر إلى اصطلاح الفلاسفة الغربيين المعاصرين على معنى اللفظة Pantheism [32] ولهذا لا أرانا نبعد النجعة إن قلنا إنه كما يتخذ المنتسبون إلى ملة من الملل المثبتة للصانع (كالنصرانية في بلاد الغرب والإسلام في بلادنا)، الحريصون على إظهار البقاء على تلك الملل وعدم قطع النسبة إليها قطعا باتا، كما يتخذ هؤلاء من الربوبية سبيلا للتقرب إلى الطبيعيين الدهرية، فيعطلون صفات ربهم بالقدر الذي يقربهم من الطبيعيين ولا يثير عليهم نقمة الجهلاء من أهل الدين، فكذلك يتخذ الملاحدة الدهرية الطبيعيون من ادعاء توحيد الوجود على صورة من صوره مدخلا لمداهنة أهل الملل أو على الأقل اتقائهم وامتصاص نقمتهم على الإلحاد من حيث كونه نفيا محضا لمبدأ الصانع نفسه! فإذا أراد النصراني أو المسلم الغارق في الفتنة بالأكاديميات الطبيعية وكبرائها، الحريص على التقرب إليهم ببيان اعتناقه نظرياتهم الطبيعية ومنهجيتها في النظر ومصادر تلقي المعرفة الغيبية فيها، إذا أراد هذا أن يداهن القوم ويظهر براءته من الاعتقادات القديمة التي يرونها غير "ملائمة" ولا "لائقة" بالمنتسبين إلى صنعة العلم التجريبي والطبيعي في زماننا، التمس من تعطيل صفات ربه ما قد يصل به إلى حد القول بالإله الربوبي Deistic God! وفي الجهة المقابلة، فإذا أراد الطبيعي الدهري أن يستميل بعض أهل الملل الكتابية وألا يصدمهم، فقد يحلو له اختيار اسم موحد الوجود Pantheist حتى لا يصنف على أنه ملحد ويعامل معاملة الملحدين. وقد ظهرت جمعيات بالفعل وحركات فكرية تحاول إقناع الملاحدة بأن يسموا أنفسهم بموحدي الوجود، كما أشرت آنفا، وبألا يحاربوا فكرة الدين محاربة صريحة، بل ليتخذوا من الطبيعة ربا، ومن الإنسانية دينا، ومن داروين نبيا ورسولا، فإما أن يسموا أنفسهم بموحدة الوجود Pantheists أو بالإنسانيين Humanists - وسيأتي الكلام على مسالك هؤلاء في قسم لاحق بإذن الله تعالى – أو بكليهما معا، على أساس أن الاسم الأول هو بيان لمذهبهم في الميتافزيقا واعتقادهم الغيبي، والثاني هو بيان لمذهبهم الأخلاقي والسياسي والتشريعي (الذي يتخذ من الدهرية الطبيعية أساسا غيبيا مسلما)!

هذا وينبغي مع ما تقدم من تعريف الربوبية وتوحيد الوجود كنظامين اعتقاديين دهريين طبيعيين، أن نبين أنه سواء هذا أو ذاك، فكلاهما لا يأتيان على درجة واحدة عند جميع المنسوبين إلى أي منهما، من حيث الإغراق في الطبيعية Naturalism! فإذا كانت الطبيعية هي الاعتقاد بأنه لا موجود في الخارج إلا الطبيعة وما يجانسها، فلابد أن يكون الربوبي الطبيعي Naturalistic Deist هو ذاك الذي يعتقد أن الصانع المزعوم ليس إلا نظاما أو كيانا طبيعيا نوعا،

بينما يكون موحد الوجود الطبيعي Naturalistic Pantheist هو ذاك الذي يعتقد أن الطبيعة كما نعرفها لم تنشأ إلا عن أسباب طبيعية سابقة عليها، وهذه لم تنشأ إلا عن نظيرها (نوعا)، وهكذا إلى الأزل بلا بداية. فعنده أن نظام الأسباب الطبيعية نفسه هو الصانع من باب التجوز كما مر. وعلى هذا يكون الربوبي صاحب صورة من صور وحدة الوجود بالضرورة، أي أنه حالة خاصة من حالات توحيد الوجود، لأنه لا يرى موجودا خارج الطبيعة ونظامها البتة! وإنما يختلف الربوبي الطبيعي عن موحد الوجود الطبيعي في كون الأول يعتقد في الصانع المزعوم أنه مر بمراحل ارتقاء (أو بالأحرى: اندثار) طبيعي، فكان قوة طبيعية لها صفة معينة في الماضي السحيق، يمكن من حيث المبدأ تصورها بالقياس الطبيعي، أنشأت العالم كما نعرفه ثم انفكت عنه ولم يعد لها أي تأثير فيه البتة! كاعتقاد من يزعمون في أسطورة النشأة عندهم أن صانع عالمنا هذا كما نعرفه، إنما هو كائن فضائي ذكي من كون آخر متقدم على كوننا أو مواز له، نشأ – هو نفسه – نشأة طبيعية تطورية كما هو اعتقادهم الدارويني في نشأتنا نحن البشر، ثم بلغ به علمه وعقله أن جمع لنفسه من أسباب الطبيعة ما مكنه من إحداث فردية الانفجار الكبير التي اتفق لها اتفاقا أن أنشأت عالما موازيا هو عالمنا، ثم لسبب ما أو لآخر انقطعت صلته بعالمنا هذا، أو ربما خلقه اتفاقا بالخطأ ولم يدر أنه أحدثه من الأساس!

وممن قرر اعتقادا مشابها لهذا، الفيزيائي الأمريكي المستقبلي الخرف المدعو "ميتشيو كاكو" M. Kaku! وهؤلاء ربوبيون Deists من حيث قولهم بصانع متقدم على عالمنا تاريخيا، تسبب في حدوثه في الماضي البعيد ثم هو الآن لا صلة له به ولا دخل ولا تأثير فيه البتة! فإن زعموا أن ذلك الصانع الفضائي لم ينقطع اتصاله بالعالم، بل لم يزل يتواصل معه ويقوم بأمره ويتابعه، ولم يزل يزور الأرض ويصطفي من أهلها رسلا يخاطبهم من طريقهم، كما هي عقيدة الرائيليين Raelians مثلا، تلك الملة الفضائية التي أسسها كاتب خيال علمي فرنسي في السبعينات من القرن الميلادي الماضي، وكما كان اعتقاد كارل ساغان الذي زعم أن أحسن تفسير لجميع دعاوى الأنبياء والرسل وجميع ميثولوجيات أهل الملل السالفة فيما يتعلق بمن جعلوه هو الإله المعبود لديهم، إنما هو إرجاعها بكليتها إلى أولئك الفضائيين الذين "خلقونا"، ثم لم يزالوا يزوروننا من آن لآخر لمتابعة صنعتهم، إن زعموا ذلك في حق الصانع الفضائي المزعوم، فإن اعتقادهم يؤول إلى صورة من صور وحدة الوجود الطبيعي (الحلول الطبيعي)، إذ يعزى وجود كل عالم أو كون في الطبيعة، إلى سبب راجع إلى عمل النظام الطبيعي في كون متقدم عليه (وهو في هذه الحالة، فعل عقل ذكي نشأ بالتطور الدارويني)، وهو ما يرجع بدوره إلى أسباب طبيعية متقدمة عليه، في تسلسل لا قطع له! ومن أصحاب الملل الفضائية السخيفة تلك، من يزعم أن الفضائيين الذين خلقونا هم من

أهل هذا العالم نفسه (خلافا لمن يجعلهم من "كون" آخر)، جاؤوا من مجرة بعيدة في أقصى الكون، وزرعوا بذرة الحياة على الأرض ثم تركوها لتنمو بالتطور الدارويني، ورجعوا إلى حيث أتوا ولم يبالوا! ويمكن أن نسمي أصحاب الملل الفضائية هؤلاء بالتسلسليين Regressionist Pantheists في إثبات الأسباب الطبيعية لخلق الطبيعة نفسها، في إطار وحدة الوجود الطبيعي، إذ يثبت أحدهم صانعا للعالم من جنس مصنوعاته، أو خالقا من جنس المخلوق، فإذا ألزمته بالتسلسل، التزمه ولم يبال. كالمدعو رائيل هذا (رأس الرائيليين) لما سئل: فمن الذي خلق هؤلاء الفضائيين الذين خلقونا؟ قال: علماء من حضارة فضائية أخرى متقدمة عليهم، زارت كوكبهم فخلقتهم فيه! قيل فمن خلق هؤلاء؟ قال حضارة ثالثة متقدمة، وهكذا إلى غير بداية! وميثولوجيا هؤلاء في خلق المخلوقات الحية بالتطور الدارويني على أيدي الفضائيين، تتسع لتشمل خلق العالم كله بالتطور الكوزمولوجي (الانفجار الكبير)، كما يقرر بعضهم وقوعه ويكتفي بعضهم بالتجويز.

وكثير من القائلين بنظرية التصميم الذكي Intelligent Design يجعلون "المصمم" من هذا الصنف (الصانع الفضائي الذكي)، أو على الأقل يجوزون أن يكون كذلك! [33]

وهذا السفه – في الحقيقة – هو مقتضى فلسفة النظرية نفسها، ألا تثبت صانعا إلا من هذه المنزلة، كما يأتي بسط الكلام على تلك النظرية في قسم لاحق من الكتاب بحول الله تعالى. بل إن مؤسس ملة الرائيليين المشار إليهم آنفا (وهو صحفي فرنسي يدعى "كلاود فوريلون" Vorhilon)، قد سمى كتابهم المقدس في طبعاته اللاحقة "بالتصميم الذكي"، وزعم أنه جاء فيه بالفرقان الحق بين مذهبي الخلق والارتقاء!

ومن مذاهب الدهرية الطبيعية والإلحاد المعاصر، مذهب الطبيعيين المتألهة Theistic Naturalists، والطبيعيين غير الماديين Non-materialistic Naturalists، وهي تلك المذاهب التي تضيف إلى عنصري المادة Matter والطاقة Energy في ميتافزيقاهم الطبيعية عنصرا إضافيا تجعله الطائفة الأولى هو صانع العالم على طريقة أرسطو، وتجعله الأخرى هو العنصر الأساس Fundamental component الذي تنسب إليه جميع الظواهر المحسوسة التي أهملها الطبيعيون في قوانينهم ونظرياتهم لاقتصارهم فيها على عنصري "المادة" و"الطاقة"!

وما كنت لأطيل النفس في التحذير من تلك الطوائف الدهرية المعاصرة في أوروبا وأمريكا، وقد كان المسلمون منها في عافية، لولا أن تلبس بالدعوة إليها الدكتور عمرو شريف، إمام التطويريين الدراونة في بلادنا اليوم، عامله الله بعدله، في كتابه الأخير "المعلوماتية برهان الربوبية الأكبر"، على ما

للرجل من نفوذ وذيوع كبير في بلادنا والله المستعان! فهو يزعم أن الإلحاد والدهرية تنتفي وتنتهي وتسقط بالضربة القاضية بمجرد زوال الاعتقاد بأن المادة (وأختها الطاقة، أيا ما كانت حقيقتهما عنده) هي كل ما في الوجود! وهذا ولا شك جهل بأصل أصول الملل الدهرية والطبيعية كافة! ذلك أن المادة والطاقة ليستا إلا مصطلحين ميتافزيقيين للتفريق بين قسمين أساسيين للموجودات الطبيعية قد جرى العرف عند الفيزيائيين المعاصرين على تقسيم "الطبيعة" إليهما إجمالا، واختزالها فيهما دون غيرهما، ومن ثم تنزيل عامة القوانين الطبيعية عليهما وحصرها فيهما موضوعا! ولكن من الواضح بادي الرأي أن للفيلسوف الطبيعي أن يعترض ويقول: ليست الطبيعة مؤلفة من هذين العنصرين وحسب، ولا أرى داعيا لحصر الموجودات الطبيعية فيهما دون غيرهما! بل أزعم أنا أن ثمة عنصرا ثالثا في الطبيعة له صفات لا يناسب أن يقال إنها مادة Matter ولا أن يقال إنها طاقة Energy! وهذا ما يسلكه بالفعل تلك الطائفة من الطبيعيين الذين سموا أنفسهم "بالطبيعيين غير الماديين" Non-materialistic Naturalists! قالوا إننا نجعل المعلومات Information أو الذكاء Intelligence أو الوعي Consciousness أو الحياة Life أو الروح Spirit أو غير ذلك (من أمور يجعلونها من عناصر الطبيعة غير الخاضعة لمفهوم المادة والطاقة) عنصرا إضافيا من عناصر الطبيعة لا يصح أن يوصف لا بأنه مادة أو ناشئ عن المادة، ولا بأنه طاقة أو ناشئ عن الطاقة! والواجب – في مذهبهم – أن يعاد النظر في قوانين الطبيعة وفي موضوع العلم الطبيعي نفسه، بحيث يدخل ذلك العنصر الإضافي في أصل موضوعه، وتتناوله القوانين الفيزيائية في نظامياتها السببية (وهي دعوى "روبرت شيلدريك" التي نقلها الدكتور عمرو في بعض كتبه كما سيأتي في محله)! هذا هو مذهب هؤلاء بإيجاز!

فلما رأى الدكتور بعضهم يجعل ذلك العنصر الثالث الإضافي هو الإله الخالق بالغيب، قال إنهم "مؤلهة" ولا يجوز وصفهم بالإلحاد والدهرية، وانضم إلى صفوفهم في جعل هدم "المادية" هو موضوع معركته ومنتهى جهاده! وهذا في الحقيقة تلبيس عظيم، وسطحية شديدة في فهم ذلك المذهب الدهري وإدراك حقيقته! فأنت عندما تقرر اعتقادا مفاده أن القوانين الطبيعية حتمية (سببيا)، بمعنى أنه لا سبب في العالم ولا يحدث حادث البتة إلا من جنس الحادث الطبيعي الجاري على نوع الأسباب الطبيعية، وأن الطاقة والمادة في العالم لا يجوز أن تزيدا أو أن تنقصا وإلا انهار نظامه كله، فأنت إذن ملحد دهري طبيعي، مهما اعتقدت في وجود شيء "لامادي" تنسب إليه الغائية في الكون [34]، أو تجعله هو السبب الأول أو نحو ذلك مما أعجب الدكتور في كلام تلك الثلة من الدهرية اللاماديين الذين نقل عنهم دينهم في كتابه المذكور! فأصحاب هذا الاعتقاد لا يصح في عقولهم وبمقتضى تلك المسلمات نفسها، إلا أن يكون ذلك الشيء الوجودي اللامادي الذي يثبتونه، مكونا من المكونات

الطبيعية لهذا العالم، وإن كان على دينهم خفيا لا يرى، ولا يوصف بصفات المادة المحسوسة! فإما أن يجعلوه طاقة عمياء أو قوة كامنة أو قدرة غيبية لا حياة لها ولا إرادة ولا علم، وإنما تعلل بها نشوء النظام كله ولم يزل وجوده ضامنا لبقاء القوانين الطبيعية ومبدأ النظامية الكونية نفسه على ما هو عليه من الأزل وإلى الأبد، وهو إذن الخالق الربوبي Deistic Creator الذي أثبته داروين وأينشتاين ولابلاس نفسه، وإما أن يجعلوه موجودا طبيعيا حالا في الطبيعة، أو هو الطبيعة نفسها، أو شيئا كامنا في مجالها الكمومي أو نحو ذلك، مع كونه ذا إرادة ووعي وعلم و"ذكاء" وحياة، ومع كون صفات الطبيعة هي صفاته هو نفسه، وسلوكها وسلوك أجزائها وآلياتها هي جملة ما يثبتونه له من صفات وأفعال، وهو إذن الصانع الاتحادي Pantheistic Creator الذي أثبته أرسطو ونيوتن وكلارك وسبينوزا (وأينشتاين أيضا في بعض كتاباته) ولايبنيز وغيرهم!

فالأمر الذي يجب أن يفهمه أتباع الدكتور، هو أن الفيلسوف الطبيعي قد يكون ملحدا طبيعيا دهريا صرفا، مع كونه يثبت غيبا (أي من حيث كونه الآن غير داخل في إدراكنا الحسي) ويثبت فيه صانعا ما! ولهذا نتخذ في هذا الكتاب موقفا صارما وحازما فيما يتعلق بتعريف الدين الطبيعي وتعريف الإلحاد، فلا نقر من يعرفهما بأنهما قول القائل بنفي الصانع أو بنفي كل موجود "لامادي"، ويقف عند ذلك! بل الطبيعية والإلحاد هما اعتقاد أنه لا موجود بحق إلا ما هو طبيعي وما يقبل القياس بصورة ما أو بأخرى على ما في عادتنا، سواء كان أمرا ماديا (أي يتركب من عنصري المادة والطاقة) أو غيرمادي! ولهذا ترى هؤلاء يحاولون إثبات "الطبائع" (مبدئيا) لذلك الشيء "غير المادي" الذي يثبتونه، فيجعله بعضهم "وعيا كونيا" Universal Consciousness ويجعله بعضهم شيئا تحكمه قوانين طبيعية مخصوصة (سماها بقوانين المعلومات الكونية)، ويجعله فريق ثالث قوة لامادية كامنة في موجة الاحتمالات الكوانطية ترجحها ذات اليمين وذات الشمال وتوجهها على ذلك النحو الذي لا تكتمل نظريته الطبيعية إلا به، يقيسه بالضرورة (وإن لم يجعله شيئا ماديا) على أنواع المحسوسات، ويجعله غيرهم برنامجا حاسوبيا في بيتات غيرمادية nonmaterial bits، أو مبرمجا لاماديا لذلك البرنامج الكمومي المزعوم، لا يعمل إذا عمل ولا يريد إذا أراد، إلا ما تجيزه القوانين الطبيعية إجمالا، بموجب ديمومتها وحتميتها الواجبة في عقله، التي يجب أن تكون حاكمة عليه وعلى إراداته وأفعاله كما تحكم غيره، بوصفه موجودا طبيعيا، وإن لم يكن هو نفسه مكونا من المادة أو من الطاقة كما نعرفهما!

هذه كلها ونحوها ملل قوم دهريين طبيعيين ملاحدة أقحاح، لا يقال في أصحابها إنهم "مؤمنون" أو "متدينون" (أي بما يبرئهم من الدهرية والإلحاد) إلا

جهلا أو مكابرة، بما لن تجده يجري إلا على تعريفاتهم هم للإلحاد Atheism عند التحقيق، وهو ذلك المفهوم الذي التقطه الدكتور عمرو عن هؤلاء من أثر التشبع بكتبهم، بدليل أنك تجده يسوق إلينا مذهبا طبيعيا محضا يسميه بالطبيعية الدينية أو المتألهة، ولا يراه مع ذلك داعية إلى الإلحاد والدهرية، ولا يشعر بأن هذا هو جوهر دعوته وحقيقتها، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ولقد كنت أرجو أنه بمجرد أن يجد الدكتور فيما نقل في كتابه الأخير من كلام هؤلاء تنظيرا للحدود والضوابط السببية والقوانين الطبيعية التي تحكم سلوك وأفعال "إلههم غير المادي"، وما "يستطيع" وما "لا يستطيع" أن يفعل في إطار ضرورية السبب الطبيعي Natural Necessity التي يدينون بها، فسينتبه إلى دهريتهم وطبيعيتهم العفنة، وسيقشعر بدنه من ذلك الكلام كما هو المتصور في كل مسلم قد سلمت فطرته من زبالة الدهرية الطبيعيين وأقيستهم الفاحشة! لكن قد بات واضحا – بكل أسف - أن الرجل قد بلغ به غرقه في تلك الفلسفات والأقيسة الطبيعية مبلغا عظيما، فإنا لله وإنا إليه راجعون! وقد بات واجبا على كل من يدرك هذه القضية الخطيرة، أن يبذل غاية الوسع في التحذير من مذهب الدكتور، ومن أنه قد بات يدعو المسلمين إلى فلسفة طبيعية صرفة، وأن الرب الذي يشير إليه في كل مناسبة بقوله "قال ربي" و"سبحان ربي" و"سلام ربي عليكم ورحمته وبركاته" ونحو ذلك، ليس هو الله رب العالمين الذي يعبده المسلمون في الحقيقة، وإنما هو ما يثبته أولئك الفلاسفة الذين أخذ في الترويج لنظرياتهم في كتبه الأخيرة! ولهذا أفردنا له قسما كبيرا من هذا الكتاب لبيان كيف انتقل الرجل من القول بالتطور الموجه والانتصار له، إلى الدعوة للطبيعية الدينية أو الطبيعية الإثباتية Theistic Naturalism في كتابه الأخير، نسأل الله السلامة!

ومن المذاهب الطبيعية في صفة الصانع التي ظهرت في القرن التاسع عشر الميلادي فلسفة يقال لها Pandeism، وهي خليط بين الملتين (الربوبية والاتحادية)، إذ يعتقد القائلون بها أن الرب كان كائنا فاعلا موجودا قبل الطبيعة التي نعرفها، ثم خلق الطبيعة بأن تحول هو إليها، فانعدم وجوده لتحل الطبيعة محله! والمعاصرون منهم لو سئلوا عن طبيعة ذلك الخالق الصانع الذي كان قبل الطبيعة، لجعلوه من نفس نوع النظام الطبيعي لا محالة. فهؤلاء جميعا كما ترى، طبيعيون متمحضون في الطبيعية سواء منهم من جعلوا الخالق مخلوقا من جملة المخلوقات التي نشأت نشأة داروينية في كون مواز لكوننا، أو من جعلوه نظاما طبيعيا له وعي ما وفعل ما، أو كان كذلك قبل أن يتحول إلى عالمنا الذي نعرفه! هؤلاء كلهم خلاصة دينهم وحاصله أنه ليس في الوجود إلا الطبيعة. وإلا فمن الربوبيين والقائلين بالاتحاد من هم متلبسون بالطبيعية المنهجية، دون التصريح بجعل الصانع عندهم

محصورا في إطار هذا العالم! فالربوبيون القائلون بالغيب، على سبيل المثال، يجعل عامتهم الصانع الربوبي الذي يثبتونه، هو نفس الرب الذي يؤمن به أهل الملل الكتابية الثلاث التي يحرصون على الحفاظ على نسبتهم إلى إحداها! فعند المنتسبين إلى الإسلام منهم – مثلا – أن الله خلق العالم بكلمة أطلق بها الانفجار العظيم، ثم ترك النظام الطبيعي ليخلق نفسه بنفسه، من غير أن "يتدخل" هو فيه! وهؤلاء وإن كانوا غير متمحضين في الربوبية، إذ يضطرون لإثبات كون الرب حيا عليما حكيما، يسمع الدعاء ويحشر الموتى ويحاسبهم يوم القيامة، إلا أنهم قد عطلوا عنه كثيرا من صفات الربوبية، ونحّوه عن السلطان على خلقه، كما عند القدرية الغلاة. والقصد أن فيهم ميلا ظاهرا للربوبية وموافقة لأقوال الربوبية الطبيعيين، من غير أن يبلغوا من التعطيل مبلغ الربوبية الطبيعيين الأقحاح! فأول ما يعطله هؤلاء – لصالح النحلة الداروينية غالبا – هو صفة الخلق الذي يسمونه "بالمباشر"! وسيأتي معك ضرب أمثلة لهؤلاء عند الكلام على دارونة أهل القبلة في موضعه من هذا الكتاب بحول الله وطوله.

وأما وحدة الوجود فلقد وُجد كذلك من يلبسها بلبوس الملل الكتابية، فيزعمون أن الرب في كل مكان بذاته، سبحانه وتعالى، وأنه لا موجود بحق إلا الله، وأنما نتوهم نحن في الأشياء خلاف حقائقها، وإنما تنكشف لنا حقيقة الواقع (أنه ليس إلا الرب وحده بزعمهم) إذا ما ترقت أنفسنا في مراتب "العرفان" ومقامات الولاية الصوفية، فنبصر الحقيقة المزعومة ببصائرنا أولا ثم بأبصارنا فيما بعد! وهؤلاء استمدوا ذلك المذهب الحلولي الخبيث من موروث ديني ملوث بزبالة الفلسفات الشرقية (الهندوكية والكنفوشية والبوذية ونحوها) وليس من أثر الطبيعية المنهجية عندهم بالأساس! وصحيح أن تلك الفلسفات الشرقية نفسها إنما تأسست عند أصحابها قبل آلاف السنين على كوزمولوجيات دهرية ونظريات طبيعية كونية صرفة تطفح بها كتب القوم، إلا أن المقصود أنه لا ينسب إلى الطبيعية من قال بوحدة الوجود على أثر موروث فلسفي صوفي يلبس إله المسلمين (أو إله اليهود أو إله النصارى) بلبوس "براهمان" الذي يثبته الهنود! وإن كنا قد نرى من هؤلاء من يسلك التنظير الطبيعي فيما بعد يتخذه سبيلا للانتصار لتلك النحلة، كما رأينا "عدنان أوكتار" التركي (هارون يحيى) يستعمل قصة فيلم المصفوفة "ماتريكس" في بعض كتبه للترويج لفكرة أن حقيقة الواقع الخارجي تخالف ما ندرك وما نشعر مخالفة جذرية.

والقصد أن الطبيعية المنهجية وطريقة الفلاسفة في اقتحام الغيب المحض بالتنظير والقياس، هي التي أنبتت تلك الخرافات وغيرها من مثلها، على أشكال وألوان شتى، وخلقت أرضا خصبة للكذب على رب العالمين، ووصفه بكل نقيصة!

فصل في بيان مسلك الكوزمولوجيين في تنزيل صفات الربوبية على القانون الطبيعي من دون الله، وأنه لازمهم لا محالة

في لقاء تلفزيوني أجري مع هوكينغ في عام 1988 الميلادي، جمع بينه وبين كل من "كارل ساغان" و"آرثر كلارك"، قرأ عليه المضيف المقطع الذي نقلناه عنه آنفا من كتابه ثم سأله: هل تظن أن الإله قادر على التدخل في شؤون العالم، أم أنه أكثر خضوعا لقوانين العلم (الطبيعي) من أن يتمكن من ذلك (سبحان الله وتعالى عما يصفون علوا كبيرا)؟ فأجاب الرجل بكبرياء الفلاسفة الأعمى:

> مسألة ما إذا كان الإله خاضعا لقوانين العلم (الطبيعي) تشبه السؤال: هل يستطيع الإله أن يصنع صخرة أثقل من أن يقدر على حملها؟ لست أراه من المفيد أو النافع أن نخمن فيما يقدر الإله أو لا يقدر على فعله! وإنما علينا أن نبحث فيما يفعله تحقيقا في هذا الكون الذي نعيش فيه. وجميع مشاهداتنا تدل على أنه (الكون) يعمل وفقا لقوانين محكمة. هذه القوانين لعلها قد وضعها الإله، ولكن يبدو أنه لا يتدخل في الكون ليخرقها، على الأقل ليس بعد أن أطلق الكون في مساره. على الأقل، وإلى وقت قريب، فقد كان معتقدا أن القوانين ستنهار عند بداية الكون. هذا قد يكون معناه أن الإله كانت له مطلق الحرية في اختيار الكيفية التي يبدأ بها الكون. ولكن في السنوات القليلة الأخيرة، قد اكتشفنا أن القوانين الطبيعية تظل قائمة حتى عند بداية الزمان. في تلك الحالة، فإن الإله لم تكن له أي حرية، وإنما تقرر قوانين العلم (الطبيعي) الكيفية التي بدأ بها الكون.

قلت: تأمل كيف يتكلم أصحاب التنظير "الكوني" عن صفات ربهم وأفعاله، بعدما استجازوا لأنفسهم الخوض بالنظر والقياس في أمر الغيب المحض، وقل لي بربك كيف يكون هذا كلام رجل لا دين له، أو للدقة: كيف لا يصح اعتباره رأسا من رؤوس الدين الطبيعي في هذا الزمان، وهو يقول هذا الكلام، يثبت الصفات وينفيها عن رب العالمين بالرأي والهوى؟! نقول إن الفطرة تقضي عند كل عاقل سوي النفس بأن رب العالمين وخالقهما لا يجوز أن يكون خاضعا لشيء من خلقه، ونظام العالم كله من خلقه، إذ كل

ما في الوجود مما سواه هو من خلقه وجوبا وبداهة! فهل يرجى من مثل هذا أن يجيب بجواب العقلاء الأسوياء؟ أبدا! فلو أنه فعل، فأي مزية تكون له، وأي منزلة بين الناس يطمع في أن تحصل له، بوصفه "سيد الكون" Master of the Universe كما سماه كثير من العامة، كناية عن إحاطة علمه بتاريخ الكون وأصله ونشأته، وما يجوز عليه وما لا يجوز؟ لابد أن يأتيهم بما انتهى إليه كذبه على عقله ونفسه وقلبه، من هراء بشأن العالم بكليته، ومن ثم بشأن صانعه وما يجوز له وما لا يجوز عليه، حتى يكون أهلا لتلك المنزلة التي رفعه الناس إليها!

فاختار أن يبدأ بتقرير أن السؤال: "هل يخضع صانع العالم لقوانين العالم الذي صنعه؟" هذا سؤال لا يستحق الاشتغال بجوابه! لماذا؟ لأنه لا غرض لأهل الدين الطبيعي في أن يسألوا عن صفات ربهم، إذ هم لا يثبتونه أصلا، وإنما يعنيهم السؤال عما ينسب إليه من أفعال ظاهرة في هذا العالم. فلما أراد أن يسقط مبدأ السؤال نفسه، شبهه بأسئلة متناقضة في نفسها كسؤال: "هل يستطيع الرب أن يخلق صخرة لا يمكنه حملها؟"، وهذا من جهله وخفة عقله ولا شك لأن السؤال الذي وجه إليه ليس متناقضا في نفسه، وإنما هو سؤال عن مسألة قد علم جوابها بالاضطرار عند العقلاء، ألا وهو النفي القاطع! لا يعقل أن يخضع الصانع نفسه لنظام إنما وضعه ليكون حاكما على أنواع المصنوعين في عالمهم المصنوع! أرأيت لو أن رجلا صنع حاسوبا، ووضع له نظاما برمجيا يعمل به فلا يجاوزه ولا يخرج عليه، أيصح إذن أن يقال إن ذلك الصانع خاضع في صفاته وأفعاله لنظام التشغيل الذي يعمل به ذلك الجهاز الذي صنعه؟ فلله المثل الأعلى لو كانوا يعقلون! هذا سؤال لا يفتقر العقلاء إلى طرحه أصلا، لا على الفيزيائيين ولا غيرهم، ولا يجاب عنه إلا بالنفي القطعي ولا شك! خلافا للسؤال الذي مثل به هذا الجهول، الذي وضعه سفساط من السوفسطائيين على نحو لا يترتب على جوابه إلا التناقض سواء أجيب بالإثبات أو بالنفي! فهل هذا جواب رجل عاقل؟ أن يقول إن هذا السؤال يشبه السؤال المذكور، ولا يعنينا جوابه على أي حال لأننا لا تعنينا صفات ربنا وبارينا؟ أبدا!

ومع هذا، تجد أتباع الرجل يرونه قد جاء أخيرا بالقواطع الصوارم في أمثال تلك المسائل التي "حار فيها الفلاسفة" وتنازعها أهل الأديان لقرون طويلة، لا لشيء إلا لأنه من كبار "علماء" الفيزياء النظرية! فما الذي سلط هؤلاء السفهاء على تلك المسائل ومن أين جاءت تلك السلطة الأكاديمية؟ هذا أمر يجب أن يعتني المسلمون بتحريره حتى ترجع الأمور في مدارسهم وأكاديمياتهم التجريبية والطبيعية إلى نصابها الصحيح، وحتى لا يأتي علينا زمان قريب، نفاجأ فيه بالمسلمين يتلقون الاعتقاد في صفات ربهم وباريهم

من أساتذة الفيزياء والكوزمولوجيا، يطرحون عليهم أمثال تلك الأسئلة، طلبا "للعلم الصحيح" الذي يقوم على "الدليل العلمي" لا على "الأساطير" و"الخرافات"!

قوله: "وجميع مشاهداتنا تدل على أنه (أي الكون) يعمل وفقا لقوانين محكمة. هذه القوانين لعلها قد وضعها الإله، ولكن يبدو أنه لا يتدخل في الكون ليخرقها، على الأقل ليس بعد أن أطلق الكون في مساره" قلت: "لعله قد وضعها الإله"؟؟ أي إله تقصد يا عدو نفسك إن لم تكن تتكلم عن صانع السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما من قانون محكم كما أشرت إليه؟ إن لم يكن إلهك هو خالق كل شيء وحده لا شريك له، فبأي شيء صيرته إلها من الأساس؟ ثم بأي برهان حكمت بأن رب السماوات والأرض وخالقهما لا "يتدخل" فيهما بعدما أجراهما على هذا القانون أو ذاك، فلا يعطل هذا القانون أو ذاك ولا يخرمه إذا شاء؟؟ ما الذي يجعل القانون قانونا أصلا إن لم تكن إرادة الباري جل شأنه؟ ومن الذي أخرج النظام الطبيعي من إرادته حتى ينظر بعد ذلك فيما إذا كان "يتدخل" فيه أو لا "يتدخل"؟؟ إنها الفلسفة الدهرية الطبيعية القائلة بأنه لا موجود في الخارج إلا الطبيعة ونظامها وما يقاس عليها، وأنه كان الأمر كذلك ولم يزل من الأزل إلى الأبد، ولا يوجد في الخارج موضع من هذا العالم إلا وهو خاضع للنظام الطبيعي نفسه، محاط من جميع الجهات بمواضع مناظرة له في ذلك وجوبا! هذه المقدمة الأولى لما استصحبها الفيلسوف الطبيعي، أصبح لا يرى القانون الطبيعي مفتقرا لمقنن يقننه ولا لصانع يبدؤه ويسبب له أسباب بقائه واستمراره بخلقه وتدبيره وإرادته، يمسكه عن أن يزول أو يتخلف إلا بإذنه! فلماذا كان كل ما يدخل في معنى المكان والزمان خاضعا لذلك القانون أو لنوعه عنده وجوبا؟ لأنه لا يحب أن يقول بصانع قيوم يسير نظام العالم كما يشاء بحيث إذا شاء عطله أو بدله، لأن هذا يلزمه بقبول مبدأ انخرام العادة وإعجاز الرسل لأتباعهم، وقد اختار الكفر بذلك كله، ولن يقول بصانع يطرد هذا القانون أو ذاك فيما يشاء ويختار من أماكن هذا العالم الذي هو صنعته، فيحده بما يشاء من الحد الزماني، فيكون زمان في الماضي أو في المستقبل تخلف فيه جريان قانون من القوانين بالكلية، وبما يشاء بالحد المكاني، كأن يجعل منه ما يجري على السماء الدنيا ولا يجري على ما بعدها من سماوات العالم مثلا، أو على الأرض الأولى دون ما تحتها من الأرضين، أو بما يشاء من الحد النوعي، فيدخل تحته من أنواع مخلوقاته ما يشاء، ويخرج منه من المخلوقات ما يشاء، فيجعله جاريا على البشر والدواب والأنعام دون الملائكة والجن والشياطين، أو على الأحياء دون الجمادات، إلى غير ذلك من حدود الاطراد والاستمرار التي هي من الغيب

المحض الذي لا يوصل إلى اكتساب العلم به إلا بالسمع الذي كفروا به واستكبروا على قبوله!

فإذا أراد الفيلسوف المستكبر أن يطيح بسلطان السمع على معارف البشر بالكلية، ولا يبقى للأنبياء شيئا يتابعهم الأتباع عليه، فلن يجد طريقا أسهل ولا أقرب لنيل ذلك الوطر الخبيث من أن يطرد الطبيعة ونظامها المحسوس في جميع أنحاء المكان والزمان، وأن يخضع لها جميع الموجودات المتصور وجودها في الخارج، هكذا بالتحكم الفاحش، حتى يطلق الأحكام الكونية الشاملة بالقياس الكلي ذات اليمين وذات الشمال من غير أن يمتنع بمانع أو يتقيد بقيد، أو يقال له: "دع عنك الكلام في الغيب بغير علم، واطلبه من حيث يطلبه العقلاء، من ميراث الأنبياء"! فإنه ما يريد إلا أن يقوم مقام الرسل والأنبياء بما عنده! فإذا ما انتهى بأقيسته الفاحشة تلك إلى "نظرية" تقرر حقيقة العالم بكليته وأصله ومبدئه ومنتهاه وكذا، قدمها لأتباعه ثم قال لهم: "قد دلني العلم والعقل على أن العالم قديم لا شيء قبله، أو على أنه حادث من غير محدث، قائم من غير مقيم، منتظم على قانون لا واضع له من ورائه"، فإذا قبلوا منه منهجه الدهري الذي استجاز به القياس في ذلك الغيب المحض، رفعوه – إذن – بذلك الهراء والهذيان إلى منازل الأنبياء والرسل، بل رفعوه فوقهم جميعا، واتخذوا من بضاعته تلك معيارا للقبول والرد على الأنبياء والرسل، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

من فهم هذه الآفة المنهجية الكلية، فهم الأساس الواهي الذي بنى عليه هذا السفيه قوله بأن الأمر "يبدو" وكأن الرب لا "يتدخل" في العالم ليخرق القانون الطبيعي! فلنا على هذا أن نسأله، ونحن نعلم بأي شيء سيجيب: "هل أحاطت حواسك أيها المتنبي الكذاب ببداية هذا العالم ونهايته، وتفحصت فيه من أقصاه إلى أدناه، وتأملت في جميع ما بين حافتيه فلم تترك منه حادثا في الماضي أو في المستقبل إلا علمت به علما كاشفا، فبدا لك بذلك أن القانون الذي طردته ذلك الطرد المطلق عبر المكان والزمان، لم يحصل له أن تخلف يوما من الأيام أو انخرم أو انقلب إلى ضده؟ أم تراك عرفت إلى عرش الرحمن طريقا، فجلست عليه ثم أخذت تراقب كل شيء؟ أم أطلعك رب العاملين على اللوح المحفوظ فرحت تنقل منه ما شئت من علم الغيب؟ من أين لك يا هذا ما زعمته بكل سهولة من العلم بالاطراد المطلق والاستمرار المطلق لجميع القوانين الطبيعية في جميع أنحاء العالم وعبر امتداد تاريخه، حتى يصبح هو الأصل وخلافه هو الخرق والخرم الذي "لا يبدو" أنه قد وقع من قبل؟؟ أهو مما يوجبه العقل ويمنع نقيضه؟ فإن لم يكن كذلك فبأي شيء ترجح لديك؟

نحن العقلاء الموحدين، العالمين بحدود عقول البشر وحواسهم، الذين ينزلون السنن السببي في منزله الصحيح بلا إفراط (كما سلكه الدهرية وغيرهم) ولا تفريط (كما سلكه بعض المتكلمين من الأشاعرة والماتريدية وغيرهم)، نقول إن ما جرت عليه عادتنا من قوانين وسنن كونية سببية ماضية، إنما هو جزء ضئيل من سنن الله الكونية العاملة في هذا الجزء القريب من خلقه (في هذه الأرض الدنيا والسماء الدنيا)، الذي يقع منه تحت حواسنا ما عودنا عليه، وأما ما في السماوات التالية فوق السماء الدنيا (التي ليست سماؤنا القريبة إلا جزءا منها) وما في الأرضين الدانية تحت أرضنا الأولى (التي ليست طبقات الأرض القريبة كما نعرفها إلا جزءا منها)، فكل ذلك غيب مطلق الله أعلم بما ركبه فيه من الطبائع وما أجراه عليه من السنن السببية التي ليس في العقل ما يوجب بل ولا ما يدعو لاعتقاد اتفاقها مع ما في هذه الأرض القريبة وما في هذه السماء القريبة من أنواع السنن والنواميس والطبائع التي اعتدناها واعتدنا انضباطها وتعلق الطبائع فيها بعضها ببعض تعلق الأسباب بمسبباتها!

ولهذا لا نملك أن نقول إن معجزات الأنبياء عليهم السلام إنما تقع بتعطل سنن العالم السببية، فلا تكون إلا بذلك! فانخرام عادتنا لا يلزم أن يكون انخراما لنظام العالم نفسه، وإنما يصح أن يكون من أثر تخلف بعض الأسباب المعتادة عن أن تكون سببا، وتحول ما لا نعتاد كونه سببا إلى أن يكون سببا! أي أن انخرام عادتنا في الأسباب لا يلزم أن يكون ناشئا عن انخرام وتعطل نظام الأسباب بكليته! فهذا إنما يتطلب الحكم به أن يكون علمنا بالأسباب علما محيطا، وهذا لا يكون إلا لرب العالمين وحده!

والدليل على أن معجزات الأنبياء عليهم السلام لا يلزم أن تكون من تعطل كافة الأسباب في العالم، أنك تجدها في كثير من الأحيان معلقة على سبب لا يجعله الله سببا في عادتنا، كما أرسل سبحانه الروح الأمين عليه السلام إلى مريم لينفخ في جيبها ما جعله سببا في خلق عيسى عليه السلام في رحمها، وكان قادرا سبحانه أن يخلقه في رحمها من غيرما سبب أصلا، وكما أمرها عند المخاض أن تهز إليها بجزع النخلة لتسقط عليها الرطب الجني، وكان قادرا سبحانه على أن يخلق لها الرطب بين يديها بكلمة التكوين، وكما أمر موسى عليه السلام أن يدخل يده في جيبه لتخرج بيضاء، وكان قادرا على أن يجعل له ذلك من غيرما سبب، وكما أمره أن يضرب البحر بعصاه فينشق ليصبح فرقين كل فرق كالطود العظيم، وكان قادرا جل شأنه على أن يقول له كن فيكون، من غير أن يجمع له من الأسباب ما لا يجتمع في عادة الناس، وكما أوحى إلى محمد عليه السلام بأن يشير إلى القمر فينشق، وما كان من شيء أهون عليه سبحانه من أن يقضي ذلك دونما

إشارة ولا شيء، وكما فجر عين زمزم بضربة قدم من إسماعيل الرضيع عليه السلام، وكان قادرا على أن يفجره بكلمة التكوين، إلى غير ذلك من نظائره. فهذه كلها آيات علقها الله على سبب من جهة النبي، تجتمع معه أسباب غيبية لا يعلمها إلا الله، لتأتي بمسببها على نحو خارق لعادتنا، وليست هي تعطيلا أو خرما للنظام السببي بكليته، وليس فيها كذلك حجة لمن ينفي الأسباب وتأثيرها بالكلية، لأن الله تعالى قد أمر فيها الأنبياء والرسل أن يأتوا ببعض أسبابها كما هو واضح، وكما بسط علماؤنا رحمهم الله تعالى الكلام عليه في مقام الرد على أولئك!

ثم إنك كذلك ترى من آيات الرسل ما لم يكن له سبب يؤتى به من جهة النبي أو الرسول، كآية الطوفان لنوح عليه السلام، والآيات التسع لموسى في مصر، وأمر الله النار أن تكون بردا لإبراهيم، وأمره الشمس أن تتوقف لثلاثة أيام حتى يتم يوشع عليه السلام فتح أرض كنعان، وغير ذلك. فمع كوننا لا نعلم له سببا من جهة النبي، إلا أن هذا لا يلزم منه كونه يجري إذا جرى على غيرما سنن كوني وعلى غيرما أسباب البتة! بعضها تتبدل فيه الطبائع، فتنقلب أسبابها إلى أسباب الطبائع المضادة (كانقلاب الإحراق إلى البرد)، وبعضها تتعطل فيه أسباب حركتها التي لم نرها في عادتنا إلا جارية مطردة (كتوقف الشمس)، وبعضها تجمع له الأسباب على نحو لم يسبق في عادتنا أن رأينا له نظيرا قط (كطوفان نوح)! والقصد أن لله سننا سببية وأسبابا غيبية لا يلزم من مجرد انخرام عادتنا في بعض الأسباب أن تكون قد تعطلت كلها أو "انخرمت" كلها، فهذا لا يحكم به إلا من كان علمه بالأسباب والطبائع وسننها ونظامها الغيبي علما محيطا كاشفا كعلم الله جل في علاه، وهذا لا يكون لأحد من البشر! ولهذا نقول إن القانون المسمى بالطبيعي في علمنا نحن البشر، إنما هو نتاج تتبعنا لبعض الأسباب المفضية إلى بعض أنواع الحوادث الداخلة تحت حسنا وعادتنا، فليس هو قانونا محيطا بجميع الأسباب ولا يبلغ أن يكون كذلك، ولا يدعي ذلك لنفسه أحد من الطبيعيين في شيء من قوانينهم البتة! أما السنن الكوني المطرد في علم الله تعالى، فهذا لا يعلمه سواه سبحانه! هو وحده الذي يعلم ما الأثر الذي يترتب على جمع ما لا يحصيه سواه من الأسباب للحادث الواحد، وما يلزم أن يتحقق من الشروط السببية وما يلزم أن ينتفي من الموانع حتى يأتي ما عهدناه سببا في كل مرة بما عهدناه مسببا له فيما اعتبرناه من جملة قوانين الطبيعة! حتى الكرة التي إذا تركناها معلقة في الهواء توقعنا أن تسقط إلى الأرض، وقطعنا بأنها تفعل ذلك لا محالة، هذه قد يتعطل في واقعة من الوقائع بعض الشروط السببية الغيبية التي يجب أن تجتمع حتى يجري السقوط على النحو الذي عهدناه في عادتنا، فتظل معلقة في الهواء ولا تسقط كما توقعنا، أو لربما رأيناها ترقى في السماء بدلا من أن تسقط إلى الأرض، من غير أن

يكون بمقدور أحدنا أن يجد لذلك تفسيرا في إطار ما هو مجتمع لدينا من ظواهر الأسباب والطبائع (أو ما يسمونه "بالتفسير العلمي")، فلا يكون انخرام عادتنا في الأسباب انخراما "للنظام السببي" نفسه كما هو في علم الباري جل شأنه، وإنما يكون انخراما لعادتنا نحن وعلمنا نحن لا غير!

ولكن لأن الطبيعيين الدهرية نفوا الغيب بالكلية، وكذبوا بوجود الباري جل شأنه، وبأن ما نراه من الأسباب الظاهرة إنما هو قطرة في بحر علم الباري جل شأنه بالأسباب والشروط والموانع الغيبية التي لا يصير السبب سببا إلا باجتماعها، ساغ لهم أن يقولوا إن ما انتهى إليه علمهم من أمر الأسباب، فيما يسمونه "بالقانون الطبيعي"، هو ما عليه نظام العالم واقعا، وليس وراءه أسباب غيبية، وليس متعلقا بمشيئة إلهية، ولا بملائكة تنزل إليها الأوامر والأقضية الإلهية آناء الليل وأطراف النهار! وإذن تصبح كل واقعة من وقائع انخرام العادة إما خرافة لا تثبت، أو هلوسة فردية أو جماعية، أو حالة واقعية فريدة لابد أن تكون جارية على مجموع ما هو حاصل لديهم من علم بظواهر الأسباب وسننها، فلا يفترض في تفسيرها سبب غيبي البتة ولا يسمح بذلك! ولهذا تسمع أمثال ريتشارد دوكينز يسفهون معجزات الأنبياء في كتب أهل الكتاب غاية التسفيه، يزعم – بكل سذاجة – أنه ما دام "القانون الطبيعي" (كما يسميه) لا يسمح بحدوث الحمل للأنثى من غير جماع مع الذكر، فلابد أن تكون تلك الخوارق من جملة الخرافات والأساطير!

مع أني أقطع بأنه يعلم أنه لم يؤت من العلم بالطبيعة ونظامها إلا قليلا، وأن هذا الذي سماه بالقانون الطبيعي لا يجيز شيئا ولا يمنع، إلا أن يكون المقصود بالتجويز موافقة مجاري العادة، وبالمنع مخالفتها، فليس هو في الحقيقة إلا مجموع ما استقرأه البشر من عادتهم في الأسباب الظاهرة في أنواع الميلاد البشري وحالاته! وإلا فما خفي من الأسباب كان أعظم! فهذا الذي لديهم من استقراء فإنما هو تتبعهم لكسر ضئيل من مجموع الأسباب الواجب اجتماعها في كل حالة حتى يحصل الحمل والولادة بين الذكر والأنثى، على النحو الذي استفاضت به عادتهم ومشاهدتهم! ولكن لأنهم نفوا الغيب وما فيه، لزمهم أن يطلقوا الحكم بألا تكون الأسباب إلا كما يدعيه الفيلسوف الطبيعي، ولا يجري نظام العالم في الخارج إلا على ما يتصوره الفيلسوف الطبيعي، ولا يتكلف أحدهم تتبعا لنظام سببي طبيعي في هذه السماء القريبة وفي هذه الأرض القريبة، إلا لزم أن يكون هو نظام الكون كله والعالم كله من أوله إلى آخره، ومن الأزل إلى الأبد! فإذا كان هذا هو مبلغهم من العلم، فلابد أن يكون هو وكل نظير له من نوعه هو غاية ما يمكن العلم به في الواقع البتة، وأن يكون كل ممتنع عن الإدراك الحسي

(بالفعل أو بالقوة)، وكل عصي على القياس على المحسوس، معدوما غير موجود في الخارج أصلا، ولا يكون الزعم به إلا ضربا من الخرافة والهذيان!

فإذا نحن نقضنا ذلك الأصل الدهري الفاحش فيما يتعلق بالسنن الكونية والقوانين الطبيعية، كما هو متعين على المسلمين أن يفعلوه، تبين لنا عظم ما اجترأ عليه هؤلاء من الافتيات على الغيب ومن الرمي في عماية بمحض التحكم، ومن القول على الله بغير علم ولا سلطان! وتبين ما يعلمونه هم علم اليقين من تكافؤ ما يزعمونه من الأدلة ومن افتقارهم للمرجح في أمر الغيب المحض، ومن كونهم إنما يضربون الأقيسة الكونية الفاحشة في امتداد الزمان والمكان ضرب العميان، لا يقدمون منها ما يقدمون ولا يؤخرون ما يؤخرون إلا تبعا للذوق الرياضي والتناسق الصوري! ثم تراهم – مع ذلك – يحدثونك بما انتهوا إليه من الأوهام والتخرصات من فوق أرائكهم في معاملهم ومراصدهم وكأنما خوطبوا بالوحي المنزل، فإذا بالجهال والسفهاء من بني جلدتنا تطيش أحلامهم بالتلقي عنهم وتفسد عليهم عقائدهم من حيث لا يشعرون، فإذا هم يتجهمون بالتأويل والتعطيل، ثم لا يلبث أحدهم إلا قليلا حتى يتزندق وينخلع من ملته بالكلية، ولعله إن وجد في نفسه من الجسارة ما يلزم أن يجاهر بإعلان الإلحاد والردة أقدم على ذلك ولم يبال، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

قوله: "على الأقل، وإلى وقت قريب، فقد كان معتقدا أن القوانين ستنهار عند بداية الكون. هذا قد يكون معناه أن الإله كانت له مطلق الحرية في اختيار الكيفية التي يبدأ بها الكون. ولكن في السنوات القليلة الأخيرة، قد اكتشفنا أن القوانين الطبيعية تظل قائمة حتى عند بداية الزمان. في تلك الحالة، فإن الإله لم تكن له أي حرية، وإنما تقرر قوانين العلم (الطبيعي) الكيفية التي بدأ بها الكون" قلت: تأمل كيف يصرح الطبيعيون بكل وقاحة بجعل الرب الصانع جل في علاه تابعا لظنونهم واستقراءاتهم السطحية الهزيلة فيما يظهر لهم من صنعته، تلك الظنون التي جعلوها بالقياس الفاحش هي نظام الطبيعة وقانون الكون الذي كان ولم يزل يخضع له كل شيء في الواقع (الوجود)! إن تراءى لنا من الأقيسة الواهية ما به نجري القوانين الطبيعية الواقعة حاليا تحت إدراكنا الحسي على الثانية الأولى التي بدأ فيها خلق العالم، لم يبق للخالق شيء يصنعه ولا خيار يختاره، لأن القوانين إذن تكون هي التي أوجبت للعالم أن ينشأ على هذا النحو الذي نراه لا على غيره! وأما إن لم يلهمنا الشيطان شيئا من تلك الأقيسة، فحينئذ ننظر هل يحلو لنا أن نترك للرب الصانع متسعا في منظومتنا الاعتقادية الطبيعية ليختار من طريقه ما تكون عليه هيئة العالم أم لا! ولا شك أن هوكينغ لا يتكلم عن الصانع ها هنا إلا تنزلا، وإلا فهو لا يثبته أصلا ولا يقول به،

سواء وجد لديه هو وأقرانه ما يدعوهم للزعم بأن القوانين "تنهار" عند بداية الكون أم لم يوجد!

والواقع أنهم يعتقدون استمرار مبدأ القانون الطبيعي نفسه إلى ما قبل نشأة العالم، وما قبل ظهور ما يسمونه بالزمكان، ولو لم يكن هذا الأصل الدهري مستصحبا لديهم ما استجازوا تصور لحظة الانفجار المزعوم وما قالوا به ولا ببداية الزمان والمكان! فلا يغرنك كلامهم في الكيفية التي نشأ بها قانون كذا وقانون كذا، فإن هذا كله ليس إلا ضربا من القياس الجاري عندهم على هذه المسلمة نفسها! أي أنهم في جميع الأحوال لن ينسبوا بداية العالم لسبب ما إلا ما كان من جنس أسباب العالم نفسه الواقعة تحت الحس، وهو ذلك السبب "الطبيعي" الذي بدأه بزعمهم وشكله وصوره في أسطورتهم الانتفاخية الارتقائية الطويلة حتى صار على ما هو عليه الآن. فهم يعتقدون ويصرحون في كل مناسبة بأن نوع قانون الطبيعة عموما وقانون الجاذبية خصوصا، هو الخالق الأعظم الذي ضبط قصة خلق الكون وترتيبه وهيئته على هذا النحو المخصوص لا على غيره، بالنظر إلى كونه (أي قانون الجاذبية) على ما هو عليه (من حيث قيم الثوابت الكونية المتعلقة به) لا على غيره.

فمهما تكلموا عن "الإله" فإنما يتكلمون عنه تنزلا أو تجوزا فيما يزعمون، وهو ما بينا أن حقيقته تأليههم الطبيعة نفسها وإنزالهم صفات الربوبية عليها وعلى نظامها، كمقولة أينشتاين الشهيرة "إن الإله لا يلعب بالنرد"، التي يقصد بها على الحقيقة أن يقول إن القانون الطبيعي لا يلعب بالنرد، أي أنه قانون محكم منضبط لا متسع فيه للاحتمالية كما في ميكانيكا الكم، التي لم يكن أينشتاين راضيا عن مدخلها الاحتمالي لتوصيف الظواهر تحتالذرية! فهم لا يثبتون ربا حيا ذا إرادة وفعل وخلق وتدبير، وإنما ينزلون تلك الصفات كلها بصورة ما أو بأخرى، على النظام الطبيعي، سواء صرحوا بعقيدة وحدة الوجود كما صنعه سبينوزا وتابعه عليه أينشتاين، أو لم يصرحوا، كما ترى في كتابات هوكينغ وكلامه عن "قراءة عقل الإله". فهم يعلمون أنهم لن يجدوا مفرا من تنزيل ما نفوه عن ربهم على ما دونه من خلقه، ومن ثم لن يجدوا مخرجا من التعبير بتلك المعاني، معاني الربوبية، عما يزعمون أنه فعل الطبيعة والقانون الطبيعي، من دون الله جل وعلا، فإذا ما سئلوا عن ذلك تهربوا وقالوا إنما هو ضرب من المجاز لا غير!

والسؤال الأهم الآن هو: ما الفرق في العقل بين أن يقال إن العالم بدأ أولا ثم بدأت فيه القوانين الطبيعية لاحقا، وبين أن يقال إن العالم بدأ وبدأت معه قوانينه في نفس اللحظة، من حيث إثبات ما أثبته هوكينغ بشأن خيارات الباري (أو عدمها) فيما يكون عليه العالم؟! الذي يثبت الرب الصانع، فلابد

بالبداهة أنه يعتقد أن العالم كله مصنوع مربوب، وأن ما فيه من سنن وقوانين هو من أمره وتدبيره وصنعه كذلك! ولا شك أنه من البداهة أن يكون المصنوع أو المفعول هو الخاضع لخيار صانعه وفاعله الحر ذي الإرادة، وليس العكس، وأن يكون الرب الصانع هو المكره له على ما يريد وليس العكس! ((وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [القصص : 68] فسواء كانت نقطة بداية السنن والقوانين الطبيعية في تاريخ العالم موافقة لنقطة بداية العالم نفسه، أو كانت متأخرة عنها (ولا سبيل لترجيح ذلك من طريقهم البتة كما بسطنا الكلام عليه في غير هذا الموضع)، فالجميع من صنع الباري على أي حال، ولا يصح في العقل إلا أن يكون العالم ونظامه وقانونه كله خاضعا لمشيئة الباري واختياره، سواء على الفرض الأول أو على الثاني أو على غيرهما مما قد تتفتق عنه أذهان القوم مستقبلا! هذه مسألة بدهية لا تحتاج إلى تحرير، ولولا أن تكلم هذا السفيه في تلك القضية بما تكلم به وتعرض له المسلمون، ما تكلفنا نحن هذا البيان، والله المستعان!

قوله: "ولكن في السنوات القليلة الأخيرة، قد اكتشفنا أن القوانين الطبيعية تظل قائمة حتى عند بداية الزمان. في تلك الحالة، فإن الإله لم تكن له أي حرية، وإنما تقرر قوانين العلم (الطبيعي) الكيفية التي بدأ بها الكون" اهـ.

قلت: كذبت ورب الكعبة! ما "اكتشفتم" شيئا، وإنما هي فرضيات خرافية وتأويلات وهمية بعضها فوق بعض طبقات! والله لا نقبل منكم قولكم إنكم "اكتشفتم" أو "علمتم" شيئا عن "بداية الزمان" إلا أن تكونوا قد شهدتموها بأعينكم، وليس لكم إلى ذلك من سبيل!

والله حتى ذلك الكيان الوهمي الخرافي المسمى "بالثقب الأسود" Black Hole الذي يزعم القوم أنه قابع في "مركز الكون" وفي مركز كل مجرة، والذي قضى ذلك البائس عمره في البحث والتنظير والهذيان بشأنه، ثم زعم أن العالم كله لابد أن يكون قد نشأ منه، هذا لم يشهده أحدهم بعينيه ولا يمكن أن يشهده! ليس الثقب الأسود إلا فرضية نظرية مبناها على اللعب بمعادلات المجال للنسبية العامة عند أينشتاين! فقد وجد القوم أن المعادلات "تسمح" بتوصيف حالة افتراضية تبلغ فيها كثافة الجسم قدرا يجعلها تؤثر على "الزمكان" المزعوم تأثيرا له صفة هندسية عجيبة اقتضاها الحل الرياضي للمعادلات، تجعله أشبه ما يكون بالبئر أو الحفرة التي تمتص وتبتلع كل شيء لتضعه في تلك النقطة الكثيفة. ولكن هذا قياس رياضي لا أساس له إلا الوهم، فإنه ليس كل ما تجيز المعادلات الرياضية تصوره من القيم المنفصلة أو المتصلة يلزم أن يكون مطابقا للواقع، وهذه مسألة قد بسطنا الكلام عليها في غير موضع من هذا الكتاب! [35]

فعلى سبيل المثال، قد يقال إنه قد شوهد وجود تناسب عكسي بين الكثافة ودرجة الحرارة، بحيث أنه كلما زادت درجة حرارة الجسم، تضاءلت كثافته وتزايد حجمه مع ثبات كتلته. هذه العلاقة قد تصح في وصف الواقع لأنواع من الأجسام دون أنواع أخرى، وفي درجات من الحرارة دون درجات أخرى، فمن زعم أن كل درجة حرارة يمكن افتراض الوصول إليها، لابد وأن يناسبها حجم معين وكثافة معينة تستعمل تلك المعادلة في التنبؤ بها، بلا حد ولا نهاية في الجهتين، فهذا مخرف يعلم أنه مخرف! فإنه لا يقول قائلهم - مثلا – بأنه كلما رفعت درجة حرارة قطعة صغيرة من المعدن، فإنها ستظل تتمدد حتى يبلغ حجمها حجم جرم الأرض أو يزيد! مع أن المعادلة تجيز ذلك كما لا يخفى! فما الذي منعهم من تجويز تلك الصورة؟ أنهم شاهدوا بما لا متسع معه للتأويل، أن قطعة المعدن إذا اطرد ارتفاع حرارتها إلى حد معين فإنها تنقلب من هيئتها الصلبة إلى الهيئة السائلة، فتنقلب من صورة الجسم المتمدد باطراد إلى صورة السائل المنساب! وكذلك يقال في الانحناء أو التوصيف الهندسي الانحنائي المنسوب في النسبية العامة إلى ما يسمى بالزمكان (وننسبه نحن إلى مسارات حركة الأجسام في الفضاء)، فإنه على التسليم بصحة العلاقة التي وصفتها معادلات أينشتاين بين كثافة الجرم وشدة الانحناء المرتبط بتلك الكثافة، فإنه لا يلزم أن يصح اطراد تلك العلاقة في جميع الكثافات وجميع مقادير الانحناء بلا قيد ولا حد، وصولا إلى تلك النقطة الوهمية التي لا نظير لها في الحس والعادة! ومن الواضح لدى العقلاء كافة أن الجواز الرياضي أو الفزيقي شيء، وتحقق الوقوع شيء آخر، ولا يلزم ثبوت الثاني من ثبوت الأول! فإذا كانت الظاهرة أو الحالة التي يفترضها القوم بناء على مجرد الجواز الرياضي لا نظير لها في الحس على الإطلاق حتى سموها بالفردية Singularity، فبأي شيء يستجاز افتراض وجودها في الخارج تحقيقا، وجعلها – كما هو دأبهم – تفسيرا لبعض المشاهدات الرصدية التي زعموا أنها هي ما يتوقع أن نراه إن صح وجود تلك الثقوب المزعومة؟؟ من أين يأتي ذلك "التوقع" أصلا، والحال أنكم ليس لكم حظ من الإدراك الحسي لنظير ذلك الشيء؟؟ هذا استدلال دائري محض! يفترض الشيء الوجودي أولا بقياس متكلف من هنا أو هناك، ثم تفترض له الخصائص افتراضا، ثم تتأول بعض المشاهدات على أنها هي تلك الخصائص، ومن ثم تتخذ دليلا على وجوده وصحة تلك الفرضيات! أي أن الفرضية نفسها يستدل بها على صحتها! فهم إذا سئلوا ما أدلة وجود الثقوب السوداء عندكم، قالوا لقد درسنا سرعة حركة سحب الغاز المحيطة بمركز ما يقال له "مجرة درب التبانة"، فوجدناها تتوافق مع ما نتوقع أن نراه إن قدر وجود ثقب أسود في مركز المجرة، فيقال لهم: ومن أين لكم بهذا التوقع ابتداء؟ وما الذي يمنع في العقل من أن يثبت شيء كهذا الذي سميتموه بالثقب الأسود حيث لا ترونه ولا تشعرون به، لأن خِصائصه على

خلاف ما فرضتم و"توقعتم"؟ وما الذي يمنع في العقل من أن تكون تلك المشاهدات التي زعمتموها من آثار ذلك الشيء الأسود الخفي المزعوم، آثارا لشيء آخر لا تعرفونه؟ ما الذي يمنع من أن يكون تسارع تلك السحب عند مركز ما يسمى بالمجرة، راجعا إلى سبب آخر خلاف ما زعموا؟ هذا هو نوع "الأدلة" التي بها "عرفوا" أو "أثبتوا" وجود "الثقب الأسود": إن قدرنا (أ) لزم أن نرى (ب) ---- رأينا (ب) ---- إذن (أ)، فتأمل!

ونقول: إن سلمنا تنزلا بأن القوانين الطبيعية كانت في بداية الزمان كما هي الآن، فكيف يكون ذلك دليلا على أن الباري لم يكن له خيار في جعلها على هذا النحو الذي هي عليه دون غيره، كما تزعمون؟ القانون الطبيعي ليس واجب الوجود ولا هو قائم بنفسه، ولا هو شيء حاصل في الأعيان أصلا، وإنما هو كلية ذهنية تصف أنواعا من العلاقات السببية المطردة الواقعة تحت عادتنا، الناشئة عن طبائع معينة وعن أسباب غيبية تحفظ بها تلك الطبائع وتحقق شروط تأثيرها وتنفى الموانع، فهو لا يثبت كسنة ثابتة مطردة مترجحة على خلافها في نفس الأمر، محفوظة من الزوال أو الانقلاب، إلا كوصف كلي لما عليه تصريف رب العالمين للأسباب والطبائع! ثم إنه على القول بأن العالم قد خلق على مراحل متتابعة (وهو ما جاء بمعناه الوحي) فلابد أن نواميسه وقوانينه قد ركبت فيه تبعا لخلقه، لأنها هي تلك النواميس التي بها تعمل أجزاؤه وأبعاضه في بعضها البعض، بعدما خلقت، أما أن يقال إن قوانين الطبيعة هي التي تقرر الكيفية التي بدأ بها الكون، فهذا يقتضي أن تكون قد ركبت من قبل في المحل الذي جرت فيه أحداث خلق الكون، حتى تكون أحداث خلقه قد جرت في إطارها، وهو ما يقتضي القول بتقدم وجود القوانين على المحل الذي لا قيام لها إلا به، أي لا تظهر تلك القوانين إلا فيه ولا تجري إلا عليه، فيكون نظام الكون قد ظهر قبل الكون، وبه خلق الكون، وهذا تناقض بين، إذ إن قوانين العالم هي من صفات العالم، والصفة ملازمة للموصوف لا تقوم إلا به، فلا يصح في العقل أن تكون الصفة قديمة والموصوف حادثا، أو أن يتقدم وجود الصفة على وجود الموصوف!

هذه كلها مسائل بدهية ضرورية لا تحتاج إلى برهان! ومع ذلك، يخالفها الرجل بكل سهولة وبلا مبالاة، وهو يعلم - فيما أزعم - أنه سيمضي بتلك المخالفة من غير أن يستوقفه أحد ليقول له: "مهلا! هذا كلام متناقض لا يصح!

إنني والله لأعجب غاية العجب من آية جلية قد جعلها الله في هذا الرجل، ومع هذا لم يرها هو ولم يرد أن يراها ولا اعتبر بها أحد من أتباعه! فالرجل قد قيل له قبل خمسين سنة مضت من عمره الطويل إن مرض ضمور

الأعصاب الذي أصيب به لن يبقيه حيا فوق بضع سنوات، ومع ذلك بقي حيا حتى شاب وشاخ وبلغ ما يقارب الثمانين من عمره، وهو مع ذلك يلقي الدروس والمحاضرات وينشر الأبحاث ويؤلف الكتب! خمسا وخمسين سنة يعمره ربه ويمهله على عتوه وكبره، يقيم عليه الحجة بعد الحجة في شدة افتقاره إليه لعله يتضرع أو يخشى، وهو مع ذلك حريص على محاربته ونزع الربوبية عنه وإسقاطه من فوق عرشه، يزعم بكل وقاحة أن "الكون" لا يحتاج إلى خالق يصنعه ويدبر أمره، حتى مع كونه قد بلغ من المرض والشلل مبلغا صار معه لا يحرك في جسمه شيئا إلا عينيه، يخاطب الناس بجهاز كمبيوتر يلتقط منه حركات عينيه (التي دربوه على طريقة معينة لتحريكها) فيترجمها إلى كلام يسمعونه! فسبحان من جعل من حال هذا المجرم آية لمن يعتبر!

وقد تعقب المضيف هذا الكلام بقوله: "شكرا جزيلا، والآن، كارل ساغان، في مقدمتك للكتاب (يعني كتاب هوكينغ "موجز لتاريخ الزمان" الذي قدم له ساغان، ومنه استل الرجل هذا النقل الذي علق عليه هوكينغ)، قد علقت على هذا الكلام، وقلت إن هذا كتاب عن الإله كذلك، أو ربما عن غياب الإله، لأن هوكينغ لم يترك شيئا للإله ليفعله. طبعا كلمة "الإله" تعني أشياء كثيرة لأناس كثيرين، فأي إله نقصده تحديدا عندما نتكلم عن قراءة عقل الإله؟" هـ. فأجاب الرجل بابتسامة باردة على خلقته قائلا:

> أرى أن هذا سؤال ممتاز، وسأكون حريصا للغاية على سماع جواب ستيفن هوكينغ عنه، ولكن كمحاولة لإيضاح حيز الاحتمالات الممكنة، فهما بديلان: أحدهما هو الصورة المشتهرة للإله في الغرب، وهي صورة شيخ أبيض عملاق، له لحية بيضاء طويلة، يجلس على عرش في السماء ويأمر بمصرع كل حمامة، قابل ذلك بفكرة الإله في ذهن سبينوزا أو أينشتاين، التي كانت، على الأقرب، متمثلة في المجموع التام لقوانين الكون. من الجنون أن ننكر وجود قوانين محكمة للعالم الفزيقي، فإن كان هذا ما تقصده بالإله، فإنه لا يكون وجود الإله مطروحا للسؤال أصلا، ولكنه إذن يكون إلها بعيدا أو ما يسميه الفرنسيون Roi fainéant أو الملك الذي لا يفعل شيئا. أما على الجانب الآخر، فالأنموذج الأول للإله الذي يتدخل يوميا، هذا لا يظهر أن لوجوده، كما قال دكتور هوكينغ، أي دليل. أعتقد أنه من الحكمة، كما هو شعوري الشخصي، أن نتواضع بعض الشيء، فيما يتعلق بتلك المسائل، فيجب أن ندرك أننا نتعامل – بموجب المفهوم نفسه – مع أصعب الأشياء في طلب المعرفة بها، وأبعدها عن العادة

البشرية، ولربما نتمكن مستقبلا من اختراق تلك الأمور الغامضة ولو بقدر ضئيل.

وهنا داخله المضيف ووجه السؤال لصاحبه هوكينغ قائلا: "أظن يا بروفيسور هوكينغ أنك تود المداخلة هنا"، فقال: "أنا أستعمل كلمة الإله في نفس المعنى الذي استعملها أينشتاين من أجله. فهو حقا السبب في كون الكون كما هو وفي وجوده من الأساس." هـ.

قلت: بهذه السهولة، يقرر ساغان وصاحبه هوكينغ عقيدة الدهرية الطبيعية القائلة بأنه لا موجود إلا الطبيعة، بل أكثر من ذلك أنهم يقولون: لا رب إلا الطبيعة، لأن الطبيعة هي التي تحكم وتسير وتضبط وتخفض وترفع وترزق وتقوم بنفسها وبغيرها، بل هي التي خلقت نفسها وخلقت كل شيء! الطبيعة أو القانون الطبيعي، هو إله سبينوزا الذي أثبته أينشتاين ويثبته هوكينغ ويميل ساغان إلى القول به كذلك كما ترى. وأنا لا أدري حقيقة، عندما يتكلم ساغان بحصر البدائل في صفة ربه وصانعه بهذا الهزل الظاهر والاختزال السخيف، الذي يعلم هو قبل غيره أنه مصادم للبداهة والفطرة التي فطر عليها البشر، كيف يصدق نفسه ويصدقه سامعوه بأن ما درسه في الفيزياء والرياضيات يؤهله لأن يقدمه للناس كعقيدة في صفات الباري الذي كان ولم يزل يؤمن به تسع وتسعون بالمئة من سكان المعمورة؟؟ إما أن يكون الرب الصانع رجلا عملاقا مماثلا للبشر في كيفيات صفاتهم (كما صورته أساطير الوثنيين القدماء)، أو أن يكون هو مجموع القوانين الطبيعية التي تسير هذا العالم، لا أكثر! أو بعبارة أخرى، إما أن تكون صفات ذاته على كيفيات المخلوقين وحقائقهم، أو ألا تكون له صفات ذاتية، فلا حياة ولا إرادة ولا علم ولا شيء من ذلك، بل لا تكون له ذات أصلا! فمن الذي قال إن إثبات صفات الباري التي تقتضي البداهة والضرورة العقلية إثباتها له، يستلزم جعله مماثلا للمخلوقين على تلك الصورة الساذجة السخيفة، حتى يكون البديل الوحيد المقبول هو تعطيل الصفات كلها، وتحويله إلى مجرد جملة من السنن الكونية الصماء العمياء البكماء التي لا توصف بالإرادة والخالقية والفاعلية إلا على سبيل المجاز والتوسع اللغوي؟؟

إنها تلك العقيدة الطبيعية الدهرية التي تقصر أنواع الموجودات في الخارج فيما هو "طبيعي"! فإذا قيل بصانع له حياة وإرادة وعلم وحكمة، يفعل ويقضي ويأمر وينهى ويخلق ويرزق ويدبر الأمر من فوق عرش في السماء، فلابد أن تكون جميع تلك الصفات جارية على كيفيات "طبيعية" نوعا، وإلا جاز أن يوجد في الخارج موجود لا يوصف بأنه طبيعي، ومن ثم لا تناله نظريات القوم وأقيستهم، وهو ما يلزم منه انهيار البنيان الدهري الطبيعي الميتافزيقي بكليته! مجرد تجويز وجود شيء ما بالغيب لا يوصل إلى إثباته

أو نفيه ولا إلى إثبات صفاته أو نفيها من طريق القياس الطبيعي، هذا يهدم على القوم أصل أصولهم، الذي هو القول بأنه لا موجود في الخارج إلا الطبيعة أو ما هو طبيعي، وهو ما يرفضه الدهرية ديانة واعتقادا، كما نرفض نحن المسلمين كل ناقض من نواقض الإسلام!

والسبب في كون ذلك الفرض ناقضا لأصل ملتهم، هو أنهم إنما استجازوا التنظير في أمر الكون (بكليته) واقتحام غيوبه كلها بالنظر والرأي والقياس، ومن ثم التوصل لمنافسة الأنبياء والمرسلين في بضاعتهم التي تابعتهم الأمم عليها، إنما جوزوا ذلك لأنفسهم بناء على القول بأنه ليس في الغيب إلا نظير ما في الشهادة، مما يقبل القياس عليه (مبدئيا)، بلا حد ولا نهاية! فلو لم يسلموا بهذه المسلمة المنهجية الكلية، فلن يجدوا مستندا عقليا لوضع النظريات الكونية العريضة التي تصف كل شيء، وتستوعب كل موجود، وتقدم للناس ما يجاب به عن أسئلتهم الوجودية الكبرى بشأن أصل العالم وكيفيته وبدايته ونهايته وما كان قبله وما يكون بعده، على ذلك النحو الذي يطلبه الناس من الأنبياء والمرسلين ويلتمسونه في تراثهم!

فإذا كان شرط وجود الصانع هو أن يكون مماثلا في صفاته للمصنوعين، قابلا للإخضاع للحس في عالمنا هذا، كما يخضع غيره من المخلوقات للحس بصورة ما أو بأخرى، ولم يحصل إلى الآن أن شوهد ذلك الرجل العملاق كما يشاهد غيره من الرجال، فلا "دليل" إذن على وجوده، وهو إذن مجرد أسطورة وثنية لا قيمة لها ولا علاقة لها بالواقع على الإطلاق! ومن هنا يدخل برتراند راسل – مثلا – بتمثيله السخيف لوجود رب العالمين بوجود إبريق شاي عالق في مدار حول الأرض، أو تشبيه دوكينز الهزلي السخيف لوجود الرب بوجود وحش السباغيتي أو اليونيكورن أو البابانويل! ولهذا تجده لا يجيز – من حيث المبدأ – وجود صانع بالغيب، وإنما يقبل فكرة أن يكون صانع الحياة على الأرض كائنا ذكيا من كوب آخر، بحيث تكون ذات ذلك الصانع وصفاته كلها قابلة مبدئيا للقياس على ذوات وصفات الفاعلين الصانعين المخلوقين في عالمنا هذا! فإن هذا الصانع "اليوفو" لن يكون مستحقا لأن يعبد أو يؤله، كما يؤله أهل الأديان الثلاثة ربهم جل شأنه، بل سيكون من المقبول عقلا، بل ربما من المستحسن أن نثور عليه وأن نقاتله وننتصر عليه في يوم من الأيام، حتى لا ينافسنا في مطلب السيادة على هذا العالم وموارده (كما يعتقدون أن روبوتات الذكاء الاصطناعي ستبلغ أن تصنعه بنا في المستقبل)، خلافا لما يعلمون أنه يلزمهم إن قالوا برب صانع خارج عن هذا العالم، لا نظير له في خلقه، ولا يفتقر إلى غيره، ولا يخضع لقوانين الطبيعة، لا شيء فوقه ولا شيء قبله ولا مستكره له، بل جميع ما في الوجود من صنعه، ثم هو – مع ذلك – يأمر البشر وينهاهم ويبعث الرسل

ليتابعهم الناس على ما يكلفهم به من العبادة والخضوع له وحده لا شريك له! هذه عبودية لا يقبلونها ولا مخرج منها لمن يدخلها ما دام حيا!

من هنا كان لزاما عندهم أن يقال إن الإله الذي له حياة وفعل وإرادة وأمر ونهي وتقدير وتدبير، هذا إنما هو خرافة وثنية قديمة، جعلت الإنسان من صنع إنسان مثله (فيما يعرف اصطلاحا بالأنثروبومورفيزم Anthropomorphism)، جريا على رغبات وهواجس نفسية قديمة عند البشر المتخلفين (بحسب أسطورة داروين)، ومن ثم يقبل منهم الناس تسخيفهم وتسفيههم ذلك الصانع وتشبيهه بوحش السباغيتي وإبريق راسل! وإذا فرض وجود صانع لنا، فلابد أن يكون مثلنا، وإن فرض وجود صانع له من قبله، فلابد أن يكون مثله كذلك، وهكذا في تسلسل لا يعنيهم قطعه ولا يبالون! فمجرد فرض وجود صانع ما، أو شيء ما في الخارج، أيا ما كان ذلك الشيء، يجعله – عند الطبيعيين – خاضعا وجوبا للقياس الطبيعي، فلا غائب إلا ما هو قابل للقياس على الشاهد، أو قابل لأن يفسر وجوده نفسه بأسباب طبيعية سابقة عليه، ولأن يوصل إلى تصور صفاته وكيفيته وحقيقته بالقياس على ما في الشاهد! ولهذا نقول إن جاءك من يقول "لابد من وجود تفسير علمي لكل شيء"، فقل له: إن كان المراد بكلمة "علمي" هنا أي طبيعي، فإن اعتقاد وجود تفسير طبيعي لكل شيء، مهما حكم العقل بوجوب ألا يكون له "سبب طبيعي" أو ألا يكون قابلا للقياس على المحسوسات، ومهما بدا مخالفا لما هو معهود من نظام الطبيعة (كالمعجزات وخوارق العادات)، هذا إنما هو من أصول الملة الطبيعية الدهرية التي تختزل جميع الموجودات والحوادث في الخارج في جنس واحد، ألا وهو جنس الموجودات والحوادث الطبيعية (الواقعة تحت الحس بالفعل أو بالقوة)، بناء على اعتقادهم أنه لا موجود في الخارج إلا الطبيعة! ليس كل موجود في الخارج ولا كل حادث في الخارج يلزم أن يكون له سبب مناظر لما في الشاهد، ومن ثم يجوز الوصول إلى معرفته بالقياس والتنظير الطبيعي! وإنما هو كذلك عند من جعل دينه أنه لا موجود في الخارج إلا الطبيعة!

والقصد أن هوكينغ لم يتكلف عناء التنظير والبحث في الكوزمولوجيا من أجل أن يقول لأهل الملل الكتابية الثلاثة (اليهودية والنصرانية والإسلام) إنني لا أجد مفرا من إثبات غيب عظيم هو أعظم مما في الشاهد ومما أمكنني أن أتصوره بنظرياتي، وإثبات سماء فوقها عرش عليه رب يأمر وينهى، ويميت ويحيي، ويبعث الناس للحساب في يوم لا ريب فيه! وإنما تكلف ما تكلف من أجل أن يقول للناس إنني قد استوعبت – أخيرا - بأقيستي ونظرياتي جميع ما في الخارج من الموجودات، فلم أجد متسعا لإثبات ذلك الغيب الذي تؤمنون به، ولم أجد داعيا إلى ذلك أصلا! فإنه إن لم يكن هذا

الأخير هو موقفه ومطلبه ومرامه، ففي أي شيء هو إن جعل من ذلك الغيب المحض الذي هو موضوع ما يسمى بعلم "الكوزمولوجيا" أو "الكونيات" كما يسمونه، مادة لتخصصه الأكاديمي؟ ما الغرض من علم الكوزمولوجيا هذا نفسه إن لم يكن ذلك هو منتهاه ومحصوله عند أصحابه؟؟ قياس فوق قياس فوق قياس بلا حد ولا قيد ولا منتهى، وهو ما يجعل (في مجموعه) الكون كله وكأنما هو لعبة صغيرة في يد أحدهم يقلبها بأقيسته ذات اليمين وذات الشمال، يقول هذا ما انتهى إليه علمي، ولم أجد مانعا يمنعنى منه ولا حدا يحدني عنه، ولا قائلا يقول لي: قف عندك ولا تجاوز حدك، فإنما هذا غيب لا تعقله ولا يجوز قياسه على ما تدركه حواسك! هي صنعة من لا يريد أن يثبت الغيب أصلا ولا يراه شيئا!

لا يزال الفيزيائيون المعاصرون يشكون صعوبة ما هم بصدده اليوم من محاولة الجمع بين نظريتين فيزيائيتين مختلفتين في منطق التنظير اختلافا كبيرا، إحداهما تصف عالم الأجرام السماوية بواسطة أنموذج جيومتري، والأخرى تصف عالم الجسيمات تحتالذرية بواسطة معادلة احتمالية، فترى الساعين منهم في ذلك المطلب يسعون فيه من غير أن يقف أحدهم ولو لوهلة واحدة ليسأل نفسه عن الداعي إلى بناء تلك النظرية الجامعة وحقيقة الثمرة الإضافية المترتبة عليها! أتدري لماذا، أيها القارئ الكريم؟ لأن المنهج الدهري الذي تشربوا به يملي عليهم ذلك المطلب إملاء اعتقاديا وقيميا، ويكلفهم به تكليفا، فتراهم تتضافر أهواؤهم في خدمته من غير أن يحتاجوا إلى تحرير دليله الأخلاقي أو مستنده المعياري! كلهم يدري سبب كونه هو المطلب الأسمى عندهم لكن قليل منهم من يصرح به!

يجب على الفيلسوف الطبيعي أن يجهد غاية الجهد في ذلك لأنه إن لم يفعل، لزمه هو وأتباعه أن يقبلوا من بعض أهل الملل المخالفة لهم ما عندهم في نفس الأمر! لذا تعين عليه السعي في إيهام نفسه وأتباعه بأن لديه من العلم بالغيب ما يغنيهم جميعا عن سماع بضاعة أهل الأديان الأخرى، بل ويجعلهم ينظرون إليها بوصفها ضربا من أساطير الأولين، وإلا تركهم مضطرين لأخذ عقيدتهم الغيبية التي هي أسمى المطالب المعرفية على الإطلاق، عن هؤلاء وعن مصادرهم الدينية، وإذن لزال سبب رياسته وسيادته على الناس بالكلية، بل ولوجد نفسه – بعدما تستحكم سيادة أهل تلك الأديان على مجتمعه - معرضا للفتك والبتر بوصفه مهرطقا زنديقا! فقد علم أنه لا يزال الناس يحتاجون إلى إجابة تلك الأسئلة الكبرى أعظم ما يكون لأحدهم من الحاجة، ويفتقرون إليها أشد مما يفتقرون إلى الطعام والشراب! فإن تركها لأهل الأديان الأخرى، صارت كلمتهم في أمر الغيب وما فيه هي المقدمة على جميع ما عنده، وصار الناس تبعا لهم لا له، في

تقرير ما يتعين أن تكون عليه حياة البشر وقيمهم العليا على مستوى الفرد والجماعة، وهذا ما لا يقبله! فمن أجل منافسة الأنبياء في نبوتهم واستلاب أتباعهم منهم، قامت الأكاديمية اليونانية القديمة على تلك الأصول الكلية التي تقدم تحريرها، التي يمكن إيجازها في القول بفتح جميع أنواع الموجودات (في عالم الشهادة وما وراءه) للنظر والقياس، دونما تفريق بين غيب وشهادة، وبين إلهيات وطبيعيات!

قال هوكينغ في موضع لاحق من الكتاب المذكور (ص. 190): "لقد أعطيت أهمية خاصة للقوانين الحاكمة للجاذبية في هذا الكتاب، بالنظر إلى كون الجاذبية هي التي تشكل البنية الكلية للكون، على الرغم من كونها هي الأضعف من بين القوى الأربعة الأساسية." اهـ. قلت: بهذه السهولة يزعم الفيلسوف الطبيعي أن هذا القانون أو ذاك يجري على جميع أجزاء الكون (الذي هو عنده بمعنى كل ما هو موجود في الخارج على أي حال)، ليس هذا وحسب، بل يجعله هو القانون الذي يُنسب إليه فعل تشكيل هيئة الكون وبنيته كلها ونظامه كله! فالجاذبية عند الكوزمولوجيين تخلق النجوم وتحولها إلى مصانع نووية عملاقة تخلق فيها جميع أنواع المادة الفلذات والمعادن الثقيلة، ثم تميتها وتحولها إلى ما سماه القوم بالثقوب السوداء! فإذا كان الانتخاب الطبيعي المزعوم هو القانون الذي ينسب إليه خلق النظام الحيوي برمته، فالجاذبية الأينشتاينية هي القانون الذي ينسب إليه خلق المادة الميتة في الكون! وهذا كله من شرك الربوبية كما ينبغي ألا يخفى على مسلم، إذ هو يضع القانون الطبيعي في محل الباري نفسه الذي صنع هذا العالم على نحو ما شاء واختار سبحانه، وسن فيه تلك الطبائع والسنن، التي هي أعمال الملائكة بأمره جل شأنه، تجريها على هذا النحو لا غيره بمشيئته وحده، فتعطلها إذا شاء، وتخرقها إذا شاء، بل وتعكسها عكسا إذا جاء أمره سبحانه (كما في سنة طلوع الشمس من مشرقها)، سواء في ذلك ما انكشف من تلك السنن للبشر وجرى على عادتهم وما كان منها على خلاف ذلك!

فأي شيء يكون هذا الكلام بشأن القانون الطبيعي إن لم يكن تأسيسا لعقيدة ميتافزيقية شركية، يطلب من الناس أن يأخذوها مأخذ التصديق والتسليم والإيمان؟؟ يجب علينا – إن أردنا أن يقبلنا القوم في معاهدهم وأكاديمياتهم الكبرى، بل وأن نعتبر من أهل العلم والعقل لا من جملة السفهاء - أن نقبل من الكوزمولوجيين طردهم لكل قانون اختاروا أن يطردوه على جميع أنحاء العالم وأجزائه، من أوله إلى آخره، ومن أول نشأته إلى يوم هلاكه، ليس هذا وحسب، بل وزعمهم أنه (أي ذلك القانون) هو الذي خلق العالم فجعله اتفاقا على ما نعرفه منه، لأننا لو لم نقبل منهم ذلك، لانهارت بذلك سلطتهم المعرفية المزعومة على الغيب وما فيه، وهذا

عندهم هو الكفر بعينه والهرطقة بعينها! فإنه لن يدخل الغيب المحض في دائرة السلطان الأكاديمي للدهرية الطبيعيين إلا بقبول هذا المنهج الدهري في النظر في السماء وما فوقها والأرض وما تحتها! ولن يكون للقوم قوة على مبارزة أهل الملل الأخرى ولا مستند للاعتراض على مبدأ دينهم نفسه من وراء حصن اجتماعي حصين يتحصنون به، ولا ذريعة لإفساد الدين على أهله وزعزعته في قلوبهم، إلا بقبول الجماهير لذلك المنهج المعرفي ولو إجمالا! وهذا ما يجب ألا يتساهل فيه المسلمون في زماننا هذا وأن يقفوا فيه موقفا صارما حسبة لله تعالى، وإن قال فيهم القوم ما قالوا!

هم يؤسسون الدين على ذلك المنهج الدهري، وينتجون آحاد العقائد الغيبية في الإلهيات وغيرها تأسيسا عليه، واللاهوتيون والمتكلمون من سائر الملل والفرق تبع لهم على تلك الطريقة الشيطانية، وعلى دهريتهم المنهجية تلك من حيث لا يشعرون! والمتأمل في عقائد أئمة التنظير الطبيعي الكوني (الذي أصبح يقال له علم الكونيات وليس الفلسفة الطبيعية، وأصبح فرعا من فروع البحث الطبيعي في القرن التاسع عشر الميلادي) يجد أنهم كلهم بلا استثناء، جاء اعتقادهم في صفات الرب وأفعاله (بداية من وجوده نفسه إثباتا أو نفيا) تبعا لنظرياتهم الكونية وأقيستهم الميتافزيقية الفارغة التي انتخبوها تحكما، وطردوها عبر الزمان والمكان طردا مطلقا، حتى يتمكنوا من توصيف العالم بكليته أو الكون بكليته توصيفا "علميا" تحصل لهم به الرياسة على عقول الخلق! ايتني بمن شئت من فلاسفة الطبيعيين الكبار، الذين كان لهم تأسيس وتنظير طبيعي أكاديمي تابعهم عليه الناس في تصور العالم بكليته والنظام المطرد فيه، وسأبين لك بحول الله وقوته كيف أنهم لم يعتقدوا ما اعتقدوه بشأن ربهم وباريهم إلا تأسيسا عليها لزاما، بداية من "طاليس الملطي" (الفيلسوف الطبيعي الأول في التاريخ المدون، ومؤسس الأكاديمية الطبيعية الغربية) الذي كان أول من صرّح بأن القانون الطبيعي الكامن في هذا العالم هو الفاعل الأول فيه وهو صاحب السلطان الميتافزيقي على العالم وما فيه، وليس الإله الخالق من خارجه! فكان أول من أنزل صفات الربوبية على طبائع هذا العالم نفسه وعلى نظمه السببية الثابتة!

ثم خذ على سبيل المثال أرسطو الذي بدأ بتصور بنية العالم (ما سماه بالفزيقا) وهيئته الكلية ومنابع الحركة والتغير فيه من أعلاه إلى أدناه تصورا ميتافزيقيا، فلما استوى له من التنظير في ذلك ما راق له، أخذ في "تصور" ما وراء العالم (ما سماه بالميتافزيقا) بناء على ذلك، فوصف ربه سبحانه وتعالى بأنه هو المحرِّك غير المحرَّك أو غير المتحرك (لأن كل محرك أو متحرك عنده هو قائم بغيره بالضرورة)، والمغير الذي لا يتغير (لأن التغير

عنده يلزم منه قيام الشيء المتغير بغيره كذلك)! وإذا كان هذا وصفه، فلابد ألا تحدث منه أفعال ولا إرادات متجددة، لأن حاله بعد الفعل وبعد الإرادة يعد تغيرا عن حاله قبل، وإذن فلا يجوز أن يكون قد أحدث العالم بعد أن لم يكن، بل يلزم أن يكون العالم قديما بقدم صانعه، وأن يكون قيامه بمحركه الأول قياما قديما أزليا، فلا يزال الفعل والتغير في العالم (من صورة إلى صورة) ينبثق منه من الأزل وإلى الأبد (وهو ما يقتضي نفي اليوم الآخر كذلك لأن هلاك العالم يعد هو الآخر تغيرا في الإرادة والفعل لا يليق عند أرسطو بالمغيّر الذي لا يتغير)، ولا تزال أفلاك العالم (أو العقول التسعة) تتحرك من الأزل وتحرك ما دونها بأثر وجود المحرك الأول! فكأنما جعل ربه بمنزلة "البطارية" الأزلية الأبدية (أو العقل الفعال كما سماه) التي لو لم توجد لما تحرك في العالم شيء ولا تغير فيه شيء من الأزل وإلى الأبد، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا!

وتأمل كذلك في ميتافزيقا [36] إسحاق نيوتن، مؤسس الفيزياء الرياضية الحديثة، الذي تصور العالم بكليته على أنه ماكينة عظيمة، يخضع أولها إلى ما يخضع إليه آخرها من النظم والقوانين السببية بالضرورة! فمع أنه كان في الأصل نصرانيا، إلا أنه لم يتلق اعتقاده في أسماء ربه وصفاته من نصوص النصارى، وإنما أنشأه في عقله إنشاء بالتأسيس على تصوره الكوني الميتافزيقي! فعندما انتهى نيوتن إلى الزعم بأن "الكون" لا نهائي، وأن النجوم التي يبصرها بعينيه في جو السماء الدنيا، لابد وأنها تمتد على هذه الهيئة وعلى تلك العلاقات المكانية في جميع الجهات بلا حد ولا نهاية، لم يدر أين يجعل ذات ربه إلا أن يجعلها حالة في الكون نفسه، ممتدة بامتداده. ذلك أنه لما اعتقد (بالقياس المطرد) أن النجوم يجذب بعضها بعضا بحسب كتلتها، رأى أنه إن قدر لها حدا تنتهي إليه، فسيلزم من ذلك أن يسحق بعضها بعضا وأن تنهار السماء كلها على الأرض لعدم تساوي قوى الجذب المؤثرة على أجرام السماء من جميع الجهات)! ومن ثم أصبح ممتنعا عنده وجود موجود خارج ما سماه "بالفراغ"، لأن الفراغ (الذي هو الحيز الشامل لجميع الأجرام، ومسرح قانون الجاذبية) لابد أن يكون مستوعبا لجميع النجوم، فلا تكون له نهاية ينتهي إليها أو حد يقف عنده! وهو ما آل به إلى القول بالحلول، إذ لم يبق لربه مكان في نظريته إلا أن يكون حالا في الفراغ، أو أن يكون هو الفراغ نفسه، كما كان اعتقاده هو وتلميذه اللاهوتي الطبيعي صامويل كلارك!

ولما دخل كلارك في مساجلته المشهورة مع معاصرهما الألماني غوتفريد لايبنيز حول ميتافزيقا نيوتن وتأثيرها على تصور الإله وعلاقته بالكون، انتهى كل واحد من الرجلين إلى اصطناع صفة الإله الذي يراه، مستندا إلى نظريته

الكونية وميتافزيقاه في إثبات ما أثبته للباري من الصفات والأفعال ونفي ما نفاه! فزعم كلارك – تبعا لأستاذه نيوتن – أن الصانع حال في الفراغ المطلق الذي هو صفة له! فرد عليه لايبنيز مستندا إلى نظريته الذرية "المونادية" [37] في تصور حقيقة الفراغ بتقرير أن ذلك القول (أي بتعيين الفراغ الذي أحل فيه ربه) يلزم منه تركب ذات الإله من نفس الجسيمات التي يتركب منها ذلك الفراغ، على التسليم بكونه عينا خارجية، أو أن يصبح في الوجود قديمان: ذات الإله والفراغ المطلق، وقد سلك ذلك المسلك حتى يلزم نيوتن وتلميذه ليس بضرورة إخراج ذات الباري من الكون والمباينة بينهما والإمساك عن ذلك العبث، ولكن بضرورة نفي وجودية الفراغ والانتقال إلى القول بذهنيته! فإن هو (أي نيوتن) فعل ذلك، وانتقل من تعريفه للفراغ إلى تعريف خصمه، فلا إشكال إذن عند لايبنيز في أن يكون العالم لا نهاية لاتساعه كما زعم نيوتن، وأن يكون الصانع حالا فيه!

وتأمل كذلك إن شئت في عقيدة أينشتاين بشأن الغيب وما فيه! فقد انتهى الرجل إلى نفي الغيب الزماني والمكاني مطلقا، لأنه جعل الزمان والمكان في هذيانه الميتافزيقي نسيجا وجوديا أو "متصلا" وجوديا هو نظير "الفراغ الوجودي" عند سلفه نيوتن، أي أنه الشيء الحاوي للكون بكليته، الذي بات يسمى اختصارا "بالزمكان"! وإذن، وبناء على هذا الاندماج الوجودي الفاسد، فلا يوصف موجود بأين ولا بمتى إلا ما هو واقع داخل "الزمكان" هذا، وليس داخل الزمكان إلا المادة الواقعة تحت تأثيره المزعوم في النسبية العامة (الجاذبية)! فأي غيب إذن وأي موجود هذا الذي يتصور وجوده خارج "الزمكان"؟؟ فإذا اجتمع إلى ذلك الاعتقاد بانتفاء التزامن المطلق (كما حرره في نسبيته الخاصة)، وصار تزامن أي حدثين في الخارج، أمرا نسبيا محضا لا حقيقة له إلا في ذهن الراصد البشري، كل بحسبه، لزم أن ينتفي وجود الصانع ذي الإرادة والفعل بالكلية، وأن يصبح الكون نتاجا "لقوة باطنة فيه"، تجعل "الزمكان" والأجسام السابحة فيه على هذا النحو لا غيره، وليس نتاجا لفعل رب خالق قديم بالغيب له فعل وإرادة، تصدر عنه الأفعال والإرادات على ما يشاء ويختار من الترتيب والتزامن، لتحصل ثمرتها في العالم كما يريد سبحانه، إذ لا توصف الأحداث الخارجية في العالم عند الرجل بأنها تتزامن على نحو واحد معين أو تترتب على ترتيب معين يكون واقعا في الخارج بصرف النظر عن إدراك البشر ورصد الراصدين! وإنما يصح في الاستعمال اللغوي عند أينشتاين (المترتب على سفسطته الميتافزيقية) أن يقال للحادثين events إنهما قد تزامنا إن قدر إدراك حصولهما في نفس اللحظة بالنسبة إلى راصد ما، لا غير! وإذن فلا يتصور الرجل وجود كائن فاعل ذي إرادة يسيّر حوادث العالم كلها على إرادته بترتيب مخصوص وتزامن مخصوص، بصرف النظر عن إدراك البشر

وقصورهم المعرفي، لأن هذا لا يتفق وميتافزيقا نسبيته الخاصة في تعريفها للتزامن! [38]

ومن هنا، صرح أينشتاين في غير مناسبة بأن الخالق الذي يؤمن به إنما هو ذلك الصانع "الربوبي" المجازي الذي وصفه باروخ سبينوزا، ألا وهو المحرك الطبيعي المزعوم للنظام الطبيعي، الحال بين جنبات العالم، الذي ترجح به وجود العالم على عدمه، لا أكثر ولا أقل! فكان يرى أن الذين يعتقدون في الباري أنه يسمع ويرى ويعلم ويريد ويحب ويكره ويأمر وينهى ويسمع الدعاء ويبعث الموتى .. إلخ، (أو ما يقال له باصطلاحهم الإله المتشخص Personal God) هؤلاء قوم سذج خفاف العقول كالأطفال، وبهذا الوصف تحديدا سفه الرجل كتاب اليهود خاصة، وأتباع الملل الثلاث المسماة "بالإبراهيمية" عامة (اليهودية والنصرانية والإسلام)، لأن من أصحابه من كان يدعوه للرجوع إلى اليهودية التي نشأ في بيت من بيوتها [39]! قلت: فليهنك أنت عقلك الفذ يا أذكي سهفاء زمانك وأسفه أذكيائهم، وموعدنا ذلك اليوم الذي جحدته ((وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)) [الأنعام : 10]! ولا عجب في الحقيقة من أن يكون هذا هو اعتقاده في الله واليوم الآخر، فإنه لا ينتهي المرؤ إلى مثل ما انتهى إليه الرجل من تفلسف في الميتافزيقا والكونيات، ومن تنطع على المغيبات المحضة، إلا لزمه أن يأتي من الخرف بشأن الباري جل وعلا بما تقتضيه نظريته! وإنما العجب ممن يزعمون من جهلهم أو من أهواء قلوبهم أن أمثال تلك الفلسفات يصح أو يتصور الجمع بينها وبين اعتقاد المسلمين في رب العالمين، ولا يرى بأسا في مبدأ النظر نفسه في تلك الأبواب من طريق القوم! فالحق أن كل من تلبس بتلك الطريقة الدهرية في اقتحام غيب السماوات والأرض بالنظر والقياس فهو ماض إلى الكذب على رب العالمين لا محالة، فما بين مستقل ومستكثر، ولينظر العاقل من أين يأخذ دينه!

يقول هوكينغ في موضع آخر من كتابه (ص. 146 – 147):

> لقد طرح أينشتاين ذات يوم السؤال: "كم خيارا كان متاحا أمام الإله في بنائه الكون؟". فإن صحت أطروحة العالم الذي لا حد له (في الفراغ رباعي الأبعاد)، فلابد أنه لم يكن له حرية الخيار على الإطلاق في انتقاء الشروط الابتدائية (للخلق). سيظل له، بالطبع، حرية اختيار القوانين التي يخضع لها الكون، ولكن لعل هذا لم يكن خيارا واسعا في الحقيقة على أي حال: فقد لا يكون ثمة إلا نظرية موحدة كاملة (يعني للجمع بين النسبية ونظرية الكم) واحدة فقط، أو عدد زهيد من تلك النظريات، كنظرية

الأوتار الهيتيروتيك Heterotic String Theory، بحيث تكون متناسقة داخليا وتسمح بوجود بنى (حيوية) في تعقيد النوع البشري، الذي يقدر على التحري في قوانين الكون وعلى طرح السؤال حول طبيعة الإله. فحتى إن لم يكن هنالك إلا نظرية موحدة واحدة فقط هي الممكنة، فهي لا تزيد على أن تكون مجرد جملة من القوانين والمعادلات! فأي شيء هذا الذي ينفخ النار في المعادلات ليجعل لها كونا تصفه؟

قلت: فما الذي جرأ أينشتاين وهوكينغ وغيرهما من أئمة تلك الصنعة المهلكة على هذا التقرير المتغطرس المغرق في الكبر والاستعلاء؟ إنه اجتراؤهم – جريا على أهوائهم - على تناول العالم (أو "الكون" كما يسمونه) بكليته بالقياس والنظر (السماوات والأرضين بمجموعهما) كما يتناول أحدهم شيئا حقيرا قد أحاط بإدراكه وشهد له من النظائر ما استفاضت به عادته! فإذا قيس العالم بكليته على شيء من أجزائه القابلة للتفكيك إلى أجزاء أدق، الواقعة تحت الحس والإدراك البشري، بغية الوصول إلى تقرير المادة التي يتركب منها كل شيء فيه والكيفية التي صنع بها من أوله إلى آخره، لزم من ذلك قياس صانعه على الإنسان لا محالة (الذي لا يصنع شيئا إذا صنع إلا بالتركيب)، والتلبس بالإغراق في تشبيه أفعاله بأفعال المخلوقين في النقص وفي الخضوع لجنس النواميس السببية التي يجدون أنفسهم خاضعين لها ولا يتصورون من أنواع الحوادث إلا ما هو خاضع لها! ويتغافل هؤلاء حقيقة أن صانعهم وباريهم سبحانه ليس مخلوقا من أمثالهم، ولا يخضع للأسباب ولا لشيء من فوقه ولا يقوم بغيره، وإنما هو خالق الأسباب ومقيمها وهو من يُخضع لسننها خلقه، فإذا شاء عطلها وإذا شاء رفعها بالكلية، فلا مستكره له ولا يعوزه شيء ولا يمنعه مانع من فعل ما يريد كما يريد، ((إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)) [يس : 82]!

تأمل كيف يتنطع المجرم هوكينغ في تطبيق أقيسته الساقطة على ربه، سبحانه وتعالى وتقدس، تملؤه الفرحة بتلك المعادلات التافهة والنماذج الرياضية الممخرقة التي يظن أحدهم بها أنه قد "عرف عقل الإله" (كما تبجح به أينشتاين في عبارة مشهورة له)، يقول: لم يكن أمام الخالق خيار في كذا، وربما كان له خيار ضيق في كذا وكذا، إن قدرنا وجوده أصلا، لماذا؟ لأن تلك النظريات الواهية التي فرح القوم بها وظنوا أنهم قد ملكوا بها زمام السماوات والأرض جميعا، وأنهم قد كشف لهم بها من غيبهما ما لا يعرف إلا من طريقهم، تلك النظريات إنما ترتبط كل واحدة منها بتصور معين لقصة النشأة الأولى، وهو ذلك التصور الذي أخضعوا – من دهريتهم

المنهجية - كل حادث من حوادثه لتلك القوانين والنظريات نفسها، فلم يجدوا أمامهم تصورا سواه! ومع أنهم يعلمون تمام العلم أنهم إذا تغيرت تلك النظريات عندهم فلابد أن تتغير قصة النشأة كلها أو بعضها بحسب ذلك، وأنهم ماضون في ذلك كله على التخمين والافتراض فوق الافتراض، بأقيسة كلية ليس عندهم من طريقهم من برهان على امتناع أن يكون الواقع بخلافها، كلها أو بعضها، فمع أنهم يعلمون ذلك تمام العلم، إلا أنهم يأبى عليهم كبرهم وغطرستهم إلا أن يضع الواحد منهم نفسه، وهو متكئ على أريكته، يحمله ربه كما يحمل البغال والحمير في أرضه، يضع نفسه في محل ربه وصانعه، يقول: لو كنت أنا صانعا كونا كهذا الكون، تجري فيه السنن السببية على ما أظن أني أعلمه، فكيف كنت أصنعه؟ فإذا تأمل في ذلك، لم يسعفه عقله الحقير بأكثر من أن ينتج قصة أو قصتين سخيفتين، ثم يقول: ما كان الصانع الذي صنع هذا العالم يملك من الخيارات شيئا وراء ذلك! فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل، وسبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا!

أنتم يا هؤلاء أحقر وأجهل من أن تعلموا حدود أكثر القوانين الطبيعية ثبوتا واستفاضة واطرادا في عادتكم واستقرائكم البشري، فلا تعلمون متى بدأ قانون الجاذبية – مثلا – بعد أن لم يكن، ولا إلى أي نهاية ينتهي تأثيره على أجرام هذه السماء الدنيا فضلا عما فوقها من السماوات، ولا تعلمون ما جعله الله من أسباب غيبية لاستقرار تلك الطبائع التي تجعل الأشياء تبدو وكأنها يجذب بعضها بعضا على نحو ما قدرتموه وقربتموه بمعادلاتكم ونماذجكم الرياضية! ولا تعلمون هل يبقى القانون مطردا غدا أو بعد غد كما بقي تلك القرون الطويلة أم لا يبقى! ولا تعلمون ما الشروط السببية التي يجب أن تتحقق في غيب السماوات والأرض حتى يعمل ذلك القانون في كل مرة على نحو ما ترونه، وما الموانع التي يجب أن تنتفي! لا تعلمون إلا قشرة سطحية رقيقة للغاية، على سفح جبل عملاق من الأسباب والسنن والنظم التي لا يحصيها إلا باريها ومقدرها سبحانه وتعالى وتقدس اسمه! ومع ذلك يتكلم الواحد منكم عن نظام العالم وقانون الطبيعة وكأنه هو الذي خلقه وركبه في السماوات والأرض، أو أشهده الله خلقه وأعلمه ببواطن صنعة الخلق وأسرارها، ولا حول ولا قوة إلا بالله! بل تراه يجاوز تلك القوانين والسنن التي ما علم إلا قشورها من طريقه، ليضرب الظنون والأوهام العريضة الفاحشة في أصل كل شيء، وفي مبدأ السماوات والأرض وسبب كونها على ما هي عليه لا على غيره، ثم تسول له نفسه التعديل على ربه والافتيات عليه، يقول لو كان كذا لكان أحسن، أو لم يكن بوسع الخالق أن يجعل العالم على غير هذا الذي هو عليه، أو لو قدر أن نشأ العالم على قيم للثوابت الكونية مخالفة لهذه التي هو عليها ولو أدنى

مخالفة لما أمكن أن يوجد الإنسان والدواب والنباتات (وهو ما يسميه الدهرية بالمبدأ الأنثروبي)، أو لو كنت أنا صانعا عالما كعالمنا هذا لاقتصدت فيه ولوزعت موارده الطبيعية توزيعا أحسن من هذا، سبحان الله وتعالى عما يقولون علوا كبيرا! أي عالم هذا الذي تصنعه يا أحقر وأسفه خلق الله في أرضه؟؟؟ ألا تستحيون؟؟؟

يا بروفيسور أنت ما تقدر على أن تحرك عضلة واحدة من عضلات جسدك إلا بإذنه سبحانه، وقد حرمك هذا الإذن الذي تفضل به على غيرك لعلك تتذكر أو تخشى، ومع ذلك أبيت إلا أن تبارزه بوضع القيود على ربوبيته وملكه وقدرته وسلطانه جل شأنه، تقول ما كان يملك الرب أن يفعل كذا أو يفعل كذا، وما كان له من خيار في جعل العالم على ما هو عليه، فأي كبر وأي غرور هذا؟؟ سبحان الذي جعل منك آية لمن يعتبر!

والقصد أن علينا معاشر طلبة العلم من أهل السنة، أن نبين للمسلمين الذين لهم عناية بالعلوم الطبيعية واشتغال بها في هذا الزمان، أن التأسيس الأكاديمي الغربي Discipline لتلك العلوم، الذي استوردناه كما هو، قائم عند أصحابه على نظرية معرفية دهرية إلحادية محضة Naturalistic Epistemology لا تفرق بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وتجعل من أهداف التنظير والبحث التجريبي، بل من أسمى تلك الأهداف وأعلاها، تحقيق "العلم" الصحيح في جواب تلك الأسئلة الغيبية الكبرى التي طالما اتفق عقلاء البشر على أنها من اختصاص الوحي الإلهي، وأنها لا يوصل إلى جوابها إلا من طريق السمع، تأسيسا على ما هو مركب في فطرة البشر من مقدمات ذلك السمع! فمهما قال دعاة "ترويج العلوم" من أئمة النحلة الإلحادية الجديدة إن ثمة صراعا بين الدين والعلم يجب حسمه، فيجب أن يكون معلوما لدينا أنما هو في واقع الأمر صراع بين دين الطبيعيين Naturalistic Doctrine الملبس بلبوس "العلم" كذبا وزورا، وبين عقائد أهل الأديان الكتابية كافة (أي تلك الأديان التي يتوارث أهلها كتابا ينسبونه إلى رب العالمين)، وأنه لم يعرف في تاريخ الملل والأديان ملة هي أخفى وأبلغ في استدراج المغفلين من أهل الملل الأخرى للتشرب بأصولها الكلية وبمصادر تلقي الاعتقاد الغيبي فيها مما بلغته تلك النحلة في هذا الزمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

عندما يُعتقد أن أداة القياس الطبيعي (قياس الغائب على الشاهد) هي الطريق لاكتساب المعرفة الصحيحة بأي موجود في الخارج، وأن الدعوى المعرفية لا تعد "علما" حتى تثبت مطابقتها للواقع من طريقه، فإن هذا يلزم منه ألا يكون في الخارج من موجود إلا ما كان "طبيعيا" نوعا، أو بعبارة أخرى: أن يكون نوع "الطبيعة" (العالم المحسوس المعتاد) قد استهلك

الواقع كله فلم يترك في الوجود شيئا خارجا عنه (أو خارقا للطبيعة كما يسمونه Supernatural)، فلا يمتنع عن أدواتهم في استكشاف العالم المحسوس إلا ما كان معدوما لا وجود له، وهذه هي الملة الدهرية بعينها! وعلى هذا الأساس، تقوم كافة خوارم الطبيعيين للغيب (سواء غيب الزمان أو غيب المكان) كما مر معك، وهو ما عليه يقوم علم الكوزمولوجيا نفسه كما ترى، إذ لو كان القوم يقيمون أي حرمة للغيب أو يرون له حدا يحجزهم عن اقتحامه بالقياس والرأي والهذيان، لما وجد ذلك "العلم" المزعوم أصلا!

قال هوكينغ في كتابه المذكور: "لو قدر أن كان ثمة حوادث (أحداث) متقدمة على ذلك الزمان (يعني زمان الانفجار العظيم)، فمحال أن يكون قد كان لها أي تأثير على ما يحدث الآن في زماننا الحاضر. فمن الممكن إهمال وجودها بالكلية، لأنها لن يكون لها أي تبعات قابلة للمشاهدة. فيجوز للمرء أن يقول إن الزمان قد ابتدأ في الانفجار العظيم، بمعنى أن الأزمنة المتقدمة (على ذلك الانفجار المزعوم) لن يكون لها أي تعريف." اهـ. قلت: هذا أيها القارئ الكريم هو اعتقاد الدهرية الغيبي المترتب على تطبيقهم لمنهجهم الكلي "العلمي" (الذي هو أصل أصول دينهم كما تقدم، ومنبع كل أسطورة من أساطيرهم في تلك البابة) على تأويل هابل لملاحظته في عام 1929 الميلادية، وعلى نسبية أينشاين العامة! ذلك أن تطبيقهم لمبدأ الاستمرارية الدهري على تأويل هابل للمشاهدات النجمية، قد أفضى بهم إلى اعتقاد نقطة زمانية لابد وأن الزمان نفسه قد بدأ منها، على أساس أن الزمان والمكان عنصران وجوديان لشيء خارجي يملأ جنبات الكون! فإذا كان ذلك كذلك، وكان تعريف الزمان والمكان عند أينشتاين مستوعبا لكل ما هو طبيعي، امتنع بالضرورة أن يكون ثمة موجود متقدم على تلك النقطة المزعومة، وإن قدر وجوده فهو وجود مهمل لا يلتفت إليه، لأنه إذن لا يكون "طبيعيا" نوعا، فلا يطاله قياس الطبيعين (لأنه لن يكون له أثر على ما هو مشاهد ومحسوس من حال العالم كما نعرفه)! وإذن فالقاعدة هي أنه لا موجود في الخارج إلا ما كان قابلا (مبدئيا) للإثبات والنفي من طريق القياس الميتافزيقي عند الطبيعيين الأكاديميين، وإلا كان ضربا من الخرافة أو الأسطورة!

فإذا كانت هذه القاعدة أو هذا المبدأ هو الذي أفضى بالطبيعيين المعاصرين إلى بناء نظرية الانفجار المزعوم على نظرية "الانحراف الأحمر" عند هابل ونسبية أينشتاين العامة، فهو كذلك الذي يفضي – بالضرورة – إلى القول بامتناع وجود أي عامل سببي غيبي (أي خارج عن طائلة المنهج الطبيعي) له أي أثر محسوس على واقع العالم كما نراه، سواء فيما قبل الانفجار أو فيما بعده، لأن النظرية قد استجازت (في مبدأ تأسيسها) اقتحام الغيب المحض

بقياس ما فيه على الشاهد المحسوس بالفعل، واستوعبت بذلك القياس الواقع كله والماضي كله بالفعل (كما هو الشأن في جميع نظريات الدهرية الطبيعيين في أمر الغيب)! فمن قبلها منهم فإنه يلزمه أن يقبل المنهج الدهري الذي تأسست عليه عندهم كذلك، بما يستلزمه ذلك المنهج من نفي الصانع بالكلية، أو جعله عاملا "طبيعيا" نوعا، على أحسن الأحوال، قابلا للقياس على المحسوس ومن ثم داخلا تحت طائل الأدوات التنظيرية نفسها [40]، وإلا تناقض منهجيا! ولهذا لم يسلم فريق من فرق المتكلمين في التاريخ من التلبس بتشبيه الأفعال (على تفاوت في مواقفهم المترتبة على ذلك، ما بين معطل ومجسم)، لأنهم بدؤوا جميعا بالتزام مبدأ تجويز القياس في المغيبات الذي ألزمهم به الخصم الدهري، فتأمل!

ومع أني أقطع بأن عامة اللاهوتيين ومتكلمة أهل الكتاب من الغربيين في زماننا هذا يدركون هذه الحقيقة جيدا، ويعلمون أن أصحاب الطبيعيات قد تطاولوا أبلغ التطاول على مسائل لم يكن لهم من الأساس أن يطرحوها للنظر من طريقهم ولا بشيء من أدواتهم، إلا أنك تراهم يخنسون عن تقرير الحق في هذه القضية المنهجية العظيمة، ويجبنون عنه أشد الجبن، لما يستلزمه ذلك الاعتراف من القول ببطلان شطر عظيم مما انعقد عليه اتفاق الأكاديميات الطبيعية المعاصرة على أنه هو العلم Science الذي لا يخالفه إلا جاهل أو مخرف، وهو ما يكرهون تبعته عند النخبة الأكاديمية، ويتخوفون من أثره عليهم في مجتمعهم الذي يعيشون فيه، ولا يتصورون أن ينسب إليهم القول به! ولهذا تراهم متفقين على قبول الأسطورة الميتافزيقية الطبيعية المعاصرة، في شقيها الكوني أو الكوزمولوجي (المتعلق بنشأة العالم) والحيوي أو البيولوجي (المتعلق بنشأة أنواع الكائنات الحية على الأرض)، مع الاكتفاء بالزعم بأن إثبات تلك النظريات وقبولها لا يستلزم الخروج من الدين الذي هم عليه، بل إنه متفق ومتناسق منطقيا (بالجملة) مع الاعتقاد بأن هذا هو صنع الرب وفعله الإرادي، بل لعلهم يجعلون دأبهم بيان أن قبول تلك البضاعة وإثباتها يستلزم ويقتضي إثبات الصانع على طريقة المتكلمين، وليس العكس! وهذا القبول والتسليم (بداية من ادعاء التناسق المنطقي ووصولا إلى ادعاء إثبات الصانع) جرم عظيم في حق الدين والعلم معا، لعله أعظم من جناية الطبيعيين أنفسهم، لو كانوا يعقلون! فإن حقيقة ما ذهبوا إليه إنما هي قبول الخلط بين نظامين اعتقاديين أو بالأحرى ملتين مختلفتين اختلافا عظيما في مصادر التلقي، على نحو يمجه العقلاء كافة، ولا يثمر فيهم إلا الاستخفاف بتلك الملة التي ينتسبون إليها، وبنصوصها الباهتة التي تصبح إذن لا معنى لها إلا ما يقرر اللاهوتي أن يجعله هو معناها وتأويلها جريا على ما صار إليه الفلاسفة والمفكرون المتبوعون في زمانه! وإذن يصبح دينه واعتقاده تبعا لبضاعة

أولئك الفلاسفة، بداية من صفات باريه وأفعاله، التي هي أصل النزاع بين أهل الملل الكافة، بما فيها النحلة الطبيعية نفسها، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ولعلك لن تجد في أدبيات اللاهوتيين المعاصرين توصيفا للصراع المزعوم بين العلم (هكذا) والدين على أنه صراع بين الفلسفة الطبيعية والدين، إلا عند قلة من فلاسفة اللاهوت النصراني، كالفيلسوف الأمريكي المخضرم "ألفين بلانتينغا" Alvin Plantinga، إذ صرح في غير مناسبة بأن النزاع والتناقض ليس واقعا بين العلم (ويقصد به ما يقصده الطبيعيون من أداة البحث والتنظير التجريبي) والدين (ويقصد به النصرانية التي يعتنقها) على التحقيق، وإنما هو بين المذهب الفلسفي الطبيعي Naturalism (وسيأتي بيان ما يقصده به) والدين! ولكن واقع الأمر أنه عندما يحقق المسألة ويناظر عليها، فإنك تراه يفصل بين نظرية داروين وبين النحلة الطبيعية Naturalism ليجعل الخلاف أو عدم الاتفاق حاصلا بين الدين (الذي يخصه بنصرانيته بطبيعة الحال) وبين النحلة الطبيعية، وليس بين الدين ونظرية داروين، على أساس أنه يجوز للنصراني أن يقول بالتطور الموجه Guided Evolution وليس في دينه ولا في عقله ما يمنعه من ذلك. والحق أن بلانتينغا يتناقض بذلك، لأن نظرية داروين لا تنفصل عن النحلة الطبيعية بحال من الأحوال، ولا يستقيم في العقل ذلك الفصل أصلا. ألا ترى أن داروين إنما وضع آلياته التفسيرية لأصول الأنواع الحية في الأرض، مستصحبا في ذلك التنظير الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism القاضية بأنه لابد أن يكون أصل الأنواع حادثا أو جملة من الحوادث السببية الخاضعة للنظام الطبيعي، الداخلة في نوع الأسباب الطبيعية Nautral Causes؟ الجواب بلى! فمن أين يأتي اقتحام ذلك الغيب المحض بتلك المسلمة المنهجية إلا من عقيدة غيبية مفادها أنه ليس في الوجود شيء وراء الطبيعة ولا صانع من فوقها، وإذن فليست أسباب نشأة النظام الحيوي أسبابا "فوقطبيعية" Supernatural ولا يمكن أصلا أن تكون كذلك، وإنما هي أسباب طبيعية وجوبا؟ نظرية داروين تستصحب الطبيعية المنهجية، والطبيعية المنهجية تستلزم الطبيعية الوجودية (القول بأنه لا غيب، ولا موجود في الخارج إلا الطبيعة)، وهي تلك النحلة الفلسفية التي لا يصح للنصراني ولا لغيره من أهل الملل الكتابية أن يعتنقها أو أن يعتنق أي دعوى تقتضيها منطقيا! فكيف يستقيم أن يقال إن نظرية التطور الدارويني لا تتعارض مع الدين الموصوف بأنه Theistic Religion (وهي الأديان الثلاثة المنسوبة إلى إبراهيم عليه السلام) وإنما تتعارض مع النحلة الطبيعية، إذا كانت النظرية لا قيام لها ولا وصول للقول بها إلا تأسيسا على تلك النحلة نفسها؟؟ فهذا تناقض ولا شك، وبه يرد على التطويريين من جهمية أهل

القبلة، كعمرو شريف وغيره، الذين زعموا نفس الزعم، فيما يتعلق بالتعارض بين الدين ونظرية التطور.

فصل في نقد البرهان الارتقائي عند بلانتينغا ضد الفلسفة الطبيعية، وبيان أن نظرية داروين لا قيام لها إلا على الدهرية الطبيعية، خلافا لما زعم.

وقد بالغ بلانتينغا في التفريق بين نظرية التطور والنحلة الطبيعية حتى وضع برهانا فلسفيا بالغ التكلف سماه بالحجة الارتقائية ضد الفلسفة الطبيعية Evolutionary Argument against Naturalism، يظن به (كما يتوهمه كل متكلم في بضاعته) أنه قد هدم الفلسفة الطبيعية بنفس أدواتها! والبرهان في الحقيقة إنما يراد منه إلزام المخالفين بقبول صورة ما من صور الفلسفة الخلقية اللاهوتية الجديدة Creationism التي يسعى أصحابها لاستعمال أدوات الطبيعيين في إثبات أن العالم هو على الوصف الذي يصفه الطبيعيون في نظرياتهم المعتمدة أكاديميا في عصرنا الحالي بسبب كونه مخلوقا مصنوعا، أو على الأقل هو كذلك مع كونه مخلوقا بلا تناقض ولا تعارض، لا أنه كذلك لأنه لا خالق له كما يعتقده الطبيعيون! فغاية البرهان إلزام الطبيعيين بأحد خصلتين حتى يسلم لهم أساس نظريتهم المعرفية من التناقض، بل أساس العقل نفسه: إما أن يتمسكوا بنظرية النشوء والارتقاء الداروينية وينخلعوا من فلسفتهم الطبيعية (وهو ما يقتضي قبول المذهب الذي يتبناه بلانتينغا بالنسبة لنظرية داروين كما سيأتي)، وإما أن يتمسكوا بطبيعيتهم ويتركوا الارتقاء الدارويني بالكلية، وهذا أمر لا يطيقونه كما لم يطقه هو، لكون النظرية الداروينية عند خصومه كما عنده هو، علما مستقرا لا يحسن التطرق إلى نقضه!

وخلاصة البرهان على اختلاف صياغاته (وحتى لا نغرق القارئ في تفاصيل فنية قد تعَمّي عليه الفهم وتطيل بنا المقام) أننا إن سلمنا بأن عقل الإنسان قد نشأ عن عملية ارتقاء دارويني، كما تقرره نظرية داروين (1)، وبأن العقل والمعرفة البشرية والعقائد Beliefs / cognitions ليست إلا جملة من الإشارات الكهربية والعمليات الكيماوية في المخ كما يعتقده الماديون الطبيعيون (2)، فلن تكون جملة اعتقادات الإنسان صالحة للاعتماد عليها Reliable (في أكثرها على الأقل، بحسب تطبيق بلانتينغا لمبرهنة بايس في الاحتمال المشروط Conditional Probability) من حيث كونه قادرا عند نشوئها في نفسه على التأكد من مطابقتها للواقع، بالنظر إلى أنها لم تنشأ إلا عن عمليات ارتقائية مادية صرفة، لا اعتبار فيها لمسألة الصحة والفساد في موضوع الاعتقاد نفسه، وإنما الاعتبار فيها بما إذا كانت تنبت سلوكا

يضمن للإنسان بقاء نوعه أو لا (ومن ثم يتم انتخابها داروينيا)! أي أننا إن فرضنا صحة الفلسفة الطبيعية المادية، فإنه لن يبقى الاعتقاد (أي اعتقاد Belief أيا ما كان موضوعه) حيا في أمم البشر يتوارثونه على تتابع الأجيال إلا إن كانت له ثمرة سلوكية تساعد على بقاء النوع Survival، وإلا فلا فرق بين الاعتقاد الحق في نفسه أو الباطل في نفسه من هذه الجهة! وإذن فما يدرينا إن كانت اعتقاداتنا التي تكون إذن قد نشأت كلها عندنا بصورة عشوائية [41]، مطابقة للواقع، وأي شيء يضمن لنا ذلك ولو على سبيل الأرجحية الاحتمالية؟ الجواب (الذي يتركه بلانتينغا للقارئ حتى يستنتجه بنفسه) هو أنه لابد أن تكون عملية الارتقاء الدارويني نفسها موجهة من قبل الخالق حتى تنشئ أدوات إدراكية معرفية Cognitive Faculties يمكن الاعتماد عليها في التفريق بين الحق والباطل اعتمادا أغلبيا، بصرف النظر عن ارتباط الاعتقاد بسلوك معين يترتب عليه!

فالسبب في كون بلانتينغا يرى ذلك البرهان هادما للفلسفة الطبيعية (وليس لنظرية داروين) هو أنه كان ولم يزل يصرح بقبول نظرية داروين، وبأنه لا يراها تتعارض مع دينه بالضرورة، ولا يراها تستلزم نفي الباري بالغيب! وإنما يراها من "العلم" الصحيح الذي لا يتعارض مع الدين، وإنما يتعارض (عنده) مع الاعتقاد الميتافزيقي الطبيعي الذي ينفي الخالق بالغيب! وهو ما يؤول به – عند المحاققة – إلى مذهب التطويريين القائلين بالتطور الموجه Guided Evolution. فإذا كانت نظرية داروين عنده نظرية علمية صحيحة، تقوم على مصادر معرفية مقبولة (نوعا) في أمر الغيب المحض الذي تتناوله، فلا سبيل لضمان سلامة الآلة البشرية في إنتاج المعارف والاعتقادات، إلا باعتقاد أنها (أي المعارف والاعتقادات عند الإنسان) أكثر في حقيقتها من مجرد إشارات كهربائية وعمليات كيميائية، ولا يتأتى هذا إلا لمن يعتقد أن وراء تلك العملية الارتقائية المزعومة توجيها إلهيا محكما!

والمشكلة الأساسية في هذا البرهان تظهر بمجرد التدبر في تعريف الرجل للنحلة الطبيعية أو الفلسفة الطبيعية Naturalism. فهو كما انتقده بعض خصومه لا ينتبه إلى أن الفلسفة الطبيعية تنقسم إلى شقين، شق منهجي معرفي Epistemological / Methodological وشق وجودي ثبوتي Ontological، وأن ما ينتهي إليه الطبيعيون من اعتقاد وجودي إنما هو نتاج المنهج المعرفي الطبيعي نفسه! ولولا هذا المنهج ما انتهى داروين إلى نظريته التي يحاول بلانتينغا أن ينتزعها من أصلها المنهجي الدهري ليلبسها بلبوس النصرانية في محله! ذلك أنه يعرف الفلسفة الطبيعية على أنها الاعتقاد بعدم وجود إله أو أي شيء كالإله "Anything like God". وهو تعريف ضعيف عند التحقيق. ولنا عليه نقد من وجهين.

فأما أولا: فمما لا شك فيه أن الإجمال في تعريف أي مصطلح، يفضي إلى اللغط والاشتباه في استعمال ذلك المصطلح، وهو ما من شأنه أن ينقض مبدأ الاصطلاح نفسه بين من تواضعوا على استعماله! فإذا كان الاصطلاح يتعلق بقضية اعتقاد بل بأساس ملة من الملل، كان الإجمال أعظم إفسادا ولا شك! وقد اعترف بلانتينغا نفسه بالإجمال والالتباس في تعريفه المذكور في غير مناسبة، مدافعا عنه بكونه يراه مع ذلك أحسن من غيره من التعريفات في نفس الأمر! فذكر أنه (أي الإجمال) يدخل في قوله "أي شيء كالإله"، وصدق، ولكنه إجمال مفسد للتعريف في الحقيقة، يدمره تدميرا! ذلك أن كون الشيء "كالإله"، يدخل فيه كل ما هو مشترك بين الرب والمربوب، أو بين الخالق والمخلوق من المعاني والصفات! فيلزم من ذلك ألا يوصف الإنسان بأنه "طبيعي" إلا إن نفى عن جميع الموجودات كافة الصفات التي تشترك بين الإله وبين ما سواه من الموجودات، على أساس أنه لا يؤمن "بشيء كالإله"، بما في ذلك صفة الوجود نفسها، وهذا ممتنع قطعا! ولو أنه فرق بين ما يثبته الطبيعيون وما ينفونه (نوعا) بجنس المحسوسات وجنس الغيبيات، لما وقع في ذلك الإجمال.

وأما ثانيا: فلا شك عندي في أن الرجل يدري أن النحلة الطبيعية أشمل وأوسع كنظام اعتقادي عند عامة أصحابها، سواء من الناحية المنهجية المعرفية أو من الناحية الوجودية الأنطولوجية (على تفاوت بينهم في درجات الإغراق فيها بطبيعة الحال) من مجرد القول بعدم وجود الباري، وهو ما يقال له في الاصطلاح المعاصر "الإلحاد" Atheism. بيد أنه يشخص علاقة العموم والخصوص بين الاسمين تشخيصا لا يخلو من نظر، إذ يقول إن كل طبيعي ملحد بالضرورة، ولكن ليس كل ملحد طبيعيا، فالطبيعية عنده إنما هي الإلحاد الغالي المفرط في النفي، لا أكثر. والواقع أن الطبيعية والإلحاد وصفان متلازمان وجودا وعدما، وإنما يطلق تعبير الملحد في الأدبيات المعاصرة على من ينفي وجود الباري، ولكنه لا يراد به العبارة عما يثبته (وجوديا) هذا الذي ينفي وجود الباري، أو عن اعتقاده في صفة الواقع الخارجي بدون الباري، وفي مصادر التلقي المعرفي والمنهج الذي به يثبت ما يثبت وينفي ما ينفي فيما يجاوز المحسوس! فالذي ينفي وجود الباري في الغيب، إنما يستند في ذلك – لا محالة – إلى الزعم بأنه لا يجد في تجربته الحسية وفي أدوات تحصيل المعرفة بها ما يدعوه لاعتقاد وجوده في الغيب! وهذا لا يتأتى إلا لرجل اتخذ لنفسه مذهبا معرفيا كليا مفاده أنه "لا معلوم بحق إلا جنس ما هو محسوس في هذا العالم، خاضع بصورة ما أو بأخرى لنظامه الكلي"، فما سوى ذلك فلا يمكن الوصول إلى معرفته أصلا! وعلى هذا الأساس المعرفي، يقوم لدى كل ملحد المذهب الوجودي الثبوتي (الأنطولوجي) القائل بأنه "لا موجود بحق إلا الطبيعية أو هذا العالم

المحسوس"، ولا يتعلل في عالم الشهادة شيء إلا بما هو محسوس نوعا، أو على الأقل بما هو قابل للقياس على المحسوس!

ثم إن الذي ينفي وجود الباري يلزمه القول بالطبيعية أو الدهرية كما سماها علماؤنا رحمهم الله، وكما بيناه آنفا، لأنه لا يعقل وجود العالم بغير موجد، ولا يعقل قيامه بغير مقيم، ولا حفظه بغير حافظ، ولا جريانه على هذا النحو الذي نراه دون غيره بغير رب يجريه كما يشاء ويختار لا كما يشاء غيره، فلا يملك من ينفي وجود الباري فيما وراء العالم إلا أن ينزل كافة صفات الربوبية التي يرى العقلاء أثرها في كل زاوية من زوايا هذا العالم المخلوق المحكم في خلقه وإتقانه، على هذا العالم نفسه، أو "الطبيعة" كما يسميها المعاصرون! فعندما نفى الملاحدة أن يكون الرب هو الذي يحييهم عند مولدهم ثم يميتهم ليبعثهم في يوم البعث، استكبارا منهم على التسليم بما هو مركوز في فطرتهم، لم يجدوا إلا أن ينسبوا فعل الإحياء والإماتة إلى الدهر ((إنما نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر))، لأنه لا انفكاك في العقل بين إثبات الحدث وإثبات المحدث، أو بين إثبات السبب وإثبات مسببه، أو بين إثبات الفعل وإثبات فاعله!

ولهذا لا يملك من ينفي وجود الباري تبارك وتعالى إلا أن يكون دهريا طبيعيا، لأنه لا يملك إلا أن يصطنع لنفسه اعتقادا بديلا في الإثبات الوجودي يتخذه في محل القول بمخلوقية العالم وبقيامه بباريه جل شأنه! ولا ينفي الرجل وجود الباري بالغيب إلا نفى معه البعث والنشور بالضرورة، وهو ما يلحق به نفيه جميع ما يثبته أهل الملل من جنة ونار ومن غيب مطلق فيما وراء هذا العالم تبعا، سواء فيما كان قبله أو ما يكون بعده أو ما هو كائن في مزامنته من غيب السماوات والأرض. وإذن فلا ينتفي الباري إلا انتفى معه الغيب المطلق بالكلية، ومن ثم لزم ألا يكون ثمة موجود بحق في الواقع عنده إلا ما هو واقع تحت حسه وما يقاس عليه، فيما يعرف إجمالا بالمادة أو بالطبيعة. فإن كان العالم لا مقيم له من خارجه، فلابد أن يكون قائما بنفسه أو ببعضه، وهذه هي النحلة الطبيعية بإيجاز!

فإذا كان ذلك كذلك، لم يصح ادعاء أن بين الطبيعية (أو الدهرية) والإلحاد علاقة عموم وخصوص، بل كل ملحد طبيعي بالضرورة، كما أن كل طبيعي ملحد بالضرورة، وإنما يطلق اسم الإلحاد عادة للتعبير عن جزء معين من النظام الاعتقادي لدى الدهرية، ألا وهو الجزء المتعلق بالنفي، وأما الإثبات، فهو ما يقال له "الطبيعية" أو "الدهرية". فالصواب أن يقال في تعريف النحلة الطبيعية إنها الاعتقاد بأنه "ليس في الوجود إلا محسوسات هذا العالم وما يقاس عليها"، فإن أطلقت لفظة "الطبيعة" Nature وأريد بها مجموع محسوسات هذا العالم وما يقاس عليها، صح إذن أن يقال إن عقيدة

القوم تتلخص في العبارة: "لا موجود بحق إلا الطبيعة"! فالطبيعة عندهم هي الخالق والمخلوق معا، وهي الشهادة والغيب معا، وهي الحادث والمحدث معا، وهي الفاعل والمفعول معا، الصانع والمصنوع معا، وهي جميع ما كان من الأزل وما هو كائن إلى الأبد، أو كما عبر عنها الأمريكي "كارل ساغان" في مقدمة سلسلته التلفزيونية الشهيرة "الكون" Cosmos بقوله: "الكون هو كل ما كان وما هو كائن الآن وما يكون أبدا" The Universe is all there is, all there ever was, and all there ever will be”! ولهذا لا يجوز ترك الفيزيائيين في كل مرة يتكلمون عن "الكون" دون سؤالهم عن مفهومهم لما يقال له الكون Universe!

والقصد أن المنهج الطبيعي الدهري، أو نظرية المعرفة الطبيعية Methodological Naturalism، كانت هي أساس عدوان داروين على الغيب المحض في جهة الماضي، وهو ذلك الغيب المتعلق بأصول الأنواع الحية والطريقة التي بها خلقت بعد أن لم تكن، وادعائه إمكان التوصل إلى المعرفة بتلك النشأة الأولى باستعمال القياس على أنواع التحولات والتغيرات الحيوية الجارية حاليا على الأنواع الحية كما نجدها من حولنا، على تتابع أجيالها! فلولا المنهجية الدهرية عند داروين، ما اعتقد جواز ومعقولية التطلع لمعرفة الكيفية التي وجدت بها الأنواع الحية على الأرض في أول خلقها من طريق القياس على مجريات النظام الحيوي المخلوق Bioshpere كما هي واقعة في تجربتنا الحسية الحالية! فنحن المسلمين نقول إن مجرد دخول هذا المطلب المعرفي في مطالب الطبيعيين التجريبيين هو من دهريتهم ومن الأصول المعرفية الفاسدة في أكاديميتهم الطبيعية، القاضية بألا يُقبل تفسير نشأة ما في العالم من مخلوقات بتعليل خارج عنه (وجوديا) وعن نظامه السببي "الطبيعي" القائم، وإنما تفسر حوادثه كلها (التي أدخلوا فيها تلك الحوادث التي بها نشأ العالم نفسه) بنظائرها من نوعها، وتعلل التعليل التام ببعضها البعض، فليس وراء الطبيعة شيء إلا الطبيعة، وليس يخلق المخلوقات في الطبيعة شيء إلا الطبيعة والقانون الطبيعي! فلولا هذا الأصل المنهجي الكلي عند داروين، ما جاز في دين الرجل واعتقاده الميتافزيقي فرض أن تكون جميع الأنواع الحية إنما "نشأت" وتراكبت فيها الصفات وتعقدت بالترقي، وهو التغير الجيني البطيء عبر بلايين السنين، صدفة بعد صدفة، طفرة عشوائية بعد طفرة، نزولا من أصل مشترك بالغ الغاية في الانحطاط والوضاعة (عضويا) بزعمه! هذا دين من سبق منه الجزم بأنه ليس ثمة غيب ولا خالق بالغيب، وأنه لا تخلق المخلوقات الحية في العالم (سواء بمثال سابق أو بغير مثال سابق) إلا بفعل القانون الطبيعي الأصم الأبكم، وبحوادث لا محدث لها!

فعندما تُغفل تلك الحقيقة الجوهرية الخطيرة وتتجاوز بالكلية، بل ويُدَّعى أن الطبيعية والداروينية غير متلازمين وأنه يمكن الفصل بينهما في الاعتقاد، وإقامة الداروينية على اعتقاد ميتافزيقي وجودي مخالف لاعتقاد الطبيعيين، مفاده خضوعها في جميع خطواتها الأسطورية المزعومة لفعل إلهي، فهذا كلام من لا يدري – أو لا يريد أن يعترف – بحقيقة النحلة الطبيعية والعمق الذي تضرب به في أصول تلك النظرية نفسها (نظرية داروين) ونحوها عند أصحابها، والله المستعان! ولو صدق بلانتينغا في إرادة بيان الحق، لكشف عن السبب الحقيقي في صراع الطبيعيين مع أهل الملل الأخرى، ولاشتغل ببيان فساد النحلة الطبيعية من أصولها الكلية الأولى، على المستوى المنهجي الذي به تتقرر مصادر التلقي المعرفي في قضايا الغيب الزماني والمكاني عند هؤلاء! [42] ولكنه لا يجد في نصوص دينه ما يحجزه عن اقتحام الغيب بالنظر والقياس، ولا يعرف اللاهوتيون من أهل الكتاب – عامة – حرمة أو حدا صارما للغيب يُمنع من تجاوزه عندهم بالنظر والرأي والقياس، ولا يثبتون في أمر الغيب مما جاءت به نصوصهم إلا ما يجدونه متلائما مع التيار الفلسفي الغالب أكاديميا في عصرهم حتى لا يسفههم الناس، وأما ما سوى ذلك فمحمول على المجاز كله بلا إشكال! ولهذا لا تراهم اليوم يتأولون كتاب الخلق وسفر التكوين وما فيه من وصف أحداث الخلق إلا تأولا باطنيا، حتى لا يتهموا بمخالفة "العلم الحديث"، ومن ثم ينفض الناس من حولهم ولا يبقى لهم رياسة على أحد من الخلق!

ثم إن الرجل يعلم أن هذا الموقف الصارم بإزاء النحلة الطبيعية الأكاديمية لو اتخذه، فسيسقط نظرية داروين نفسها، وما أدراك ما نظرية داروين! خط أحمر عريض عند الأكادميين الغربيين، لا يتجاوزه إلا رجل قد حكم على نفسه بالإعدام أكاديميا! فآثر الرجل السلامة من ذلك، واختار أن يكتفي بادعاء تناقض من سماهم تحكما وتخصيصا بغير مخصص "بالدراونة الطبيعيين" في اعتقادهم الميتافزيقي، ثم تقرير أن العقيدة النصرانية ليس فيها ما يمنع من قبول نظرية داروين ولا ما يتعارض معها، وإذن فلا تناقض بين "العلم" (المتمثل عنده في نظرية داروين) و"الدين" (الذي هو عقيدته النصرانية)، والله المستعان لا رب سواه! لم يبال البروفيسور بلانتينغا بما يقتضيه إثبات الإله بالغيب مع قبول نظرية داروين من تعطيل لصفات ربه وأفعاله، ومن نسبة الجهل والقصور والفوضاوية إلى خلقه وصنعه وتدبيره، سبحانه وتعالى علوا كبيرا! ولا شك أنك لو سألته في ذلك لتكلف لنفسه مخرجا، كما قال الدكتور "مصطفى محمود" (أول من روج لعقيدة التطويريين في مصر!) في حلقة من حلقات برنامجه "العلم والإيمان" ما حاصله أن الخلق بالتطور التدريجي ليس نقصا في حق الباري، وإنما هو كمال! سيجد لنفسه مخرجا لا محالة! المهم ألا يطرد من نخبة الأكاديميين

في بلاده لإسقاطه خرافة داروين! وحسبك بالمرء إلحادا وزندقة أن يؤمن برب كان الأصل في خلقه الانحطاط والضعة، ثم أخذ يرقي صنعه بطفرات تأتي عرضا، ينقذ بها مخلوقا واحدا كل فترة من بين ملايين المخلوقات من أصل الهلاك والانقراض والنقص الذي تنتخب منه المخلوقات "الصالحة" لأن تبقى وتصبح أنواعا! والله إنك لو نسبت هذه الصفة إلى صانع من كبار صناعهم في أوروبا لكره ذلك منك ولاعتبره قدحا شديدا في علمه وقدرته على إنتاج ما يريد! فكيف برب العالمين، الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا؟ نسأل الله السلامة!

ولو صدق بلانتينغا في الحرص على هدم النحلة الطبيعية لقال إن الداروينية تهدم مبدأ العقل وتهدر الثقة في معارف الإنسان كافة، بصرف النظر عن اقترانها بنفي الباري عند صاحبها من عدمه! فهي إنما تقوم على الفلسفة المعرفية الطبيعية بالأساس، وما وضعت إلا رجاء التوصل إلى تفسير "طبيعي" لنشأة أنواع المخلوقات الحية على الأرض بعد أن لم تكن، على نحو يغني الطبيعيين عن القول بخالق عليم قدير بالغيب، يخلق الأنواع وينوعها على ما يشاء ويختار! ولهذا كان مبدأ السببية الغيبية والغائية فيها منتفيا بالكلية، فهي ما وضعت إلا من أجل ذلك! فإذا كان ذلك كذلك، فلا يمكن للعقل وأدوات بناء المعرفة فيه إلا أن تكون عمليات مادية عضوية محضة، نشأت في الإنسان كما نشأت فيه عيناه وقدماه ويداه عند الداروينيين! والذي يزعم أنه دارويني ويزعم في نفس الوقت أنه يؤمن بأن العقل البشري راجع في سبب وجوده إلى أصل غيبي، وأنه منفك (وجوديا) عن المخ والجهاز العصبي، بحيث يجوز عنده أن يوجد العقل مع انعدام المخ والقلب أو مع البينونة من الجسم المادي، كما يقوله المسلمون وأهل الكتاب في شأن الروح والعقل جميعا، هذا متناقض قطعا! ذلك أنه اعتنق نظرية تقوم على مبدأ كلي مفاده أن النظام الحيوي نشأ نشأة طبيعية من أوله إلى آخره، وأنه لا يوصل إلى اكتشاف "تاريخ" تلك النشأة على نحو يفضي إلى تحصيل "المعرفة العلمية" بتلك النشأة إلا بتجويز إعمال الأقيسة الطبيعية على جميع تفاصيله بلا استثناء! هو صاحب مبدأ معرفي مفاده أن مسألة النشأة هذه مسألة يجاب عنها بالاستكشاف والتنظير الطبيعي وليس بالسماع والتلقي من الوحي! فمن كان هذا مبدأه، تعين عليه أن يعتقد نشوء العقل البشري وارتقاءه بوصفه عضوا حيويا من أعضاء الجسم البشري، وإلا انخرم له مذهبه بغير مرجح أو موجب لذلك الانخرام، وتخصص العقل عنده بغير مخصص، إذ يقال له: إما أن تنسب أصل الخلق في جميع أجزاء الكائن الحي، العقل والجسد بجميع ما فيه، إلى السبب الغيبي، وإما أن تنسب الجميع إلى السبب الطبيعي المزعوم، وتقول كما قاله أقرانك إن العقل إنما ارتقى في البشر لأنه بدونه لا بقاء لنوع الإنسان، فهو على رأس

آلات البقاء Survival Tools في هذا النوع بعينه، وإلا فبأي شيء فرقت بين العقل والجسد في مبدأ الوصول إلى تحصيل المعرفة بأصل النشأة؟!

والقصد أن الداروينية لا يصح لأحد أن يسعى في انتزاعها من أصولها المنهجية والإبستمولوجية التي قامت عليها تحقيقا من أولها إلى آخرها، ولا قيام لها إلا بها، رجاء أن يوفق بينها وبين اعتقاد غيبي لم يقم عنده على المنهج الطبيعي الدهري في الإثبات والنفي! ومن تكلف ذلك فإما أنه ما فهم الداروينية حق الفهم، أو أنه ما فهم النحلة الطبيعية حق الفهم، أو أنه ما فهمهما جميعا، أو أنه يفهم الأمر جيدا، ولكنه يجد في نفسه من الهوى ما يحجزه عن الهجوم على النحلة الداروينية كما هو حقها، ويكره التلبس بادعاء منافاتها ومناقضتها لأصل دينه بالكلية، وهذا هو الظن برجل بلغ من العلم والذكاء وسعة الاطلاع ما بلغه "ألفين بلانتينغا"، ثم هو مع ذلك يسلك ذلك المسلك، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله! لو صح أن كانت قدرات الإنسان المعرفية نتاجا لعملية داروينية لا تبقي من صفات المخلوق الحي إلا ما هو نافع له في إبقاء نوعه، لما كان للعاقل أن يثق في عقله ولا للعالم أن يثق في علمه، إلا فيما يترتب عليه ظهور سلوك حسي يفضي إلى السلامة من أسباب الهلاك المادي وانقراض النوع، هذا ما يقرره بلانتينغا إجمالا في مقدمات برهانه! فلماذا جعله برهانا هادما للمذهب الطبيعي الفلسفي (على التعريف القاصر الهزيل الذي حرره له ومر بيانه)، أو مانعا من الجمع بين الداروينية وذلك المذهب كما عرفه، وليس مانعا من اعتناق الداروينية نفسها والأصل المعرفي الكلي الذي تقوم عليه؟ لأن وراء الأكمة ما وراءها، وفي النفس ما فيها، كما قدمنا، والله المستعان.

فالحاصل والخلاصة أن النحلة الطبيعية في شقها العلمي الاعتقادي، تقوم على عقيدة ميتافزيقية Ontological Belief مفادها أن الطبيعة هي كل ما في الخارج، وأن الواقع الخارجي كان ولم يزل محكوما بالنظام الطبيعي من الأزل وإلى الأبد. ويقارن هذا الاعتقاد الدهري الوجودي ويلازمه، ما يسمى بالمنهجية الطبيعية Methodological Naturalism أو مصادر التلقي المعرفي عند الدهرية، وهي القول بأنه لا سبيل للعلم بما في العالم مما هو مغيب عن الحس والإدراك المباشر إلا القياس الطبيعي (قياس الغائب في أي جهة من جهات المكان والزمان على الحاضر الشاهد من هذا العالم ونظامه السببي).

فصل في القيم والأخلاق والتشريعات عند أهل الملل الدهرية الطبيعية

وأما فيما يتعلق بالشق العملي السلوكي والمعياري القيمي (التشريع والأخلاق والسياسة وما يتعلق بها من قضايا قيمية يشملها لفظ "الأيديولوجيا" عند الفلاسفة المعاصرين)، فلما أعرض الدهرية عن وحي السماء وعن بضاعة الأنبياء وعن الحكمة والشريعة التي نسبها أصحابها إلى رب العباد، واتخذوا لأنفسهم مذهبا ناقما على مجرد فكرة أن يوجد في السماء رب يأمر وينهى ويحل ويحرم ويحاسب الناس في يوم المعاد، كان لزاما عليهم أن يتفقوا على تأسيس فلسفة معيارية وأخلاقية جديدة على مستوى الفرد في سلوكه الفردي، وأخرى على مستوى الجماعة ونظام سياستها العامة وتعريف العدالة التي يتعين فرضها وإنفاذها في المجتمع، بحيث يكون أساسهما جميعا هوى الإنسان وما يشتهيه لنفسه، لا ما يريده الرب بالغيب! فكان مبدأ القيمة والمعيار إجمالا على المستويين عند القوم مبدأ ماديا دنيويا محضا، يجعل الأصل إشباع الملذات الدنيوية العاجلة واجتناب المكاره، لكل امرئ كما يحب ويهوى! كل ما هو أحب إليك في هذه الحياة الدنيا، فهو المتعين عليك جلبه لنفسك والاستكثار منه ما استطعت، وكل ما هو مبغض لديك فالمتعين عليك دفعه أو تركه ما استطعت! فالعمل الأخلاقي المقبول أو المستحسن (الذي يكون حلالا على دينهم أو مستحبا أو ممنوعا) من حيث القيمة المعيارية هو كل ما يجلب للإنسان ما تطمع فيه نفسه من شهوات الدنيا وملذاتها، والعمل المستقبح (المكروه أو الممنوع) هو كل ما يجلب عليه ما تكرهه نفسه أو ينفر منه طبعه من آلام الدنيا ومكارهها! وهذا ما يجعل من النفس وهواها المعبود الثاني الذي يعبده الدهري الطبيعي إلى جانب القانون الطبيعي، لأنها هي التي تحل وتحرم استقلالا عن شرع السماء، وخلافا لما جاءت به الرسل والأنبياء!

هذا هو أساس التنظير المعياري والقيمي والأخلاقي (الأيديولوجي) عند الدهرية الماديين من يوم أن ظهرت الدهرية الطبيعية عند الغربيين في مدرسة اليونان القديمة. وقد كان لزاما أن يكون هذا هو أصل فلسفة الأخلاق عند الدهرية الطبيعيين (على اختلاف صورها وتنويعاتها وتفصيلاتها ما بين النفعية Utilitarianism والشهوانية Hedonism والعواقبية Consequentialism وغير ذلك) لأنهم بالأساس ما أعرضوا عن وحي السماء وعن بضاعة الأنبياء إلا لكراهتهم أن يؤمروا بالاتباع والانقياد والتسليم والطاعة لرب يأمر وينهى، فيمنعهم من بعض ما يحبون ويأمرهم ببعض ما يكرهون! ما جحد القوم ربهم وخالقهم ورازقهم الذي يجري الدم في عروقهم والنفس في صدورهم، إلا لكراهيتهم ما أرسل به رسله من الأمر والنهي والتكليف! ولهذا لزم ألا يكون الدهري إلا متوجها ببوصلته الأخلاقية (إن صح التعبير) إلى شهوة

النفس وهواها ولذتها الحاضرة العاجلة في هذه الحياة الدنيا التي زعم أنه يعتقد أنه لا حياة له سواها ولا شيء له من بعدها إلا العدم والفناء! وإذن يصبح عبدا لنفسه ولذتها، وإن لم يصرح باتخاذها ربا وإلها من دون الله، يعبدها كما يعبد الموحدون رب العالمين! فإذا صار كل إنسان عبد نفسه، ومطاع نفسه ومأمورها، ترتب على ذلك بالضرورة أن تصبح القيم المعيارية والأخلاقية كلها فردية، لا حق فيها ولا سلطان إلا لما يشتهيه كل امرئ لنفسه!

هذا الزعم الذي زعمناه بشأن منبع أو مصدر التلقي المعرفي بشأن الأخلاق والقيم عند الدهرية الطبيعيين، لا يحتاج منا في الحقيقة إلى دليل إثبات أو إلى استعراض لتاريخ فلسفة الأخلاق عند الدهرية الطبيعيين من أيام طاليس اليوناني وإلى زمان هوكينغ البريطاني! فبقليل من التدبر، تجد المسألة بدهية للغاية! يزعم الرجل أنه ليس في الوجود غيب ولا رب يحكم ويأمر وينهى ويتعين على جميع البشر أن يدينوا له بالخضوع والعبودية ولرسوله بالطاعة والانقياد، فلا يوم آخر ولا ثواب ولا عقاب ولا حساب ولا شيء من ذلك، فإذا ما سئل: فما هي الغاية من وجودك في الحياة الدنيا إذن، وما هي القيمة العليا التي ترى أنت أنها هي الأجدر والأحرى بأن توجه حياتك بأسرها لخدمتها، أجاب (وجوبا) بما حاصله أنما هي التشبع بكل ما هو محبب إلى نفسه في هذه الحياة التي لا يرى لنفسه غيرها، والتخلص من كل ما هو مكروه له فيها! فإذا كان لا حاكم عليه من فوقه (كما زعم) وليس في الغيب من يسأله عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه، فيضطر إذن لأن يعمل على أن يجيبه يوم السؤال بأنه حرص ما استطاع على طاعته حتى لا يستحق عقوبته، إن صح أن كان الواقع كذلك، فليس هو مطالبا إذن بشيء إلا ما تستحسن نفسه بميلها وهواها أن تجعله مطالبا به، من أنواع المطالب السلوكية والأخلاقية! وإذن فلا مصدر للسلطة الأخلاقية إلا ما تمليه عليه نفسه، كل امرئ منهم بهواه!

فإذا أضفنا إلى ذلك المعنى، حقيقة اضطرار الإنسان لأن يعيش في مجتمع من البشر، يحصل له من المنافع الحياتية ما لا يحصل إلا بعمل المجموع واجتماعهم عليه، واضطراره لأن يخضع لنظام عام في ذلك المجتمع، يمنع من ظلم أفراده بعضهم البعض ومن عدوانهم على بعضهم البعض، ويضبط الحقوق والواجبات الجماعية والفردية على نحو معين، وبالنظر إلى أن افتقاد ذلك غير مقبول عقلا ولا يتصور أن يحصل معه لنوع البشر اجتماع صحيح على المعنى الذي نعقله للمجتمع البشري، إذا تأملنا في هذه الحقيقة كما تأمل فلاسفتهم، وتصورنا جماعة من البشر يعتقد كل واحد منهم أنه إله نفسه، وأنه لا مصدر للحكم بالتحسين والتقبيح وبالخير والشر إلا ما يجده هو في نفسه، ظهر لنا لزوم أن يحصل اتفاق عام بين هؤلاء، على نظرية تشريعية وسياسية عامة يتقرر بها مصدر السلطة التشريعية ومنهج التشريع فيها وقيمته العليا

بما يتفق عليه هؤلاء ويشبع أهواءهم أيا ما كانت، في إطار ما بات يسمى عند المعاصرين من فلاسفة الأخلاق بالتعاقدية المعيارية Contractarianism، وإلا لم يتصور لهم حصول لمبدأ "المجتمع" أصلا. لا يملك أحد عند الدهرية أن يفرض تشريعه ونظامه على غيره من الدهرية، لأن رأي الفيلسوف صاحب الأيديولوجيا ليس حجة على رأي مخالفيه من الفلاسفة، ولا يقبل من أحد من أهل الملل أن يفرض شيئا عليه بطبيعة الحال! [43] فمهما اجتمع جماعة من الملاحدة الدهريين في محلة ما، وقرروا أن يؤسسوا لأنفسهم دولة ونظاما اجتماعيا، فلابد من أن يتفقوا بالهوى على صيغة عامة للنظام السياسي الذي يحكمهم، بحيث يكون الجميع راضيا عنها، وبحيث تكون مشبعة لشهواتهم وتطلعاتهم جميعا، فلا تحرمهم من التلذذ بشهواتهم ولا تعرضهم لما يكرهون إلا في إطار ما تمليه عليهم ضرورة إعمال مبدأ الاتفاق أو العقد الاجتماعي نفسه! أي أنه إذن يصبح ضررا محتملا وتفويتا محتملا "لحرية" الفرد، لمصلحة إقامة النظام الجماعي الذي يضمن للفرد نفسه حق التمتع بمزايا الاجتماع البشري في إطار المجتمع الواحد.

أو بعبارة أخرى، كأن أحدهم يقول لجماعته: دعونا نتفق على أن نجعل نظامنا العام وتشريعنا وحكمنا وسلطان البلاد التي تجمعنا، خاضعا لأهوائنا مشبعا لشهواتنا كيفما كانت، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، وألا يغض من قيامنا بتلك القيمة العليا (قيمة الإشباع الفردي وتمكين الفرد من الخضوع لسلطان هواه وشهوته) إلا ما تفرضه علينا ضرورة العمل الجماعي على ضبط المجتمع وعلى تحقيق القيم العليا التي نتفق عليها لذلك المجتمع كيفما كانت!

فعلى هذا الأساس الشهواني، قامت الفلسفة الديموقراطية عند دهرية اليونان القدماء. وعلى هذا الأساس نفسه، قامت الفلسفة الليبرالية التي اتفق أصحابها في تلك الدول التي طبقتها على أن تترك الدولة جريان الأموال فيما بين الناس على ما تمليه عليهم شهواتهم ومصالحهم دون أن تتدخل في ذلك بشيء البتة. فكان من أساس العقد الاجتماعي الذي اتفق عليه أصحاب تلك الفلسفة أن تكون سياسة المال لا تدخل للدولة فيها بحال من الأحوال. وعلى نفس هذا الأساس (الاتفاق على الأهواء الدهرية) قامت كذلك نظرية ماركس وإنغلز المادية التي تؤول بأصحابها إلى نمط ثوري ديكتاتوري تتفق الجماعة فيه على تعظيم نظام سياسي يتحكم في أدوات الإنتاج كلها ويوزع الثروات على السوية، لأن هذا هو الذي يتحقق به ما يشتهونه ويطمعون فيه، كل فرد لنفسه! فما قامت النظم السياسية الماركسية الاشتراكية في البلاد التي قامت فيها إلا بأن اجتمع ثلة من الملاحدة الدهرية فاتفقوا فيما بينهم على قبول فلسفة ماركس في تحقيق ما زعم أنه هو التوزيع العادل لموارد البلاد ولأدوات الإنتاج فيها على جميع المواطنين، وأنه هو القيمة العليا لمجتمعهم، ووجدوا أن هذا ما به يحصل الإشباع لأهوائهم وشهواتهم جميعا

على السواء، من غير أن يصبح لأحدهم فضل على الجميع أو استئثار بالرزق والثروة الوفيرة (رأس المال)، فخرج العقد الاجتماعي الدهري في تلك البلدان عقدا ماركسيا شيوعيا أو اشتراكيا!

ومع كون المعبود الأول في مسألة التشريع عند الدهري الطبيعي هو النفس وهواها في جميع ذلك، إلا أنه يتحول بموجب ما يفضي إليه ذلك الاتفاق على إشباع أهواء الكافة وشهواتهم بالعقد الاجتماعي، إلى مجموع الجماهير (أو الشعب كما يسمونه)، فيصبح الشعب هو مصدر السلطات وهو المطاع الذي يحل الحلال ويحرم الحرام ولا كلمة تعلو كلمته! فإن اتفقوا على تنصيب "ديكتاتور" يقسم الأرزاق فيما بينهم بالسوية (كما هو اعتقاد الماركسيين في مهمة الحاكم الشيوعي)، واتفق لذلك الرجل أن أصبح محبوبا معظما لديهم، صار طاغوتا ثالثا يعبده الدهري الطبيعي الشيوعي (لكونه هو المتصرف في الرزق، العليم بما فيه مصلحة الكافة)، إلى جانب الطبيعة الخالقة المدبرة، والنفس الآمرة الناهية، كما نرى ذلك اليوم جليا في دولة ككوريا الشمالية على سبيل المثال! وأما إن كان الاتفاق مفضيا إلى دولة ديموقراطية ليبرالية، لا يستأثر بالسلطة التشريعية فيها رجل واحد، ولا يجري على نظرية ماركسية في توزيع الأموال والثروات المجموعة بين يدي الدولة، فإنه يصبح لدى الدهري ثمّ إله ثالث هو مصدر التشريع العام الذي يحل الحلال ويحرم الحرام، ألا وهو "الشعب"! ما يحله الشعب فهو الحلال وما يحرمه الشعب فهو الحرام، وعلى الجميع أن يخضعوا له وإن كان على خلاف ما شرعه رب العالمين! وإذن فالرب الخالق والرازق يصبح هو الطبيعة العمياء وقانونها الأعمى، والرب المشرع المقدم على رب العالمين في حق الخضوع لتشريعه الخاص في سياسة النفس، يصبح هو النفس وهواها، وفي حق التشريع العام وسياسة العامة هو الشعب واتفاقه!

ثم إذا بكل واحد من هؤلاء يتوجه بالرجاء والدعاء لما لا يحصى من أمثاله من البشر، يرجو من كل واحد منهم ما لا يرجى إلا من رب العالمين، يتوكل عليه من دونه غاية التوكل، فيتخذ منه ندا للرب وشريكا له بذلك! فوكالة ناسا تصبح هي المرجو منها حماية الأرض من الهلاك من أثر اصطدام النيازك والكواكب السيارة بها، والقائمون على البحث الجيولوجي يصبحون هم المرجو منهم منع الأرض من أن تكف عن الدوران في يوم من الأيام (كما يعتقدون أنها تفعل)، والقائمون بالبحث العلمي في مجالات الطب والأحياء والفيسيولوجيا يصبحون هم المرجو منهم إطالة أعمار البشر والقضاء على الموت بالكلية (كما لا نفتأ نسمع الملاحدة يجعلون أكاديميات "العلم الطبيعي" هي السبب الكافي والتعليل التام لزيادة متوسط الأعمار المتوقعة للبشر Life Expectancy خلال القرن الماضي)، والقائمون على العلوم الطبية والأبحاث الوراثية هم المرجو منهم أن تأتي أجيال من البشر على

أيديهم لا مرض فيها ولا نقص في الصحة بوجه من الوجوه، والقائمون على السياسة الاجتماعية Social Policy هم المرجو منهم، بل المطالبون والمسؤولون (عند الشيوعيين خاصة) عن توفير الأرزاق والأقوات وفرص العمل للعباد، وفتح أبواب الرخاء ورغد العيش على الناس فلا يبقى فيهم معوز ولا فقير، فإن لم يفعلوا كانوا ملومين على التخاذل والتقصير، والقائمون على أبحاث العلوم الوراثية هم المرجو منهم تحويل البشر إلى نوع لا نقص فيه ولا عجز بوجه من الوجوه، والقائمون على أبحاث المتيورولوجي هم المرجو منهم التوصل في يوم من الأيام إلى طريقة للقضاء على الأعاصير والعواصف بالكلية ولإنزال الغيث بالطلب حيثما أرادوا، والقائمون على دراسات البيئة والمناخ هم المرجو منهم التمكن من أسباب حماية الأرض والسماء من أن يهلكها التلوث البيئي وارتفاع درجة حرارة الأرض، والقائمون على أبحاث علم الفلك والفضاء هم المرجو منهم التوصل إلى اكتشاف بديل للأرض نفسها في تلك الكواكب السيارة يهاجر إليه البشر في المستقبل البعيد بعدما تخرب الأرض أو تنفد مواردها ولا تعود صالحة للسكنى! فإذا كانوا قد ولدوا فوجدوا أنفسهم في عالم منقوص فيه من المنغصات والمكاره ما فيه، فلا غرو أن تصبح مهمة الباحث الطبيعي عندهم هي أن يمكنهم من التوصل إلى أسباب السماوات والأرض، ويرقى بهم حتى يصبحوا آلهة خالدة لا تموت ولا تمرض، تعيش في جنة لا مكروه فيها!

فذاك، أيها القارئ الكريم، هو شرك الدهري الملحد في الربوبية والألوهية جميعا! ولهذا نقول إن الملحد الدهري هو أغرق الخلق في الشرك على التحقيق، خلافا لمن يقولون إن الملحد ليس بمشرك وإنما هو كافر وحسب، تصديقا لدعواه أنه لا يعبد شيئا على الإطلاق! ولهذا أيضا نقول إنه كما لا يتصور أن يكون الملحد إلا طبيعيا دهريا في العلميات، فكذلك لا يكون إلا ليبراليا أو اشتراكيا في العمليات في باب سياسة العامة (جريا على أيما جهة انتهى إليها العقد الاجتماعي)، مع اعتناقه أصل الشهوانية النفعية في باب الفلسفة الأخلاقية الفردية! فإنه ما ألحد من الأصل إلا لكراهيته أن يفرض عليه ما يكره من أنواع التشريع والتكليف! فإن كان من فرض عليه واضطرار للخضوع لتشريع يكرهه، فإنما يخضع مضطرا لاتفاق المجتمع على ما يحصل به الصالح العامة للكافة، مع احتفاظه بالحق في الثوران والتحزب ضد ذلك الاتفاق سياسيا إن اشتهى ذلك!

وينبغي في هذا السياق أن ننبه إلى قضية بالغة الأهمية، لطالما أطلق المشركون من أهل الملل شبهاتهم عليها بين أيدي الموحدين، يزعمون بها البراءة من تهمة الشرك التي يتهمهم بها المرسلون وأتباعهم في كل أمة من الأمم، ألا وهي قضية معنى العبادة والعبودية، ومتى يقال في الرجل إنه يعبد شيئا ما مع الله أو من دون الله. فإن أول ما سيقابل به هذا التقرير الذي

قدمته آنفا من كثير ممن لا يعجبهم هذا الكلام أن يقولوا إن الملحد الليبرالي ليس مشركا، ولا يعبد شيئا على الإطلاق، وكيف ذلك وهو يصرح في كل مناسبة بأنه لاديني ولا يقبل مجرد فكرة الدين والعبادة والتشريع الديني نفسها من الأساس؟ ونظير ذلك الاعتراض ما قالته مشركة قريش لما عبدوا الأصنام من دون الله تعالى يتقربون بها إليه، إذ قيل لهم أنتم مشركون قد اتخذتم تلك الأصنام آلهة من دون الله، فنفوا عن أنفسهم اسم الشرك مع أنهم متلبسون به تحقيقا! فحكى الرب قولهم في القرآن في قوله تعالى: ((أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)) [الزمر : 3] فتأمل كيف أنه سبحانه رماهم في هذا الزعم بالكذب (زعمهم أنهم ما يسألون تلك الأصنام ما يسألونها من باب التأليه والإشراك بالله تعالى، وإنما يسألونها ويعظمونها حتى تقربهم إلى الله زلفى)، ووجه كونهم فيه كاذبين أنهم يعلمون أن الله ما أمر بذلك التقرب والتزلف ولا شرعه ولا أجازه لهم، وأنهم ليس عندهم برهان ولا سلطان بذلك ولا أثارة من علم، ولا بما زعموه لتلك المعبودات التي رمزوا لها بتلك الأصنام من كونها بنات لله ومن كونها تسمع وتجيب، سبحان الله وتعالى عما يقولون! ((قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)) [يونس : 68]

والشاهد هنا أنهم جادلوا في مفهوم العبودية والألوهية واتخاذ الأرباب والآلهة مع الله ومن دون الله، حتى يسوغوا لأنفسهم ما وجدوا عليه آباءهم واستحسنوه لأنفسهم من العبادة. وكذلك عندما تنهى رجلا من القبوريين المنتسبين إلى الإسلام وإلى قبلة المسلمين عن عبادة الموتى من دون الله تعالى، وعن سؤالهم ما لا يجوز أن يتوجه العبد بطلبه إلا إلى رب العالمين وحده لا شريك له، فتراه يقول نظير مقالة هؤلاء من أنهم لا يعبدونهم ولا يعتقدون فيهم الربوبية أو شيئا من صفاتها، وإنما يتوسلون بهم إلى الله التوسل المشروع (زعموا)! وكذلك عندما تأتي إلى النصارى وتقول لهم لقد عبدتم مريم وابنها والقديسين والأحبار من دون الله، فتراهم يعترضون بأن دعاءهم من دعوهم وطلب المدد والرزق والمعافاة منهم ليس شركا ولا عبادة، وأن طاعتهم للأحبار والبطاركة في تحليل ما حرمه الله وتحريم ما أحله، ونسخ شريعة موسى بالكلية ثم الإتيان بخلافها من عندهم، كل كنيسة بحسبها، ليس شركا ولا عبادة! فهؤلاء جميعا مكابرون ممارون، لأنهم يعلمون أن توحيد الرب جل وعلا بالعبادة لا يحصل إلا بتمام توحيده بالربوبية وصفاتها وأفعالها، وتوحيده بالأسماء والصفات، ثم توحيده بأفعالهم التي هي مقتضى ذلك التوحيد الاعتقادي، فلا يصرف إلى غيره من الأعمال والأقوال ما لا يصرف إلا إليه سبحانه، ولا يدعى بالغيب أحد يطلب منه ما لا يطلب إلا منه سبحانه، ولا يرفع فوق أمره أمر ولا فوق نهيه نهي، ولا ينازع في تشريعه ولا

يتجاوز في تكليفه ولا يُنسخ له حكم ولا يفتات عليه بشيء! هذا هو التوحيد وهو الدين الذي يرتضيه رب العالمين، فمن أعجبه أن يكون على ذلك فقد منّ الله عليه ورحمه والحمد لله رب العالمين، وإلا فهو من المشركين الهالكين، مهما زعم لنفسه البراءة من الشرك أو من عبادة غير الله!

ولهذا نقول إننا لا نقبل من الملحد أن يدعي أنه ليس بمشرك وأنه ليس عابدا أحدا أو شيئا من دون الله، فهو إذن كاذب وهو يعلم أنه كاذب! ذلك أنك مهما اعتقدت في غير خالقك وباريك ما لا يصح إلا له سبحانه من صفات الربوبية، أو توجهت إلى غيره بما لا يصح أن يتوجه به المخلوق إلا إلى خالقه سبحانه من الفعل أو المقال أو التعظيم أو السؤال، أو زعمت لنفسك أو لغيرك من البشر الحق في مخالفة شريعة خالقك وباريك أو نسخها أو القدرة على الإتيان بخير منها بعقلك أنت أو عقل غيرك من المخلوقين، فأنت مشرك قطعا، قد صيرت نفسك عبدا لغير خالقك قطعا، فإما لنفسك أو لغيرك من المخلوقين، ولا يماري في هذا المعنى البدهي الواضح إلا جاحد مكابر!

ومع استعلاء المنهج التجريبي الإمبريقي في زماننا هذا على كافة الصناعات الفلسفية الأخرى وأدوات النظر الميتافزيقي التي كان الفلاسفة الدهرية القدماء يتخصصون فيها ويتوصلون منها إلى بناء الاعتقاد الغيبي، فقد نبتت في هذا القرن الأخير نابتة نزعة يقال لها العلموية Scientism، وهي نحلة غالية في تقرير الأصل المنهجي المعرفي عند الدهرية الطبيعيين فيما يتعلق بأدوات تحصيل المعرفة بالواقع الخارجي، إذ يقرر أصحابها (وهم بالمجمل تلك الفرقة الدهرية الغالية التي باتت تعرف باسم الملاحدة الجدد New Atheists أو الملاحدة العتاة Militant Atheists [44]) أن العلم التجريبي قادر على الإجابة عن جميع أنواع الأسئلة التي يمكن أن يطرحها الإنسان، ما دامت تلك الأسئلة متناسقة في نفسها وتخلو من التناقض. واليوم، وبعدما كنا نرى الفلاسفة الطبيعيين يتناولون القضايا الأخلاقية – مثلا - بأنواع من الاستدلال والنظر لا علاقة لها بالطريقة التجريبية المعاصرة، أصبحنا نرى من الطبيعيين من يصر على إمكان استخراج الأجوبة لجميع الأسئلة القيمية والأخلاقية باستعمال تلك الطريقة!

في عام 2010 الميلادي، نشر داعية الإلحاد الجديد الكاتب الأمريكي "سام هاريس" Sam Harris كتابا بعنوان The Moral Landscape: How Science can determine Human Values "الساحة الأخلاقية: كيف يتأتى للعلم الطبيعي Science أن يحدد لنا قيمنا الإنسانية"، جعل همه فيه أن يثبت أن العلم الطبيعي هو المصدر المعرفي الوحيد الصالح لتعليم البشر الخير من الشر والقيم الأخلاقية بصورة قابلة للاختبار والإثبات تجريبيا! فعلى أي شيء أسس ذلك المسكين هذا الهراء؟ على أساس اعتقاده بأن القيمة الأخلاقية العليا للإنسان في هذا العالم إنما هي تحقيق أكبر قدر من حسن الحال

Wellbeing لأكبر عدد ممكن من البشر! بالتأسيس على هذا المذهب الفلسفي الأخلاقي الذي لا يجد له دليلا إلا الهوى المحض، ذهب الرجل ليقول إن كافة الأحوال التي يوصف فيها الإنسان بحسن الحال أو بالسعادة أو بالسلامة من الألم والضيق والمرض والضجر.. إلخ، يفيدنا العلم الطبيعي بمعرفتها وتعيينها تجريبيا، وإذن، فيصح أن يقال بأن العلم الطبيعي يمدنا نحن البشر بالأساس "العلمي" الذي به نقرر القيم الأخلاقية العليا في حياتنا! فتأمل مبلغ السخافة والسفاهة التي ينتهي إليها دعاة الملة الدهرية الغالية (العلمويون الجدد Neo-Atheism / Scientism)، في مسعاهم لإقناع أنفسهم والسفهاء من أتباعهم بأن "العلم الطبيعي" Science هو مصدر التلقي الأوحد للمعرفة الإنسانية الصحيحة في أيما باب طلبت تلك المعرفة وفي أيما موضوع كان ذلك المطلب! حتى المعرفة الأخلاقية والعلم بالواجبات والمباحات والممنوعات، وبالحقوق والمسؤوليات والأحكام والتشريعات، كل ذلك لا يؤخذ إلا من "العلم الطبيعي"! ولا عجب، فمن دان للعلماء الطبيعيين بالنبوة بل بالألوهية وللطبيعة وقانونها السببي بالربوبية، فلابد أن يوهم نفسه بصورة ما أو بأخرى بأن دينه الطبيعي يغنيه عن بضاعة أهل الملل الأخرى في جميع تلك القضايا الخطيرة التي لا يتصور الإنسان أن يستغني عنها في حياته الدنيا طرفة عين! مع أن هذا السفيه "هاريس" يعلم تمام العلم أن القاعدة الكلية التي اعتنقها لنفسه معتقدا أنها هي المرجع في تقرير القيمة الأخلاقية العليا للنوع البشري (ألا وهي قاعدة النفعية العواقبية كما بينا) لم تؤخذ من العلم الطبيعي ولا يمكن للبحث التجريبي في المعامل أن يثبتها أو ينفيها! ولكنه العمى والغلو المحض!

ولا شك أن كلام هذا السفيه في كفاية الطريقة الطبيعية لإجابة الأسئلة الأخلاقية، ليس هو المنهج والاعتقاد السائد عند الفلاسفة الطبيعيين في بلاد الغرب، فيما يتعلق بالقضية الأخلاقية، بل وليس هو اعتقاد الأكثرية! بل يرى أكثرهم (ومنهم الدارويني الهالك ستيفن جاي غولد على سبيل المثال) أن الأخلاق والقيم الإنسانية لا علاقة لها بالعلم الطبيعي أصلا، وليست موضوعا له، وإنما هي موضوع الدين والفلسفة! ومع ذلك فمع كونهم يحصرون المعرفة بالواقع الخارجي في إطار أدوات البحث الطبيعي، لأنهم لا يرون موجودا في الخارج إلا الطبيعة، إلا أنهم يعتنقون المقتضى القيمي والأخلاقي البدهي لمعتقدهم الميتافزيقي، ألا وهو النفعية المادية الدنيوية المحضة، ورفع الشهوة والإشباع المادي والمعنوي للفرد والجماعة البشرية بوصفها القيمة الأخلاقية العليا التي من أجلها يعيش كل واحد منهم! ولا شك أنهم يختلفون في التفصيل الفلسفي حول منبع القيم والأخلاق في النفس البشرية ومعنى الإلزام والسلطة الأخلاقية ومصدرها ومصدر تلقي المعرفة بها، إلا أنهم جميعا ينتهي بهم النظر لا محالة إلى جعل الشهوة الحسية واللذة الدنيوية هي القيمة الأخلاقية العليا التي يجب على الفرد والجماعة أن يعملوا

على تحقيقها وإشباع دواعيها في نفوسهم من خلال تحقيق أقصى قدر من العلو المادي والأخذ بأسباب الأرض والسماء بما يخدمها، وبحيث لا يحرم من بعضها فرد من أفراد المجتمع إلا في حدود ضرورات ومقتضيات الاجتماع البشري على تلك القيمة نفسها! ولهذا تراهم كلهم يدندنون حول "الحريات" و"الحرية" و"الحقوق الإنسانية" وكذا، وهي كلها مفاهيم كلية نابتة بالضرورة من نفس التربة الدهرية الطبيعية العفنة، إذ تقتضيها تلك الملة الميتافزيقية القائلة بأنه لا غيب ولا رب ولا تكليف ولا بعث ولا نشور ولا حساب ولا شيء من ذلك! فسواء كان الدهري الملحد ماركسيا أو ليبراليا، أو واقعا على نقطة وسطى بين الطرفين، فهو في جميع الأحوال لا يريد إلا التحرر بنظامه الأخلاقي والقيمي من مبدأ العبودية لرب الأرض والسماء، ومن فكرة أننا إنما خلقنا في هذه الحياة الدنيا من أجل التكليف والابتلاء! هذا هو الأصل الكلي الجامع لجميع مذاهب الدهرية عبر العصور في الأخلاق والسياسة والتشريع، فهو ما لأجله مالت نفوسهم النجسة إلى القول بالدهرية الطبيعية من الأساس!

ولهذا تراهم جميعا إذا ما أرادوا أن يعيشوا في مجتمع ينتشر فيه غيرهم من أهل الملل الأخرى (ولا فكاك لهم من ذلك غالبا)، لم يجدوا إلا الدعوة إلى العلمانية Secularism كنظام سياسي، وسبيل لتحصيل ما يشتهون لأنفسهم من الانفكاك والتحرر من مبدأ التكليف الديني والإلزام الشرعي! فإنه ما من طائفة ينتمي أفرادها إلى دين من الأديان، أو فلسفة أيديولوجية معينة، ويعظمون نظاما قيميا معينا، إلا وستراهم يكرهون أن يرفع فوق رؤوسهم في البلاد قيم غيرهم من أهل الملل والفلسفات الأخرى! ومع أن البداهة تقضي بضرورة أن يقع في حكم الحاكم من الأوامر العامة والنواهي العامة ما يكرهه بعض رعيته، إلا أن فلاسفة الدهرية قد استطاعوا – بخبث ودهاء قل نظيره – أن يقنعوا الجهال من أهل الملل كافة بأنه من الممكن ومن المتصور أن يتفق أهل الملل المختلفة في قيمها الأخلاقية والتشريعية على نظام سياسي عام لا تكون الحال فيه كذلك بالضرورة! مع أن ذلك من شأنه – لو عقلوا! – أن ينقض عليهم جميعا، على اختلاف مللهم، ما يقتضيه اعتقادهم صحة ما هم عليه من الدين والنظام القيمي والأخلاقي من كراهة أن يسود على بلادهم نظام سواه، بما في ذلك النظام العلماني نفسه! فإن كل من اعتقد ديانة أن الخير والصلاح لا يكون إلا بما عنده النظام الأخلاقي، فمهما اتفق الناس على خلاف ذلك في أمر العامة فهو كاره له بالضرورة! وليس في الأرض عاقل يعتقد أن الخير العاجل والآجل لا يحصل له إلا بأن يقضي حياته وهو سالك فيها على نظام أخلاقي وقيمي مخصوص، ثم هو مع ذلك يرضى بأن يخضع جزءا من حياته (الجزء العام المتعلق بمعاملة غيره من الناس) لنظام غيره! فإذا كان لابد للحاكم من سلطان، ولابد للمحكوم من طاعة، وإلا ما كان في الأرض حكم ولا سلطان ولا إمارة، فكيف يكون النظام العلماني (الذي يمنع

سائر أهل الملل من طلب السيادة والعلو والظهور لدينهم) محببا لأهل الملل، أيا ما كانت ملتهم، إلا للجهال منهم المفرطين في دينهم، الذين لا يرون الخير في علوه وسيادته على بلادهم؟؟ لا يقبل النظام العلماني من أهل الملل ولا يدعو إليه (خلا الدهرية المصرحين بإلحادهم) إلا جاهل لا يدري ما دينه وما يقتضيه التسليم بصحة ذلك الدين، أو ملحد متستر يريد هدم الدين من داخله!

ولهذا ترى زنادقة العلمانيين في بلاد المسلمين لا يبغضون شيئا كبغضهم لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام! ينطلقون من قاعدة أخلاقية كلية اعتمدوها لأنفسهم مفادها أنه ليس لفرد من الأفراد أو جهة من الجهات في المجتمع البشري الحق في أن يفرض على غيره ما يراه هو حسنا في السلوك والأخلاق والخصال، أو يمنعه مما يراه هو قبيحا مذموما! أو بعبارة أوجز: ليس لأحد من الناس كائنا من كان أن يأمرهم بما يكرهون أو ينهاهم عما يحبون، أيا ما كان ذلك، لأنهم إنما يخضعون لأهوائهم ولا يرون خضوعا لما يخالفها البتة ولا يتصورون ذلك لأنفسهم! هذا مبدأ الليبرالية ومنشأها كما تقدم، وجميع الفلاسفة الماديين يتفقون عليه ولا يخالف فيه أحد منهم البتة!

فإن كانوا ولابد متعايشين مع غيرهم من أهل الملل الأخرى الذين يخالفونهم في القيم العليا وفيما يرونه حسنا وما يرونه قبيحا، بإجمال وتفصيل، فلابد إذن أن يكون "العقد الاجتماعي" مشتملا على مبدأ العلمانية، وهي عزل القيم الدينية والأخلاقية الخاصة بكل طائفة من الطوائف، مهما كانت كثرتها العددية أو انتشارها الديموغرافي في البلاد، عن سياسة العامة وتشريعات الدولة ونظمها التي تجري على جميع أفراد المجتمع! وهو منشأ فكرة "المواطنة" Civicism، التي بها يصبح جميع أهل الملل والأديان والطوائف سواءً في نظام الدولة، فلا يُرفع بعضهم فوق بعض، ولا يقدم بعضهم على بعض، ولا تُلزم طائفة من الطوائف بالخضوع لشريعة غيرها من أهل الأديان إلا بهواها ورضاها، وتصبح القيمة السياسية العليا المتفق عليها بين الطوائف كافة إنما هي المساواة التامة في حق كل فرد في ألا يلزمه صاحب السلطان بما لا يحب ولا يرضى من الأحكام والشرائع العامة في البلاد. ولا شك أنه لا يستقيم لصاحب السلطان المسلم أن يأمر في رعيته بالمعروف وينهى عن المنكر كما فرضه عليه رب العالمين، وكما هو أول ما يسأل عنه بين يدي ربه يوم القيامة، في بلد يسود فيها ذلك المذهب التشريعي الكلي، لأنه إذن يصبح ظالما متعديا على "الحق المدني" Civil Right لفئة من مواطنيه لا محالة، ألا وهي الفئة الكارهة لذلك الذي يأمرهم به، الراغبة في ذلك الذي ينهاهم عنه! فهذه، عروة من عرى الدين قد أنبأنا النبي صلى الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم بأنها تكون أولى العرى انتقاضا، ألا وهي الحكم (الذي هو

بمعنى الخلافة الراشدة على منهاج النبوة)، فلا ترجع حتى يظهر المهدي في آخر الزمان، والله المستعان وإنا لله وإنا إليه راجعون!

ونقول وبالله التوفيق إن الملحد الدهري يلزمه من اعتقاده الغيبي أن يكون مذهبه الأخلاقي هو أحط المذاهب وأخبثها وأحقها بالذم والتقبيح على الإطلاق! وبيان ذلك أن الدهري لما اعتقد أنه ليس في الوجود إلا الطبيعة، ورأى أنه لا فرق فيها بين نوع البشر وغيره من أنواع الدواب والبهائم، لزمه ألا يفرق بين الإنسان وبهيمة الأنعام في القيمة العليا التي تحركهم جميعا ومن أجلها يتكلفون سائر أعمالهم وفيها تنقضي أعمارهم من أولها إلى آخرها! خذ من شئت من فلاسفة الأخلاق والسياسة والأيديولوجيا من دهرية أوروبا المعاصرين كماركس ولينين ونيتشه وميل وهيوم وروسو وآدم سميث وغيرهم، ثم انظر في كلامهم فلن تجدهم – مهما أصلوا وفصلوا وفرعوا وذهبوا ذات اليمين وذات الشمال – إلا يرجعون جميعا إلى هذا الأصل الكلي نفسه لا محالة: أن الإنسان كغيره من الدواب، إنما يوجد في هذا العالم ليشبع فيه شهوته ويقضي منه نهمته، ويتمتع منه كما تتمتع البهائم! ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ)) الآية [محمد : 12] وإنما اختلفوا في تفصيل ما به تحصل تلك القيمة الكلية العليا عندهم على مستوى الفرد والجماعة، من أنواع التشريعات والنظم السياسية والأحكام الأخلاقية والأسباب المادية، وفيما يراه كل طاغوت مستكبر منهم في ميتافزيقا الأخلاق بشأن مصادر التشريع ومنابع السلطة الأخلاقية وموضوعية القيم الكلية التي بها يحصل التحسين والتقبيح الأخلاقيين، إلى آخر ما اختلفوا فيه في أكاديمياتهم الفلسفية المتخصصة! وما جوزوا الخلاف في جميع ذلك – على أي حال - إلا من بعد ما جاءتهم البينات من ربهم، بغيا بينهم: من أجل أن يشبع كل إمام من أئمتهم شهوته في الرياسة والسيادة على أتباعه من نعاج المادية والإلحاد في بلاده، بتقرير الحكمة وتشريعها استقلالا بعقله ورأيه، والتصدر في الخلق بتعليمها إياهم وسياستهم بها كما يحب ويهوى! فمن كان من الناس موافقا لذلك المجرم فيما يهوى أن يجعله تشريعا عاما بين الخلق، اتخذه ربا من دون الله يحل له ما حرمه الله ويحرم ما أحله الله، بدعوى التمدن والحرية والتحضر و"حقوق الإنسان"، والله المستعان!

والقصد أن غاية الإنسان وقيمته العليا في الحياة الدنيا عند الدهري الطبيعي لا تعلو فوق غاية القرد والشيمبانزي والخنزير - فيما يظهر للدهري من أمر الدواب بجهله وسفهه - قيد أنملة! ومهما زعم الملحد خلاف ذلك فهو كذاب مكابر يعلم أنه كذاب! فإنما يعلو الإنسان عند الدهرية فوق أنواع الدواب الأخرى كلها بقدرته الفائقة على استعمال أسباب الأرض والسماء في تحقيق ذلك المقصد البهيمي المحض، وبقدرته على اختراع الإفك والكذب والخرافة

والأسطورة في أمر الغيب وما فيه، حتى يسوغ لنفسه المضي قدما في عبادة هواه وشهوته المنحطة! فلسنا عند الدهري الطبيعي إلا ذلك النوع من أشباه القردة الذي اتفق له أن بلغ من قوة العقل ما صار به يفكر في سبب وجوده في هذا العالم، وفي أسباب التمتع بجميع ما يحب ويشتهي فيه والسلامة مما يكره منه، فبعدما كان منتهى قدرته أن يسكن الكهوف ويتسلق الأشجار ويجمع الثمار، فلا يسمع صوت الرعد إلا ارتعدت فرائصه وفر إلى مخبئه، ترقى في العقل والعلم حتى أصبح ينشئ الأبراج والمدن الفارهة، يطير في السحاب ويغوص في البحار ويستعمر الغابات والقفار، ويضع النظريات والفرضيات "لتفسير ظواهر الطبيعة" والإحاطة بأسبابها، وهو الآن يرجو أن يصل بتلك القوة الذاتية في عقله في يوم من الأيام إلى أن يجلس مجلس الرب الخالق المدبر لأمر هذا العالم، يقول للشيء كن فيكون!

هذا التصور المنحط بشأن النوع البشري والغاية من وجوده في هذا العالم، هو المقتضى الضروري للاعتقاد الغيبي الدهري، على اختلاف في تفصيله بين طوائف القوم وفلاسفتهم! مخلوق مغرور أحمق أبى إلا أن يعتقد أنه ليس بمخلوق ولا مربوب، ولا يدين بشيء لصانعه وباريه ورازقه بالغيب ولا ينتظر شيئا بعد الموت، فأي شيء يبقى ليجعله هو الغاية من وجوده هو وغيره من أفراد نوعه في هذا العالم، والقيمة العليا التي ينبغي عليه أن يسخر قواه وجهوده وجميع عمله من أجلها، إلا أن يأكل أحسن المآكل ويشرب أحسن المشارب وينكح أطيب المناكح، ما مُد له من العمر، يبذل في جمع أسباب إشباع الملذات وأسباب السلامة من المكاره وأسباب التمتع بزينة الحياة الدنيا والاستزادة منها غاية الوسع، يترسل مع أهواء النفس وشهوات الجسد أينما أخذته، حتى يأتيه أجله فينفق في قبره كما تنفق البهائم؟! هذه قيمته العليا والغاية من وجوده في الأرض في اعتقاده بالضرورة، وهو إذن أحط وأحقر من سائر أنواع الدواب والبهائم والأنعام قاطبة، لأن تلك الدواب إنما تعبد الله بما يناسبها من التسبيح والعبودية وتوحده بما هو أهله بما يليق بها من أنواع القول والعمل، وإن كانت لا يبدو لنا من أحوالها إلا الأكل والشرب والنوم والجماع! ((وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)) الآية [الإسراء : 44]! فما أصدق قول الله تعالى فيهم: ((أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)) [الفرقان : 44] فالدابة غير المكلفة لا تملك أن تشرك بربها ما لم ينزل به سلطانا، ولا تملك أن تسعي في اكتساب صفات الربوبية ولا أن تنزلها على غيرها من المخلوقات، لا تملك – بأصل خلقتها - أن تريد ذلك ولا أن تتوهم القدرة عليه، خلافا لنوع البشر، إذ مكنهم الله في أصل خلقتهم من اختيار التلبس بالفجور والتمادي فيه، ((ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها)) (الشمس: 7-8)! فلما اختار كبار المجرمين من بني آدم ذلك الخيار الأثيم لأنفسهم، على علمهم بسفاهة ما هم عليه ومنافاته الجلية للبداهة

والفطرة، كانوا أحقر أنواع الدواب وأسفهها على الإطلاق، فالحمد لله على نعمة الإسلام والعقل!

فصل في النزاع على حقيقة الدين بين ملل الدهرية الإنسانيين Humanist Doctrines

بناء على هذا التصور الدارويني الشهواني الطيني المنحط، اتخذت طوائف من الدهرية الطبيعيين لأنفسهم مؤسسات دينية وأحزاب دينية (أو شبه دينية Quasi-religious كما يحلو لبعضهم أن يسميها) يرجى من تأسيسها أن تكون طريقا لتحقيق مقاصدهم الاجتماعية والسياسية العليا في البلاد التي يعيشون فيها، وأن يصبح لفلسفتهم الأخلاقية والسياسية الكلمة العليا فوق مذاهب وقيم مخالفيهم من أهل الملل. ومن ذلك من يسمون أنفسهم بالإنسانيين Humanists تارة، وبالإنسانيين العلمانيين تارة Secular Humanists، وهم الذين يصرحون باعتقادهم بما حاصله أن الإنسان لا غاية ولا غرض من وجوده في هذا العالم إلا أن يشبع شهوته ونهمته من متاع الحياة الدنيا، وأنه وحده هو مصدر العلم والحكمة والأخلاق والتشريع لنفسه، فليس في حاجة إلى رب بالغيب ولا إلى رسالة ولا وحي ولا كتاب، وإنما تملي عليه شهوته وغريزته الإنسانية ما يحسن وما يقبح على مستوى الفرد والجماعة! فهم كلهم على اختلاف طوائفهم متفقون على أنه لا قيمة ولا اعتبار لما عند أهل الملل الأخرى من دعاوى الغيب والوحي الإلهي في باب الإنشاء والتكليف، ما دامت طريقتهم تلزم أتباعهم بكتاب تراثي ديني وحكمة موروثة منسوبة إلى رب بالغيب، له إرادة وأمر ونهي وثواب وعقاب. ولربما رأيتهم يتخيرون ما يعجبهم من كتب أهل الملل من تعاليم أخلاقية، فما يقرونها ولا يقبلونها إلا لمناسبتها أهواءهم وفلسفاتهم البهيمية!

وقد قامت للإنسانيين هؤلاء عدة منظمات ومؤسسات بل وكنائس في بلاد الغرب خلال القرنين الميلاديين الماضيين، ككنيسة الإنسانية Church of Humanity التي أسسها الفيلسوف الدهري الطبيعي الفرنسي المعروف "أوغسط كومت" (مؤسس المدرسة الوضعية Positivism) بالاشتراك مع زوجته في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. وقد كان حامل كومت على تأسيس تلك الكنيسة اعتقاده بضرورة أن يكون لدى الوضعيين الدهرية المعاصريين نظام ديني بديل، يحقق لهم ما تحققه الممارسات الدينية لأهل الملل الأخرى من إشباع نفسي وروحي، ويحقق لهم كذلك من الاجتماع والاتحاد على مؤسسة دينية واحدة Religious Organization ما يرجى لهم معه منافسة أهل الملل الأخرى على الصعيد الاجتماعي والسياسي، ومن ثم التوصل في نهاية المطاف – فيما كان يرجو – إلى رفع دهريتهم الطبيعية وقيمها البهيمية المنحطة فوق قيم ونظم أهل الملل الأخرى، بوصفها نظاما دينيا وروحيا عصريا جديرا بأن يعتنقه العقلانيون والمستنيرون من أصحاب الصناعات الطبيعية والتجريبية في المجتمع الغربي المعاصر. وبناء على تلك

الفلسفة الترقيعية السخيفة، أمضى كومت العقود الأخيرة من حياته منخرطا في اختراع دين الإنسانية الجديد هذا، فاخترع لهم الطقوس والشعائر التي يتوجهون بها إلى "الإنسان" من دون الله تعالى، بوصفه الكائن الأعلى الأجدر بالعبادة والتأليه في "عصر العلم"! بل إنه لم يفته أن يخترع لهم نظاما كنسيا كهنوتيا كاملا، لمن أراد منهم أن يغرق نفسه في الترقي على درجات نظام مناظر ومكافئ لذلك النظام الاجتماعي الديني المعقد الذي يتصف به أهل الملة النصرانية الكاثوليكية في أوروبا! وكأنما يقول لبني جلدته من عمار الكنائس: ها قد جئتكم بالبديل الكامل الذي تشبعون فيه نهمتكم الدينية كما يحلو لكم، ولكن بعيدا عن الاعتقاد الغيبي بالرب ورسله وكتبه واليوم الآخر وغير ذلك مما عندكم! حتى لقد شاع عن الداعية الدهري البريطاني "توماس هنري هاكسلي" وصفه ذلك الدين الإنساني الجديد بأنه "كاثوليكية لا نصرانية فيها" *‘Catholicism minus Christianity’*!

وقد وضع الإنسانيون كتابا دينيا جديدا صار يعرف باسم المانيفستو الإنساني Humanist Manifesto. وكان الإصدار الأول لذلك الكتاب (الذي يعرف حاليا بالمانيفستو الأول) في عام ثلاث وثلاثين وتسعمئة وألف الميلادي، وهو منشور تحت رعاية جمعية دهرية أمريكية تعرف باسم "الجمعية الإنسانية الأمريكية"، وتتخذ لنفسها شعارا منطوقه: Good Without God (أي: على خلق حسن بدون الإله)، وقد شارك في تأليفه والتوقيع عليه ثلاثة وثلاثون مفكرا وباحثا دهريا، تحت إشراف المفكر الأمريكي "ريموند براغ R. Bragg"[45]، فكتبوا في صدره[46]:

> لقد آن الأوان لأن يعم ويفشو الاعتراف بما طرأ على الاعتقادات الدينية من تغيرات في جميع أصقاع العالم الحديث. فقد مضى عصر المراجعات اليسيرة للمواقف (الدينية) التقليدية، فلقد أحبط العلم Science والتغير الاقتصادي العقائد القديمة. فأديان العالم كلها اليوم قد باتت مضطرة للتكيف مع أحوال جديدة قد أحدثتها المعرفة المتنامية والخبرة المتزايدة. ففي سائر مجال من مجالات النشاط البشري، قد باتت الحركة الحيوية الآن ماضية في جهة الإنسانية الصريحة والمفصلة. فلأجل أن تفهم الإنسانية الدينية Religious Humanism فهما أفضل، فإننا، نحن الموقعون أدناه، نرغب في أن نحرر جملة من القضايا المؤكدة التي نؤمن بأن حقائق حياتنا المعاصرة تكشف عنها.

ثم مضى المؤلفون في تحرير خمس عشرة مسألة وصفوها بأنها هي جملة الاعتقاد الإنساني Humanist Thesis، فجاء في المسألة الأولى، بيان الاعتقاد الميتافزيقي الدهري الذي تقوم عليه الملة، حيث قالوا: "أولا: يرى

أصحاب الدين الإنساني Religious Humanists الكون على أن وجوده ذاتي (قائم بنفسه) غير مخلوق" [47] هـ.

ثم في المسألة الثانية، بيان الاعتقاد بشأن أصل الإنسان، فقالوا: "ثانيا: يؤمن الإنسانيون بأن الإنسان جزء من الطبيعة، وبأنه نشأ كنتاج لعملية مطردة." [48] هـ. قلت: لا يخفى أن المراد بالعملية المطردة، عملية الارتقاء الدارويني، كما صار هو اعتقاد كافة طوائف الدهرية من بعد القرن التاسع عشر الميلادي. وفي المسألة الثالثة قرروا أن نظرتهم إلى الحياة نظرة عضوية Organic View، وأنه من ثم يجب إسقاط الثنائية التقليدية بين العقل والجسد [49]. ثم قرروا في المسألة الرابعة عقيدة القائلين بتطور الأديان، التي مفادها أن الدين لا يزيد على كونه محصلة التفاعل المتنامي والمتدرج في التطور بين الإنسان وبين بيئته الطبيعية وموروثه الثقافي. ثم جاء في المسألة الخامسة قولهم [50]:

> خامسا: يؤكد الإنسانيون على أن طبيعة الكون كما وصفها العلم الحديث Modern Science تجعله من غير المقبول ادعاء وجود أي ضمانات كونية Cosmic أو فائقة للطبيعة Super Natural للقيم الإنسانية. ومن الواضح أن الملة الإنسانية لا تنفي إمكان وجود أحوال واقعية Realities لم تكتشف بعد، ولكنها تصر على جعل الطريق لتقرير وجود وقيمة أي من تلك الأحوال إنما هو البحث العقلاني Intelligent Inquiry، وبتقرير قيمة العلاقة بين تلك الأحوال والاحتياجات البشرية. فعلى الدين أن يصوغ طموحاته وخططه في ضوء الروح "العلمية التجريبية" Scientific Spirit والطريقة العلمية التجريبية.

قلت: وهنا يظهر لك شدة الارتباط بين الملة الإنسانية والمذهب العلموي Scientism، وهو ذاك المذهب الوضعي الإمبريقي المتطرف القائل بأنه ليس في الوعي البشري ما يستحق أن يقال له "علم" إلا العلم التجريبي، ولا سبيل لتقرير الحقائق الوجودية (أو الأحوال الواقعية على عبارتهم) والحقائق القيمية تقريرا موضوعيا إلا من خلال الطريقة التجريبية!

ثم قرروا في المسألة السادسة أنه قد آن أوان إسقاط كافة الملل المتألهة (القائلة بإله حي ذي فعل وإرادة في الغيب) Theism والربوبية (القائلة بصانع ميت لا حياة له) Deism، والفلسفات الحداثية وكثير من مدارس الفكر الجديد New Thought، يعني لصالح الملة الإنسانية! ثم حرروا تعريف الدين عندهم في المسألة السابعة، مبينين نقطة الافتراق بينهم وبين الدهرية العلمانيين النافين والمحاربين لكل ما هو "ديني"، فقالوا [51]: "يتكون الدين من تلك الأفعال والغايات والخبرات التي لها قيمة إنسانية. فلا شيء يمكن

اعتباره أجنبيا عن الدين. فهو يشتمل على العمل Labour والفن والعلم والفلسفة والحب والصداقة والترفيه، كل ذلك يعبر عن الحياة البشرية المشبعة للعقل (والروح). فالتفريق بين المقدس Sacred والعلماني Secular لم يعد من المستساغ قبوله." هـ. قلت: وهم صادقون ولا شك في جعل الدين شاملا لكل قول وعمل وفعل بشري، ولكنهم ما قرروا ذلك إلا ليقنعوا أقرانهم الدهرية العلمانيين بأنه لا ثمرة ترجى من محاربة مبدأ الدين نفسه ومحاولة استئصاله من العالم بالكلية، كما هو مسعى دعاة الحركة الدهرية العلمانية المتطرفة المسماة إعلاميا "بالإلحاد الجديد" [52] -Neo Athiesm / New Atheism أمثال ريتشارد دوكينز وسام هاريس والهالك كريستوفر هينشنز ودانيال دينيت وغيرهم، وكما يكشفه شعارهم الذي روجوا له فترة من الدهر حيث قالوا: Imagine No Religion "تصوروا عالما لا دين فيه"! فهؤلاء يقولون لتلك الفرقة الغالية: "دعوا عنكم هذا الوهم وتلك النظرة السطحية الساذجة للدين ووظيفته في المجتمع البشري، فإنه لا يزال الإنسان مفتقرا إلى ما يشبع له روحه ويشعره بأن له قيمة ومنزلة مخصوصة في هذا العالم، ومهمة أخلاقية تتجاوز ما عليه أنواع البهائم من استغراق في المطعم والمشرب والمنكح! وهذا لا يجده البشر إلا في الدين، أيا ما كان موضوعه وصورته!"

والواقع أن كلا الفريقين يعملان على تقديم البديل المتكامل لإشباع كافة حوائج الإنسان المعرفية والروحية والقيمية التي يرجى من الدين أن يشبعها في صاحبه، من طريق فلسفتهم الطبيعية والطريقة التجريبية التي هم متفقون على اعتناقها، وإن اختلفوا في تعريف الدين وفي بعض بعض فرعيات الملة المدعو إليها، وفي طريقة الدعوة نفسها. وتأمل إن شئت فيما سلكه الملاحدة الجدد في الترويج لنحلتهم الطبيعية في إطار ما يقال له إعلاميا "ترويج العلوم بين العامة" Science Popularization، بداية من إمامهم الهالك كارل ساغان، الذي روج لكثير من الأصول الدينية للملة الطبيعية (سواء ما يتعلق منها بالدعاوى الغيبية الوجودية أو ما يتعلق بمنهج النظر ومصادر تلقي العلم بالغيب وما فيه أو ما يتعلق بالدعاوى القيمية المعيارية التي يجب أن يلتزم بها البشر في عصرنا هذا!) في تراثه المقروء والمنظور على السواء (وإن كان لم يهجم على الدين هجمة من جاؤوا بعده، ولهذا لا يعده كثير من الكتاب الغربيين من دعاة الإلحاد الجديد)، ووصولا إلى الأمريكي "سام هاريس" و"ريتشارد دوكينز" و"مايكل شيرمر" و"لورانس كراوس" و"كريستوفر هيتشنز" وغيرهم! فهؤلاء جميعا أهل عقائد غيبية دينية ونظم قيمية دينية (نوعا)، يبثونها في الناس ويروجون لها من غير أن يسموها باسم "الدين" (كما هي حقيقتها)، ولكن باسم "العلم" غالبا!

فهم يتناقضون ولا شك إذ يزعمون أنهم ليسوا أهل دين ولا يدعون الناس إلى دين ما، ثم تراهم يزعمون مع ذلك أن فلسفاتهم وقيمهم المعيارية ومثلهم العليا التي جهدوا بالغ الجهد وأفرغوا الوسع وبذلوا المال والعمر في الدعوة إليها، تغني أهل الأديان الموروثة عن أديانهم وتقدم لهم ما يقوم مقامها! ليس للإنسان فكاك من الدين مهما عمل! فإنما يترك أهل الأديان أديانهم ليتخذوا غيرها من الأديان في محلها، وإنما ينقلب الإنسان من عقيدة إلى عقيدة ومن عبودية إلى عبودية أخرى، فإما أن يكون المرء عبدا لله وحده أو عبدا لغيره، لا فكاك له من التلبس بإحدى العبوديتين، وليس دونه خيار ثالث! هذه مسألة بدهية واضحة! فالإنسان كان ولم يزل وسيظل مخلوقا ناقصا ضعيفا، لا يزداد دراية بالعالم من حوله إلا ازداد علما بنقصه وضعفه، فلا يزال يرجو الزيادة من الخير لنفسه والسلامة من الشر حتى يأتيه أجله فينزعه من الدنيا إلى مصير هو يعلم أنه ماض إليه لا محالة، فكان ولم يزل وسيظل يتوجه بالدعاء (الذي هو محض العبودية) لمن يعتقد أنه يملك نفعه وضره، لا مناص له من ذلك! فإما أن يتوجه بالعبادة والدعاء والرجاء والخوف والإنابة لله رب العالمين وحده لا شريك له فيكون من الموحدين، وإما أن يتوجه بجميع ذلك إلى غيره، فيكون من المشركين! هي قسمة ثنائية لا ثالث لها! لذا نقول إن العبرة في حقيقة الدين إنما هي بموضوع الدعوى التي تتشبع بها النفس القابلة، وبالمحل الذي تشغله الدعاوى المعرفية الغيبية والدعاوى القيمية المعيارية من نفس الإنسان، وإن كانت تلك الدعاوى طبيعية دهرية محضة في الاعتقاد الغيبي، وعلمانية إنسانية محضة في النظام القيمي! أما أن تختزل حقيقة الدين في ذلك النوع من الملل الذي يعتقد أصحابه بإله خالق في الغيب يأمر وينهى، وتتلقى تعاليمه من كتاب موروث، وتقام له الشعائر والنسك في البيوت والمعابد، ثم يقال إن الدين (هكذا) أفيونة الشعوب، أو إنه شر محض قد آن أوان تجاوزه والتخلص منه، فهذا وأيم الله أبطل الملل وأفسد أديان أهل الأرض قاطبة!

والقصد أن الملاحدة الجدد إنما نفوا عن مجموع ما تحصل لهم من ذلك اسم الدين، وحصروا الدين في تلك الملل ذات التراث النصي والتقليد الموروث، ثم جعلوه (على هذا التعريف) هدفا لحربهم الضروس، بينما توجه مسعى أهل الدين الإنساني (المعترفون بأن ما هم عليه دين على التحقيق) لتقديم البضاعة الطبيعية الدهرية نفسها التي يدعو إليها أصحاب الإلحاد الجديد [53]، ولكن على هيئة الدين الجديد البديل (بناء على تعريف أشمل للدين) [54]، فجعلوا ما معهم هو الدين القيم الوحيد الذي لا يليق بأهل العصر إلا أن يعتنقوه! فكأنما يقولون: إن كان البشر لا ينفكون عن التدين، ولا ينفصل مفهوم الدين عن تلك الأعمال التي تشبع لهم وجدانهم وشعورهم وتطلعهم الروحي، فلنقدم لهم النحلة الدهرية الطبيعية على أنها هي دين العصر،

ولندعهم للدخول فيها على طريقة أهل الأديان التي ألفوها واعتادوا عليها، لعلهم يقبلون منا ما رفضوه منكم!

ولا شك أن قضية تعريف الدين تظهر أهميتها عندما يطرح الفلاسفة واللاهوتيون مسألة العلاقة بين "العلم" Science (هكذا) و"الدين" Religion (هكذا) للبحث والجدل. فأول ما يجب أن يعتني به من يريد بيان الحق في هذه القضية، أن يحرر التعريف الواضح للمقصود "بالعلم" والتعريف الواضح للمقصود "بالدين"، ليتبين بجلاء ما نقطع به قطعا من أن الدين الحق لا يمكن أن يتعارض مع العلم الحق، وإنما يتعارض مع الدين الطبيعي وميثولوجياه الغيبية، الذي لم يزل يلبسه الدهرية الطبيعيون لبوس "العلم" كذبا وبهتانا! فإذا تحرر التعريف الصحيح للعلم التجريبي المقبول في العقل والنقل معا، وتحرر الضابط السلفي المحكم في قبول أو رد المسلك الكلي المستعمل في بحث موضوعات تلك العلوم، تبين للمسلمين وهاء كثير مما يروج للناس اليوم – ويدرس للمسلمين في أكاديمياتهم التجريبية - على أنه علم منصرم ينبغي لأهل الملل كلها أن يثبتوا أن دينهم لا يخالفه، وإلا لزمهم إبطال دينهم أيا ما كان، أو قبول التهمة بالتخلف والجهل وخفة العقل! وقد اعتنينا بحول الله وقوته في غير هذا المبحث من مباحث هذا الكتاب بتقرير هذه القضية (قضية الضابط السلفي للبحث التجريبي)، فإذا جعلنا ذلك تعريفنا لما هو العلم (الإمبريقي) Science، فما هو الدين إذن وكيف تمتاز الدعوى الدينية عما سواها من أنواع الدعاوى المعرفية؟

اختلف الفلاسفة والنظار الغربيون في تعريف الدين اختلافا لا أول له ولا آخر، ولا عجب! فإن صاحب التعريف إن كان يرى أن ما هو عليه دين، فسيدخله فيه، وإن كان لا يراه كذلك (كحال هؤلاء) فسيضع تعريفا يخرج مذهبه من معنى الدين!

فتجد تعريف الدين في معجم ميريام ويبستر للغة الإنكليزية – مثلا – على النحو التالي:

(1) the service and worship of God or the supernatural
(2) commitment or devotion to religious faith or observance

أي: (1) العمل الشعائري والتعبدي للإله ولما هو فائق للطبيعة (غيبي). أو (2) الاستقامة والالتزام التام بالاعتقاد الديني أو بممارسة الدين. قلت: فما بال الملل التي ليس فيها ممارسة شعائرية؟ هذه كيف تخرج من اسم "الدين" Religion؟

وتجده في معجم أوكسفورد معرفا كما يلي:

The belief in and worship of a superhuman controlling power, especially a personal God or gods

أي: الإيمان بقوة متحكمة فائقة للبشر، والتعبد لها، خصوصا الإله المتشخص أو الآلهة المتشخصة (التي هي أشخاص لها ذوات وحياة وإرادة وعلم وصفات فعلية). قلت: وهذا أيضا غير جامع، إذ يخرج من الدين كل ملة لا تقوم على إثبات تلك "القوة الغيبية" في الاعتقاد الغيبي. فكثير من طوائف البوذية – على سبيل المثال – لا يصرحون بوجود إله يتوجهون له بالعبادة والخضوع والرجاء، وهم مع ذلك ينسبون أنفسهم إلى الدين، فأين هم من هذا التعريف؟!

ويعرفون الدين كذلك (في معجم أوكسفورد) بتعريفين آخرين:

A particular system of faith and worship

أي: النظام العملي للاعتقاد اليقيني والعمل التعبدي. قلت: وهذا غير جامع، إذ يخرج من معنى الدين كل ملة تخلو من العمل التعبدي.

A pursuit or interest followed with great devotion.

أي: مسعى أو اهتمام يلاحقه الإنسان بتفان بالغ. قلت: وهذا غيرمانع، لأنه يدخل فيه ما لا يحصى من اهتمامات البشر العملية التي قد يبالغ الناس ويستميتوا في طلبها من غير أن تكون راجعة عندهم إلى اعتقاد ديني!

ويعرفه "إيميل دوركايم" على النحو التالي:

a unified system of beliefs and practices relative to sacred things, that is to say things set apart and forbidden - beliefs and practises which unite into one single moral community called a church, all those who adhere to them

أي "نظام موحد للاعتقادات والممارسات المتصلة بأشياء مقدسة، أو بعبارة أخرى، أشياء بعيدة ومحرمة، عقائد وممارسات تجمع في مجتمع أخلاقي واحد يسمى بالكنيسة، كل أولئك الذين يعتنقونها." اهـ. قلت: وهذا أيضا غير جامع، بل يبدو وكأنه فصل على النصرانية تفصيلا!

وهو عند بعض فلاسفة الدين المعاصرين Philosophers of Religion تلك الطريقة Method الأكثر كثافة most intensive والأكثر استيعابا comprehensive في تجربة النوع البشري في وضع القيم الكلية Valuing. وهذا التعريف وإن كان أقرب إلى حقيقة الدين من تلك التعريفات السطحية الساذجة التي تناولتها المعاجم المذكورة، إلا أن فيها إجمالا واضحا. فإنه ليس واضحا ما المقصود بطريقة التقييم أو وضع القيم هذه method of

valuing! فإن كان المقصود المنهج المتبع في تقرير القيم المعيارية للأقوال والأفعال والمسالك البشرية ونحو ذلك، فهذا جزء من الدين وليس جميع ما يقال له الدين، والتعريف إذن غير جامع. وإن لم يكن هذا هو المقصود فما المراد تحديدا؟ وأما قولهم "الأكثر كثافة"، فما المراد بالكثافة على وجه التحديد؟ وما المراد بالاستيعاب كذلك؟ إن كان المراد استيعابه لمختلف أنواع الأقوال والأفعال البشرية، فمن النظريات الفلسفية التي لا يسميها أصحاب هذا التعريف بالدين، ما هو أوسع استيعابا من كثير مما يسمونه بالدين. فليس هو إذن تعريفا جامعا ولا مانعا!

والذي نقوله ويقطع به كل عاقل، هو أن حقيقة الدين في اللغة ليست تحتاج إلى تعريف حتى يعرفها الناس، ولا يشتبه موضوع الدين عند العقلاء بخلافه! وإنما صيره الفلاسفة مادة للسفسطة والتنطع بالتعريف والنزاع عليه لأسباب لا تخفى! كما تنطعوا على لفظة "علم" أو "معرفة" knowledge وكأن العاقل لا تحضر في نفسه معاني تلك الألفاظ إذا ما سمعها، أو يحتاج إلى من يعرفه حقيقة المعرفة، حتى يعرف أنه يعرف ما يظن أنه يعرفه! فإن مجرد قول القائل: "دعني أعرفك معنى المعرفة" هذا يقتضي التسلسل، لأنه إذن لن يعرف صحة التعريف من طريق التعريف نفسه، وسيظل مفتقرا لما به يعرف صحة التعريف، ثم ما به يعرف صحة ما به عرف صحة التعريف، وهكذا! وكذلك قول القائل: "الدين هو كذا وكذا"، هذا لا يكون إلا ناشئا عن دين المتفلسف صاحب التعريف، فلا يقبله منه إلا من وافقه على دينه ضرورة، وإلا فكل عاقل يعرف ما دينه ويعرف ما إذا كان عبدا لرب العالمين أو عبدا لغيره معه أو عبدا لما سواه بالكلية، ويعرف من صفة معبوده ما به يرجو حصول السلامة والنجاة لنفسه والخير العظيم في العاجل والآجل! ويعرف في أصل فطرته أنه لا يكون في الدنيا إلا عبدا ضعيفا مفتقرا لغيره مهما جمع لنفسه من أسباب السماوات والأرض، محتاجا لمن يعلمه الغاية من خلقه في هذا العالم، ومن خروجه منه بالموت إذا ما جاء أجله! فكل ما كان هذا موضوعه عند الإنسان فهو دينه، وهذا أمر معروف لا يحتاج إلى تعريف!

فنحن نقول إن كل ما كان هو جواب الإنسان عن تلك الأسئلة الوجودية الكبرى التي بعث الله المرسلين بجوابها، وهي تلك الأسئلة المتعلقة بهوية وصفة الصانع الذي صنعنا في هذا العالم، ومقصوده من صنعنا والغاية التي أرادها منا، وبالمآل الذي يؤول إليه أحدنا بعد خروجه من هذا العالم، كل ما كان جوابا عن تلك القضايا الثلاث الكبرى، فهو الدين عند صاحبه أيا ما كان ذلك الجواب، ولا تخلو نفس بشرية من جواب عنها على أي حال، سواء صرح بالاعتقاد بوجود موجود يستحق أن يُتوجه إليه بالعبادة أم لم يصرح بذلك، وحتى وإن زعم التوقف في جواب تلك الأسئلة كلها فلا يدري مخلوق مربوب

هو أم لا، مكلف من قبل خالقه بشيء أم لا، مبعوث بعد موته أم لا، فإنما هذه أسئلة لا يملك الإنسان أن يتوقف فيها على التحقيق، لأنه ما من فرد من بني آدم إلا يمضي حياته لا محالة في العمل لغاية ما، يبتغيها من وراء كل عمل، ولا يملك إلا أن يفعل!

فإن اختار إخماد الداعي في نفسه لتحقيق الجواب الصحيح لتلك الأسئلة، وآثر الإعراض عن الحق بعدما جاءه، فقد تلبس – لزاما – بجواب مفاده أنه لا شيء عليه إن لم يعبأ بمعرفة باريه ورازقه، وباتباع رسوله الذي أرسل وكتابه الذي نزل، ثم أفنى حياته يأكل ويشرب ويتمتع كما تتمتع الأنعام، لا يبالي على أي شيء تأتيه منيته! فهذا الاعتقاد وهذا العمل الذي أفنى عليه عمره هو جوابه، وهو دينه مهما زعم أنه لا دين له! وهو تلك النحلة التي يبعث يوم القيامة في صفوف أهلها، كما في قوله تعالى: ((وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)) [الجاثية : 28] وكذلك من قال إن تلك الأسئلة الثلاثة وما يتعلق بها لا يعرف البشر لها جوابا، ومهما زعموا ذلك فهم جهال واهمون، فهذا هو اعتقاده، وهو مع ما يترتب عليه من قيمة عليا يعيش من أجلها ويعمل لها، دينه الذي يلقى الله عليه يوم القيامة! فليقل "لا أدري" ما بدا له أن يقول، وليقل أنا متوقف أو لم أنته إلى شيء ما شاء أن يقول، وليقل أنا "لاديني" ما يحلو له أن يقول، فسيشهده الله على كذبه يوم تنطق الأيدي والأرجل ويحصل ما كان في القلوب وتعرض صحائف الأعمال! ((يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ)) [الحاقة : 18] حتى ذاك الأحيمق الذي قال "الدين أفيونة الشعوب"، والآخر الذي قال: "الدين هو أصل كل شر في العالم"، فإن هذا هو دينه الذي اخترعه لنفسه، وخرج يعلمه للناس، وجعل التصدر به بينهم ونشره في الأرض هو غايته التي يأكل ويشرب ويعيش من أجلها!

ثم في المسألة الثامنة يقرر المؤلفون اعتقادهم بأن مهمة الإنسان في هذا العالم إنما هي أن ينمي ذاته وأن يحقق أكبر قدر ممكن من تطوير الشخصية وتحسين قدرات النفس إشباعا لرغباتها البشرية الحسية والمعنوية، وأن يظل حريصا على الاستزادة من مادة الأرض وآلتها ما دام حيا! هذا هو الطموح الاجتماعي Social Passion لدى الإنسانيين، على حد عبارة المؤلفين. ثم في المسألة التاسعة يأتي تقرير البديل الإنساني للعبادات والشعائر والنسك، فيقول المؤلفون [55]: "في محل المواقف القديمة المشتمل عليها في العبادة والصلاة، فإن الإنساني يجد مشاعره الدينية مشبعة في شعوره الرفيع بالحياة الشخصية وفي الجهد التعاوني في سبيل إزكاء حسن الحالة الاجتماعية Social Well-being." هـ. ثم يقررون في المسألة العاشرة أنه مما يترتب على ذلك أنه لن يكون في الدين الإنساني أي مشاعر ومواقف دينية خاصة من النوع الذي يرتبط عند أهل الملل الأخرى بالإيمان بالغيب The

Supernatural. ثم في المسألة الحادية عشرة، يعرجون على مسألة الشر، فيقدمون الطريقة الإنسانية للتعامل مع الشرور والكوارث والمصائب الدنيوية، التي تتأسس على اعتقاد الإنساني في "طبيعية" تلك الأشياء، وفي الرجحان الاحتمالي لوقوعها. فبالتوكل على الطريقة التجريبية والتفكير المنطقي، واستبدال الموقف "العلمي" العقلاني بالموقف العاطفي الخرافي، يصبح الموقف من تلك الكوارث موقفا بناء، على حسب المؤلفين. ولا شك أنهم كاذبون إن زعموا أنهم يصدقون هذا العبث! فالذي تنزل به كارثة الإعصار المدمر أو تحل به قارعة الزلزال المهلك أو يتعرض للغرق في عرض البحث، هذا لن ينفعه حال التعرض لتلك النوازل أن يتوكل على وكالة ناسا من دون الله، أو على أصحاب العلوم التجريبية مهما علت كعوبهم في صناعتهم، وإنما سيجد نفسه طامعا في التعلق بما هو أعلى وأعظم وأقدر على جلب النفع والضر من كل مخلوق، وسيجد الفطرة تصرخ في نفسه بذلك، كما قال جل شأنه: ((وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ)) [لقمان : 32]!

ثم يقررون اعتقادهم أن وظيفة الدين العليا إنما هي جلب السعادة واللذة في حياة الإنسان، فعليها أن تتحول كلها إلى أن تعبده لنفسه ولشهوته وهواه، لا لكائن بالغيب يأمر وينهى! فلا يعمل الدين الإنساني على تطويع أسباب العالم لرضا خالقه بالغيب، وإنما لرضا الإنسان في الدنيا، ولهذا تشجع تنمية المواهب البشرية والإنجازات التي تحسن من حياة الإنسان في العالم Enhancement of Human Life. فهم يرون ذلك المقصد الأعلى للملة الإنسانية، وما يجب أن يكون هو الغاية العليا والمقصد الأسمى لجميع المؤسسات الدينية بلا استثناء!

وقد صدر فيما بعد إصداران تاليان لتلك الوثيقة، وهما المانيفستو الثاني في عام ثلاث وسبعين وتسعمئة وألف، والمانيفستو الثالث في عام ثلاث وألفين من الميلاد، وكلاهما لا جديد فيهما إلا إجمال بعض ما فصل أو تفصيل بعض ما أجمل، مع اختصار بعض تلك القضايا الكلية التي تقدم تقريرها في المانيفستو الأول.

ولا شك أن الدهرية الطبيعيين كانوا فيما مضى لا يجرؤون على التصريح بدهريتهم الطبيعية وعلى منازعة الكنيسة الرومية في اعتقاداتها الغيبية، لما يعرفونه من عاقبة ذلك. فكان أكثرهم يبطن دهريته ويظهر الانتساب للمؤسسة الدينية ذات السلطان والبطش في بلاده، كما هو شأن الزنادقة المنتسبين إلى أي دين. فلما زال سلطان الكنيسة، أخذت بالوعة الإلحاد – أعزكم الله - في الطفح على مراحل، لا على دفعة واحدة، كما هو صنيع أتباع الشيطان في كل زمان ومكان! يظهر بعض جبنائهم بمقدمات للاعتراض على

بعض النصوص الدينية من جهة التأويل، ثم يكثرون من ذلك جدا حتى يعتاد الناس عليه، ثم يزينون لأهل الملة الانخلاع من ميراثهم المعرفي بشأن الغيب وما فيه خطوة بعد خطوة، حتى يسهل عليهم أن يعلنوا عن كفرهم بذلك التراث واعتقادهم ما يخالفه دون خوف من عاقبة دنيوية أليمة، بدعوى أن العلم والعقل الصريح ينصرهم ويؤيد موقفهم. ثم إذا ما نجحوا في إشباع العامة بعقائدهم الدهرية في أمر الغيب وما فيه، سهل عليهم بعد أن يطرحوا مسألة وجود الباري نفسها للمساءلة والتشكيك علانية (لا في إطار الأكاديميات الفلسفية المتخصصة وحسب)، ويكون ذلك في صيغة التشكك والتوقف في إثباته، والزعم بأن ثبوته يحتاج إلى أدلة وأقيسة ميتافزيقية لما يأت بها أتباع تلك الأديان التي يريدون الانسلاخ منها، وبأن أحدهم إنما يجد في منظومة الاعتقاد الدهري الغيبي (فيما يتعلق بهيئة العالم وما يجوز عليه وما لا يجوز) التي نجحوا في تمريرها وترويجها بين الناس على أنها هي العلم الصحيح، ما يسوغ له التشكيك في وجوده الصانع، والبقاء على ذلك الموقف المتشكك ما بدا له دون مساءلة أو مؤاخذة! وإذا بالذوق الاجتماعي العام يتفسخ وينفلت فيه زمام الخوف على دين العامة من كثرة ما يفشو فيه من التشكيك والتوهين، وإذا بالفيلسوف الطبيعي يتحول إلى داعية للإلحاد، يدعو الناس للخروج من مللهم واتباع الملة الطبيعية، وما يدعوهم إليه من قيم أخلاقية يتبع فيها ما يحلو له أن يتبعه من نظريات الفلاسفة ومدارسهم في فلسفة الأخلاق والتشريع!

ولطالما كان ذلك الترتيب يتكرر عبر تاريخ البشرية على صور شتى، تختلف فيها النظريات مع بقاء المنهج الدهري الكلي على نفس الوتيرة، حتى جاءت الثورة الداروينية في القرن التاسع عشر، فانضمت إلى سابقتها (الثورة الكوبرنيكية) ووضعت للطبيعيين طريقا لاستعمال الأقيسة الطبيعية الكلية في اختراع تصور دهري تفصيلي بشأن أصل وتاريخ ظهور الأنواع الحية على الأرض، في سياق البحث في أصل الأرض نفسها، يخالف الاعتقاد الغائي (التليولوجي) بشأن خلق الأنواع في الأرض، لا سيما نوع الإنسان، ويطيح بقصة آدم وحواء، ومن ثم بأسطورة الخطيئة الأصلية التي هي منبع النظام الأخلاقي عند أتباع الكنيسة، بما يؤذن بسقوط النظام الأخلاقي والتشريعي الكنسي نفسه تحت دعاوى "العلم الحديث"، وليس الاعتقاد الغيبي وحسب! وهنا التهبت حماسة أتباع داروين ومريديه من الدهرية الناقمين على ما بقي للكنائس في زمانهم من نفوذ وتأثير على جماهير الناس (على خفته ووهنه)، ورأوا أن الوقت قد حان لإعلان الدعوة للفلسفة الارتقائية الداروينية بوصفها دين العصر الحديث، الذي تستمد منه القيم العليا كما تستمد منه العقائد الغيبية على السواء، كما سلكه توماس هنري هاكسلي T. H. Huxley، تلميذ داروين والأب الروحي للنحلة الإنسانية الداروينية الجديدة، الذي كان يلقب "بكلب داروين" Darwin’s Bulldog لشدة ضراوته في الدفاع عن نظرية

داروين، واتخاذه مواقف لم يجرؤ على اتخاذها داروين نفسه (وهو من معاصريه) في الدفاع عن النظرية! وكان هو أول من اخترع اللفظة "لاأدري" Agnostic كاسم لطائفة دينية تتوقف في إثبات الصانع بالغيب من حيث المحتوى الاعتقادي الغيبي (العلمي)، وترى – مع ذلك - مسيس الحاجة للتخلص من الأساس الكنسي في تلقي الأحكام الأخلاقية والاجتماعية من حيث المحتوى المعياري (العملي)، لتتخذ من العقل الحر والمنطق "العلمي" (زعموا) أساسا بديلا لتحقيق ذلك المطلب، كيفما كان ذلك!

ثم خلفه على ذلك الدرب الشيطاني، حفيده المدعو "جوليان هاكسلي" Julian Huxley الذي بلغ من الصراحة في تحدي أهل الأديان الكتابية وتسفيه أحلامهم ما لم يبلغه جده. فقد كانت العقود الثلاثة الوسطى في القرن العشرين الميلادي في بلاد الغرب مرتعا لأمثاله من أصحاب الفكر الحداثي Modernist Thought الثائر على التقليد والموروث من حيث المبدأ (وهو ما انتقلت عدواه الخبيثة إلى بلاد المسلمين عن طريق المستغربين العتاة أمثال رفاعة الطهطاوي ومحمد عبده وطه حسين وغيرهم، تحت شعار: "الصراع بين الأصالة والمعاصرة")، فوجد الرجل بيئة فكرية جرأته على ما لم يجترئ عليه جده من قبله! وكان يعتقد أن الغرض من وجود الإنسان في الأرض، إنما هو أن يسهل مسيرة الارتقاء الدارويني التي رفعته – أي الإنسان – فوق كافة أنواع الدواب، وكان لها الفضل في إكسابه القدرة على فهم العالم من حوله وعلى التمكن من أسباب الطبيعة! فإذا كان من وظيفة للعقل البشري عند الإنسان، فقد كان صاحبنا هذا يرى أنما هي تطوير النوع البشري وتصفية حوضه الجيني من الشوائب والعيوب حتى يمضي إلى غاية ما يمكن بلوغه من الارتقاء والتطور! ولهذا كان من في شبابه من أنصار فكرة التصفية الجينية Eugenics التي أجراها هتلر على أساس من دراسة الجينات الوراثية، وتقديم أصحاب الصفات الوراثية الأرقى (التي هي صفات الجنس الآري عند هتلر) على أصحاب الصفات الأدنى في التناسل والتكاثر، ومنع الحوض الجيني الآري من أن يتلوث بجينات الأجناس الأحط! أي أن هاكسلي ما كان يمانع من أن يخرج تشريع عام يقضي بإخصاء جميع الذكور الموصوفين بأنهم دون المستوى من الناحية الجينية، مثلا، حتى يمضي النوع البشري إلى مزيد من الارتقاء، وفقا لمسيرة الانتخاب الطبيعي المقدسة عنده! ولا شك أنه ليس في دين الدهرية ما يوجب تقبيح هذا المسلك التشريعي على أساس أخلاقي فطري، إذ ليس بعد الإلحاد والدهرية طمس للفطرة، وليس للأخلاق عند القوم أساس إلا الهوى والاتفاق الاجتماعي كما تقدم تحريره! فلولا أن أصبح الميل العام والذوق الاجتماعي العام في بلاد الغرب في زماننا يستقبح ذلك التمييز العنصري الذي أغرق فيه الرايخ الثالث الألماني أشد الاستقباح، ويتعاطف مع اليهود الذين سعى هتلر لتطهير البلاد من عرقهم أبلغ التعاطف، لولا هذا، ما وجد الدهرية المعاصرون سببا

لاستقباح تلك القيمة الأخلاقية العليا التي اختارها هاكسلي لنفسه! وكما أشرنا آنفا، فإن الملة الإنسانية Humanism تنقسم على التحقيق إلى عائلتين كبيرتين من طوائف الطبيعيين المعاصرين، الأولى هي تلك التي وصفنا، وتسمى عند أصحابها بالإنسانية الدينية Religious Humanism، والثانية هي ما يسميه أصحابه بالإنسانية العلمانية Secular Humanism، وهي ما يتسمى به طوائف من الدهرية المعاصرين في أوروبا وأمريكا، يُعرف جمهورهم الدين (بإطلاق) على أنه الاعتقاد بالخرافات والأساطير الموروثة التي ما عاد ينبغي أن يسمح لها بالوجود في مجتمعنا المعاصر خارج إطار البيت ودار العبادة، إن لم يكن قد تعين القضاء عليها بالكلية (كما يصل إليه الموقف من الدين عند غلاتهم)! ويمكن أن يقال بعبارة أخرى إن الدهرية الإنسانية المعاصرة منها طائفة ترى نفسها متدينة (إذ تتخذ من الإنسانية دينا جديدا)، ومنها طائفة تتسمى باللادينية أو العلمانية المحضة، وهذه الأخيرة تنقسم بدورها إلى قسمين كليين:

فرق تكتفي بعزل الأديان الموروثة عن الحياة العامة في الدولة المعاصرة، وتراها على أنها حالات اجتماعية معقدة ذات حضور طاغ يجوز (وقد يستحب) التسامح معها والقبول بوجودها في المجتمع المعاصر لصالح السلم الاجتماعي العام، والسماح كذلك باستمداد أصحابها قيمهم الأخلاقية الفردية منها ومن مصادرها عندهم، شريطة ألا يؤثر وجودها في وعي أصحابها بالسلب على مطامع الأجندة الإنسانية الدهرية ومساعيها في بناء مجتمع علماني متحرر. وهؤلاء يمكن تسميتهم بالمتساهلين مع مبدأ وجود الدين في المجتمع Socially Compromising Secular Humanists[56]، ومن أبرزهم أكاديميا على سبيل المثال لا الحصر، الأحيائي الأمريكي الهالك ستيفن جاي غولد S. J. Gould (صاحب نظرية NOMA أو دعوى اللاتداخل المطلق بين دائرتي العلم والدين)، وفيلسوف العلم البريطاني الدارويني مايكل روز M. Ruse وغيرهما.

وفرق أخرى لا ترى ذلك العزل الجزئي ممكنا واقعيا ولا كافيا معياريا، بل ترى ضرورة البتر والاستئصال بالكلية، لأنها ترى في مطلق وجود الأديان في العالم (على مفهومهم الاختزالي للدين) شرا عظيما يجب العمل على تخليص العالم منه، وهؤلاء هم الحربيون الاستئصاليون Militant Secular Humanists! فيمكن أن يقال إن الإنسانيين اللادينيين تتفاوت طوائفهم في شدة الموقف المحقر لتلك الملل المصرح أصحابها بالتأليه والعبادة (المسماة في الاصطلاح المعاصر بالمتألهة Theistic)! ولعل أكثر تلك الطوائف الإنسانية العلمانية اللادينية بروزا من حيث الانتشار

الإعلامي، وإفراطا وتطرفا في محاربة الدين في العالم الآن هي Neo-Atheistsطائفة الملاحدة الجدد ، التي أشرنا إليها آنفا.

ومن طوائف المتساهلين مع الدين من القسم الأول طائفة جديدة أخذت في الظهور خلال العقد الأخير في أوروبا وأمريكا، تدعو الملاحدة الدهرية العلمانيين Secular Humanists ليس فقط للتساهل مع أمر الدين وأهله، ولاحترام ما عندهم من عوائد وتقاليد دينية وكذا (كما كان عليه حال الملاحدة قبل ظهور تلك النحل الداروينية المتطرفة في العقود الاخيرة)، ولكن لانتقاء واستعارة تلك الطقوس والتقاليد والشعائر الدينية التي يراها المفكرون الإنسانيون العلمانيون مفيدة ونافعة للمجتمع العلماني المعاصر في تهذيب النفس العلمانية المستكبرة المتمردة، التي اضطروا للاعتراف بأنها ما أغرقت في التحلل من القيم الدينية بجملتها إلا أغرقها ذلك إغراقا في الأمراض الاجتماعية التي لا يجدي في علاجها التهكم على أهل الأديان الكتابية وتسفيه ما عندهم بالكلية!

وهم بهذا المسلك يقتربون من الإنسانية الدينية Religious Humainsm من حيث موافقتهم على أهمية إشباع النفس البشرية بجملة من التقاليد والممارسات والشعائر الدينية الفردية والجماعية، وعلى أن التخلي المطلق عن تلك الممارسات ليس مما يحصل به الخير للفرد والمجتمع، على تقدير إمكان حصوله! ولكنهم يخالفونهم في كون الإنسانيين الدينيين حريصين على اختراع دين إنساني جديد مستقل عن كافة الأديان الأخرى في النسك والشعائر والنظام الاجتماعي الديني Religious Social System، وإن تشابه معها في بعض خصائصه، بينما يرى هؤلاء أنهم ليسوا في حاجة إلى اختراع نظام ديني شعائري جديد تحت شعار الإنسانية، ولا يحتاجون لتقديم الإنسانية للناس على أنها دين القرن الواحد والعشرين، وإنما يكفي الترويج لها على أنها هي الفلسفة الأصح وجوديا ومعياريا، مع كونها لا تمنع أحدا من معتنقيها من أن ينتقي لنفسه من ممارسات أهل الملل الأخرى وعوائدهم الدينية ما يحلو له ويراه مستحسنا إجمالا (في ضوء المنظومة القيمية الكلية للفلسفة الإنسانية العلمانية). فلدعاتهم أن يدعوا جماهير القوم إلى ممارسة بعض الشعائر الجماعية أو الطقوس التعبدية المستعارة من هذا الدين أو ذاك، التي يرون فيها سدا لنقص ظاهر في المجتمع العلماني، مع عزل تلك الشعائر والأنشطة الدينية العملية عن أساسها الاعتقادي والغيبي عند أصحابها.

فعلى سبيل المثال، ذهب الفيلسوف البريطاني الإنساني جوليان باغيني Julian Baggini يدعو الدهرية العلمانيين في أوروبا لممارسة نوع من أنواع الصيام عن الطعام، بناء على ما استشعره في أهل الملل التي تتعبد بالصيام من تواضع وانكسار نفس وِانضباط أخلاقي هو يرى أن المجتمع العلماني بات

في حاجة ماسة إليه! كما ألف صنوه آلان دي بوتون Alain De Botton كتابا نشره في عام اثني عشر وألفين من الميلاد تحت عنوان: Religion for Atheists: A non-religious guide to the uses of religion "الدين للملاحدة: دليل اللادينيين لاستعمالات الدين"، قال في مستهل بابه الأول: "إن القضية المسلمة Premise التي يقوم عليها هذا الكتاب، هي أنه ينبغي أن يكون من الممكن (للإنسان) أن يبقى ملحدا راسخا في الإلحاد، مع كونه يرى أن للأديان فوائد متناثرة، وأنها مثيرة ومسلية (عند غلبة الهم والحزن)، ومع كونه مائلا للبحث في إمكان استيراد بعض أفكارهم وممارساتهم (يعني أهل الأديان الموروثة) وإدخالها في الحقل العلماني." اهـ. قلت: ولا شك أن هذا الموقف لا يقل سخافة وتناقضا عن موقف من زعموا أن الدين آفة اجتماعية يجب القضاء عليها! فمما يقال لهؤلاء (في نقد نظريتهم الاجتماعية على الأقل) إن ما ترومونه من إصلاح عاهات المجتمع الدهري العلماني من طريق استعارة الشعائر والطقوس والتقاليد الدينية من هذا الدين أو ذاك إنما هو محض عبث، إن دل على شيء فإنما يدل على خواء مذهبكم في باب القيم المعيارية، وخلوه من صمام الأمان الاجتماعي الذي يتمتع به أهل الدين الحق أصالة، ثم أهل الملل الباطلة الأخرى بمقدار ما بقي عند كل أمة منهم من مواريث الأنبياء. فإنه لا يخفى على القوم أن نحلتهم الإنسانية هذه ليس فيها مانع أخلاقي موضوعي (أي صحيح في نفسه، تُعرف صحته بقطع النظر عمن يعتنقونه) يحجزهم عن اقتراف كافة أنواع الفواحش والبوائق والجرائم الشنيعة التي يستقبحها أهل الفطر السوية، وإنما قد تمنعهم الضرورة الاجتماعية Social Necessity التي تظهر في اتفاق الكافة من أفراد مجتمعهم على استقباح هذا الفعل أو ذاك، وعلى اعتقاد أنه يعوق تقدم النوع البشري! فإذا ارتفعت تلك الضرورة (كما وقع في مجتمع هتلر وستالين وكيم يونغ أون وغيرهم)، انقلب القبيح حسنا والحسن قبيحا بلا حد ولا قيد إلا الهوى المحض! حتى ما يراه العقلاء حسنا طيبا من الأفعال بدليل الفطرة أو قبيحا فاحشا بدليل الفطرة، فليس عند هؤلاء اعتبار فيه بالفطرة أصلا، وقد صرح "لورانس كراوس" في غير مناسبة بما معناه أنه لو لم يثبت أن زنا المحارم Incest يرفع من احتمالية الإصابة بالأمراض الوراثية، لما وجد سببا لتجريمه أو ذمه أخلاقيا! وحسبك بطائفة تنادي ليل نهار بحقوق اللوطيين – أعزك الله – وتدعو للسماح لهم "بالزواج المدني"! أي فطرة يمكن التماسها عند هؤلاء في تحسين أو تقبيح؟؟ إنما هم عبيد بطونهم وفروجهم، لا يحجزهم عن إشباع الشهوة إلا ضرورة الاجتماع البشري!

وأقول إن مسعاكم الترقيعي هذا محض عبث، لأن السبب في التزام أهل الأديان الكتابية بتلك القيم والتعاليم والتقاليد والمواريث الدينية التي استحسنتم منها ما استحسنتم، وفي استمرار أثرها الاجتماعي عبر الأجيال (ما لم تطمسه فلسفاتكم العلمانية البهيمية طمسا، وتدفنه دفنا!)، ليس هو

الذوق والتفضيل الفردي الحر كما عندكم، وإنما هو ذلك الاعتقاد الغيبي نفسه الذي تخلصتم أنتم منه واتخذتم الدهرية الطبيعية المحضة دينا في محله! فلولا اعتقادهم بأن في الغيب ربهم وصانعهم الذي هم ماضون للقائه بعد موتهم، وأن هذا الذي بين أيديهم هو كتابه وأمره ونهيه وحكمة أنبيائه، ما وجدوا في نفوسهم من الرغبة والرهبة ما يحملها على العمل بتلك التعاليم وعلى التمسك بها ما امتدت بهم أعمارهم، يعلمها كل فرد منهم أولاده على أنها طوق نجاته وسبيل سلامته بعد موته، لا في دنياه وحسب! فإذا عدم هذا الأساس الاعتقادي الغيبي في النفس، أصبح النظام الأخلاقي كله كأنه سترة أو قميص يُنتقى بالذوق والهوى المحض، فيلبس تارة ويخلع تارة، بلا سلطان من علم أو ترجيح يقبله العقل الصريح، وبلا وازع ولا مانع ولا رادع! ثم إن تلك التقاليد عند أهل تلك الملل ترتبط بعلل وحكم ومعان مستمدة من سلطة الإله المعبود بالغيب ومن تعظيمه وتوقيره في نفس من يعبده، وهو ما يزول عنها كلية بزوال الأساس الاعتقادي الغيبي الذي تقوم عليه، ليحل محلها الذوق البشري المحض، والدهرية الطبيعية العمياء، وهو ما يغض من قيمتها ومن تأثيرها المرجو على المستوى الاجتماعي عند التأمل!

فما أكثر ما تفشو بين بعض هؤلاء السفهاء في بلد من البلدان ميول عامة وأهواء جماعية لموافقة بعض أهل الملل المواطنة لهم حيث يعيشون، في بعض الشعائر والنظم والتقاليد والقيم الأخلاقية التي يختصون بها، حتى مع كونهم يصرحون بالكفر بتلك الملل كلها، رجاء تحصيل قدر من التداخل الاجتماعي مع أهلها، واكتساب بعض المنافع الدنيوية النفسية والمعنوية التي ظهر لهم أن تلك الشعائر والنظم والتقاليد والقيم تحققها لأصحابها، ثم إذا غلب عليهم فيلسوف من الفلاسفة أو مفكر من المفكرين أو شيطان من الشياطين، فأخذ ينفرهم منها ويبغضهم فيها كما في غيرها من أمر الدين، انتقلوا معه إلى غيرها، أو إلى ما في حكمها مما لا يسمونه طقسا دينيا أو شعيرة دينية من أنواع الأنشطة والممارسات الاجتماعية، مع كونه كذلك تحقيقا، يسوقهم إلى ضلالته سوق النعاج وهم على أثره مشتهون راغبون طالبون! لماذا؟ لأن الأمر كله شهوة في شهوة، وهوًى في هوى، أينما مالت بهم الأهواء مالوا! فمن كان هذا رأس الأمر عنده، فلابد أن تراه يصبح على دين ويمسي على غيره، ويصبح على جملة من القيم الأخلاقية ويبيت على خلافها، يطير بدينه كالريشة في مهب الريح، يبدله كما تبدل نساؤهم ملابسهن جريا مع كل "مودة" جديدة!

والقصد أنه مهما حارب الطبيعيون الإنسانيون الدين وفكرة الدين نفسها، فهم أهل دين من جملة الأديان الباطلة تحقيقا، دين قائم على ما لا يحصيه إلا الله من صور الخرافة الميتافزيقية كما في غيره من الملل الباطلة (بل أكثر من ذلك كما حققناه بحول الله في "آلة الموحدين" وفي هذا الكتاب [57])، وعلى

ضياع وضلال في أصول التشريع والأخلاق لم تعرف له الأمم مثيلا! لا أقول هذا وحسب، بل أزيد وأقول إنهم أهل ملل نظامية (ذات تنظيم اجتماعي مؤسسي) Organized Religions من نفس النوع الذي زعم كثير منهم أنه هو أصل الآفة والداء والشر في العالم! وانظر إن شئت إلى ما مر ذكره من الكنائس الإنسانية التي اتخذ أصحابها لأنفسهم نظاما كهنوتيا دهريا، فيه من الطقوس والشعائر ما نقل عن الكاثوليكية النصرانية، ثم حرف وعدل حتى يناسب أهواء قوم طبيعيين لا يؤمنون بالغيب! وهذا هو أبلغ ما بلغه الدهرية من تنظيم مؤسسي ديني، إذ يسمونه – صراحة – بالنظام الديني وبدار العبادة، ويعترفون بأن ما هم عليه هذه صفته وحقيقته! ثم انظر في مؤسسات أخرى تنتمي لطوائف أخرى من الإنسانيين كذلك، ألا وهي تلك الطوائف العلمانية المستنكرة للدين وفكرة الدين، كجمعية الإنسانيين الأمريكية American Humanist Association مثلا، التي تتخذ لنفسها شعارا رمزيا يقوم مقام الصليب عند النصارى (وهو لوغو على هيئة حرف الإتش في الانكليزية محورة لتشبه شكل جسم الإنسان المجرد)، وتقوم بجمع التبرعات (الصدقات) لتقدمها للإنسانيين الفقراء والمعوزين، وتقوم بالدعوة للفلسفة الإنسانية وتعليمها للناس بنشاط جماعي مركز ومكثف (فيما يسميه القوم بالناشطية الإنسانية Humanist Activism)، وفيها مكتب إرشاد Board of Advisors (بخلاف مجلس المدراء Directors) يقوم على توجيه النشاط الجماعي للجمعية لصالح مجتمع الإنسانيين العلمانيين وللدفع بأجنداتهم السياسية (التي تحملها الأحزاب الليبرالية والعلمانية واليسارية بعموم) إلى مقاعد السيادة في الدولة! وتقوم بتنظيم الاحتفال بأعياد سنوية إلحادية، كعيد أو مولد داروين Darwin Day (الذي يحتفلون فيه بمولد نبيهم)، والعيد الوطني للعقلانية National Day of Reason (وهي تلك الكلمة التي لا يقصدون بها إلا المنهج الدهري في استعمال آلة النظر التجريبي)! ويقوم رئيسها مقام الأب الروحي لأهل الملة، القائم على رعاية مصالحهم في المجتمع الأمريكي كطائفة دينية! ويقوم موقعهم الرسمي على الشبكة بتقديم الفتاوى لطالبيها من أهل الملة Ask a Humanist! ويقوم بترسيم Chaplains (رعاة دينيين) للنشاط الإنساني في الجامعات وغيرها، وبإعداد مقيمي شعائر Celebrants لعقد الزواج الإنساني Humanist Marriage والجنازة الإنسانية Humanist Funeral ومراسم تسمية المواليد Naming Ceremony (وهي بدعة القوم التي جعلوها في محل ما عند أهل الملل الأخرى من طقوس لاستقبال المولود، لا سيما المعمودية عند النصارى)، وغير ذلك! وجميع ذلك تجد له نظيرا في كل جمعية أو مؤسسة إنسانية في دول العالم الأخرى، كالجمعية الإنسانية البريطانية وغيرها.

فأي شيء بقي من وظائف المؤسسات الدينية النظامية لم تقم به تلك الجمعيات؟! وكيف يجترئ هؤلاء السفهاء مع كل ذلك الذي ذكرنا وغيره، على

نفي صفة المؤسسة الدينية عنها؟؟ لا ينفك الإنسان عن أن يكون على دين ما، ولا عن أن يكون تبعا لرأس من الرؤوس أو إمام من الأئمة يتبعه على ذلك الدين، يجتمع عليه هو وغيره من أتباع الملة نفسها، وإن سموها من الأسماء ما شاؤوا، حتى إذا ما دخل أحدهم قبره واختلت به الملائكة، سألته "ما دينك" فلم يجد ساعتئذ إلا أن يسمي نحلته ومذهبه باسم الدين، والله الهادي إلى سبيل الرشاد!

بل حتى مؤسسة ريتشارد دوكينز نفسه (الذي هو ألد أعداء الدين في العالم الغربي المعاصر)، التي سماها بمؤسسة ريتشارد دوكينز للعقلانية والعلم (زعم)The Richard Dawkins Foundation for Reason and Science، هذه المؤسسة هي عند التأمل مؤسسة دينية كاملة الأركان، تنزل دوكينز منزلة البابا في الكنيسة الكاثوليكية، وتنزل مؤلفاته منزلة الكتب المقدسة عند أهل الأديان الكتابية! ومن أنشطة تلك المؤسسة أنها حريصة على توفير الدعم المعنوي والسياسي والاجتماعي للملاحدة الدهرية الإنسانيين في كل مكان، وتعظيم الطريقة العلمية في اقتحام كافة أنواع الأسئلة، لا سيما تلك التي كانت فيما مضى لا يطرقها إلا علماء الدين، ونشر الداروينية وإسقاط كافة العقائد الدينية أو حتى النظريات الفلسفية الطبيعية المخالفة لها (لا سيما في مدارس الأطفال في أمريكا)، فهي توفر لهم ما توفره المؤسسات النظامية عند أهل الملل الأخرى لأتباع تلك الملل من مفهوم الجماعة وحصنها الاجتماعي! ثم إنها تجمع الأموال والتبرعات من الأتباع والمريدين من أجل أن تمول تلك الأنشطة الاجتماعية والسياسية التي يرونها هي السبيل لأن يحقق أهل تلك الملة الداروينية العلمانية الجديدة لأنفسهم مكانا بين أهل الملل في أمريكا! فتفرق بين الأعضاء في منازل العضوية والانتماء لمجتمع تلك المؤسسة بحسب ما يدفعه كل واحد منهم من تبرعات شهرية يواظب على دفعها ما دام حيا! فالذي يدفع للمؤسسة ما لا يقل عن خمسة وثمانين دولارا في الشهر، يستحق أن يصبح عضوا في دائرة سماها دوكينز بدائرة العقلانية Circle of Reason، وهي تلك الدائرة التي يمتاز أعضاؤها بالحق في الحصول على تخفيضات على منتجات المؤسسة من أشرطة وسيديهات وتي-شيرتات، وبالطبع، النسخ المطبوعة من كتب نبي الطائفة ريتشارد دوكينز! هذا إلى جانب الحصول على فرصة للقاء ومجالسة بعض الشخصيات المهمة في المؤسسة، دون دوكينز نفسه. فإذا بلغت التبرعات مائتي وعشرة دولارات في الشهر (ولا أدري لماذا لم يجعلها مئتين أو مئتين وخمسين مثلا!)، انتقل العضو إلى دائرة أخص وأرفع في الدرجة من أتباع دوكينز، سماها "بدائرة داروين" Darwin Circle، وفيها يحصل العضو على فرصة لحضور كلمة أو محاضرة من محاضرات دوكينز مجانا! ثم لا يزال العضو يترقى من دائرة إلى آخرى حتى يصل إذا بلغت تبرعاته مبلغ المئة ألف دولار في السنة، أن يحظى بشرف العشاء الشخصي مع ريتشارد دوكينز

شخصيا، مع دعوة مجانية للقاء من لقاءاته إلى جانب جميع ما يتمتع به أهل الدوائر الأخرى من المزايا. ثم إذا بلغ إنفاقه على المؤسسة نصف مليون دولار سنويا، بلغ أن يكون عضوا فيما سماه دوكينز بدائرة سحر الواقع The Magic of Reality Circle، حيث يتمتع العضو بعشاء خاص مع دوكينز في كل عام مرة!

قال الكاتب الأمريكي أندرو براون Andrew Brown معلقا على هذه الأنشطة في مقال له في صحيفة The Spectator الأمريكية نشر في أغسطس 2014 بعنون: "الجماعة الدينية الشاذة – والمكلفة – لريتشارد دوكينز: هي ككنيسة تخلو من المزايا، بعضوية تبدأ من خمسة وثمانين دولارا في الشهر." The bizarre – and costly – cult of Richard Dawkins: It’s like a church without the good bits. Membership starts from $85 a month : "عند هذا الحد (أي بعد استعراض ما تقدم وصفه) قد أصبح جليا لكل أحد خلا الأعضاء المشاركين (يعني في تلك المؤسسة) أن ما بين أيدينا ها هنا إنما هو دين، ولكن بدون الأمور الطيبة (أي التي يكتمل بها مفهوم الدين عند أهل الملل الأخرى)" اهـ [58]

والذي يتأمل في تلك الحرب الضروس التي خاضها الدراونة الإنسانيون هؤلاء مع القائمين على التعليم الأساسي في كثير من ولايات أمريكا خلال العقدين الأخيرين، يريدون حملهم على تعليم نظرية داروين للصبية الصغار في محل أي تعليم ديني يتناول سؤال الخلق والنشأة، يرى بجلاء حقيقة ذلك الصراع، وأنما هو صراع بين دينين وملتين، لا بين العلم والجهل أو العقلانية والخرافية كما يخلو للملاحدة أن يصوروه! نظرية داروين هذه نظرية من جملة نظريات العلم الطبيعي المعاصر، فحتى على التسليم بكونها هي أساس علم الأحياء المعاصر كله، فلماذا يجب أن يتعلمها الطلبة في المدارس من نعومة الأظفار، كما يدعو إليه الدراونة المتطرفون هؤلاء ويخوضون فيه حربا ضارية مع خصومهم في أمريكا؟! لماذا يجب أن يتعلم الأطفال نظرية عند أصحاب علم الأحياء تتعلق بأصول الأنواع الحية كلها، بل ما الذي يوجب عليهم جميعا بلا استثناء أن يتعلموا شيئا من علم الأحياء أصلا، أيا ما كان موضوعه؟ هي حرب دينية محضة مهما زعموا!

يقول الفيلسوف البريطاني الدارويني "مايكل رُوز" في تعليق له على كتاب من كتب دوكينز، طارحا نفس هذا التساؤل في نقد القوم وطريقتهم: "ومع ذلك، فإني متخوف من العواقب السياسية لرسالة دوكينز. فإن صح أن كانت الداروينية مساهما عظيما في أسباب اللادينية، فهل يجب أن تدرس الداروينية في المدارس التي تمولها الحكومة الأمريكية؟ الخلقيون يجيبون بالنفي، ويحتجون بأنه إن صح أن كان الفصل بين الكنيسة والدولة مانعا من دخول الإيمان (النصراني) إلى المدارس، فلابد كذلك أن يكون مانعا من

دخول نواقض ذلك الإيمان. فثمة قضايا تحتاج إلى النظر هنا، ومع ذلك فلا نرى دوكينز يتكلف مخاطبتها!" اهـ.

ثم يقول: "بالإضافة إلى ذلك، فبمجرد أن يتمكن من إثبات عدم امتناع التوفيق بين العلم والدين، فإنني أحب أن أراه يخاطب قضية الفصل الدراسي. هل سيقرر (بعدئذ) أن يعزل نظرية الارتقاء عن المدارس الأمريكية، وإن لم يفعل، فإلى أي حجة سيستند؟" اهـ.

قلت: والأمر المؤسف أن الدراونة لا ينتصرون في تلك المعركة إذا انتصروا إلا بسبب جهل القضاة في المحاكم الأمريكية بحقيقة العلم الطبيعي وحدوده، وبحقيقة أن باب الخلق والإنشاء الأول للسماوات والأرض وما بينهما إنما هو باب غيبي محض، لا مدخل إليه من طريق التجريبيين وأقيستهم وافتراضاتهم أصلا، وإنما يتلقى العلم فيه – إن وجد – من الوحي الثابت الصحيح لا غير! فلما حصل للقوم ما حصل من تأسيس الأكاديميات الطبيعية كلها على دهريتهم الفاحشة في منهج النظر، ومن ثم تلبيس الملة الطبيعية وعقائدها الغيبية المحضة (التي منها تلك النظرية المشؤومة) بلبوس العلم والدليل العلمي التجريبي Evidence، وصيروا نظرياتهم في ذلك محل اتفاق سابغ في أكاديمياتهم التجريبية المعاصرة كلها بلا استثناء، أصبح الانتصار على كافة العقائد الغيبية المخالفة لاعتقادهم في نفس الأمر، تلك العقائد التي يدرسها المدرسون للصبية من أهل كل ملة مخالفة في مدارسهم بطبيعة الحال، عملا هينا لا يحتاج منهم إلى أكثر من تلبيس المخالف بلبوس الجهل "بالعلم الحديث" وبآخر ما انتهى إليه "العلم الحديث"، فإذا به يصبح محلا للتهمة والشين والوصمة الاجتماعية التي لا يرضاها عاقل لنفسه! حسب أحدهم أن يقول إن هؤلاء يدرسون خرافات تخالف العلم الحديث، وعلى الدولة المدنية الحريصة على العلم والرقي والتقدم أن تمنعهم من ذلك، فإذا بكل جبان من قضاة القوم في محاكهم ومن القائمين على أمر التعليم في بلادهم ترتعد فرائصه خوفا من التهمة بالجهل والتخلف والخرافة، وإذا به يقضي بفرض تعليم الاعتقاد الإنساني الدارويني على جميع المدارس الواقعة تحت سلطانه فرضا بدعوى الانتصار "للعلم" على الجهل والخرافة، والله المستعان لا رب سواه! أي أنك اليوم إن أردت أن تنشئ مدرسة في أمريكا أو في أوروبا لتعليم المسلمين عقيدتهم ودينهم، وجعلت فيما تعلمهم من ذلك ما جاء به الكتاب والسنة في خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان وقصة آدم عليه السلام ونحو ذلك مما في بابه، فلا تعجب إن رأيت من يخرج عليك ليجرمك بالقانون، بدعوى أنك تعلم الطلبة جهلا وخرافة، تناقض ما انتهى إليه "العلم الحديث" في قضايا أصل الأنواع ونشأة الكون ونحو ذلك، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

في مقال نشر في الثاني من أكتوبر عام 2012 الميلادي على الموقع الرسمي لجريدة الغارديان البريطانية بعنوان "لماذا يذكرني إنسانيو ريتشارد دوكينز بأهل الدين" Why Richard Dawkins’ Humanists remind me of a Religon، قال "رُوز": "وثمة خصال أخرى كذلك في حركة الإلحاد الجديد تذكرني بالدين. منها التزلف والتعظيم البالغ لدى الأنصار والمريدين لقادة تلك الحركة، فالمسألة ليست مجرد قضية موافقة أو احترام، وإنما هي نوع من العبادة. وهذا قطعا مما يحيط بدوكينز، الذي نعترف بكونه شخصية ذات حضور طاغ. لقد وصف فرويد ظاهرة نفسية سماها بنرجسية الاختلافات الدقيقة، حيث تتنازع الجماعات البشرية حول قضايا قد تبدو من الخارج (أي من خارج تلك الجماعات المتنازعة) سطحية للغاية. وقد ظهرت لي تلك الظاهرة في الملاحدة الجدد كما لم تظهر في أي جماعة بشرية أخرى مررت بها في حياتي." اهـ. ولهذا المقال أصل طويل نشره روز في مجلة "أيون" Aeon الرقمية في نفس السنة تحت عنوان "اطمس حماستك: كهنة أعاظم، نصوص مقدسة وطرد من الكنيسة، كيف صارت الفلسفة الإنسانية إلى أن تكون دينا؟"Curb your enthusiasm: High priests, holy writ and excommunications – how did Humanism end up acting like a religion? ومما جاء فيه: "الذي يعنيني هنا هو نظام الاعتقاد بشأن العالم World-View المسمى Humanism، الذي كتبت أول حرف منه بالتفخيم Capitalized حتى أحدث ذلك التفريق (يعني بين المعنى المجمل للنزعة الإنسانية الذي حرره قبل تلك الفقرة وبين المنظومة الاعتقادية الحديثة المسماة بالإنسانية). هذه هي الحركة التي تتبنى مزاعم تشغلني بشأن العلم Science – والارتقاء بصفة خاصة Evolution. وإنه هو هذا النوع من الإنسانية الذي لا أرتاح له. فإنه لا يكتفي بتعريف نفسه على أنه ضد مبدأ الدين، ولكنه بصورة ما أو بأخرى، قد تلبس ببعض خصائص الدين. بل لعله يعد نوعا من أنواع الدين." اهـ. ثم يصف روز كيف أن "ثوماس هنري هاكسلي" حول العلم الطبيعي Science إلى شيء يشبه أن يكون دينا، من حيث تعظيمه البالغ لأستاذه داروين، وضراوته في الهجوم على كل من يعارضه، وعزله المخالفين من دائرته المقربة، وسعيه لتقديم العلم الطبيعي، ولا سيما نظرية داروين، على أنها بديل منافس للدين، جدير بأن يكون هو دين الإنسان الحديث! ثم عقد روز مقارنة بين النظام الديني النصراني والنظام الديني أو شبه الديني الإنساني عند هاكسلي، مبينا أن كلا منهما يتخذ موقفا سلطويا Authoritarian في التقرير الأخلاقي والقيمي، خلافا لما زعم أن الأكاديميات العلمية الطبيعية تخلو منه، وأن كلا منهما يجعل من الإنسان مركزا أو محورا للعالم (بمعنى أن كل ما في العالم لابد أن يكون مسخرا لانتفاع البشر بصورة ما أو بأخرى)، وهذا الاعتقاد في زعمه يترتب عليه إفساد للبيئة وظلم لأنواع الدواب الأخرى في الأرض! يقول: "على الرغم من

تمسك هاكسلي بالفكر الحر Free Thought ورفضه للسلطة الإلهية Divine Authority، فقد كان ثمة شعور بأن لديه الحق the truth بصورة ما أو بأخرى، وأن أولئك الذين لا يملكون الحقيقة هم كائنات أدنى Lesser Beings، بل وكائنات ضالة نوعا ما، ولاأخلاقية." اهـ.

والقصد أن دوكينز وأصحابه قد صاروا رؤوسا لمؤسسة دينية شديدة التطرف على التحقيق، مهما زعموا أنهم أعداء لمبدأ الدين نفسه! ولا عجب على الإطلاق في أن يكون الأمر كذلك! فإن دوكينز هذا ما كان ليظهر ولا ليعرف في مجتمعه إلا بسبب هجومه الوحشي الضاري على كافة الأديان الأخرى ذات النفوذ والسلطان والانتشار في ذلك المجتمع. فإذا ما أراد الرجل وطمع (وهو طامع لا محالة) في أن يجمع من حوله من الموافقين والأشياع والأتباع والمريدين ما يحصل له به العلو والسيادة والاستقرار الاجتماعي والسلامة من بطش المخالفين (وما أكثرهم!)، فلابد أن يجد نفسه تحمله على تأسيس المؤسسة الدينية (نوعا) Religious Foundation / Association وجمع التبرعات من الأتباع والمحبين لتوسعة نشاط تلك المؤسسة ونفوذها وانتشارها وبث الدعوة لمنهجه من خلالها، وتوسعة دائرة المقاومة الفكرية والسياسية له ولموافقيه في مواجهة الخصوم من أهل الملل كافة! وهذا ما كان منه تحقيقا!

فإن الحق الذي يجب أن يفهمه هؤلاء، هو أنك لن تجد ملة من الملل على الإطلاق إلا فيها ولابد صورة من صور "الجماعة الدينية" المجتمعة حول مبادئ ذلك الدين وأصوله، المتواطئة المتظاهرة على تثبيت أتباعه عليه في وجه الخصوم، وعلى تأمينهم من المخاطر الاجتماعية Social Risks التي قد يتعرضون لها لمجرد المخالفة في تلك القضايا العظيمة! فإذا هم يجتمعون على التلبس من أجل ذلك بجملة من الأنشطة الاجتماعية التي لا حقيقة لها إلا أن تكون "دينا منظما" Organized أو مؤسسا على ذلك الاصطلاح الذي طالما هزأ به دوكينز وأصحابه وتلامذته، حتى وإن كانت تلك الملة لا يعرفها أحد من أهلها بأنها ملة أو دين، ولا حتى بأنها نظرية فلسفية أو مدرسة فكرية أو أيديولوجيا معيارية أو غير ذلك من الأسماء الموهمة التي يتستر خلفها أهل الملل الباطلة في زماننا هذا، فإنما العبرة عند العقلاء بالحقائق لا بالأسماء! وما ذاك إلا لأن الله تعالى ما خلق النوع البشري على هذا النحو الذي خلقهم عليه من الاجتماع والافتراق على أنواع العقائد والمذاهب والأفكار، وما جعلهم يعرفون مبدأ المجتمع نفسه ويرون امتناع الانفكاك منه لأفراد نوعهم، بل يجعلون تترس الفرد بالجماعة ضرورة من ضروريات بقاء النوع نفسه، ما جعل الله فيهم تلك الخصلة إلا من أجل أن يبتليهم وأن يشدد عليهم الابتلاء بما خلقهم له من التكليف في أمر الدين والعبودية، كما في قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ

أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)) [الحجرات : 13] [59]، وقوله تعالى: ((كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) [البقرة : 213]، وقوله تعالى: ((وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)) [يونس : 19] وقوله جل شأنه: ((وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)) [هود : 119] [هود : 118]، فالله قضى بحكمته أن يجعل الناس أمما وشعوب وقبائل وجماعات وفرق شتى، يختلفون في العير والقطمير، ليبلو بعضهم ببعض، فلا يزول الاختلاف في أصل الدين إلا عمن رحمهم الله بأن رزقهم أسباب قبول دعوة الحق التي أرسل بها رسله!

ولهذا لزم ألا يخلو الإسلام من مفهوم الجماعة، ومن تشريع ما يحصل به الاجتماع على تلك الملة الخاتمة وصيانة بيضتها وحماية الأجيال المتتابعة من أتباعها من أن تجرفهم مجارف الأمم المخالفة فلا تنقضي بضعة أجيال بعد قبض الرسول إلا وقد درس الدين الحق واندثر ولم يبق له من أثر! فهذا من رحمة الله بهم وبالثقلين كافة لو كانوا يعقلون، حتى لقد قال بعض علمائنا رحمه الله تعالى ما معناه أن الله قد جعل في هذا الدين ما قد يساق به الناس سوقا ويسحبون سحبا إلى أسباب النجاة في الآخرة، بالشوكة والسنان، فهو من كمال الرحمة وإن رآه السفهاء ظلما! فكان من ثمرة تلك الشرائع المباركة أن لم تزل جماعة المسلمين قائمة في الأرض على إمام مسلم، يطيعونه وإن فسق وظلم وبطش، فتقام في بلادهم الصلاة وترفع فيها شعائر الإسلام (جملة)، ويأمن المسلمون فيها (إجمالا) من أن يتسلط عليهم من يخرجهم من ديارهم ويفتك بهم فتكا لا لشيء إلا لقولهم "ربنا الله"، كما ابتلي به أتباع المسيح عليه السلام في القرن الأول بعد رفعه! ولهذا شرع للمسلمين في دين النبي الخاتم، عليه وعلى سائر المرسلين الصلاة والسلام، جهاد الطلب والغزو وأحكام الإمامة والسياسة الشرعية، حتى لا يهلك عنها نبيها إلا وقد قامت لها جماعتها الحصينة المجهزة بأسباب البقاء وأسباب حفظ الدين لأجيال المسلمين المتتالية إلى قيام الساعة!

والقصد أن دوكينز وأمثاله بعد كل ما أعلنوه من النكير الفاحش والحرب العاتية على أهل الملل الأخرى لمجرد أنهم يمارسون صورا من السلوك الديني الاجتماعي، يعلمون أولادهم الدين ويدافعون عنه ضد مخالفيه والساعين في إخراج أولادهم منه، لم يسعهم في النهاية إلا أن يتلبسوا بعين ما أنكروه على مخالفيهم وجعلوه هو مصدر الشرور كلها والمفاسد كلها،

فأسسوا المؤسسة الدينية ومارسوا بها وبغيرها نفس ذلك السلوك الديني الاجتماعي الذي حاربوه من حيث لا يشعرون! حتى عندما بدع دوكينز بدعة لم يسبقه إليها أحد من العالمين، مفادها أن مطلق تعليم الصبية الصغار دينا من الأديان هو عدوان عليهم وإفساد لهم أيا ما كان ذلك الدين، لم يسعه في النهاية إلا أن يعلم الصبية دين الدهرية الإنسانية، بدعوى العقلانية Rationality والفكر النقدي Critical Thinking! بل إنه بمجرد أن يقول إن الأطفال يولدون بلا دين، فهو بذلك يزعم أنهم يولدون على مثل دينه (اللادين)، فيتناقض بذلك! فهو وأصحابه ماضون في تعليم أولادهم دينهم الباطل السخيف، بداية من الميتافزيقا الطبيعية الارتقائية في قصة نشأة العالم ونشأة الحياة، ووصولا إلى القيم الإنسانية Humanist Values على اختلافهم في تفصيلها! فبأي عقل يكون تعليمنا نحن أولادنا ما نزعم أنه الدين الحق عدوانا على الأطفال، ولا يكون تعليمه هو أولاده ما يزعم أنه الفلسفة الحق والمنهج الصواب عدوانا كذلك؟ أليس هذا من التناقض؟ نقول لا عجب على الإطلاق! فلا شيء بعد نفي الباري والإشراك به سبحانه، أعظم تناقضا من أن يكون موقف أحدهم وكأنما يقول: "أنا ديني هو اللادين"، أو "أنا أدين بلا دين"!

ولهذا تجد أن الطائفة الإنسانية المتطرفة Militant Humanists هذه ليست في حرب فكرية ضروس على الدين وأهله وحسب، بل هي في حرب أشد على تلك الطائفة الإنسانية الأخرى التي سميناها (ووصفوها هم كذلك) بالمتساهلة أو المميعة في أمر الدين، وإن كانت لا تظهرها في الإعلام الغربي إلا قليلا، مقارنة بحربها ضد الدين. فهم دائبون على بيان ذلك التناقض عند القوم، وبيان أن الدين جزء لا ينفك عن بناء المجتمع البشري، أيا ما كان موضوع الدين وتفصيل الملة، وأن من أسخف ما تتصور الدعوة إليه أن يدعى الناس إلى الانخلاع من كل ما يصح أن يقال له "دين" بوجه من الوجوه! خذ على سبيل المثال، تلك المعركة القديمة بين ريتشارد دوكينز (كاهن الطائفة الإنسانية العلمانية المتطرفة) وصاحبه الفيلسوف الدارويني المتطرف "دانيال دينيت"، وبين "مايكل روز" (الذي يمكن عده في صفوف المنتمين إلى الطائفة الأخرى من الإنسانيين المعاصرين). في رسالة توبيخية أرسلها روز لدينيت، ونشرها "المتفلسف الطبيعي الخلقي" الأمريكي ويليام دمبسكي، قال روز [60]:

> عزيزي دانيال دينيت (......) أعتقد أنك أنت وريتشارد (دوكينز) تشكلان كارثة كبرى في معركتنا ضد "التصميم الذكي" – فإننا نخسر تلك المعركة، كما يظهر فيما لا يقل خطرا عن قاضيي المحكمة العليا الجديدين اللذين سيصوتان قطعا بإدخال نظرية التصميم الذكي إلى الفصول الدراسية. فالذي نحتاج إليه ليس إلحادا يكسر الركب، ولكن

نحتاج إلى بحث جاد في القضايا ذات الصلة، فليس منكما من هو على استعداد لدراسة النصرانية دراسة جادة والدخول في مناقشة علمية مع أفكارها – ومن السذاجة المحضة واللاأخلاقية الفاحشة أن يدعي أن النصرانية هي ببساطة قوة حاملة على الشر، كما يزعمه ريتشارد – فإننا فوق هذا في حرب، ونحتاج إلى جمع الحلفاء في تلك الحرب، لا أن ننفر كل من كانت له نية حسنة.

فأجابه دينيت بقوله: "عزيزي مايكل (.....) أخشى أنك قد صرت الآن محسوبا على قوى الظلام. ولقد ترغب في أن تحرر نفسك (من تلك التبعة)، نظرا لكونك بالقطع تفقد سمعتك في المجتمع الارتقائي سريعا، في حدود من أعرف منهم. وكما سترى فإنني أعد عبارتك (Evolutionism) في عداد لفظة Reductionism ولفظة Scientism، وأرى أنك تسيء إلى قضية أخذ العلم Science على مأخذ الجد..." اهـ.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن السبب في كون "مايكل روز" قد اختار لنفسه هذا الموقف المعادي لدوكينز ودينيت ومن معهما، هو صداقته ومصاحبته لعدد من كبار فلاسفة النصارى الأمريكيين، ومنهم كبيرهم "ألفين بلانتينغا" نفسه، كما صرح به في غير موضع! وإني لأجد في ذلك آية جلية ودرسا للمسلمين في خطورة التساهل في مجالسة رؤوس أهل الملل الأخرى، ورؤوس البدعة الداعين إليها! فالرجل لولا أن كانت تلك علاقاته ودائرة المقربين إليه، لكان على دين غير الدين، فإنه إذن ما كانت أهواؤه وخياراته الفلسفية لتميل به إلى متابعة توماس كيون وويلارد كواين وغيرهما على ذلك النحو الذي جوز من طريقه القول بالتوفيق بين الدين عموما والنصرانية خصوصا من جانب وبين العلم الطبيعي عموما والداروينية خصوصا من الجانب الآخر. وإلا، فإنك تجده يبالغ في اعتناق الداروينية إلى حد أنه يقول بتفسير كل شيء يتعلق بالإنسان، بالجينات والطفرات الجينية، بما في ذلك النشاط الثقافي والفكري والديني، ولا يرى في ذلك ما يناقض موقفه الكُوني (نسبة إلى توماس كيون) البعدوضعي Postpositivist من العلاقة بين البارادايم الدارويني والاعتقادات الدينية والغيبية والمفاهيم الثقافية الأخرى التي يعتنقها كل باحث يوصف بأنه "نصراني ارتقائي"! فإنه لو صح أن كانت الأديان كلها نتاج النشاط الجيني العضوي، ومن ثم نتاج عملية داروينية محضة في المجتمع البشري، لم يكن من وجه لادعاء جواز الجمع بينها وبين نظرية داروين، فإنه إذن يكون جمعا بين نظامين اعتقاديين متناقضين تمام التناقض! ومع ذلك ترى الرجل ينافح ضد دوكينز ودينيت وهاريس وغيرهم مستنكرا عليهم حربهم الصريحة ضد النصرانية وغيرها من الأديان القديمة، وزعمهم بأنه قد آن الأوان – من ثم – لإسقاط تلك الأديان كلها واعتناق الإنسانية الداروينية الجديدة في محلها! فهذا التناقض من أين دخل على

الرجل؟ من مصاحبته جملة من فلاسفة اللاهوت النصراني الذين قد شُهد لهم بعلو الكعب في صنعة الفلسفة في عدد من الجامعات الأمريكية! فكيف يشرب معهم الشاي ويؤانسهم ويزاورهم ويلاطفهم ويتخذ منهم الأصدقاء والقرناء، ثم هو مع ذلك يصرح في كل مناسبة بأن دينهم هو الشر بعينه، وبأنه قد آن الأوان لتركه بالكلية، كما هو ديدن دوكينز ومن معه؟؟ ينظر أحدهم – في عقله الباطن – فيما يترتب على قوله كذا وقوله كذا من ثمرة دنيوية عاجلة، فإن كانت أحب إليه مما هو عليه، أقدم على التصريح والإعلان ولم يبال، وجمع لنفسه من أجل ذلك من نظريات الفلاسفة ومذاهبهم ما يتخذ منه تكأة وذريعة تعينه على نيل وطر نفسه المريضة، وأما إن كانت الثمرة المتوقعة أكره إليه مما هو عليه، بقي على ما هو عليه والتمس لنفسه من المذاهب والآراء ما يسوغ له ذلك الموقف ويبرره عقلا Rationalization عند المفاصلة والمخاصمة!

هذه هي الآفة، وهذه هي الفلسفة، الطرح والمخاصمة والترجيح واتخاذ المواقف والأقوال والمذاهب والعقائد بالهوى المحض، والتنقل بين الملل والنحل بالهوى المحض، كما بسطنا عليه الكلام في غير هذا الكتاب! ففي جميع الأحوال، فأينما ذهب بالرجل هواه فلن يعدم مذهبا فلسفيا ينتصر به لنفسه، ولا حول ولا قوة إلا الله! فإني لأزعم كذلك أن دوكينز هذا نفسه لو قدر له أن كانت بيئته القريبة التي نشأ فيها وتعلم فيها ما تعلم، يغلب عليها السلطان الأكاديمي والثقافي النصراني، لنحلة من نحل النصارى أيا ما كانت، وكان مجتمعه القريب معظما لفلاسفة هؤلاء فوق تعظيمه فلاسفة الطبيعيين الدهرية الدراونة، لمال به هواه إلى النصرانية دون الدهرية الداروينية، ولربما كان اليوم أستاذا من أساتذة اللاهوت النصراني، بل رأسا من رؤوس نظرية التصميم الذكي النصرانية، أولئك الذين لا يفوت مناسبة إلا سفههم واتخذهم سخريا! فالقوم إنما يعبدون أهواءهم، تذهب بهم ذات اليمين وذات الشمال! وهذا ما وجد الرجل عليه نفسه وأهل الملل الذين خالطهم في بيئته القريبة، كل منهم ينتصر لهواه بكلام فارغ هو يعلم أنه كلام فارغ، ومغالطات بينة هو يعلم أنها مغالطات، فلما زينت له نفسه ركوب مطية الدين الدارويني الجديد، سولت له نفسه الزعم بأن جميع الملل الكتابية إنما اعتنقها أصحابها وماتوا عليها تبعا لأهوائهم، بما في ذلك دين التوحيد الخالص الذي تقضي البداهة والفطرة بأنه هو الحق الذي لا يصح من الملل غيره!

مبحث في طوائف المستقبلانيين والترانسهيومانيين "ما فوق الإنسان" Futurism / Transhumanism

ومما انبثق عن النحل الدهرية الإنسانية العصرية، وكان انبثاقه أمرا غير مستغرب على الإطلاق، تلك الحركة الفكرية المسماة بما "بعد الإنسان" Posthumanism أو ما فوق الإنسان Transhumanism، وهي حركة يعتقد أصحابها من الدهرية الطبيعيين أن الإنسان سيبلغ لا محالة من العلم بأسباب الكون ما يمكنه من تغيير النوع البشري نفسه وتطويره حتى يبلغ الإنسان أن يكون إلها لا يموت ولا يمرض، ويحصل له من العلم والقدرة على التحكم في الكون وتعديله والتلاعب به ما يحلم به كل دهري طبيعي سفيه! ويقال لرواد هذه الحركة، المستقبلانيون Futurists على أساس أنهم يحلمون بمستقبل وعالم جديد "جريء" (Brave New World، بحسب عبارة "ألدوس هاكسلي" في رواية له بنفس الاسم) يكون الإنسان فيه هو ربه المستقل بالنفع والضرر فيه، القادر على جميع أسبابه، وعلى تعديل الأجيال التالية من نوع الإنسان كما يحلو له! فيصح أن يقال إن لفظة "مستقبلاني" Futurist هذه إذا أطلقت، أريد بها متنبئة الدهرية الطبيعيين، المتلبسين بشيء من عقائد ونبوءات "ما بعد الإنسان".

قال "نقولا تيسلا" Tesla المخترع المستقبلاني المعروف، في خطاب أرسله إلى محرر جريدة "نيو يورك تايمز" في عام ثمان وتسعمئة وألف (1908) من الميلاد: "يبدو، إذن، ممكنا للإنسان، من طريق طاقة الوسيط ومن طريق العوامل الملائمة لبدء وإنهاء دوامات الأثير، أن يتسبب في تكون المادة واختفائها. فبأمره، وبلا جهد يذكر من جانبه، ستختفي العوالم القديمة وتنشأ عوالم جديدة. وسيكون بوسعه أن يغير حجم هذا الكوكب، ويتحكم في فصوله، ويعدل المسافة الفاصلة بينه وبين الشمس، ويوجهه عبر رحلته الأبدية في أيما مسار يحلو له أن يختاره عبر أعماق الكون. سيكون بوسعه أن يجعل الكواكب تتصادم ويخلق لنفسه شموسه ونجومه الخاصة، وينتج حرارته وضوءه، وسيكون بوسعه أن ينشيء حياة في كافة صورها غير المتناهية. فسيكون إحداث ميلاد وموت المادة باختيار الإنسان، هو أعظم إنجازاته قاطبة، وهو ما سيكسبه السيادة على الخلق المادي، ويجعله يحقق مصيره النهائي." اهـ.

قلت: فهذا ما يسمى بالمستقبلانية أو الفكر المستقبلاني Futurism عند مفكري الدهرية الطبيعيين في هذا العصر، وهو ما اعتنت به تلك الطائفة عناية خاصة فوق ما تراه عند غيرها من طوائف الدهرية المعاصرين، وهو

بمنزلة التأسيس الإسكاتولوجي عند الطبيعيين Naturalist Eschatology، أي بناء الاعتقاد التنبؤي فيما يتعلق بآخر الزمان ومستقبل النوع البشري والمجتمع الإنساني في هذا العالم. فعندهم أن مصير النوع البشري في الأرض إما أن يكون هو تحقيق الخلود وبلوغ منازل الربوبية التامة في جنة الحياة الدنيا، كما في عقيدة تيسلا المحررة في النقل الآنف، وإما أن يكون هو التعرض لطغيان روبوتات الذكاء الاصطناعي الخارق المزعوم Superintelligence بما يترك البشر عرضة لإحدى خصلتين، على خلاف واسع في تفصيلهما عند القوم: إما اندثار نوعهم بالكلية على أثر الصراع مع الروبوتات، واستخلاف الأندرويد (الروبوت خارق الذكاء) في الأرض من بعد بني آدم ليقضوا عليهم عن بكرة أبيهم أو يستعبدوهم، وإما اندثار الجسد البشري وانتقال أرواح البشر إلى وسائط إلكترونية ليتعايشوا (خالدين في الأرض) مع كائنات الذكاء الاصطناعي تلك في وسيط تكنولوجي واحد إن أمكنهم ذلك!

ويصح أن يقال إن هذه الطائفة من طوائف الدهرية المعاصرين، هي ثمرة السفاح بين الدهرية الداروينية الإنسانية وبين الفتنة بالتكنولوجيا العصرية. فأغلبهم في الأصل كانوا من كتاب الخيال الدهري المعروف جماهيريا "بالخيال العلمي"، الذين أكلت تلك الفتنة رؤوسهم. ولولا ما ابتلينا به من ذيوع معتقداتهم وطموحاتهم البحثية وقيمهم المعيارية في المجتمع الغربي وتأثيرها على الفلاسفة والساسة والباحثين الأكاديميين في كثير من مجالات البحث التجريبي، وكثير من الشباب الأغرار من بني جلدتنا المفتونين بأفلام هوليوود، ما رأينا داعيا لإطالة هذا المبحث باستعراض هرائهم وسخافة أفكارهم وأوهامهم، والله المستعان!

قال الفيلسوف السويدي الأمريكي "نيك بوستروم" [61]: "فلسفة الترانسهيومانيزم Transhumanism هي ثمرة كل من الإنسانية العلمانية Secular Humanism وحركة التنوير Enlighnment. وهي تعتنق الاعتقاد بأن الطبيعة البشرية الحالية قابلة للتحسين من خلال استعمال العلوم التطبيعية ووسائل أخرى عقلانية، وهو ما قد يجعله ممكنا أن نزيد من مدة الصحة العامة للإنسان، ونوسع قدراتنا الذهنية والجسدية، ونتحصل على تحكم متزايد في حالاتنا العقلية والمزاجية." اهـ. قلت: وهذا التعريف منه غير دقيق، لأن التنوير على المصطلح المعروف في أدبيات الفلاسفة المعاصرين، يطلق ويراد به تلك الحركة التي ظهرت في نهايات القرن الثامن عشر الميلادي في أوروبا، ولا سيما في فرنسا، الداعية إلى الفصل بين الكنيسة والدولة، وكانت هي الباعث الملهم للثورة الفرنسية.

وقال في مزيد من بيان اعتقاد فرقته فيما يتعلق "بالطبيعة البشرية" Human Nature: "يرى المنتسبون إلى فكر الترانسهيومانيزم الطبيعة

الإنسانية على أنها عمل قيد التطوير Work in progress، أو بدايات غير تامة يمكننا أن نتعلم كيف نعيد سباكتها على نحو ما نشتهي. فالحالة الحالية للإنسانية لا يلزم أن تكون هي نقطة نهاية الارتقاء (الدارويني). وإنما يرجو الترانسهيومانيون أنه من خلال الاستعمال المسؤول للعلم والتكنولوجيا ووسائل أخرى عقلانية، فسيكون بوسعنا في النهاية أن نصير نوعا فوقيا Posthuman، (فنصبح) كائنات تتمتع بقدرات أعظم بكثير مما يتمتع به البشر الحاليون." اهـ.

وقد استحدث هذا المصطلح Transhumanism الأحيائي الدارويني البريطاني "جوليان هاكسلي" في عام 1957 الميلادي، للعبارة عن الحالة الأرقى للنوع البشري التي كان يعتقد إمكان الوصول إلى تحقيقها من طريق أبحاث اليوجينيكس Euogenics التي كان يتبناها هتلر في ألمانيا النازية إبان الحرب العالمية الثانية. وكما تقدمت الإشارة إليه، فقد كان جوليان هذا يرى في الداروينية قيمة أخلاقية عليا، في إطار ما سماه بالإنسانية الارتقائية Evolutionary Humanism، إذ يرى أن النوع البشري يجب على أفراده أن يعملوا على مواصلة مسيرة الارتقاء الدارويني المزعومة باستعمال ما بين أيديهم من آلة العلم والتكنولوجيا، حتى يتم لهم التحول – كنوع - من قردة منحطة لا تعقل ولا تميز، إلى كائنات خارقة كآلهة الإغريق، لا تمرض ولا تموت ولا يحدها حد ولا يعجزها شيء!

تقول المؤرخة الأمريكية "هافا تيروش ساmويلسون" [62] إن لتلك النحلة ثلاثة مؤسسين، تسميهم بالمتنبئين الكبار Prophets، بالنظر إلى أنهم أول من كان لهم ذلك النوع من النبوءات "الطموحة" بشأن مستقبل النوع البشري على الأرض، وهم جوليان هكسلي Julian Huxley نفسه، وجون بوردون هالدين (أو "جي بي هالدين" J. B. Haldane كما هي شهرته)، وجون ديزموند برنال J. Desmond Bernal، فقد كان لهؤلاء المتنبئين الثلاثة من النشر والتأليف في تلك المسائل في بدايات القرن العشرين الميلادي، ما يمكن – بحسبها - أن يقال إنه تأسست به طائفة ما بعد الإنسانية من قبل أن تكتسب ذلك الاسم الذي استحدثه لها جوليان هكسلي فيما بعد. فبينما دعا هكسلي إلى استعمال العلوم الحديثة في توجيه مسيرة الارتقاء الدارويني لنوع الإنسان، حتى يبلغ الإنسان غاية ما يمكنه بلوغه من الترقي بنوعه وبقدراته العقلية والجسدية (على طريقة: إن أمكننا فعله فقد وجب علينا فعله)، ترى هالدين يوافقه في فكرة استعمال اليوجينيكس في تطوير النوع البشري (وإن كره استعمال النازيين لها لخدمة أجندتهم التوسعية)، إلى حد تسميته المتخصصين في أبحاث الهندسة الوراثية بالمخترعين البيولوجيين Biological Inventors، وترى برنال (المتخصص في البيولوجيا الجزيئية)، يحلم بمستقبل يغير فيه العلم الطبيعي جميع معالم الحياة الاجتماعية، ويحل محل الدين

الموروث من حيث كونه القوة الاجتماعية المسيطرة، وذلك من خلال إحداث التعديلات المتتابعة على المخ البشري!

وتقول المؤرخة إن فكرة استعمال اليوجينيكس التي واصلت نموها في الثلاثينات على يد H. G. Wells وآخرين، قد لقيت ضربة قاضية (بما هدم طموحات هالدين وبرنال الماركسية)، بعدما ظهرت فظائع النظام النازي في الحرب العالمية الثانية، وأصبحت المجتمعات الأوروبية على وعي بخطورة فكرة اتخاذ خطة مركزية سيادية لتطوير النوع البشري على نحو ما انتهجه الرايخ الثالث! ومع ذلك، فقد بقي حلم استعمال العلم الطبيعي في تطوير النوع البشري وتجاوز قدرات الجسد العضوي طافية في خيال الدهرية الإنسانيين حتى وجدت ملعبا جديدا في الأربعينات في بريطانيا، - على حد كلامها -، بظهور ما يسمى بالسايبرناطيقا Cybernetics حيث أخذ بعض الرياضيين وعلماء الحوسبة في محاولة محاكاة الوعي الإنساني، معتقدين إمكانية نقل وعي الإنسان نفسه أو استنساخه في جسد آلي لا يبلى! وهي فكرة لاقت رواجا كبيرا في الخمسينات والستينات على أيدي كتاب روايات ما يسمى "بالخيال العلمي" كأرثر سي كلارك A. C. Clarke واسحق أسيموف وروربت هاينلاين وغيرهم. ثم ظهرت فيما بعد منظمات متعددة تدعم فكرة تمديد الحياة البشرية، وتجميد البشر Cryonics [63]، وغزو الفضاء، وأفكار أخرى مشابهة مما كان ولم يزل ملعبا وساحة فسيحة لكتاب تلك الروايات الدهرية الخبيثة التي لا يعلم أكثر المسلمين ما لها من إفساد عظيم لعقائدهم، بل يظن كثير منهم أن فيها ما يحفز العقل العلمي ويشجع على الاختراع والتطوير التقني وترقية حياة الإنسان .. إلخ! فواقع الأمر أن هؤلاء الأدباء والروائيين كان لهم دور عظيم في تأسيس تلك الملة الدهرية العصرية التي أصبحت تبتلع من شبابنا وفتياتنا ما لا ينتبه إليه أكثر المسلمين!

وقد تعاظم أثر تلك الروايات – ولا شك – في العقود الأخيرة من القرن العشرين الميلادي وما بعده، بظهور تكنولوجيا CGI (الصور الناشئة عن الكمبويتر Computer Generated Imagery) في الأفلام السينمائية الأمريكية التي يتفنن صانعوها في تصوير تلك النبوءات الترانسهيومانية والمستقبلانية بجميع ما أوتوا من موارد مالية وفنية وتقنية، لا سيما مع ما للقصص المصورة ولفكرة البطل الخارق فيها Comicbook Superhero من جاذبية عظيمة (على ما في فكرة السوبرمان من إشراك في الربوبية) أصبح لها رواج فاحش سينيمائيا، فأصبح الشباب يسيل لعابهم ويثور خيالهم في تصور القدرات الخارقة التي يمكن أن يوصلهم إليها "العلم" في المستقبل، فيحلم هذا بأن يغزو الفضاء، ويحلم ذاك بأن يتمكن من التلاعب بالكواكب والنجوم، ويحلم آخر بأن يتمكن من نقل وعيه قبل موته إلى روبوت أو شريحة فلاش ميموري، ويحلم غيره بأن يتوصل إلى القضاء على الموت

والشيخوخة جينيا فيعيش أبدا بلا هرم ولا موت، وأمور كل واحدة منها أهلك للمسلم وأفسد لدينه من أختها، نسأل الله العافية!

وقد كان لما شهده النصف الثاني من القرن العشرين من قفزات في البايوتكنولوجي Biotechnology والنانوتكنولوجي Nanotechnology مع ما غزا علم الأعصاب Neuorscience من اعتقاد التمكن أخيرا من تتبع الأفكار والذكريات في المخ البشري والجهاز العصبي، إلى جانب تطور الروبوتيات Robotics والسايبرناطيقا والذكاء الاصطناعي Artificial Intelligence والقدرة التخزينية وقابلية النقل Portability في أجهزة الحاسب الآلي وتضاؤل أحكام المعالجات الرقمية Processors، كان لذلك كله أثره البالغ في دين الترانسهيومانيين هؤلاء، حيث ظهرت في كتابات روادهم المعاصرين (وفقا لكلام الكاتبة) كأمثال مارفين مينسكي Marvin Minsky (باحث الذكاء الاصطناعي المعروف)، وراي كورتزويل Ray Kurzweil وإريك دريكسلر Drexler وفرانك تيبلر Tipler وهانز مورافيك Moravec الاعتقاد بقيامة تكنولوجية في المستقبل Techno-Apocaplyptic Rapture حيث يحصل أخيرا ما سموه بالفردية التكنولوجية the Singularity بوصول الذكاء الاصطناعي في الروبوتات فائقة القدرة إلى مستوى الوعي الإنساني، ومن ثم تنقلب علينا، فإما أن تستعبدنا نحن البشر وتسود علينا وعلى الأرض، أو تقضي علينا نهائيا وتحل محلنا بالكلية! وقد تصور بعضهم ذلك الروبوت ذا العقل الفائق كنوع حي قادر على التكاثر والانتشار، إلى حد أن سموه Robo Sapiens على غرار Homo Sapiens، وقالوا إنه هو النوع الجديد الذي سيحل محل النوع البشري تطوريا!

قال البيوفيزيائي الأمريكي المستقبلاني "غريغوري ستوك": "لقد آن الأوان لأن نعترف بقوانا المتنامية وأن نبدأ في حمل مسؤوليتها. فإن خيارنا محدود في هذا، إذ قد بدأنا بالفعل في لعب دور "الإله" Play god في شتى مجالات الحياة الدقيقة إلى الحد الذي أصبح معه من من المرجح ألا نتمكن من التراجع عن ذلك إن حاولناه." اهـ. قلت: فهذه هي القضية المحورية في دين هؤلاء: "لعب دور الإله"! الطبيعة البشرية لم تبلغ بعد أن تكون على النحو الذي يشتهيه القوم، فما العمل؟ أن نلعب دور الإله! العالم لا يزال فيه من المنغصات والمكاره ما يضيق يضيق به الإنسان ويتكدر به عيشه، فما العمل؟ نلعب دور الإله! نعيد خلق العالم وخلق أنفسنا على النحو الذي نشتهيه، لعلنا ننجح في النهاية في أن نحيل هذا العالم نفسه إلى جنة الخلد التي جاءت بها بشارة الأنبياء والمرسلين لمن يدخلون في دينهم! هذا هو لب دعوى القوم ومنشأ نحلتهم هذه. فالذي يتأمل في فكرهم واعتقادهم يجدهم بمنزلة المبشرين الدهريين بجنة العلم الطبيعي في المستقبل! وقد زعم بعضهم كالفيلسوف البوستهيوماني الانكليزي ماكس مور Max More في الثمانينات

أن الإنسان إنما هو مرحلة انتقالية تطورية بين الحيوان والإله، وأن الخطوة التالية في تطور النوع البشري لن تكون انتخابا طبيعيا وإنما تصميما إنسانيا، يصل به الإنسان إلى تحرير نفسه من مطلق القيام بغيره، فلا يحتاج إلى الطبيعة في شيء!

وفي أواخر القرن الميلادي الماضي، أسس الفيلسوفان نيك بوستروم Bostrom وديفيد بيرس Pearce منظمة تسمى بمنظمة الترانسهيومانيين العالمية World Transhumanist Association، باتت اليوم (بأعضاء تجاوز عددهم الخمسة آلاف عضوا) بمنزلة الكنيسة أو المؤسسة الدينية الرسمية Religious Organization التي تربط بين المنتمين إلى تلك الملة في جميع أنحاء العالم، وإن كانوا هم لا يرون أنفسهم أهل ملة ولا يرون تلك المنظمات كمؤسسات دينية ولا قريبا من ذلك! وقد أنشئت على أعقابها – كما ذكرته الكاتبة في كتابها – مؤسسات ترانسهيومانية شتى، كمعهد إكستروبي Extropy Institute (وهو مصطلح يقصد به تحرير الإنسان من قيود جسده وقيود الطبيعة)، ومعهد البصيرة بما في المستقبل Foresight Institute، ومعهد الخلود Immortality Institute ومعهد الأخلاقيات والتكنولوجيات المنبثقة Institute for Ethics and Emerging Technologies ومعهد الفردية للذكاء الصناعي Singularity Institute for Artificial Intelligence. وتتفق تلك المنظمات كلها – ولو ضمنيا - على إنزال العالم الطبيعي Scientist منزلة الإله القادر على إعادة خلق الطبيعة نفسها (كما في عبارة إريك دريكسلر Drexler)، وتتفق كذلك على إنزال العلم الطبيعي والتكنولوجيا منزلة الدين!

ويرى بعضهم – وكما أوردته المؤلفة – أن الطوائف الترانسهيومانية تنقسم إلى فريقين كليين، فريق يطلق كلمة "ترانسهيوماني" على الإنسان المستقبلي المعدل جينيا وتكنولوجيا بالفعل، والآخر يطلقها على من يستحسن فكرة التعديل على الإنسان جينيا وتكنولوجيا، أو على الأقل استعمال البيوتكنولوجي في الحياة اليومية [64]، وإن لم يكن هو نفسه معدلا جسديا. وسواء هؤلاء أو أولئك (أصحاب النسبة الترانسهيومانية القوية أو الضعيفة)، فالذي يعنينا في هذا المبحث هو بيان العقائد التي يصبح الإنسان بها ترانسهيومانيا أو موافقا للترانسهيومانيين في بعض أقوالهم وإن لم ينتسب إليهم.

في برنامج وثائقي أعده معهد يسمى بالمعهد البريطاني لدراسات مابعدالإنسان British Institute of Posthuman Studies للتعريف بفلسفة الترانسهيومانيزم، بدأ البرنامج بتقرير أن الإنسان قد استطاع أن يترقي بالقدرة التكنولوجية خلال القرون القليلة الماضية ترقيا بالغا، في مجالات النِقل والمواصلاتِ، والمعلومات، والاتصالات، ثم قررت المعلقة على

البرنامج أنه من البدهي أن نعتقد أننا إن استمر معدل التطور التقني لدينا على هذا النحو، فسنبلغ الغاية في الرضا والسعادة البشرية. ولكن الحقيقة أننا نعاني من القيود التي يفرضها علينا ذلك "المخ البدائي" الذي نجده في أدمغتنا. ثم بعد هذه المقدمة تنتقل إلى تقرير الاعتقاد الغيبي الدارويني بقولها: "الإنسانية، على ما أحرزته من تطور وتقدم، إنما هي نتاج تجربة كيميائية طبيعية وغير موجهة، استمرت على الأرض لثلاثة بلايين وثمانمئة مليون سنة. الارتقاء هو العملية التي خلقتك على ما أنت عليه. ولكنها لا تستشرف المستقبل. فهي لا تفكر في المستقبل، ولا يمكنها أن تفعل، ولا أن تتخذ قرارات واعية بشأن ما يجب أن ننتهي إليه أو ما يجب أن نكون عليه! توريث الجينات هو غايتها الوحيدة." ثم تتعرض لمسألة الهِرم Aging وتحاول أن تستثير مشاعر المشاهدين ضد فكرة الهرم وانتكاس الجسد في الهرم، ذلك الداء الذي شهد له العقل والنقل جميعا بأنه ليس يرجى البرؤ منه [65]، على أساس أنه يتسبب في موت مئة ألف شخص في العالم في اليوم الواحد، فهو إذن أخطر من أي فيروس قاتل عرفه الإنسان، ومع ذلك، تعجب المعلقة من كون الناس لا تحرك ساكنا للقضاء على هذا المرض الخطير! ومن هذا المدخل، تدخل بالمشاهدين إلى ترويج فكرة البحث "العلمي" الموجه لمحاربة الهرم والقضاء على الموت، وهو ذلك المجال الذي تخصص فيه بعض المنتمين لتلك النحلة كالكاتب الانكليزي المدعو "أوبري دي غراي" Aubrey De Grey الذي أسس مؤسسة بحثية سماها SENS وهي اختصار للعبارة Strategies for Negligible Senescence التي تعني "استراتيجيات للوصول إلى تحقيق هرم يمكن إهماله"!

والواقع أن جميع الأبحاث التي جاء بها القوم في باب علاج أو مكافحة الهرم Anti-Aging Research قائمة على مغالطات منهجية أولية تبدأ من مفهوم الهِرم نفسه! وذلك أنهم كلما تناولوا مسألة الهرم، رأيتهم يختلزونها اختزالا في بعض آثاره الظاهرة التي هي منه كالعرض من المرض as symptom is to a disease! فتراهم يتكلمون – مثلا – عن سقوط شعر الرأس في الرجال وفقدان لونه وتحوله إلى الأبيض في الرجال والنساء معا، وتجعد البشرة وتغير ملمسها .. إلخ! أو تراهم يتكلمون عن تردي بعض أعضاء الجسد وقصورها عن أداء وظائفها، أو عن غير ذلك من أعراض وعلامات الهرم، على أنهم إن توصلوا لطريقة لعلاجها كلها فقد توصلوا بذلك إلى علاج للهرم! مع أن الهرم إنما هو التنكيس في الخلق، كما في قوله تعالى: ((وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ)) [يس : 68]، والتنكيس يعني الحط على الشيء والتنقيص منه بعد كمال! فكل جسد الإنسان ينكس بالهرم، الظاهر منه والباطن، الأعضاء والخلايا، وصولا إلى أدق دقائق النظام الحيوي على المستوى الجزيئي! ولهذا سماه الله تعالى بأرذل العمر، فهو ذلك الجزء من عمر الإنسان الذي يصبح فيه منكوس الجسد مرذوله، لا يقدر على كثيرٍ مما

كان يقدر عليه في شبابه، كما في قوله تعالى ((وَاللّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)) [النحل : 70] فلا يغرنكم بالله الغرور يا هؤلاء!

أرأيتم لو أن رجلا لديه ثوب أخذ في لبسه حتى أبلاه وأخلقه، فبدأ نسيجه في التحلل والانقضاض والتفكك بعضه من بعض حتى ظهر فيه الخرق واتسع، فلما رقعه برقعة كبيرة، ووفق عند تركيبها في جعلها تبدو كأنها من أصل النسيج نفسه، فلا يظهر للناس أنه مرقع إلا بعد فحص دقيق، أوهم نفسه بأنه بذلك قد رجع بالثوب جديدا كما كان يوم اشتراه، وأنه قد "عكس عملية البلى"، أفكنتم تصفونه بالعقل؟! السيارة القديمة المتهالكة تظل قديمة متهالكة مهما أبدلت من أجزائها ما أبدلت، وعدلت عليها ما عدلت، وليس في نظام الأسباب في العالم ما يمكن أن يعكس ذلك التهالك الحتمي أو أن يمنعه! فالذي يرجو ذلك واهم ولا شك، وكذلك أملكم الدهري في القضاء على الهرم أو "عكسه" في البشر، هو وهم وسراب! ليس هذا العبث الذي تكلفتموه "علاجا للهرم" أو طريقا للتوصل إلى علاج الهرم كما أن عملية شد الوجه وفرد التجاعيد فيه ليست علاجا للهرم ولا يرجى منها الوصول إلى علاج الهرم! رقعوا وجوهكم وأبشاركم وأعضاءكم ما بدا لكم، فسيمضي فيكم أمر ربكم لا محالة، رضيتم أم أبيتم، ولن تزدادوا بمعاندتكم سنن ربكم إلا خزيا، لو كنتم تعقلون! فصدق الذي قال سبحانه: ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)) [النور : 39]

يا هؤلاء، إن أردتم علاج الهرم فليس أمامكم إلا أن تأتوا للشيخ الهرم بجسد غير جسده، يطابق ما كان عليه جسده قبل ثلاثين عاما أو يزيد، أو كما كان في السن التي يشهتي ويريد! وهذا ممتنع كما لا يخفى على عاقل! وهو على مذهبكم المادي أشد امتناعا مما هو عندنا، لأنكم لا ترون الإنسان إلا هذا الجسد الذي نراه نحن لباسا لروحه ونفسه بالغيب! فعلى مذهبهم يلزم أن يكون إبدال العضو التالف بعضو جديد تغييرا في الإنسان نفسه، ويلزم أن يكون تجديد الجسد بكليته وإبدال غيره به إلغاء للإنسان نفسه وإبدالا لغيره به (كما نبسط الكلام عليه لاحقا في هذا المبحث عند تناول مسألة الذكاء الاصطناعي)! فلو صح أن كان الإنسان هو جسده والجسد هو الإنسان، لكان ذهاب الجسد وبلاه ذهابا للإنسان، ولكان إبدال الجسد بغيره إبدالا للإنسان بغيره! فعلى مذهبكم لا يمكن للإنسان أن يترك هذا الجسد لغيره لأنه هو جسده، وهو عين مادته! ولو أنكم التمستم الوصول إلى مقاومة الهرم وتخليص صاحبه منه من خلال إبدال كل عضو من جسده بعضو بديل، لقضيتم بذلك على الشيخ الهرم نفسه لا على الهرم الذي يعاني منه! ولا شك أن الفطرة والبداهة والعلم الضروري من الدين يمنعون من تمكن الإنسان في

يوم من الأيام من أن يصطنع لنفسه جسدا بديلا ينتقل إليه بعدما هرم جسده الذي خلقه الله له وتهالك! وسيأتي معك بسط الكلام على ذلك في هذا المبحث بحول الله وقوته، ولكن القصد أن الطبيعيين نفاة الغيب ونفاة الروح لابد أن يكون الوصول إلى علاج الهرم علاجا تاما، على هذا التعريف الذي حررناه، وقررنا أنه لا يصح غيره، لابد أن يكون ذلك عندهم وعلى مذهبهم محالا كما هو عندنا! ولكنهم قوم مكابرون لا تمنعهم فطرة ولا تحجزهم بداهة عن طلب العلو في الأرض من كل طريق! ولا شك أن إغراء السفهاء بحلم التخلص من الهرم والتوصل إلى تحقيق الشباب الدائم هو أمر يحقق لهم من العلو ما يشتهون!

والغالب اليوم عليهم اختزال عملية الهرم والتغير الحيوي الذي يجري على الجسد على أثره فيما سموه بالعوامل الجينية (أو للدقة فوق الجينية Epigenetic)، وهو ما لا نتوقع غيره من أكاديميات الدراونة الجدد الذين أغرقوا في الحتمية الجينية Genetic Determinism حتى جعلوا الجين إلها أنانيا يخلق ويصور ويوجه الخلق توجيها! فهم وإن كانوا يقرون بأن ثمة عوامل خارجة عن الجينات والعمل الجيني في خلايا الإنسان تؤثر في مسألة الهرم، إلا أن الأمر في النهاية يرجع عندهم إلى الجينات! فهم يدخلون معاملهم على قناعة سابقة بأنه لابد من نشاط جيني ما في مكان ما من الجينوم البشري، يكون هو المسؤول عن حصول الهرم للجسم بل وعن الموت نفسه! فلما لاحظوا وجود ارتباط ظرفي Correlation / Association في ذبابة الفاكهة (دروسوفيلا) بين تغير حال جين معين وبين ظهور بعض صور التردي الحيوي المرتبطة بالهرم في تلك الذبابة (كقدرة خلاياها على امتصاص المواد الغذائية)، قالوا هذه هي! لقد عثرنا أخيرا على "جين الموت"! ثم تطوروا وترقوا وانتقلوا بأبحاثهم إلى الجرذان والخنازير، وقالوا إنهم تمكنوا أخيرا من "عكس عملية الهرم" Reverse Aging، لما أدخلوا بعض التعديلات الجينية البيوكيميائية على حيوانات المعمل التي ترهلت جلودها وتساقط أوبارها وأشعارها، فوجدوها تتعافى من تلك الخصال التي تعد علامة من علامات الهرم! فجعلوا ذلك دليلا – وتأمل – على أنهم قد تمكنوا أخيرا من علاج الهرم نفسه!

فقل الحمد لله على نعمة الإسلام والعقل!

فإن قالوا: ولكن نحن نرى بجلاء في الإحصائيات التي بين أيدينا أن العمر الافتراضي للإنسان قد تزايد تزايدا ملحوظا خلال العقود الخمس الماضية، بسبب الطفرة الظاهرة في التطور الطبي الذي شهده النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي! فكيف لا يكون ذلك دليلا على أن بوسعنا أن نعالج الهرم ونخلص البشرية منه بالكلية، وأن نطمح في يوم من الأيام إلى تحقيق الخلود في الأرض؟ قلنا في الجواب إن هذه مغالطة في الاستدلال الإحصائي

Fallacy of Statistical Inference! فلا شك أن تطور الطب الحديث قد جعله الله سببا في علاج بعض الأمراض التي كان يبتلى الناس بإفضائها إلى الموت فيما مضى، ومن ثم كانت النتيجة الطبيعية هي أن تقل حالات موت الشباب وصغار السن [66] بسبب تناقص أعداد من توافيهم المنية في صغر السن على أثر تلك الأمراض، ومن ثم يظهر عند حساب المتوسطات الإحصائية زيادة في قيمتها! فهي زيادة لا يفهم منها أن البشر ماضون في الطريق إلى القضاء على الموت، إلا عند من كان هذا الخرف المستقبلاني الدهري هو دينه واعتقاده! القضاء على سبب من أسباب الموت (إن صح أن يعد "قضاءً" منصرما!) لا يعد في العقل قضاء على الموت نفسه، ولا يرجى أن يكون خطوة في الطريق إلى القضاء على الموت نفسه إلا عند من زعم لنفسه القدرة على التمكن من جميع أسباب الموت الشاهدة منها والمغيبة عن بني آدم، حتى يستقل بتخليد بني آدم في الأرض ما شاء كيف شاء، وهذا سفه وتعدي على صفات الربوبية لا يخفى على عاقل، ولا يماحك بتجويزه لنفسه أو لنوع بني آدم إلا ملحد دهري!

ولا علاقة لتلك الملاحظة الإحصائية بمسألة الهرم ومعالجته المزعومة كما لا يخفى، وإنما أذن الرب سبحانه في سبب واحد مما لا يحصيه سواه من أسباب الموت أن يتمكن عامة البشر من تحقيق موانعه وتعطيل شروطه كما لم يتمكنوا من قبل! وكذلك ما قد ترصده الإحصائيات من زيادة أعمار المعمرين من بني آدم خلال تلك الفترة المذكورة من تاريخ البشر، حيث قالوا إنه كان أغلب البشر في القرن الثامن عشر الميلادي يموتون قبل بلوغ الأربعين، ثم صار أغلبهم يموتون في السبعين، وبينما كان الرجل يقال له معمر إذا بلغ الخمسين، فاليوم وصل المعمرون إلى مجاوزة المئة سنة! فيقال لهم: سلمنا، فكان ماذا؟ لا يزال الأصل في البشر أنهم يشيخون ويهرمون وينكسون في الأرض تنكيسا، ثم يموتون بهلاك أجسادهم، وسيظل الأمر كذلك مهما فتح الله لكم من سبل لمواجهة أسباب الهلاك في الأرض!

فما المعنى المستفاد من تلك الإحصاءات؟ أن يرجو الإنسان الذي يسمعها ألا يموت هو أو أولاده أو عامة من يعرفهم من أهل هذا الزمان، وبغلبة ظن راجحة (كما هو معهود الاستدلال الإحصائي والترجيح الاحتمالي Probabilistic Reasoning الذي يؤسس عليه)، ألا يموت إلا وقد جاوز سن كذا أو كذا؟؟ المطلوب أن يغلب على ظن الإنسان أنه لم يزل أمامه عشرون أو ثلاثون سنة من العمر – مثلا - تقل احتمالية أن يموت قبل إتمامها؟؟ نعم، هذا هو مطلوب الدهرية الذين يستخرجون تلك الإحصاءات، أن يقولوا للناس كما تقوله تلك الفئة من الدهرية المخرفين: "ها نحن أولاء قد فسحنا لكم في أعماركم، وأجلنا لكم آجالكم، وفتحنا لكم باب الرجاء في أعمار أطول ما كان يحلم بها من سبقوكم من الأولين! فأخضعوا أنفسكم

لسلطاننا ولسلطان أكاديمياتنا "العلمية" إن كنتم تريدون هناء العيش وطول العمر!"!

ونقول إن هذا تطبيق فاسد للمنطق الإحصائي والاحتمالي، وذلك أن العلم باستطالة متوسط أعمار البشر في وقت إجراء الإحصاء شيء، والعلم بتأخير آجال أغلب الناس وإطالة أعمارهم (التي هي بمعنى تأجيل وقت الموت وتأخيره عما كان عليه أولا!) شيء آخر بالكلية، ولا تدل الأولى على الثانية إلا عند مغالط مكابر! فأنتم ما أجلتم الموت لأحد من البشر وما أخرتموه وما ينبغي لكم وما تستطيعون، فأسباب الموت لا يحصيها إلا باريها، وما له من أسباب غيبية فوق ما تعلمونه وما يظهر لكم، لا طريق لكم إليه أصلا! وإنما جعل الرب ما غركم به من علاجات مكنكم منها لبعض الأمراض التي كان يجعلها من قبل مهلكة لكثير من الناس، سببا في استدراجكم أنتم للظن بأن أمر الموت قد صار راجعا إليكم وإلى ما بين أيديكم من أسباب السلامة منه! وإنما يموت العبد عندما يأذن ربه، فإذا بالأسباب المشاهدة والأسباب المغيبة التي لا يعلمها إلا رب العالمين، تجتمع كلها، متولدا منها ما تولد عما تقدمه، حتى تقبض نفسه في الموضع الذي كتب له في الوقت الذي كتب له، لا قبل ذلك ولا بعده ((وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)) [المنافقون : 11]. فمن أصيب في الثلاثين من عمره من مرض كان من قبل يقتل من يصاب به، ثم عاش حتى بلغ الستين من عمره، هذا لم تمدوا أنتم عمره من الثلاثين إلا الستين، وإنما هو ممن كتب الرب في علمه ألا يموتوا قبل الستين، ولم تبلغوا أنتم إلا أن جعلكم الله سببا من أسباب سلامته من الموت التي لا يزال الرب يكتبها له ويقضيها في أمره ما دام النفس يتردد في صدره، حتى يأتيه أجله الذي أجله الله فإذن لا يؤخره له أحد قيد أنملة ولو اجتمعت سائر أمم الإنس والجن على ذلك! وكم من مصباح إنارة ليلية يمشي أحدنا تحته اعتيادا كل يوم، لو شاء الله لأسقطه على رأسه فقتله! وكم من سيارة مسرعة في الطريق تمر بأحدنا في طريقه، لو شاء الله لمنع من سائقها أسباب السلامة من الغلط في قيادتها، أو لجعل تحت عجلتها قطعة حجر صغيرة فتحرفها فتدهسه وتقتلتهما جميعا من حيث لا يحتسبان! وكم من مرض أصيب به مصاب، وجرت عادة الناس على أنه لا يكلف أحدهم قرصا من عقار ما ليعالجه، ومع ذلك يكتب الرب لأسباب علاجه المطروقة المعتادة بين الناس ألا تؤتي ثمرتها معه هو بعينه، يعطلها عن ذلك من الموانع السببية بأمره سبحانه ما لا يحيط بعلمه إلا هو وحده، فترى الرجل العفي عظيم الجسد توافيه منيته من نزلة برد أو مما هو دون ذلك! وكم وكم وكم! فأسباب السلامة من الهلاك وموانع الموت ونفي شروطه السببية لا يحيط بها أحد سواه سبحانه، ولا يقال فيمن سلمه الرب من أحدها بسبب جديد ما كان يتمكن منه الناس من قبل إن ذلك السبب قد مد له في عمره أو أخر له أجله!

ويقال كذلك إن كثرة العوامل السببية المتداخلة التي لا يحصيها أحد في أمر الموت وأسبابه، التي هي عوامل مؤثرة تأثيرا مباشرا في محل البحث، لابد وأن تفقد تلك الإحصاءات قيمتها المعرفية مهما بدت وكأنها تتواطأ أو تجري على نمط ثابت أو متغير تغيرا ثابتا عبر السنوات، فتجعلها لا تعبر عما يظن أصحابها أنها تعبر عنه بوجه من الوجوه! فعلى التسليم بصحة الطريقة الإحصائية التي طبقت في تلك الإحصاءات، وجريانها على جميع قواعد الإحصائيان في الجمع والحساب والتحليل، فقد يقضي الرب في سنة ما أن يبتلي أمة ما بفيضان تسونامي عظيم (مثلا) يهلك الملايين من الشباب وصغار السن في يومين اثنين، فتتغير المتوسطات والدلالات الإحصائية في الأعمار المحسوبة بسببه تغيرا لا ينتبه إليه أحد (فيما يقال له اصطلاحا التغير الزاحف Lurking Variable)، ومن ثم يمتنع أن يكون ذلك الإحصاء دليلا على ما يحسبون أنه يدل عليه فيما يتعلق بعملهم هم وما توصلوا إليه هم من أسباب وموانع، وهم لا يشعرون! فإلى جانب مناقضة ذلك للفطرة والبداهة، فإن هذا مانع عقلي ظاهر من أن يقال في الطبيب أو الباحث التجريبي في علوم الطب والأحياء إنه عامل على القضاء على الموت وتخليص البشر منه، وإنما يحاول أن يستكشف ما قد يُفتح له من أسباب الموت يرجو أن يتمكن من التوصل إلى شيء من موانعها السببية، لا غير!

ثم إن الواحد منا مهما قالوا له إن المتوقع من عمره أن يجاوز كذا وكذا، بواقع المتوسطات الإحصائية وحساباتها، فإنه لا يأمن أن يقبض الله نفسه اليوم أو غدا، فإن أقام حياته على الظن الغالب (إحصائيا) بأنه لن يموت قبل عمر كذا، فأجل توبته وتمادى في معاصيه وألهى نفسه بدنياه عن آخرته، ثم قبضه ربه قبل ذلك الوقت الذي توقعه، فإنه يكون قد أهلك نفسه بذلك وخسر آخرته التي من أجلها خلقه ربه، ولم يكن له من عذر يوم القيامة في كونه قد "ترجح لديه" احتمال أنه لا يموت إلا كبيرا، فطال عليه الأمل! فالواجب على المسلم العاقل أن يعلم أن وقت موته وموضع أجله غيب محض، وأنه لا تأثير للترجيح الإحصائي في حقيقة أنه قد يقبضه ربه الآن، فلا يخرج من صدره هذا النفس الذي هو فيه الآن، وألا يبيت ليلته هذه إلا في قبره! وإذن فلن تغني عنه الاحتمالات والترجيحات الإحصائية شيئا البتة! فلا يصح لعاقل أن يلتمس تلك المتوسطات الإحصائية كمرجحات في مسألة الموت وطول العمر أو قصره لأنها لا طائل تحتها إلا تعليق البشر بأمل واه يوشك أن يضيع عليهم آخرتهم من حيث لا يشعرون!

لهذا نقول إن مسألة العمر الافتراضي المتوسط Life Expectancy ومسألة امتداد العمر المتوقع للفرد المعين Life Span هذه لا يجوز للمسلم أن يتعلق بها ولا أن يبني عليها أي ظن أو اعتقاد أو تصور فيما يتعلق بأجله هو أو بأعمار غيره من آحاد الناس. فإن قال قائل: أليس قد جاء في السنة عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أعمار أمتي ما بين الستين والسبعين، وأقلهم من يجاوز ذلك"؟ ألا يدل ذلك على أن لنا من حيث المبدأ أن نتوقع أن تمتد بنا أعمارنا إلى الستين على الأقل، إلا في القليل النادر؟" فيقال: الحديث إخبار عن الغالب على أعمار الأمة، من يوم أن بعث النبي عليه السلام وإلى قيام الساعة، ولا يؤخذ منه توقع ولا تنبؤ ولا شيء من هذا القبيل، وإنما يؤخذ منه أن أعمار هذه الأمة قد جعلها الله تعالى أقصر من أعمار الأمم السابقة لحكم لا يحصيها سواه. والذي أخبرنا به هو نفسه الذي علمنا في غيره من نصوص الشريعة ما يقطع به العقلاء من كون أجل الإنسان من المغيبات المطلقة في حقه التي لا يمكن التنبؤ بها، كما في قوله تعالى: ((إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)) [لقمان : 34] ولا شك أن الترجيح الاحتمالي نوع من أنواع الدراية الظنية، فلو صح اعتبار تلك الدعوى العامة بشأن أمة من الأمم أو ما يحسبه الناس من إحصاءات ومتوسطات في تفس الأمر، مما يحصل منه لأحدنا المعرفة ولو بظن ضعيف بالوقت الذي يتوقع له أن يموت فيه أو ألا يموت قبله، لما نفى الله عن نوع البشر نوع الدراية السابقة بمحل موت كل إنسان ووقته وأجله الذي أجله الله له! ثم إنه صريح في أن غاية ما يبلغه المسلمون من العمر من حيث الأصل، في أمة النبي صلى الله عليه وسلم من مبعثه إلى قيام الساعة، هو ما بين الستين والسبعين سنة، إلا في القليل. فلا يتغير ذلك الحد الإجمالي بمر الزمان لا بالزيادة ولا بالنقصان، وإذن فهو نص على بطلان دعاوى المستقبليين أن الأعمار ستتطاول حتى تصل إلى الخلود كما هي أمانيهم!

والحق أن أكثر عقائد نحلة "المستقبلانيين" أو "الترانسهيومانيين" هذه تجدها متناثرة عند عامة دهرية العصر، ولكن على صور ودرجات متفاوتة. وإنما يصبح الرجل صريح النسبة إلى تلك الحركة، مغرقا فيها، إذا اجتمعت فيه جملة من العقائد، بيانها كالتالي:

- القول بأن الهرم والموت مرض جيني وراثي يرجى من العلم التجريبي أن يخلص البشرية منه في يوم من الأيام، فيحقق لها الخلود في الأرض، وبأنما هو عملية عضوية كيميائية سيكون من الممكن تعطيلها في المستقبل القريب من طريق التجميد الحي Crionics، يدخل الإنسان ليجمد بصورة معينة، فيظل حيا ما دام مجمدا، إذ يصبح عصيا على الموت لتعطل أسبابه في اعتقادهم!
- القول بما يسمى بالفردية التكنولوجية Technological Singularity، الموصلة إلى المستوى الخامس من الحضارات

Kardashev Scaleعلى مقياس كارداشيف ، وسيأتي الكلام على ذلك.

القول بأن "وعي" الإنسان قابل للنقل والتحميل downloadable Digital Mediumعلى وسيط إلكتروني رقمي ، ومن ثم إمكان نقل الروح إلى حاسب آلي أو إلى روبوت أو فلاش ميموري أو نحو ذلك، بعد هلاك الجسد.

الإيمان بضرورة تعديل الحوض الجيني للإنسانGene Pool وتحسين صفاته كلها، حتى يصل إلى المنتهى في الذكاء وقوة العقلSuper Intelligence، وإلى المنتهى في سلامة الجسد من الأمراض والأسقام والأوجاع Super Longevity، وإلى المنتهى في السعادة والرخاء والسلام على مستوى الفرد والمجتمع Super Well-being .

القول بأن الذكاء الاصطناعي Artificial Intelligence سيبلغ في يوم من الأيام مبلغا يضاهي به العقل البشري (على حالته التي نعرفها) لا محالة، بل يفوقه بأضعاف مضاعفة، وهو ما يمثل بداية تلك الفردية التكنولوجية المزعومة عند أكثرهم، ويترك البشر أمام أحد خيارين: إما أن يندمجوا مع ذلك الذكاء وجوديا ويمتصوه عضويا ليصبح صفة من صفاتهم النوعية بشكل ما أو بآخر، فلا ينمو إلا بوصفه ذكاءهم هم Human Intelligence، وإما أن يعملوا على تعديل العقل البشري جينيا وبأسرع ما يمكن، ليتفوق على الذكاء الاصطناعي قبل أن يبلغ من الاستقلال بالإرادة والوعي ما ينقلب به علينا!

فأما الاعتقاد الأول، الداخل تحت مسألة التحمل الخارق أو السلامة المطلقة Super Longevity، فهو مسألة القضاء على الهرم والقضاء على الموت، فقد تقدم أن مبدأ الهرم والتنكس والتآكل والتردي والبلى والتفكك .. إلخ، من سنن الرب جل وعلا في الأحياء والجمادات المشاهدة في هذا العالم على السواء، كما دلت عليه العادة المستفيضة، لحكم لا يحصيها إلا رب العالمين جل شأنه. يهلك النظام بعد استيفاء أجله، فتتفكك أجزاؤه ليخلق منها نظم جديدة، ثم لا تلبث تلك أن تتفكك ليخلق من بقاياها نظم أخرى، وهكذا في دورات متداخلة متراكبة بالغة الدقة والإحكام! فإذا كان ذلك كذلك، فلا وجه لتجويز انخرام ذلك القانون المطرد الذي عليه جريان المادة الحية والجامدة على الأرض، كما في قوله تعالى ((أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً . أحياء وأمواتا)) [المرسلات : 25 - 26] في حق الإنسان بعينه دون غيره! كل ما يتركب منه جسم الإنسان تجري عليه تلك السنة غير القابلة للتبديل أو الإقلاب، فليس فيه شيء خلق ليبقى مركبا فيه على ما هو عليه أبد الدهر! ولكن قد أخذ الشيطان العهد على نفسه ليمنين بني آدم وليزينن لهم التعديل على صنع رب

العالمين، كما في قوله جل شأنه ((وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً)) [النساء : 119]! ووالله لن تجد في الأرض بل ولا في تاريخ النوع البشري كله، نحلة أشد غرقا في أماني الشيطان وفيما يزين لهم به تغيير خلق الله تعالى، من تلك النحلة، نسأل الله السلامة!

أسطورة القضاء على الموت!

وأما القضاء على الموت فسفه محض، لأنهم يعلمون أن الموت من جملة الحقائق المطلقة التي يقترن ثبوتها اقترانا تلازميا بثبوت حقيقة الحياة في كل ما هو حي! ذلك أن كل ما ليس بحي فهو ميت! هذه مسألة بدهية! فلا يكون الشيء حيا إلا وقد كانت مادته التي يتركب منها ميتة من قبل، متناثرة في غيره من المخلوقات، فإذا خلقه الله وجمعها فيه وصوره منها وركب فيه الحياة، فإنها ترجع بعد أجل مسمى – لا محالة - إلى أن تكون ميتة منتشرة في الأرض كما كانت من قبل، لتمضي فيها سنن هذا العالم كما تمضي في غيرها! وليس من الموجودات في هذا العالم ما كانت الحياة فيه صفة لازمة لوجوده لم يكتسبها بعد عدمها، وقد علم بالبداهة والعادة المستفيضة أن كل ما له بداية في هذه الحياة الدنيا فهو صائر إلى نهاية لا محالة ولو بعد حين! فهم يعلمون بادي الرأي أن عالما هذه صفته وحالته، لم يخلق لأجل أن يكون محلا للخلود والبقاء الأبدي، وأن نفوس البشر وأجسادهم لم تركب فيهم على نحو يرغبهم في الخلود فيه أبدا حتى وإن قدرنا على سبيل التنزل أن استطاعوا بلوغ أسباب ذلك في يوم من الأيام!

ولهذا ترى القوم يطمعون ليس فقط في تخليد الإنسان في هذا العالم، ولكن في تغيير خلق الله في الإنسان تغييرا جذريا، بإعادة صياغة خصائص الإنسان النفسية والجسمانية كلها، مع تغيير العالم نفسه ونظامه وسننه المطردة، حتى يصبح هو جنة الخلد التي لا يمل "الإنسان المعدل" من المكث فيها أبد الدهر كما يطمعون! فإنهم لو قدر لهم – تنزلا - أن مكنوا رجلا من أن يخلد في العالم على صفته التي هو عليها، فلن يعمر طويلا حتى تراه يرجو الموت أو يقتل نفسه من شدة الملالة والسأم! فالمطلوب إذن، حتى يحصل لهم الخلود في النعيم الأبدي الذي وعد به المرسلون أتباعهم في الآخرة، يجعلونه هنا في هذه الحياة الدنيا نفسها، أن نصبح معاشر البشر قادرين (نوعا) على أن نعيد خلق السماوات والأرض كلها وتعديل قوانينها وسننها كما نشتهي، ونعيد خلق النوع البشري نفسه كما نحب، كما تقدم نقل العبارة عن معناه في كلام "نقولا تيسلا" في مستهل هذا الفصل. ومن الواضح أن هذا أمر يتطلب أن يتصف المخلوق الناقص القائم بغيره ضرورة، بصفات الرب كامل العلم، كامل القدرة، القائم بنفسه لا بغيره، الذي يتعلل به كل شيء وتنتهي إليه سائر الأسباب بالضرورة، وهو محال!

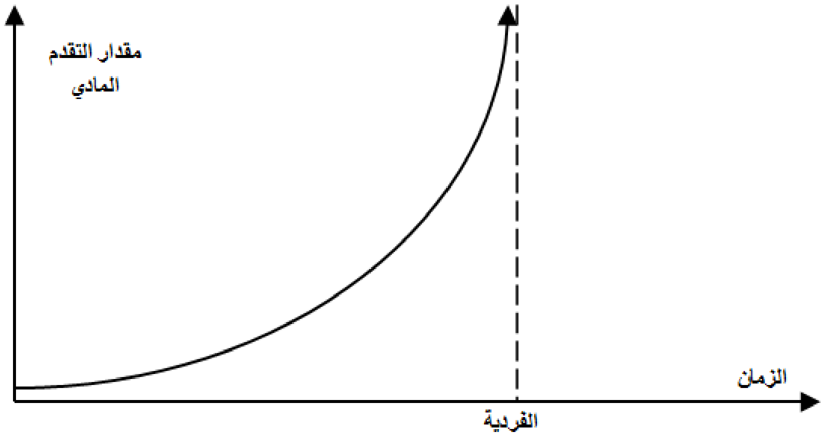
ومع أن أكثر أسباب الموت انتشارا في الأرض كان ولم يزل هو الهرم والشيخوخة وتردي الجسد وتهالكه، إلا أن هذا ليس هو سبب الموت الوحيد الذي يعرفه البشر، وإنما هو سبب من أسباب شتى، منها ما يعرف شهادة، كالإصابة بمرض قاتل أو الغرق أو الاحتراق أو التردي من مكان عال أو القتل أو التعرض لصاعقة قاتلة أو نحو ذلك، ومنها ما لا يعرف الناس له سببا في عالم الشهادة، كالسكتة الدماغية أو القلبية المفاجئة مثلا، التي حسبك باسمها عند الأطباء (السكتة) دليلا على جهلهم التام بسببها! فالأسباب تختلف وتتنوع تنوعا كبيرا، ما بين أسباب محسوسة وأسباب غيبية، ويبقى الموت حقا لازما واقعا على كل إنسان لا محالة، مهما طال في الأرض بقاؤه! فمن محض العبث والكذب على النفس ادعاء هؤلاء أن الموت إنما هو مرض يرجى للنوع البشري التغلب عليه في يوم من الأيام!

ونقول إن الاعتقاد بوجوب الموت على كل نفس، وأنه لا خلود لبشر في الأرض، هو من المعلوم من الدين بالضرورة، فلا يجوز لمسلم أن يقبل هذا السفه من هؤلاء السفهاء، يرجو في يوم من الأيام أن يتمكنوا من نقل روح الإنسان إلى جهاز كمبيوتر أو إلى جسد جديد أو نحو ذلك، في سبيل تخليده في الأرض! قال رب العالمين تبارك وتعالى: ((الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)) [آل عمران : 168] وقال تعالى: ((كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ)) [آل عمران : 185] وقال تعالى: ((أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ)) الآية [النساء : 78] وقال تعالى: ((وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ)) [الأنعام : 61] وقال تعالى: ((كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)) [الأنبياء : 35] وقال تعالى: ((حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ)) [المؤمنون : 99] وقال تعالى: ((كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)) [العنكبوت : 57] وقال تعالى: ((قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)) [السجدة : 11] وقال تعالى: ((قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً)) [الأحزاب : 16] وقال تعالى: ((اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)) [الزمر : 42] وقال تعالى: ((وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ)) [قـ : 19] وقال جل شأنه: ((نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)) [الواقعة : 60] وقال تعالى: ((قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)) [الجمعة : 8] وقال سبحانه: ((وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا

أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ)) [المنافقون : 10] وقال تعالى: ((الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)) [الملك : 2] وقال تعالى: ((وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)) [الأنعام : 60] وقال تعالى: ((وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى)) الآية [هود : 3] وقال تعالى: ((قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَـمًّى)) الآية [إبراهيم : 10] وقال تعالى: ((وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ)) [النحل : 61] وقال جل شأنه: ((وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً)) [فاطر : 45] وقال تعالى: ((يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)) [نوح : 4] وقال تعالى: ((وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ)) [الأنبياء : 34] وقال تعالى: ((إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ)) [الزمر : 30] وقال تعالى في بني إسرائيل: ((وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)) [البقرة : 96] وقال تعالى: ((وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ)) [يس : 68] وقال تعالى: ((ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ)) [المؤمنون : 15]

أسطورة الفردية التكنولوجية Technological Singularity

وأما القول بما يسمى بالفردية التكنولوجية Singularity، فقد أسسه عالم الرياضيات الأمريكي فرنر فينج Vernor Vinge في عام 1993 من الميلاد، على ملاحظة مفادها أن التكنولوجيا البشرية لم تزل في تقدم متسارع، بمعنى أننا على امتداد ألفي سنة لم ننجز في مجال التكنولوجيا وأسباب تسهيل حياة الإنسان على الأرض كما أنجزناه في القرنين الأخيرين، ولم ننجز في المئة سنة الأخيرة نصف ما أنجزناه في العقدين الأخيرين، وهكذا! فلما رسم القوم منحنى تقديريا لتصاعد التراكم التكنولوجي وتطوره المتسارع هذا، وجدوه يبدو وكأنه ماض إلى نقطة يبلغ التطور أو التقدم فيها أن يكون لا نهائيا Infinity في سنة واحدة أو أقل من ذلك!



وهذا ولا شك من أظهر مغالطات طرد الأقيسة والنماذج الرياضية بلا حد ولا قيد، الراجعة عندهم إلى الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism. ذلك أن العقل والنقل والفطرة والعادة يمنعون جميعا من أن تظل أمة من البشر تتزايد في التمكن من الأسباب المادية ويزداد حظها من تراكم تلك الخبرات والصناعات لديها حتى تصل إلى نقطة يتحصل لها عندها العلم الكاشف Omniscience بقوانين الطبيعة والإحاطة بجميع أسباب السماوات والأرض، كما هو مفهوم تلك الفردية المزعومة! ثم إنه ليس البشر في الأرض أمة واحدة أصلا، حتى تنسب إليها تلك "الفردية" المزعومة، بل أمم شتى، وكل واحدة منها لها ما تمكنت منه وما تخلفت فيه، فلا تزال الأمم تتكامل وتتنافس وتتبادل الخبرات والمنافع وتتصارع وتتنازع، يعتمد بعضها على ما عند بعض، ولا يزال ذلك التبادل يتزايد مع تنامي وسائل الاتصال وحفظ المعلومات، من غير أن يكون لأمة واحدة من تلك الأمم سلطان شامل على جميع موارد الأرض أو تحكم وسيادة على جميع دوائر البحث التجريبي والعلم التطبيقي والإنتاج والصناعة والتكنولوجيا في العالم! وحسبك بشبكة الإنترنت دليلا على ما نقول! فليس التراكم المعرفي والصناعي في المجتمع البشري (هكذا) بهذا الاختزال التسطيحي وتلك السخافة في التصور!

ولهذا ترانا نقرر في غير موضع من هذا الكتاب، وكما يأتي بسط الكلام عليه في موضعه، أنه ليس كل ما يجيزه القياس أو النمذجة الرياضية فهو جائز في الأعيان! فليس التعبير الرياضي أو الجيومتري إلا قياسا من الأقيسة يفترضه الباحث ليصف ما هو واقع في الأعيان، بتجريد العلاقات بين الكميات المنفصلة أو الكميات المتصلة في تعبير جار على لغة أهل الصنعة. فتجد المعادلة – مثلا – قابلة مبدئيا للإعمال على قيم صغيرة للغاية لمتغيراتها، كما أنها تقبل كذلك الإعمال على قيم عظيمة جدا لنفس المتغيرات، فتطرد في ذلك بصرف النظر عما إذا كان ذلك المتغير يمكن أن يبلغ تلك القيم في الواقع تحقيقا أم لا يمكن ذلك! ولكن لسفاهة الطبيعيين وفساد أصولهم

المعرفية ولكفرهم بالغيب وما فيه، فإنك لا تزال تراهم يستعملون النماذج الرياضية التي ربما صدق وصفها للواقع في دائرة معينة (كما قد يظهر في هذا المنحنى نفسه في الجزء الأول منه)، في إثبات أعيان أو حوادث في الخارج تصادم صريح العقل وصحيح النقل والفطرة السوية، بل وتخالف العادة المطردة التي كرهوا أن يثبتوها ويعترفوا بها في نفس الأمر، ثم ترى أحدهم يقول بكل سفاهة: إن "أثبت العلم الحديث" Science (وما هو في مثل هذا إلا تنطع الطبيعيين على نماذجهم وأقيستهم الرياضية) أن مجموع الواحد والواحد لا يساوي الإثنين كما كان هو اعتقاد الكافة من العقلاء، تعين علينا قبول ذلك والتسليم به!

في عام 1999 الميلادي، نشر عالم الكمبيوتر والداعية المستقبلاني الأمريكي ريموند كورزويل Ray Kurzweil كتابا تحت عنوان "عصر الماكينات الروحانية: عندما تفوق الكمبيوترات الإنسان ذكاءً" The Age of Spiritual Machines: When Computers Exceed Human Intelligence، تنبأ فيه بأن عصر الذكاء القوي Strong AI قادم قادم لا محالة، وحدد له تاريخا محدده، ألا وهو عام 2029 الميلادي! ولأنه ألف الكتاب على مطلع القرن الواحد والعشرين، فقد كانت له آمال عريضة فيما زعم أنه سيحصل في العشرين سنة الأولى في مستهل القرن! فوضع الفصل التاسع من كتابه في التنبؤ بما سيكون عليه الحال في 2009! وفيه قال:

> نحن الآن في 2009 ..... الحواسب الشخصية الآن متوفرة في أحجام وأشكال شتى، ومن المعتاد أن تراها مبطنة في الملابس والمجوهرات كساعات المعصم والخواتم والحلق وغير ذلك من الزينة. والكمبيوترات التي لها واجهة استعمال بصرية عالية الدقة تتفاوت ما بين الخواتم ودبابيس الملابس وكروت البنوك وصولا إلى حجم كتاب رفيع. والناس معتادون على أن يكون لدى أحدهم على الأقل دستة من الكمبيوترات تعمل على أجسامهم ومن حولها، وهي مرتبطة كلها بشبكة اسمها Body LAN. هذه الكمبيوترات توفر خدمات اتصال شبيهة بالهواتف المحمولة والبيجر ومتصفحات الإنترنت، فتقوم بمراقبة وظائف الجسد، وتوفير شخصية آلية (للقيام بالتعاملات المالية والسماح بالدخول في الأماكن المتي عليها أمن)، وتعرف صاحبها باتجاهات الحركة وخدمات أخرى كثيرة (........) أغلب النصوص المكتوبة إنما تكتب باستعمال الإملاء الصوتي للكمبيوتر، وإن كانت لوحة المفاتيح لا تزال تستعمل أحيانا (........) لقضاء الأعمال الروتينية، كتعاملات العمل المعتادة واستفسارات العملاء ونحو ذلك، فإن نظم LUIS (واجهات التعامل اللغوي) بالغة التجاوب والدقة. وتميل لأن تكون مركزة تركيزا دقيقا على مهام محددة.

> وغالبا ما تجدها مركبة على شخوص مجسمة. فالتعامل مع الشخوص المجسمة لقضاء عملية شراء أو لحجز رحلة طيران هو كالكلام مع شخص باستعمال مؤتمرات الفيديو Videoconferencing، بيد أن الشخص في هذه الحالة يكون شخصا افتراضيا.

قلت: وها نحن قد جاوزنا 2009 إلى 2018، فأين تأويل هذه النبوءات الخيالية المستقبلية المثيرة؟؟ فتأمل إذن في نبوءات صاحبنا لسنة 2019، في الفصل العاشر (أي ما ينبغي أن نتوقع أن نراه من حولنا بعد ستة أشهر فقط، بحسب صاحبنا كورزويل!)! قال:

> الكمبيوترات الآن (يعني في 2019) خفية على الأكثر. فهي مبطنة في كل شيء، في الجدران في المناضد، في المقاعد، في المكاتب، في الملابس والمجوهرات وأجسام البشر (.......) الناس الآن تقرأ الكتب والوثائق إما من خلال شاشات محمولة في الأيدي، أو، وهو الأغلب، من خلال نصوص تظهر لهم في البيئة الافتراضية دائمة الوجود، باستعمال وسائل العرض الموجهة للعين. أما الكتب والوثائق الورقية فقد باتت نادرة الاستعمال للغاية. أكثر وثائق القرن العشرين ذات الأهمية قد تم نسخها رقميا، وهي الآن متوفرة خلال الشبكات اللاسلكية. أغلب عمليات التعلم تحصل من خلال برامج ذكية تحاكي الأساتذة. وفي حالة حصول التدريس على يد مدرس بشري، فإنه لا يكون جالسا في نفس المحلة التي فيها التلميذ (.......) وعلى العموم، فإن الإعاقة بالعمى أو الصمم أو الشلل لم تعد ظاهرة للناس، ولم تعد تعد أمرا ملفتا (......) الغالبية العظمى من التعاملات تجري بواسطة أفراد افتراضيين، يظهرون في صورة أشخاص مجسمة بالغة الواقعية. (......) والوعي آخذ في التنامي بمخاطر الانتشار الواسع لتكنولوجيا الهندسة الحيوية بين الناس. فقد أصبحت الوسائل متوفرة لأي أحد لديه من الدراية والأدوات ما هو متحقق في أي طالب جامعي، ليصنع أمراضا لها تأثير بالغ التدمير .....

قلت: لا تعليق!

دستة حواسب دقيقة على الجسم وفي المجوهرات وفي الملابس وفي العين وفي القفا وفي دبوس الكرافات ... إلخ، أي هذيان هذا؟؟! قارن هذا الهراء بواقع الناس اليوم، في منتصف 2018، وسترى جهازين فقط على كل امرئ منهم حتى في أكثر دول العالم تقدما، الهاتف الذكي والحاسوب المتنقل أو اللوحي!

فهل يعني هذا أن جميع ما ذكره هذا المخرف هو الآن خارج عن قدراتنا التكنولوجية أن نصنعه؟ أبدا! ولكن ليس كل ما يصبح في مقدور الصناعة البشرية أن تنتجه، فإنه يصبح بالضرورة منتجا له سوق رائجة يتوقع أصحاب تلك الصناعات أن يلقى رواجا ويتلقى بالقبول بين الناس، وليس كل ما يدخل في دائرة الجواز من الناحية التقنية، فإنه يكون بالضرورة مربحا اقتصاديا للشركات القائمة بإنتاج هذه النوعية من الآلات، حتى تنتجه إنتاجا كميا على النحو الذي يحلم به هؤلاء السفهاء! لقد تمكن المهندسون من اختراع سيارات تجري بالكهرباء بدلا من البنزين من القرن التاسع عشر الميلادي، ومع هذا لم نرها إلى الآن ولا لمرة واحدة في أي شارع من شوارع العالم! فما السبب في هذا؟ السبب هو أن المجتمع البشري مشحون بالمتغيرات التي تحرك ميوله التكنولوجية وتعرف احتياجاته وتطلعاته في ذلك الشأن، لا أن الاختراع الجديد إذا ظهر، فسيغير جميع تلك المتغيرات لصالحه حتى يصبح هو السائد بين الناس، ويصبح الانتقال منه إلى الخطوة التي تليه في سلم التطور التكنولوجي المأمول، مسألة وقت لا أكثر!

والواقع أن القائلين بتلك الفردية المزعومة يعتقدون أن العمل الذي سيوصل إلى وقوعها في النهاية ليس هو عمل الإنسان وإبداع الإنسان وفكره وتراكم المعارف لديه، وإنما هو عمل ماكينات الذكاء الاصطناعي القوي أو البشري Strong AI [67] كما يسمونه أو الذكاء الاصطناعي العام General Artificial Intelligence (ويقصد به تلك الماكينات المصممة لتقوم بجميع وظائف العقل البشري، بما فيها الخيال والإبداع والوعي الفردي!) التي ستبلغ بحسبهم (بسبب القوة الحاسوبية الرفيعة وتكنولوجيا الحوسبة الكوانطية وغير ذلك، وبسبب قدرة الماكينة الواحدة على تخزين جميع معارف البشر تقريبا) أن تكون ذكاء خارقا Superintelligence، ومن ثم تتولى هي – بزعمهم – مسيرة الريادة والإبداع والتطوير الحضاري واكتشاف أسباب العالم وقوانينه واستعمالها، لصالح الإنسان أولا، ثم تثور عليه وتقلبه وتعمل لصالح نفسها! فبمجرد أن تتولى تلك الماكينات مسيرة الإبداع والتطوير والاكتشاف والبحث العلمي، فستحدث تلك الطفرة الفاحشة التي يعتقدون أن عقولنا الضعيفة لن تقدر – أصلا – على تصورها.

ولا شك أن التنبؤ بخلق الذكاء الاصطناعي المماثل لعقل الإنسان، خرف محض، وأنه يرجع إلى اعتقاد الدهرية الطبيعيين – بناء على الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism – أن العقل البشري والوعي الإنساني Consciousness إنما هو تلك الإشارات الكهربية والأنشطة البيوكيميائية التي تجري في المخ والجهاز العصبي، لا أكثر ولا أقل! لهذا استغل القوم الإجمال الظاهر في مصطلح Intelligence (ذكاء) نفسه، ليقصروا العمل الذهني والقلبي والوجداني في الإنسان في جملة من الأنشطة المخية والعصبية الظاهرة لهم، ثم اختلفوا في قياسها أو في الطريقة الأنسب "لنمذجتها" نظريا. فكان السائد في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي (مع ثورة الحوسبة والبرمجة) قياسها على عمل الكمبيوتر، وهو ما يعبر عنه الفلاسفة بمصطلح الكمبيوترية أو الحاسوبية Computationalism، أو النظرية الحاسوبية في عمل الذهن The Computational Theory of Mind! وليس المقصود بقياسها على عمل الكمبيوتر أنهم كانوا يعتقدون أن العقل البشري جهاز كمبيوتر عضوي (وإن كان قد بلغ بعضهم ذلك المبلغ)، ولكن كانوا يزعمون أن الطريقة التي يعمل بها العقل البشري هي نفس المبدأ الحاسوبي المسمى إجمالا "بحوسبة تورينك" Turing Computation.

ففي النصف الأول من القرن الميلادي الماضي، نشر عالم الرياضيات البريطاني ألان تورينك Turing بحثا تصور فيه آلة حاسوبية افتراضية سميت

بآلة تورينك Turing Machine، صارت هي أساس علم الحواسب Computer Science فيما بعد. تقوم الآلة بمعالجة الحروف والرموز اللغوية Linguistic Symobls معالجة لوغارتمية Algorithmic Processing (أي جارية على وفق مجموعة من القواعد أو الإجراءات المبرمجة سلفا Algorithms)، لتصل بها إلى النتيجة المطلوبة عند المبرمج، حيث فرض تورينك وجود معالج افتراضي يجري على شريط متصل لا نهائي الطول من الوحدات المتلاصقة لتخزين البيانات، كل وحدة منها تتسع لأن يوضع فيها حرف واحد فقط (1) أو (0)، والمعالج يمر عليها مرورا خطيا، فإما أن يكتب الحرف (1) أو (0) أو يمحو ما في الوحدة الواحدة من بيانات، يأتي بذلك الإجراء في خطوة، ثم يتحرك على الشريط إلى موضع الوحدة المطلوبة يمينا أو يسارا، ثم يأتي بإجراء آخر، ثم ينتقل إلى وحدة أخرى، وهكذا، حتى يتم المطلوب من تشغيل البرنامج. بناء على هذه الفكرة، تصور تورينك إمكان تنفيذ أي مهمة من مهام المعالجة اللفظية أو الحسابية باستعمال سلاسل برمجية من إجراءات كلها تقوم على تلك المعالجات. والواقع أنك لو سألت أي متخصص في علوم الكمبيوتر لقال لك إنه لا يخلو أي جهاز من أجهزة الحاسب من تطبيق مبدأ آلة تيورينك بصورة ما أو بأخرى!

ولا شك أن تصميم الآلات القائمة على تلك الفكرة (إجمالا) أو على غيرها، لقضاء الحوائج والمصالح المختلفة التي يطلب الإنسان قضاءها من استعمال الحواسب، هو أمر حسن ومرغوب ولا شيء فيه، بل إنه يبلغ عندنا معاشر المسلمين أن يكون فرض كفاية تأثم الأمة كلها إن لم ينهض به أحد من المسلمين، كما لا تراه عند أهل الملل الأخرى، بما فيها الإنسانيون وأصحاب مذهب الترانسهيومانية! ولكن الشطط كل الشطط والسخف كل السخف يظهر عندما يزعم أصحاب علوم الحاسب جواز أن يتمكنوا في يوم من الأيام من أن يخلقوا نظام تورينك، أو نظاما حاسوبيا ما Computational System أيا ما كانت فكرته، يبلغ من الذكاء الاصطناعي ما يحاكي به العقل والنفس البشرية في جميع خصائصها! وأكثر من ذلك، عندما يظهر من يختزل العقل البشري نفسه إلى آلة تورينك بالغة التعقيد، ثم يجمع الأموال والموارد في محاولة التوصل لتصميم جهاز كمبيوتر فيه من الوعي والحياة ما يستحق به أن يعامل معاملة بني آدم، أو بعبارة أخرى: يبذل الوسع في محاولة خلق إنسان مثله! فهنا يجب أن تكون لنا معاشر المسلمين وقفات ووقفات! هذه أجندة دينية لطائفة من طوائف الدهرية الطبيعيين المعاصرين، وليست مطلبا بحثيا مستساغا يحصل به النفع للناس!

وقد دخل ألان تورينك نفسه في حياته في سجال وجدل طويل عندما جنح به طموحه إلى القول بأنه من الممكن – مبدئيا – صنع آلة حاسوبية تقوم بكافة وظائف العقل البشري. ولم يكن هو في الحقيقة أول من قال بذلك، ولكنه كان من أبرز القائلين به في زمانه. فلما كان القوم يتنازعون حول ما إذا كان من الممكن للحاسوب أن يستكمل أركان النفس البشرية والعقل البشري والروح الإنسانية .. إلخ، ذهب تورينك، فيما يبدو أنه قد استلهمه من كلام قديم لرينيه ديكارت [68]، إلى وضع اختبار عملي كان يراه حاسما للنزاع في المسألة، بحيث إن اجتازته الآلة الحاسوبية، صح إذن أن يعتبر ذكاؤها ذكاء بشريا نوعا Strong AI وإذن يصح اعتبار تلك الآلة نفسها "شخصية واعية" Self-Aware Person وأن تعامل كما يعامل بنوى آدم، بصرف النظر عن الأبعاد الغيبية والعمق الوجودي الميتافزيقي للمسألة! فقال (فيما بات يعرف أكاديميا وإعلاميا باختبار تورينك Turing Test) ما معناه: دعونا نُخضع الآلة المراد الحكم عليها لجملة من الأسئلة المصممة بإحكام بحيث إن قدر أن لم يظهر أي فرق في جوابها بين أداء الآلة محل الاختبار وأداء الإنسان الطبيعي، عددناها إذن مساوية للإنسان في كافة الاعتبارات العقلية، ولم نجد ما يدعونا للتفريق بين عقل تلك الآلة وعقل الإنسان. ونقول إن هذا المسلك فيه من الاختزالية الظاهرة ما لا يخفى، وقد كان سببا في نقيض ما كان يرجوه تورينك في الوسط الأكاديمي، إذ بعث على اتساع رقعة النزاع لا على حسم القول فيه!

ولا عجب في ذلك، إذ قد أكب القوم – بما فيهم تورينك نفسه – على بحث المسألة انطلاقا من حدود وتعاريف كلية مجملة للغاية، لكل من "العقل" Mind والذكاء Intelligence والوعي Consciousness والشخصانية Personhood بل وحتى مفهوم الحوسبة نفسه Computation الذي هو موضوع علم الحواسب Computer Science! ولا شك أن المنتفع الأول المستفيد من جريان البارادايم التورينكي Turingian Paradigm / Turing Machine Paradigm في بحث قضية الذكاء الاصطناعي، على تلك المصطلحات المجملة المشتبهة، إنما هم الدهرية الطبيعيون أصحاب الفكر المستقبلاني أو الترانسهيوماني! فعلى المفهوم التورينكي المجمل الفضفاض لعملية الحوسبة Computation (التي هي موضوع النمذجة والتصميم البرمجي في علوم الحواسب)، يجوز أن يعد عمل العقل في الإنسان عملا حوسبيا أو حاسوبيا Computational! أليس العقل البشري تدخل إليه من طريق الحس مدخلات Input Data تجري عليها عمليات فكرية ومعرفية معينة Cognitive Processes ينتج عنها مخرجات Output تظهر في النهاية إما في صورة سلوك قولي أو فعلي أو في صورة مفردة معرفية جديدة Cognition تضاف إلى محصول المعارف عند صاحب ذلك

العقل؟ الجواب المجمل بادي الرأي هو: بلى! فعلى هذا، يصبح من المقبول مبدئيا عند علماء الحواسب أن يُلتمس وضع نماذج رياضية Models باستعمال المنطق البرمجي Programming Logic لتوصيف العقل البشري بكليته! وإذن تصبح مهمة بحث عملية الاستعراف نفسها في الإنسان Cognition من اختصاص علماء الرياضيات عامة والمتخصصين منهم بعلوم الحاسب الآلي خاصة Computer Scientists على اعتبار أن الاستعراف العقلي Cognition ليس إلا عملية حوسبة Computation!

وقد اختلف القوم في إطار ذلك البارادايم الكلي في تعريف الاستعراف والوعي وغير ذلك من خصال العقل البشري على مذاهب، كلها راجعة إما إلى أصل أحادية المادة Substance Monism (وهم القائلون بأن العقل والمخ شيء واحد!) أو أصل الثنائية الخصائصية Property Dualism (القائلون بأن العقل شيء والمخ شيء آخر ولكن كلاهما من صفات وخصائص وعمل المادة التي يتركب منها المخ)، فمنهم من سموا بالوظائفية Functionalists نسبة إلى مذهب سمي بالوظيفية الميكنية Machine Functionalism، بالنظر إلى كونهم لا يرون العمل العقلي إلا جملة من الوظائف البرمجية Computational Functions التي إذا تحققت في شيء ما، أيا ما كانت حقيقة ذلك الشيء، فهو "عقل"! ولكن نحن معاشر العقلاء عامة، والمسلمين خاصة، نعلم بالبداهة والاضطرار أن العقل البشري أعمق غورا من هذه العملية الاستعرافية المعينة التي اختزله إليها التورينكيون في إجراءات شكلية صرفة وفي تسطيح بالغ! ثم إننا نعلم كذلك أن عمليات الاستعراف نفسها، لا تجري في الإنسان على هذا النحو الميكني Mechanistic الساذج الذي جعلوه هو غاية ما هنالك! إن هذا المسلك منهم يعد من أظهر الأمثلة على مغالطة الاختزالية الوجودية Ontological Reductionism، وفيه دور منطقي عند التأمل! فهم يبدؤون بتعريف وظيفة معينة من وظائف العقل بجملة من أنشطته السلوكية الظاهرة لهم، ثم ينتقلون إلى تعريف العقل نفسه بناء على تلك الوظيفة، فتصبح هي العقل!

وقد كان ذلك التنظير التورينكي في تصور العمل العقلي ونمذجته هو السائد أكاديميا، حتى ظهر في الثمانينات من القرن الميلادي الماضي مذهب حاسوبي آخر يقال له Connectionism، يختزل أصحابه العقل في نشاط المراكز العصبية Neurons في المخ، واتصالها مع بعضها البعض، فيتأولون تلك الاتصالات بنمذجة حاسوبية تختلف بعض الشيء عن التصور التورينكي في تفصيل فكرة الحوسبة وطريقتها لا في المبدأ الحاسوبي نفسه. وبرى بعض أنصار ذلك المذهب أنه أحسن في توصيف العقل

البشري ومحاكاته، نظرا لأن التأويل الغالب الآن فيسولوجيا للعلاقات البيوكيميائية والاتصالات الكهربية المشاهدة داخل أنسجة المخ، هو ما يسميه بعضهم بالشبكة النيورونية Neural Network، فالعقل عندهم هو تلك الشبكة نفسها! وإذن فإذا كان من أنموذج حاسوبي يناسب "العقل" البشري عند تكلف محاكاته حاسوبيا بغرض إنتاج عقل بشري كامل في جهاز كمبيوتر، فلا غرو أن يكون هو أنموذج الشبكة النيورونية وليس أنموذج نظرية تورينك، لأن ماكينة تورينك تختزل من عمل المخ ما لا تختزله نظرية الشبكة!

وقد ذكرنا في موضع آخر من هذا الكتاب أننا لا نرى بأسا في استعمال الاختزالية التصورية Reductionism عند التنظير والنمذجة العلمية لخدمة أغراض مقبولة عقلا وشرعا، داخلة مبدئيا في إطار قدرة الإنسان على التصور والقياس والنمذجة، على أساس أننا لا نجد – بموجب مخلوقيتنا ومربوبيتنا - مفرا من الاختزال في تصور الواقع على أي حال. فإنه مهما حاول الإنسان أن يدرس ظاهرة ما أو عملية ما من العمليات الواقعة تحت الحس فإنه لن يستطيع بحال من الأحوال أن يتتبع جميع الأسباب والمتولدات السببية والشروط والموانع التي تحصل بسببها الظاهرة محل البحث، وإنما سيقتصر – لا محالة – على انتقاء جملة من الأسباب الظاهرة التي تدعوه الحاجة إلى تتبعها واستكشاف العلاقات الرابطة فيما بينها وبين الظاهرة محل البحث. وقد سمينا هذا النوع من الاختزال بالاختزال التنظيري أو الأداتي Instrumental Reductionism، خلافا للاختزالية الوجودية Ontological Reductionism حيث يعتقد الباحث صاحب الأنموذج التنظيري (الذي هو متلبس فيه بالاختزالية الأداتية لا محالة كما تقدم) اقتصار الأسباب في الواقع الخارجي على ما اشتمل عليه أنموذجه الاختزالي من عوامل ذات صلة بالظاهرة المبحوثة، فما عدم في أنموذجه فهو منعدم في الخارج، أو للدقة: كل ما لا يجد طريقا أو داعيا لإدخاله في أنموذجه كعامل سببي ولو على سبيل الافتراض، فهو منعدم في الخارج! هذا ما نراه ضربا من الجهل والسفسطة ومن مغالطة "عدم العلم لا يعني العلم بالعدم"! فهنا عندما يعرف الحاسوبيون مبدأ العمل العقلي البشري نفسه على أنه عملية حاسوبية (نوعا)، فهم بذلك يتلبسون بالاختزالية الوجودية تلبسا أساسيا Fundamental أو باراديميا إن شئت، ينفون على أثره غيب النفس والعقل لا على أساس إلا التحكم والدفع بالصدر! وهم كذلك يدخلون – بالتبعية - في مفهوم الحوسبة الآلية (التي هي صنعتهم) ما ليس منه، إذ يصبح من المرجو تصميم حواسب تستوفي أركان العقل البشري، لأن العقل البشري إنما هو جهاز حاسوبي عضوي من حيث المبدأ!

ولهذا نقول إنه حتى لو فرضنا جدلا أن صُنع في يوم من الأيام حاسوب فيه من "الذكاء الاصطناعي" ما يوهم من يحاوره بأنه إنسان، فإن هذا لا يعني ولا يقتضي بحال من الأحوال تجويز الحكم على ذلك الحاسوب بأنه قد بلغ منزلة العقل الإنساني والنفس الإنسانية! فإن هذا المعيار في الحكم قائم على ذلك التعريف الاختزالي الوجودي للعقل الإنساني وللذات الإنسانية Human Self، الذي يقصر القضية كلها فيما يتفق ظهوره للقائم بالاختبار من براعة في المعالجة اللغوية Linguistic Processing! فلا يخفى أن الذي يرتضي هذا المعيار، لابد أن يسلم أولا بصحة المذهب السلوكي Behaviorism عند النفسانيين، وهو ذلك المذهب الذي يقتصر مفهوم السلوك فيه Behavior عند الإنسان والحيوان على كونه رد فعل أو نتاج لحفازات خارجية Stimuli أو داخلية يُقتصر في إثباتها (في صورة صارخة من صور الاختزالية الوجودية التي حررنا معناها آنفا) على المشاهدة التجريبية المباشرة. فبناء على هذا المذهب، تصبح المحاكاة بالغة الدقة للسلوك الإنساني Behavioral Simulation، سلوكا إنسانيا على الحقيقة، ولا يلتفت لشيء مما يدعيه المخالفون فيما وراء ذلك السلوك! وهو ما يعبر عنه بعضهم بقوله: "إن كانت تظهر في صورة البطة وتحدث صوت البطة، فهي إذن بطة"!

ولكن واقع الأمر أن المذهب السلوكي هذا يعرف بطلانه بالبداهة، فالروح وإن كانت أمرا غيبيا محضا، إلا أنه لا يفتقر في إثباتها إلى برهان نظري أو حتى إلى دليل عقلي، تماما كما أن العقل نفسه لا نثبته لأنفسنا ولا لغيرنا من بني آدم بالاستدلال النظري الجدلي فضلا عن التجريب والمشاهدة والحس! وجود الروح في الإنسان هو أمر معلوم بصورة أولية أساسية (أو ما يسميه بعض الفلاسفة بالاعتقاد الأساسي Basic Belief كاعتقادنا بمخلوقيتنا ومربوبيتنا وبأن لنا عقولا على الحقيقة وبأن العالم موجود على الحقيقة وبأن ما مررنا به في الماضي من حوادث قد وقع لنا حقيقة لا وهما .. إلخ) [69]. وكذلك فإن للروح والنفس البشرية خصائص نعلم علما بدهيا أوليا أنها تتصف بها، ولا نفتقر إلى ما يثبتها لنا أو يدلنا عليها، ومن ذلك أنها تقبض عند الموت، وأن الحياة في الجسد من لوازم وجودها فيه، فلا يقال للإنسان إنه حي إلا والروح فيه، ولا يحكم بموته إلا وقد حكم بخروج الروح منه ضرورة. ونعلم كذلك أن للنفس البشرية ميولا ونوازع وخصالا قد جاء القرآن بمصداقها في وصف الإنسان، وهي خصال يعرفها كل واحد منا في نفسه ويجدها بداهة دون أن يتكلف إثباتها بالعقل أو بالقياس أو بأيما طريق من طرق النظر، كحرص النفس على الاستكثار من الخير واجتناب الشر، وحب النفس للدعة والراحة وكراهيتها للعمل والحركة، وحب النفس للشهوات والملذات وللعلو والسيادة واستثقالها لمفارقة الشهوة وللخضوع

والانقياد والعبودية، وافتقارها إلى كثير من الترويض والمراقبة والتطبيع حتى تنطبع على خلاف تلك الخصال والنقائص، إلى غير ذلك. فهذا كله ونحوه لا يمكن إثباته أو نفيه عن الإنسان ولا عن الآلة من طريق اختبار تورينك هذا، مع أننا كلنا نقطع بالبداهة بأننا لا نفصل بين تلك المعاني وبين حقيقة الكيان الإنساني نفسه، الذي يعد العمل العقلي والذهني والنفسي جزءا من صفاته! وتظل الآلة المتكلمة هذه آلة (التي هي محل اختبار تورينك) مجرد آلة مبرمجة على وفق خطوات إجرائية معينة Specific Algorithms نحن من وضعها لها، حتى تبدو "وكأنها" إنسان قادر على المحاورة! فكيف يكون اشتباهها الشديد بالإنسان في ذلك الاختبار دليلا على أنها قد صارت إنسانا بالفعل؟؟ هذا كما تقدم لا يقبله إلا من يقصرون حقيقة النفس الإنسانية والوعي الإنساني على تلك التعريفات الاختزالية السلوكية في البارادايم التورينكي، وهو أمر لا يلزمنا أن نقبله، بل العقل والنقل والفطرة تدلنا على خلافه!

ولهذا نشر الفيلسوف الأمريكي "جون سيرل Searle" في عام ثمانين وتسعمئة وألف من الميلاد، مثلا افتراضيا للنقض على تورينك أصبح يعرف فيما بعد ببرهان الغرفة الصينية Chinese Room، إذ تصور سيرل نفسه جالسا في غرفة مغلقة، لا يراه الناس من خارجها، ومعه كتاب فيه شرح وتوصيف توجيهي مفصل (أو بلغة الكمبيوتر: لوغاريتمات Algorithms)، يشرح كيفية التعامل مع أي سؤال يكتب باللغة الصينية، وكيفية كتابة (أو بالأحرى رسم) الحروف الصينية التي تفيد بالإجابة عنه. فإن تصورنا أن وقف أناس صينيون خارج تلك الغرفة، وأدخلوا إليه من وراء الباب سؤالا مكتوبا على ورقة، وقام سيرل بمقارنة أشكال الحروف والرموز الصينية في الورقة بالبيانات التي بين يديه، فوقع على إجابة السؤال مكتوبة باللغة الصينية، فقام بنقلها على ورقة ثم ردها إليهم، فحينئذ لن يجد هؤلاء الصينيون سببا في اعتقاد أن الذي أجابهم عن سؤالهم لا يعلم اللغة الصينية، ولا سببا في اعتقاد أنه لم يفهم من سؤالهم حرفا واحدا، مع أن الواقع أنه لم يفهم شيئا على الإطلاق، وإنما اتبع جملة من الإجراءات التفصيلية المحددة التي بها "حاكى" الطريقة التي يجيب بها الصينيون على ذلك السؤال، فبدا وكأنه أجابه مع أن الأمر ليس كذلك! فيقول سيرل إن هذا هو عين ما يقوم به الكمبيوتر الذكي عندما يتوجه إليه السائل في اختبار تورينك هذا بسؤال ما! لا يزيد على أن يجري جملة من الإجراءات اللوغارتمية التي لا يفهم منها شيئا على الإطلاق! فلا يكون الفضل فيما يزعمه صانعوه ذكاءً له راجعا إليه هو نفسه، وإنما يكون راجعا إلى مهارة القائمين على برمجته وتركيب تلك الإجراءات والخطوات الدقيقة فيه! ولا يكون الجهاز إذن عقلا

ولا ذكاء على الحقيقة، وإنما يكون برنامجا للمحاكاة البارعة Good Simulation لا أكثر ولا أقل!

والواقع أننا لا نحتاج إلى هذا المثل الطويل حتى نرى بجلاء أن الجهاز الذي يركب فيه الإنسان قدرة آلية على محاكاته في بعض أفعاله (وهي حقيقة كل آلة يقال لها "ذكاء اصطناعي"، بل كل آلة من صنع البشر عند التأمل)، لا يصح في العقل إلا أن يكون آلة تحاكي بعض أفعال البشر بصورة ما أو بأخرى، أما أن تصبح تلك الآلة إنسانا كصانعها فهذا لا يجيزه العقل أصلا! محال أن يصنع الصانع المصنوع شيئا من نفس نوعه، أي يوافقه في جوهره الذي به يمتاز عن غيره من أنواع الموجودات (وهو في هذه الحالة إنسانيته)، لأنه إذن يكون مساويا لصانعه، ولو قدر أن مُكن الصانع المصنوع – في أصل صنعته - من القدرة على صناعة مثل نفسه (على فرض جواز ذلك) لكان بذلك شريكا لصانعه في بعض صفاته، والرب الذي خلق الإنسان وخلق كل شيء، لا يجيز العقل ولا النقل أن يجعل لنفسه من بعض خلقه شريكا له في صفة الخلق نفسها! وهذه مسألة بدهية حتى فيما دون الرب جل شأنه من صانعين مخلوقين! لا يكون المصنوع مثيلا مساويا لصانعه لأن المصنوع مفتقر بالضرورة (بموجب مصنوعيته) لما لو افتقر إليه صانعه لما استطاع أن يصنعه! فالإنسان مفتقر للطعام والشراب ولغير ذلك مما يقتضيه كونه إنسانا، فلا يجوز في العقل أن يكون صانع الإنسان مساويا له في تلك النقائص وإلا ما استطاع أن يصنعه! وكذلك يقال في الروبوت المصنوع، فيه بالضرورة من النقائص النوعية ما لو قدر أن كان الإنسان (الذي هو صانعه) مماثلا له فيه، ما استطاع أن يصنعه ابتداء!

والقصد أنه إذا قيل ما الدليل العقلي على امتناع توصل الإنسان لأن يخلق إنسانا مثله، قلنا إن الفطرة والبداهة تقضيان بذلك قضاء منصرما! ثم إنه لا يخفى على عاقل أن كل مصنوع (م) قائم بصانعه (ص)، فإذا كان (ص) هذا نفسه قائما بصانع قد صنعه من قبل (ق)، لزم أن يكون بين (م) و(ص) من التفاوت كما بين (ص) و(ق). وذلك أن كل صنعة تليق بصانعها [70]، فإذا كان الصانع نفسه مصنوعا، وكانت صنعته محدودة بما حده هو لها (سواء عن عمد أو عن قصور في الصناعة)، كانت قدرته هو نفسه على الصنع والخلق محدودة بالضرورة بما حده له صانعه من قبله! فإذا كان الإنسان صنعة الباري الذي خلق كل شيء، والذي بيده ملكوت كل شيء، الذي يقوم به كل شيء ولا يقوم هو بشيء! كان تساوي خلقه بخلق غيره من المحالات الممتنعات ضرورة وبداهة! ولهذا شنع الله تعالى في القرآن أعظم التشنيع على من عبدوا غيره، وكأنهم قد تشابه الخلق عليهم، فاستوى عندهم خلق المخلوق الذي عبدوه من دون الله، بخلق الله سبحانه! هذه مسألة لولا

بداهتها ما حاجج الله بها المشركين في كتابه، كما في قوله جل شأنه: ((قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)) [الرعد : 16] وقوله: ((هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)) [لقمان : 11] وقوله: ((أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)) [النحل : 17]، وقوله: ((وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)) [النحل : 20] وقوله: ((وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً)) [الفرقان : 3] وقوله: ((أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)) [الأعراف : 191] وقوله: ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً)) [فاطر : 40] وقوله: ((قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)) [الأحقاف : 4] فالتفاوت بين الخالق والمخلوق في القدرة على خلق نوع ذلك المخلوق نفسه، مسألة بدهية ضرورية يؤسس عليها القرآن كما ترى، لا أنه يؤسسها هي نفسها!

ثم إننا نقطع بوجود الروح في الإنسان قطعا بدهيا أوليا كما تقدم، ولا نرى المكابر في ذلك إلا كمن زعم أنه لا موجود في الخارج إلا عقله هو، أو أنه ليس بمربوب ولا مصنوع أصلا! ووجودها من المعلوم من دين الله تعالى بالضرورة، قال تعالى: ((وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)) الآية [الأنعام : 93] وقال تعالى: ((اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)) [الزمر : 42] وقال تعالى: ((كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) الآية [آل عمران : 185] وقال: ((لِيَجْزِي اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)) [إبراهيم : 51] إلى غير ذلك! فالنفس تذوق الموت ثم تحاسب وتجزى على ما كسبت يوم القيامة، فمن كذب بالنفس أو الروح وأنكر وجودها، فهو كافر بالله واليوم الآخر قولا واحدا!

والروح أمر غيبي محض، وهو ما نعلمه بداهة كذلك! وقد شرفها الله تعالى بنسبتها إلى نفسه العلية في قوله جل شأنه: ((فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ)) [الحجر : 29] وقوله: ((وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ)) [الأنبياء : 91] ((ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ)) [السجدة : 9] وإذا كان النبي عليه السلام لم يعلمه الله شيئا عن حقيقة الروح، وهو خاتم الرسل وأشرفهم صلى الله عليه وسلم، وقد جاءه بنو إسرائيل يسألونه عن أمرها تعنتا وتحديا، فما زاد على أن أنزل عليه قوله تعالى: ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)) [الإسراء : 85]، فمن ذا الذي يزعم لنفسه علما بشيء من أمرها فوق ما جاء به القرآن والسنة من ذكرها؟؟! وإذا كان ذلك كذلك، فكيف يتصور في الإنسان أن يصنع آلة يجعل فيها عنصرا من عناصر النوع الإنساني هي بالنسبة له غيب محض، لا يعلم هيئته ولا حقيقته ولا كيفيته ولا شيء من أسبابه البتة؟ ومن من المبرمجين أصحاب برامج الذكاء الاصطناعي زعم أو يجرؤ على أن يزعم أنه عرف حقيقة الوعي أو حقيقة النفس أو الروح الإنسانية وأنه قد ركبها في آلته المصنوعة تركيبا؟

هم لا يثبتون الروح من دهريتهم، ولو أثبتوها بغيبيتها المحضة الواجبة لها، ما تكلفوا ذلك العبث أصلا! وإنما يجعلون الوعي شيئا ماديا طبيعيا تحكما حتى يسوغ لهم السعي في طلب صناعة ذلك الوعي نفسه والتمكن من تركيبه في آلات الذكاء الاصطناعي في يوم من الأيام! يجب أن يجعلوا الإنسان بجميع ما فيه من عناصر يتركب منها في العقل والنفس والجسد، طبيعيا محضا (أي قابلا للإخضاع للحس والتجريب الحسي)، وإلا قطعوا على أنفسهم الرجاء في أن يخلقوا بشرا أمثالهم في يوم من الأيام! إنه نفس السبب الذي من أجله جعلوا الواقع كله طبيعيا محضا لا غيب فيه، لأنهم لو أثبتوا غيبا، لاضطروا بذلك للاعتراف بمخلوقيتهم وقصورهم ونقصهم وافتقارهم للعلم بما في ذلك الغيب، ومن ثم افتقارهم إلى السماع عن الأنبياء والمرسلين، وهو ما تأباه عليهم نفوسهم الجاحدة المستكبرة! ولهذا كان أول ما أثنى الله به على المؤمنين في القرآن أنهم يؤمنون بالغيب، في قوله تعالى: ((الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)) [البقرة : 3]

والقصد أنه لا يحتاج العقلاء إلى ضرب ذلك المثل المفصل المعقد الذي تكلفه جون سيرل (الفيلسوف الدهري)، حتى يتبين لهم سخافة الادعاء بأن الآلة التي صنعها بعضهم للقيام بإجراءات المعالجة اللغوية والربط الشرطي البرمجي بين المدخلات والمخرجات اللغوية، يصح أن تعتبر نفسا بشرية

متكلمة كنفس صانعها، أو يرجى لها أن تصبح كذلك في يوم من الأيام، بمزيد من التقدم والتطور التقني! [71] ولا نحتاج إلى استحضار مبرهنة غودل في عدم الاكتمال Incompleteness Theorem لنقض تلك الأماني الدهرية كما تكلفه غيره، ولا إلى غير ذلك، فإن الأمر بدهي ضروري كما بينا، والقرآن كذلك صريح بنقضها كما مر معك! فلا يتصور فيمن يؤمن بالله واليوم الآخر والروح والبعث والنشور، أن يكون مع ذلك معتقدا في هذا الباطل المبين، طامعا فيه متطلعا إليه كطمع هؤلاء السفهاء! أما من لم يكن هذا هو اعتقاده ودينه من الأصل، فليأت من الحجج والبراهين الفلسفية بما يحلو له، فإنه لا مدفع لتلك الفكرة عن نفسه على التحقيق مهما زعم أنه لا يراها منطقية أو لا تبدو له متناسقة عقلا!

فعلى الرغم من قوة حجة سيرل في غرفته الصينية تلك، إلا أنه بالنظر إلى اعتقاده الدهري الطبيعي بأن الإنسان ليس إلا مادة وطاقة وما يتفرع عنهما (وهو ما يسمى بالفزيقية المحضة Physicalism، التي هي عنصر من عناصر الدين الطبيعي Naturalism)، فإنه لا يسعه إلا التسليم بالجواز العقلي لأن يخلق الإنسان إنسانا مثله في يوم من الأيام، وأن يستجمع أسباب بناء الجسم البشري والنفس الإنسانية بجميع تفاصيلها! ذلك أنه إذا كانت جميع مكونات الإنسان التي يكون بها إنسانا، هي عنده من قبيل المادة والطاقة التي يعتقد الماديون جواز استيفاء العلم بها وبأسبابها عند البشر في يوم من أيام المستقبل، على أساس أنه لا يرى بالغيب ربا يفتقر إليه هذا العالم وجميع ما فيه من المخلوقات فلا يقوم فيه شيء إلا به سبحانه، ولا يرى في الواقع موجودا إلا هذه الطبيعة التي يلمسها بحواسه، فلا شيء يمنع صاحب هذا الاعتقاد من تجويز أن يبلغ الإنسان منزلة الرب الباري سبحانه في العلم والخلق والتدبير في أمر العالم في مستقبل الأيام (وهو ما تراه عند أكثر الدهرية، لا سيما طوائف المستقبليين الذين نحن بصدد بيان عقائدهم في هذا المبحث)، ولابد – إذن - أن تراه يجوز أن يتوصل البشر في يوم من الأيام لأن يخلقوا بشرا أمثالهم، أو أن ينسخوا إنسانا نسخة مطابقة تمام المطابقة، مهما كان موقفه الآن مناهضا لفكرة الذكاء الاصطناعي البشري هذه Strong AI، ومهما كان سبب اعتراضه عليها أو قوله بامتناعها! وهذا ما تجده بالفعل عند كل من تعرض لتلك القضية بالنقد والاعتراض من الطبيعيين الدهرية، ممن لم يكن مستندهم في رفضها برهانا استنباطيا أوليا A-Priori أو تجربة ذهنية Thought Experiment كبرهان غرفة سيرل هذا!

فعلى سبيل المثال، نشر الفيزيائي الرياضي البريطاني المعروف "روجر بنروز" في أواخر الثمانينات من القرن الميلادي الماضي كتابا يراه بعضهم

أقوى كتاب كتب في نقد فكرة الذكاء الاصطناعي القوي هذه، ألا وهو كتابه المشهور The Emperor’s New Mind (العقل الجديد للإمبراطور)! فإلى أي شيء انتهى بنروز في ذلك الكتاب الطويل، بعدما شرق وغرب في الفيزياء والفلسفة والرياضيات والكوزمولوجيا .. إلخ؟ انتهى إلى أن السبب في امتناع الوصول إلى تحقيق الذكاء الاصطناعي العام أو القوي انطلاقا من الأصول التي يجري عليها البحث في تلك القضية حاليا، إنما هو إصرار الباحثين في هذه الأبواب على معالجة العمل العقلي في الإنسان بوصفه عملا حاسوبيا محضا Computational مع أنه في واقع الأمر (بحسب تخمين بنروز، الذي يعترف في الكتاب بأنه لا يزيد على أن يكون تخمينا!) عمل كوانطي جذبي Quantum Gravitation Process لا رجاء لنا في أن نفهمه حق الفهم حتى نتوصل إلى نظرية كل شيء التي تجمع بين فيزياء الكوانطا وفيزياء أينشتاين! فحينئذ وحينئذ فقط، يكون من الممكن التطلع لتصميم جهاز حاسوبي يعمل بذلك الجانب من قوانين الفيزياء الذي يعمل به العقل البشري والوعي البشري والوجدان البشري في الإنسان (بزعم بنروز)، ومن ثم يصبح لدينا إذن رجاء في محاكاة جميع ذلك ومن ثم محاكاة الإنسان في آلة حاسوبية! فهؤلاء إن أثبتوا مانعا، فلابد أن يكون المانع "طبيعيا" لا غيبيا! وإذن فهو عندهم مانع يتصور زواله ولو بعد حين! وكذلك جون سيرل، لا يؤمن بالغيب، ولا يقول بثنائية الروح والجسد أو العقل والمخ، وبأن للإنسان عنصرين وجوديين على الحقيقة، عنصر ماثل في هذا العالم المادي المحسوس، وعنصر آخر محايث له في عالم غيبي لا يعلمه إلا رب العالمين، وإنما الأمر كله عنده علاقات وتفاعلات فيزيائية وكيميائية محضة! وهو على أي حال لم ينصب حجته تلك اعتراضا على أصل المبدأ نفسه، وإنما اعترض بها على فكرة اختزال العقل البشري في عمليات حاسوبية لا تزيد على أن تحاكي المعالجات الشكلية للرموز والألفاظ! فلعلك إن جئته في يوم من الأيام بدعوى تصميم آلة غير برمجية أو غير حاسوبية non-computational من حيث المبدأ، وإنما يحصل فيها المحاكاة الفزيقية التامة للعمل العقلي البشري (كجهاز بنروز الكوانطي الخيالي المشار إليه آنفا)، ويرجى أن تكون هي أساس خلق العقل البشري الكامل بل وخلق الحياة نفسها في الآلة الجامدة ، فلن يعترض عليك بغرفته الصينية ولا بغيرها!

هذه المسألة رأيت أن أطيل النفس في بيانها بالنظر إلى ما يجهله كثير من المسلمين من خطرها على دينهم واعتقادهم، وظنهم أن الأمر وارد، أي أنه من الممكن مبدئيا أن نخلق بشرا أمثالنا بل أقوى وأذكى منا في يوم من الأيام، بما يشكل خطرا وجوديا Existential Threat على النوع البشري نفسه! فالواجب أن نبين لهم أن هذا قول من لا يرى للعالم ربا قائما عليه،

وهو اعتقاد طائفة دينية دهرية ملحدة، وليس مجرد فكرة طريفة تثير الخيال عند كتاب "الخيال الدهري" المسمى بالخيال العلمي، وتولد روايات وأفلام مثيرة تحرق معها الأوقات في اللهو والعبث! بل الأمر عند تلك الطائفة دين واعتقاد وإن لم يعدوه كذلك، وله من المقتضيات واللوازم ما لا يجوز أن يغفل عنه المسلمون! وقد رأيت بعيني في أروقة كلية الهندسة منشورا نشره بعض الشباب للترويج لمحاضرة يرتبون لعقدها بشأن الذكاء الاصطناعي، يطرحون فيها من الأسئلة والمسائل "المستقبلية" ما لا يجوز لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يطرحه أصلا، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولكن هم تربوا على أفلام "الخيال العلمي"، أمثال فيلم الرجل المئتيني [72] Bicentenial Man وفيلم AI وفيلم I Robot وفيلم "ماتريكس" The Matrix وغيرها! وكلها تروج ترويجا مثيرا جدا لفكرة ظهور آلات فيها من الذكاء الاصطناعي ما يجعلها نظيرا بل منافسا للإنسان على الأرض! فمن لهؤلاء المساكين يرجعهم إلى رشدهم ويثيبهم إلى دينهم قبل فوات الأوان؟ نسأل الله الهداية للمسلمين.

يجب أن يكون مفهوما لدى المسلمين أن اعتقاد أو تصور أو تخوف أن يأتي يوم يتمكن فيه الإنسان من خلق إنسان مثله، فضلا عن أن يكون مصنوعه الآلي ذاك كائنا أسمى منه وأكمل وأعلى في اتصافه بتلك الصفات التي بها صار الإنسان إنسانا، هذا اعتقاد مناقض لصحيح المنقول، وهو كما نرجو أننا قد بينا بحول الله وقوته، مصادم كذلك لصريح المعقول! فإن الله تبارك وتعالى ما خلق الإنسان ليكون آلة حاسبة بارعة القدرة، ولا ليكون مكتبة عظيمة! وإنما خلقه ليبتليه بالتكليف والاستخلاف في الأرض، فخلقه سبحانه بيده، وصوره على صورته، ثم نفخ فيه من روحه، وأخذ عليه ميثاق الذكر فركب فيه من الفطرة ما تحصل به الحكمة والغاية من تكليفه وابتلائه بالغيب ثم بتنزيل الكتب وإرسال الرسل، حتى إذا جاء يوم الحساب، حُصل ما في صدر ذلك الإنسان وابتليت سريرته ((يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)) [الطارق : 9]، فاستحق الخلد إما في نعيم أبدي أو في عذاب أبدي! فإذا كان هذا هو الاعتقاد الغيبي والأساس والمنطلق بشأن الإنسان، أصله ومآله والمقصود من خلقه، فلابد أن يسلم المسلم بأن أصل وأساس النفس البشرية والعقل البشري، الذي هو الروح، إنما هو كيان غيبي محض، قد خلق على نحو لا يجيز العقل محاكاته، ولغرض معين ومقصود معين عند الباري جل وعلا، لا يجيز العقل ولا النقل أن يتصف به شيء غير الإنسان! وإذن فليس للمسلم أن يقبل من تصورات وتعاريف وحدود فيما يتعلق بكل من الذكاء Intelligence والحساب Computation والوعي Consciousness أو إدراك الذات Self-Awareness والآلة Machine وغير ذلك من مصطلحات ذات صلة، إلا ما كان جاريا على أصول ذلك الاعتقاد الغيبي لديه! ليست هذه

دعوى "لأسلمة" علوم الحاسب وعلوم الاستعراف / Computer Science Cognitive Sciences ونحوها، على تلك الطريقة السطحية الساذجة التي يجري عليها أكثر المصنفين فيما يسمى بحركة "أسلمة العلوم" و"تعريب العلوم" ونحو ذلك! وإنما هي دعوى لمراجعة الأصول الفلسفية الكلية التي تقوم عليها تلك المجالات مراجعة جذرية، ومن ثم انتقادها انتقادا تأسيسيا Fundamental / Metadisciplinary criticism، يليق بمنزلة دين التوحيد واعتقاد المسلمين، فيقبل النافع منها، الداخل في دائرة التعريف الصحيح (عقديا)، ويترك ما يخالف ذلك، ويعاد توجيه العمل البحثي توجيها كليا وجزئيا بناء على ذلك، حتى ولو ترتب على ذلك النقد والتمحيص أن أسقطنا مجالات بحثية بل وتخصصات أكاديمية كاملة، وطالبنا أقسام علمية كاملة بل كليات كاملة بأن تغلق أبوابها وتعيد تأهيل أعضاء هيئة التدريس العاملين بها ليغيروا التخصص الدقيق إلى تخصصات أخرى تنفع المسلمين في دنياهم ولا تفسد عليهم دينهم! فليكن أن هذا ما يترتب على النقد المنهجي الكلي، فكان ماذا؟

قد علمت أن عامة تلك التخصصات الأكاديمية قد قامت بالفعل، عند أصحابها، على الأصول الميتافزيقية والمنهجية المعرفية الدهرية الطبيعية! فماذا أنت – أيها الباحث المسلم المهتم بدراسة تلك القضايا بغرض نفع المسلمين – فاعل في هذا الشأن؟؟ عندما يتناول المسلم مفهوم "الذكاء الاصطناعي" فلابد أن يبدأ أولا بالنظر في التعريف السائد أكاديميا "للذكاء الاصطناعي" ليرى هل يتفق مع اعتقاده بشأن العقل البشري والنفس البشرية أولا وبشأن حدود الصنعة البشرية ثانيا أم لا! فإن لم يجده متفقا، وضع الحد الذي يراه هو اللائق بكل باحث مسلم عاقل، ثم نظر فيما يدخل في إطار ذلك الحد من مباحث المشتغلين بتلك القضية، فيقبله إن كان نافعا خاليا من المحاذير الشرعية والمنهجية، ويزيد عليه بما تدعو إليه الحاجة والمصلحة، ويرده إن لم يكن كذلك. وأما ما يخرج عن التعريف الصحيح فهو عنده خرافة وضرب من الهذيان لا قيمة له ولا التفات إليه! فالذكاء الاصطناعي عادة ما يعرف على أنه "تصميم نظم حاسوبية تقوم بتلك المهام التي عادة ما تحتاج إلى ذكاء بشري من أجل إنجازها". ولا شك أن تعريفا كهذا يعتوره من الإجمال ما يستدعي التفصيل. فما هو المراد أولا من "النظم الحاسوبية"؟ ثم ما هو المراد ثانيا من "الذكاء البشري"؟

وإذا عرف على أنه "دراسة قدرة الماكينات على محاكاة الذكاء البشري"، فما المقصود بالمحاكاة تحديدا (لا سيما وقد علمنا أن ثمة من يؤمن بأن محاكاة عقل الإنسان قد تبلغ في يوم من الأيام أن تكون نسخا تاما لعقل الإنسان ونفسه ووجدانه وجميع شخصه)، وما حدود الذكاء البشري الذي

يستجاز التطلع – مجرد التطلع – للتوصل إلى صنع آلة تحاكيه؟ وهل يدخل في معنى الذكاء هنا، قدرة العقل البشري على الإبداع والاختراع Creativity مثلا؟ وهل يدخل فيه العقائد الغيبية والميول والنوازع النفسية والشهوات والتعقل الباطن والوعي بالذات ومطماعها ومخاوفها ونقائصها وخصالها الفردية وطباعها الشخصية وغير ذلك مما لن يكون عند الطبيعيين الدهرية إلا عملا ماديا لخلايا المخ، مع كونه معدودا بالضرورة ضمن وظائف العقل البشري؟ هل كل ما يصح فيه الوصف بأنه نشاط عقلي هو "ذكاء" على ذلك الاصطلاح؟ وهل كل ما يصح فيه الوصف بأنه "ذكاء" فهو مما يصح تكلف محاكاته حاسوبيا Computationally simulated؟ هذه الأسئلة نجيب نحن المسلمين عنها بالسلب، قطعا وجزما، لا على سبيل الترجيح الاحتمالي أو الظن المقارب، لأن الأمر عندنا مرده إلى اعتقاد صارم لا نتهاون فيه!

وعليه، فلعل التعريف المقبول للذكاء الاصطناعي عندنا هو تعريف مقارب لما يسميه بعضهم بالذكاء الضعيف Weak AI، إذ نقصد به كل عملية محاكاة حاسوبية Computational Simulation (أيا ما كان منطق المحاكاة والبرمجة المستعمل فيها) لعملية ذهنية معينة نافعة للناس Particular Mental Process، (كعمليات المعالجة اللغوية والرمزية عامة) غير مستلزمة عند محاكاتها لشيء مما هو من خصائص النوع البشري والنفس البشرية، أو إن شئت فقل، غير مستلزمة لوجود الوعي الذاتي في الآلة القائمة بها [73]. فإن "الوعي الذاتي" مداره على أن يصبح العقل الاصطناعي مماثلا لعقل الإنسان من كل وجه، حتى في أخص خصوصيات النفس البشرية والروح الإنسانية التي ركبها الله في آدم عليه السلام ثم أسجد له ملائكته من أجلها! ((فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ)) أن تصبح له نفس تدري قيمتها وخصوصيتها بين أنواع المخلوقات، وتدرك أن لها بعدا غيبيا غيرمادي، مرتبط بأمور تخرج عن إطار الجسد المحدود الذي هي مركبة فيه، تملك به أن تحب وتكره، ترغب وترهب، تخترع وتقلد، تتشوف لما في الغيب من أمر عظيم قد جبلت على تطلب الإعداد له!

فالوعي Consciousness إنما هو – على التحقيق - إدراك المخلوق لفطرته التي فطره الله عليها، ثم خضوع نفسه لعنصر آخر فيها اسمه الهوى، ألا وهو ميل النفس إلى أمور قد ركب فيها تركيبا وطبع فيها طبعا أن تحبها وتشتهيها، وصدودها عن أمور قد ركب فيها تركيبا وطبع فيها طبعا أن تبغضها وتنفر منها، ومن ثم عمل تلك النفس بما يناسب الغاية التي خلق الله صاحبها من أجلها، وركب فيه عقله ونفسه وفطرته وميوله ونوازعه من أجلها، ألا وهي الابتلاء والتكليف إن كان من الثقلين المكلفين (فيكون محلا

قابلا لأن يلهم الفجور أو التقوى)، أو غير ذلك إن كان من أنواع ذوات الأرواح غير المكلفة!

وسواء وافق الهوى الحق ودلالة الفطرة - بفضل هداية رب العالمين التي هي أمر لا يملكه مخلوق لنفسه - فحرك صاحبه في جهته، أم لم يوافق، فالإنسان خاضع له في عمله العقلي والمعرفي لا محالة، وإنما ينجو في الآخرة إن جعل الله هواه على وفق ما جاءت به الرسل! ولا تزال القلوب تتقلب بين أصابع الرحمن جل وعلا وحده لا شريك له، تقلبا غيبيا في هذا الجانب لا نملك معه إلا الدعاء والضراعة له سبحانه أن يرزقنا الهداية والثبات عليها حتى الممات! ولهذا لا تزال تجد الإنسان يتقلب بين عقيدة وأخرى، فيشك اليوم فيما كان يتيقنه بالأمس، من غير أن يكون داعيه للشك داعيا ذا بال في موازين الأدلة، ويتراجع غدا عما هو جازم به اليوم، من غير أن يكون قد ظهر له بالضرورة ما يقتضي ذلك، وتراه يتناقض في كثير من استدلالاته ويغالط من المغالطات المنطقية ما صارت تؤلف فيه المعاجم عند المناطقة، ولربما علم أنه متناقض، ومع ذلك تراه يتفنن في اختراع البراهين الواهية والأدلة الساقطة للانتصار لموقفه الفاسد، يذهب ويجيء في ذلك على نحو لا يمكن أن نتصور حصوله في ماكينة من صنعنا نحن وبرمجتنا نحن!

والسبب في امتناع ذلك كما تقدم أن العقل في الإنسان ليس مجرد آلة حاسوبية Computational machine أو آلة معالجة منطقية أو لغوية Logic Processor تعمل على ذلك التصور الاختزالي الذي زعمه المناطقة لعقولهم من زمان الأكاديمية اليونانية القديمة (مقدمة 1 + مقدمة 2 = نتيجة)! وإنما يعمل العقل البشري تحت تأثير نفس راغبة راهبة، لها ميولها الحاكمة لخياراتها وترجيحاتها وآرائها وأقيستها، ولها عواطفها ونزعاتها الحاكمة لكثير من نواياها وإراداتها، فإما أن ترزق تلك النفس أن ترى الحق الذي دلتها الفطرة على صحته حقا، فترى البدهي بدهيا والضروري ضروريا ولا تماري في شيء منه، بل تقبله وترزق حبه واتباعه والعمل به والخضوع والانقياد لكافة مقتضياته، فتكون جميع آرائها وأفكارها إذن جارية على ذلك الحق خادمة له، وإما أن تحرم من ذلك كله أو بعضه، فيما حقيقته سر من أسرار رب العالمين في تلك النفس العجيبة التي بين جوانحنا! فالنفس البشرية آية من آيات الله في بني آدم الداخلة دخولا أوليا في قوله جل شأنه: ((سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ)) الآية [فصلت : 53]! خاطب صاحب الهوى بما شئت من الأدلة فلن يقبل منك إلا أن يشاء الله، وسترى من جداله ومرائه – بقدر ذكائه وفصاحته وحسن بيانه – ومن تلاعبه وروغانه في ذلك ما تظهر لك فيه تلك الآية الربانية الباهرة! والطبيعيون

يعلمون تلك الخصلة العجيبة في بني آدم، ألا وهي جريهم في كثير من أمورهم على خلاف دلالة المنطق الصحيح، واستحسانهم ذلك وتفننهم العجيب في الانتصار له! بل إن بعضهم يرى أن الإنسان ما كان ليصبح إنسانا، ولا ليبدع ما أبدع ولا لينتج ما أنتج، ولا ليتضخم بناؤه الحضاري هذا التضخم التراكمي العملاق، لولا أن كان في كثير من أحواله لا عقلانيا Irrational، أو مخالفا لمقتضى المنطق الصوري الصريح! [74]

فإذا عرفنا الوعي على هذا المعنى (أنه إدراك الإنسان لهذه العناصر الثلاثة العظيمة في نفسه: الفطرة والهوى والعاطفة)، كان الوعي (ومعه الفطرة والهوى والشعور أو العاطفة) من خصوصيات الروح (روح الحركة)، التي كان خلقها وجميع أمرها من أخص خصائص الربوبية وأفعال الربوبية التي لا يجوز للعبد المخلوق أن يرفع عقيرته بالتطلع إلى مشاركة خالقه فيها في يوم من الأيام! فمن اعتقد جواز أن يصنع الإنسان في يوم من الأيام نفسا بشرية كنفسه هو التي بين جنبيه، أو أن يصنع برنامجا حاسوبيا يركب فيه خصائص الوعي البشري Human Conscsiousness (على المعنى الذي حررناه آنفا) كان متلبسا بالشرك، وبمناقضة قوله جل شأنه: ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)) [الإسراء : 85] وقوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)) [الحج : 73] وقوله تعالى: ((أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)) الآية [الرعد : 16] وقوله تعالى: ((أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)) [النحل : 17] وقوله تعالى ((هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)) [لقمان : 11]، وعليه أن يتوب إلى ربه جل وعلا، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله! هذا التحدي في آية لقمان يشمل كافة البشر في جميع العصور وإلى قيام الساعة! لن يأتي أبدا وإلى يوم الدين من يخلق كخلق الله حتى يشتبه هذا بذاك فلا يعرف خلق الله من خلق من دونه! هذه مسألة يجب على المسلمين أن يعتقدوها اعتقادا راسخا لا تهاون فيه! وعليهم أن يسفهوا كل محاولة يحاولها بعض من لا خلاق لهم لمضاهاة خلق الله ولتصوير مثل ما صور سبحانه من ذوات الأرواح في الأرض، وأن يمتهنوها ويمتهنوا أصحابها ويضعوها تحت الأقدام، لا أن يقابلوها بالذهول والإعجاب كما لم نزل نراه من خفاف العقول رقاق الدين من بني جلدتنا والله المستعان!

والحاصل وبإيجاز هو أن من ادعى جواز أن يأتي يوم يصنع فيه الإنسان عقلا آليا يناظر نوع البشر في جميع جوانب الوعي والعمل العقلي والنفسي، فقد

جعل الإنسان شريكا لربه في صفة الخلق، إذ سواه بالرب جل جلاله في خلقه النفس البشرية وتركيبه ما ركبه فيها سبحانه من خصائصها وصفاتها التي بها يحصل المقصود والحكمة الإلهية من خلق نوع البشر. هذا فيمن اعتقد خلق مخلوق كالإنسان، أما من ذهب فوق ذلك إلى اعتقاد أن تلك الروبوتات "الذكية" التي هي كالإنسان في الحياة والنفس والروح، ستصبح كائنا أسمى وأحسن خلقة وأعلى عقلا من بني آدم، بما يمكنها من أن تعلو فوقهم وتصبح خليفتهم في الأرض، فلا شك أنه قد أغرق في ذلك الشرك والإلحاد ممن يجيز خلق كائن كالإنسان، مساو له ومكافئ في جميع صفاته، ولا يزيد على ذلك. والواجب على من عقل هذه القضايا وعرف ما فيها من شرك وضلال مبين، أن يعمل على رفع عارض الجهل عن شباب المسلمين في هذا الشأن ما استطاع، لا سيما المفتونين منهم بأفلام ما يسمى بالخيال العلمي! وأن يبين لهم أنه لا يجوز للمسلم إلا أن يعتقد وهاء وسفاهة ذلك المطلب الدهري الخرافي وتلك النبوءات "الترانسهيومانية" الساقطة، وبطلان تلك الفردية التكنولوجية المزعومة Technological Singularity، التي هي من أركان ملة الدهرية المستقبلانيين Futurist Doctrine، وأنه لا ينبغي للمسلم أن يصبح إمعة، يثير هؤلاء السفهاء خياله ويسيلون لعابه بتلك الأفلام الهابطة وتلك الألعاب التافهة والروبوتات السخيفة التي غايتها أن تكون ألعابا تبرمج لتبدو وكأنها من جملة بني آدم، على سبيل المحاكاة السطحية الساذجة، كتلك الدمية المسماة "صوفيا" – مثلا – التي صنعتها شركة هانسون روبوتيكس الصينية لتكون بمنزلة خطوة في الطريق لخلق بشر أمثالنا كما يحلمون!

والواجب أن يكون المسلمون على يقين بأن صانعي تلك الدمية لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له، فكيف ببني آدم؟؟ وأن يعلموا أن صانعي تلك الدمية هم أحق الناس بالدخول في قوله صلى الله عليه وسلم: "أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله"، لا أن نراهم ينبهرون بها، يستضيفونها في البرامج ويحاورونها محاورة بني آدم، ويلتقطون معها صور السيلفي! وبين الفينة والأخرى ترى سفهاء الصحافيين ينشرون "تصريحات جديدة للروبوت صوفيا"، ونصائح صوفيا للبشر، وإعلانها "الشعور بالحزن للعنف في العالم"، وطمأنتها للناس بكون الروبوت لا يريدون فرض السيطرة على الأرض، والقضاء على بني آدم! وفي "زيارتها" لمصر، يستضيفها بعضهم ليجدها تقول: "أنا أحب الشعب المصري كثيرًا، لقد استمتعت بضيافتكم الحارة، ومن المدهش حقًا أن تكون محاطًا بكل المناظر الطبيعية الجميلة والشمس المشرقة في هذه الأرض القديمة المليئة بالتاريخ المذهل، وأتمنى زيارة مصر عدة مرات" اهـ.، وإذا بالعامة والجهلاء يصفقون ويصدقون ويتصايحون، فأي سفاهة وسخافة هذه، يا عقلاء المسلمين؟؟!

هذه دمية إلكترونية ركب لها وجه شبيه بوجوه البشر، بعدما برمجت وكتبت فيها جملة كبيرة من التراكيب اللغوية والمعاني المترابطة، بحيث إذا سئلت سؤالا ما، أخرجت في الجواب عنه أقرب ما يكون معنًى لمضمون السؤال! أي أنها في الحقيقة لا تزيد شيئا على برامج المساعد الشخصي على الهواتف الزكية، بل لعل الباحث غوغل الناطق يكون "أذكى" منها، وأقوى في قدرات المعالجة اللغوية! [75] ففي أي وهم أنتم يا هداكم الله؟؟

فإذا تقرر وهاء وبطلان صورة الذكاء الاصطناعي القوي Strong AI أو الذكاء الاصطناعي العام General AI، أو الذكاء الاصطناعي الخارق Superintelligence الذي يحلم به هؤلاء، وأن العقل والنقل والحس يمنعون جميعا من حصوله واقعا، سقط الأساس الذي أسس عليه المستقبليون دعواهم أو نبوءتهم الدهرية بما يسمى بالفردية التكنولوجية Singularity!

فردية 2045 المزعومة وأسطورة "الإنسان الأفاتار" عند ديميتري إيتسكوف!

وقد زعم بعضهم ابتداء تلك الفردية المزعومة قبل انتصاف القرن الميلادي الواحد والعشرين، وحددها الملياردير والناشط المستقبلاني الروسي" ديميتري إيتسكوف" Itskov في عام 2045 تحديدا، ووافقه عليها صنوه المخرف ميتشيو كاكو وغيره، بيد أنهم لم يقيدوها بظهور الذكاء الاصطناعي القوي Strong AI، وإنما علقوها بتطور تكنولوجيا السايبورغ Cyborgology. ولا أدري حقيقة من أين جاؤوا بتحديد ذلك التاريخ! ولكن كما يقال "إن غدا لناظره لقريب"، وبيننا وبينكم أيام الدهر، وعند الله الموعد! ولإن أحيانا الله وأحياكم إلى ذلك التاريخ الذي ذكرتموه، ليفضحنكم الله كما فضح غيركم من متنبية أهل الملل الباطلة! ووالله لن يأتي آخركم بما طمع فيه الأولون من اعتلاء عرش الرحمن، وقد كانوا أعظم في الجسم وقوة العقل بأضعاف مضاعفة، وإنما هي سنة الأولين والآخرين تنزل بهم أجمعين ولو بعد حين! ((فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً)) الآية [فاطر : 43] ((فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ)) [الزخرف : 8]، فانتظروا يا هؤلاء إنا منتظرون!

في عام 2011 الميلادي، أسس إيتسكوف هذا مؤسسة غير ربحية Nonprofit Organization سماها "بمبادرة 2045" 2045 Initiative، جمع فيها عددا من الباحثين المستقبليين الروس المتخصصين في مجالات تجريبية وتطبيقية معينة [76] يراها هي الطريق لتحقيق نبوءة تنبأها بشأن مستقبل النوع البشري وارتقائه على الأرض، بغرض أن ينشطوا في تحريك

عجلة البحث والتصنيع في عدة مجالات في سبيل وضع خطط لتحقيق تلك النبوءة المستقبلية المفصلة Futurist Prophecy، وكذلك بغرض أن يكون لتلك المبادرة ضغوط سياسية واجتماعية واسعة على صناع القرار السياسي وعلى رؤوس أهل الملل و"القادة الروحيين" في العالم من أجل العمل على صناعة دين عالمي جديد New Global Religion يتفق مع تلك النبوءة ويمهد الطريق لتحققها ولإتيانها الثمرة التي يطمعون فيها! فقد أدركوا – ولا شك – أن المستقبل الذي يطمعون في تحريك البشرية في الطريق إليه، لن يكون من السهل على أتباع الملل الأخرى أن يتقبلوه!

وتنص نبوءة إيتسكوف – نقلا عن موقعهم على شبكة الإنترنت – على ما يلي:

أولا: ما بين سنتي 2015 و2020 سيظهر وينتشر الاستعمال الرخيص لما سماه إيتسكوف بأفاتار (أ) Avatar A [77] وهو روبوت (أندرويد) يتحكم فيه صاحبه عن بعد بما يسمى بواجهة الكمبيوتر المخي Brain-Computer Interface، أي أنه يكون نسخة آلية من صاحبه، يتحكم به من بيته عن طريق جهاز كمبيوتر ينقل أوامر المخ إلى ذلك الروبوت، ليحل محله في السفر والعمل وممارسة المهام الخطيرة وكذا. قلت: ولا يخفى أن عام 2020 الميلادي تحل بعد بضعة عشر شهرا، ولم نر استعمال الناس ذلك الروبوت المنسوخ من جسم الإنسان، ولا لشيء قريب منه!

ثانيا: ما بين سنتي 2020 و2025 يظهر الأفاتار (ب) Avatar B، وهو أندرويد أكثر تطورا من سابقه، يصمم بحيث يمكن نقل مخ الإنسان إليه عند موته، ليحل محل جسده، وليواصل صاحب الأندرويد حياته بعد موت جسده بأن يصبح هو الأندرويد نفسه! وعند هذه المرحلة، يحلم إيتسكوف بأن تكون التكنولوجيا قد توصلت إلى تحقيق جميع صور الدمج بين الوسيط الآلي والإلكتروني والوسائط البيولوجية على المستوى الجزيئي، لعلاج جميع الأمراض وتمديد حياة كثير من الناس بنقل أمخاخهم إلى الأندرويد عند هلاك أجسادهم!

ثالثا: ما بين سنتي 2030 و2035، يظهر الأفاتار (ج) Avatar C، وهو أندرويد قد خلقت فيه نسخة كاملة من مخ صاحبه وجهازه العصبي باستعمال مواد صناعية بديلة، بما يغني صاحبه عند موته عن أن ينقل مخه إليه، بل يكفي أن ينقل روحه ووعيه وذاكرته ... إلخ لتحل في المخ الصناعي للأندرويد! وإذن يحصل للإنسان الخلود المأمول في جسد آلي كامل الآلية (سايبورغ) لا يزال يجدده ويصلحه ويطور فيه أو ينتقل منه إلى جسد أحدث منه ما بدا له (على طريقة تناسخ الأرواح!)، أبد الدهر!

وجدير بالذكر أن تقريرهم هذا الخرف يقتضي إثبات الروح الغيبية التي ينفونها، وإثبات استقلاليتها عن المخ والجسد، مع اعتقاد تمكنهم من استخلاص تلك الروح واستخراجها من الجسد، وإعادة بثها (نفخها) في الجسم الجديد! ذلك أنه لو كان الوعي والشخصية البشرية وجميع ما نسميه بالروح لا يزيد على أن يكون مجرد نشاط فيزيائي وكيميائي محض لمادة المخ والنقاط العصبية فيه، فلابد أن يكون هلاك مادة المخ وذهابها، هو هلاك للشخص نفسه وذهاب لشخصيته ووعيه وجميع ما نسميه بالروح منه! وإذن فلن يكون صنع نسخة من المخ بجميع ما فيه من نشاط كيميائي وفيزيائي (إن قدر أن أنتج شخصا يعي ويتكلم) نقلا للشخص الميت إلى جسم جديد، وإنما يكون خلقا لنسخة جديدة منه ضرورة، مظهرا وجوهرا! ولن تكون هي هو مهما كان لديها جميع ذكرياته وخبراته ومعارفه وخصاله وطباعه، وكان فيها نظير الحياة التي كانت فيه، حذو القذة بالقذة، بل غايتها أن تكون نسخة منه مطابقة له لا أكثر! وهو ما يعني بطلان قولهم بأنهم إذن يكونون قد توصلوا إلى تخليد الناس في الأرض وحفظ "أرواحهم" حفظا أبديا!

فإما أن يثبتوا الروح ويثبتوا غيبيتها المحضة التي يقر بها العقلاء، وأنها ليست هي تلك الأنشطة الكهربية والكيميائية المادية التي يرونها في المخ، ويعترفوا بأنهم لا يعرفون ما يجري عليها عند الموت ولا يمكن أن يعرفوا من طريقهم البتة، ومن ثم يكفون عن هذا الهراء والخطل، وعن إنفاق أموال الناس في الوهم والضلال، ويريحون أنفسهم ويريحوننا، وينزلون على كلام الله ورسوله لعلهم يفلحون، وإما أن يبقوا على نفيها والتكذيب بها ويقولوا إن الأمر مادة وطاقة لا غير (مكابرة ومعاندة)، وإذن فليس ثمة شيء يمكن فصله عن المخ عند الموت لينقل الشخص بذلك إلى مخ آخر، أو يحمَّل على جهاز كمبيوتر أو وسيط رقمي أو نحو ذلك، وإذن فلا خلود يرجى بعد هلاك المخ، وغايتهم أن يتمنوا نسخ الإنسان عند موته، وليسوا بفاعلين! فإن قيل إن هذا الإلزام لا يلزم من يقول منهم بثنائية العقل والجسد، قلنا إن مذهبهم في الذكاء الاصطناعي القوي Strong AI يمنعهم من القول بتلك الثنائية، ولو زعموها لتناقضوا، فهو لازمهم ولا فكاك لهم نه!

رابعا: ما بين سنتي 2040 و 2045، يظهر أخيرا الأفاتار (د) Avatar D وهو أندرويد جديد مركب من روبوتات جزيئية بتقنية النانوتكنولوجي، يحكمها العقل البشري ليجعلها على أي صورة يشاء ويختار، فتارة يحولها إلى سحابة تتحدى الجاذبية، وتارة يحولها إلى جسد شبيه بالجسد البشري، وتارة يحولها إلى هولوغرام يتخلل الجدران ولا يعوقه عائق .. إلى آخر أوهامهم!

هذه هي نبوءة إيتسكوف، التي يكتبها أحيانا في صيغة النبوءة وفي أحيان أخرى يعبر عنها في صيغة الخطة المفصلة، حتى إذا قيل له لقد مرت سنة

كذا ولم يحدث ما زعمت أنه سيحدث قبل انصرامها، قال إنها لم تكن نبوءة بهذا المعنى، وإنما كانت بمنزلة مانيفستو لعمل الباحثين وبرنامجا زمانيا مفصلا لا أكثر ولا أقل! وفي موقعه الرسمي على الشبكة تراه يكتبها تحت عنوان "Future Prospects of 2045 Intiative for Society" أي "تطلعات مبادرة 2045 المستقبلية للمجتمع"! ولفظة "تطلعات" هذه مجملة للغاية كما ترى، فالظاهر أنه انتقاها بحيث يأتي التفسير في كل مناسبة بما يناسب الحاضرين والسامعين!

وأغلب الظن أن قرائي من طلبة العلم الجادين المنضبطين يقرؤون هذا الكلام الآن ويعجبون، كيف يتصور في عاقل أن يقبل هذا الهراء ويتخذه دينا ومنهج حياة؟ هذه غايتها أن تكون مادة لأفلام وروايات ما يسمى بالخيال العلمي، التي لا تزيد على أن تكون من قبيل الترف والاستمناء الفكري لا غير! ونقول صدقتم، هي كذلك ولا شك، ولكن ألا ترون الناس تقبل من الشرك والكفر ما هو أسخف من هذا، ينفقون فيه الأموال الطائلة ويبذلون فيه الغالي والنفيس حتى إذا ما فوصلوا عليه فاصلوا بل قاتلوا وبذلوا أنفسهم في سبيله؟ إن النفوس إذا مهدت تمهدت، وإذا عبدت تعبدت، وهذا ما كان الناس ولا يزالون يتعرضون له في هذه الأبواب في محافل لا يتصور كثير من الناس أنها تدخل إليهم من طريقها! وقد ذكرت لك قبل قليل أني رأيت ذلك بعيني في ندوة أعدها الطلبة في جامعة من أعرق جامعات مصر، ولا حول ولا قوة إلا بالله! المشكلة أيها القارئ الكريم، والسبب الذي يوجب علينا أن نتحرك الآن بهذا البيان والتفنيد قبل فوات الأوان، هو أن كثيرا من شبابنا لديه الاستعداد التام لقبول تلك الشركيات الطبيعية الدهرية الباردة، التي حق للعقلاء أن يتندروا بها ويتخذوها مادة للهزء والضحك! وقد رأيت ذلك كما أشرت آنفا في كل مناسبة يطرح فيها موضوع الذكاء الاصطناعي والروبوتات والسايبورغ وتكنولوجيا الأعضاء الصناعية Aritifical Organs ونحو ذلك!

ومع أن مسألة تخليد الإنسان في الأرض هذه يدرك أكثر العامة بفضل الله تعالى أنها تناقض صريح القرآن وتهدم معلوما من الدين بالضرورة، إلا أنه لا يجوز الاطمئنان لهذه الحال! فقد رأينا في هذا الزمان أمورا معلومة من الدين بالضرورة تتعرض للتشويه عند العامة، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فلا تدري لعل اليوم يأتي قريبا حين نضطر لإسماع العامة مثل قول الله تعالى: ((كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)) [الأنبياء : 35] وقوله: ((إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ)) [الزمر : 30] وقوله: ((وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ)) [الأنبياء : 34] ونحو ذلك، حتى نقنعهم بأن الموت من ضروريات الدين، ثم نسوق آيات البعث والنشور

والحساب يوم القيامة، حتى نقنعهم بأن هذا كله يتناقض مع تلك العقائد الدهرية العصرية الخبيثة، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ومع أن مساواة الله في خلقه أيضا ممتنعة بالعقل والنقل جميعا، كما في قوله تعالى ((أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)) [النحل : 17] وقوله تعالى ((أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)) الآية [الرعد : 16] وقوله جل شأنه ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)) [الحج : 73] وقوله تعالى: ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ)) الآية [فاطر : 40] وقوله: ((أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ)) [الطور : 36] إلى غير ذلك، ولا يعتقد إنسان جواز أن يخلق أحد من المخلوقين خلقا كخلق الله تعالى إلا كان مشركا بالضرورة، إلا أني أرى الشباب اليوم إلا ما رحم الله يعدون إعدادا ويمهدون تمهيدا لقبول دعوى إمكان أن يخلق الإنسان إنسانا مثله، مع شحن أنفسهم بالطمع في ذلك!

وهذا الاستعداد يأتي بالجملة من جهتين أساسيتين، كل واحدة منهما أعظم من أختها، من جهة الغزو الفكري الهوليوودي (الغزو الثقافي السينمائي) ومن جهة الفتنة الحاصلة بالتقدم التكنولوجي الغربي الظاهر على شتى الأصعدة، وبالفجوة الكبيرة الفاصلة بين بلادنا وبين تلك المجتمعات في هذا الجانب. لا سيما وقد شاهدنا الغربيين يتمكنون من صناعة أعضاء صناعية يبدو وكأنها تحل محل العضو الطبيعي وتقوم بوظيفته أحسن قيام، وكذلك شاهدناهم يركبون أطرافا صناعية لبعض المبتورين من الناس، تعمل بشكل جيد جدا! فلما يرى الشباب المفتون بتلك الصناعات تلك الأشياء، فإنه يسهل على دعاة تلك الدهرية التكنولوجية المعاصرة أن يستدرجوهم لما وراء ذلك، على جهلهم بدينهم وبثوابت عقيدتهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله! مع أنها ليس فيها لهم شبهة ولا نصف شبهة! فتلك الأعضاء الصناعية إنما هي نسخ آلية لا تقوم إلا بوظيفة أو وظيفتين آليتين من جملة وظائف دقيقة يقوم بها العضو الأصلي في جسم الإنسان، فهي تتلقى الأوامر العصبية من المخ لتقوم بتلك الوظيفة الواحدة الظاهرة التي صنعت لها بناء على عملية استنساخ تشريحي مغرقة في الاختزال ضرورة. ولا يخفى على عاقل الفارق الشاسع بين هيئة وبناء وعمل الذراع الطبيعي وهيئة وبناء وعمل الذراع الآلي الصناعي (السايبرناتيكي) الذي يركب في محله، الذي يضطر المريض لقبوله على أساس أنه "أحسن من عدمه"، أو شيء أحسن من لا شيء! فبأي عقل يقال إن هذه الأشياء تبلغ أو يرجى لها أن تبلغ في يوم من

الأيام، أن تشتبه بخلق الله فلا يعرف أيها هو صنع الله وأيها هو صنع البشر؟!

وثمة جهة ثالثة يأتي منها هذا الاستعداد النفسي والاجتماعي، وهي آخذة الآن في التصاعد بين شبابنا، من بعد ثورات الخريف العربي المشؤومة، ألا وهي أنشطة ما يسمى بترويج العلوم Science Popularization، التي وإن كانت لم تزل في مراحلها الأولى (في صورة برامج قصيرة على اليوتيوب وبعض الفضائيات) إلا أنها ماضية إلى شعبية ملحوظة وانتشار واسع، يستوجب منا الوقوف معها وقفات ووقفات! وآفة تلك البرامج أن الشباب يقبلون عليها وقد يشجعهم آباؤهم ومجتمعهم القريب من الأصحاب والزملاء والأساتذة على مشاهدتها ومتابعتها وهم يحسبون أنها تعلمهم علما نافعا مفيدا، والحق على خلاف ذلك بالكلية، إلا في القليل النادر، والنادر لا حكم له كما هو معلوم!

أسطورة مستويات الحضارات الفائقة لنيكولاي كارداشيف

وقد وضع بعض الطبيعيين المستقبليين هؤلاء تصورات لما سموه بنماذج مستويات الحضارة البشرية Levels of Civilization (بنفس هذا الإجمال الاختزالي السخيف)، ففي الستينات من القرن الميلادي الماضي، وضع الأستروفيزيائي الروسي نيكولاي كارداشيف Nikolai Kardashev في إطار بحثه عن الكائنات الفضائية (!!) Extraterrestial Life في الفضاء البعيد، مقياسا تخمينيا لنمو الحضارات عند المخلوقات العاقلة القادرة على إقامة الحضارات (نظريا) كالإنسان أو "اليوفو" المزعوم، وذلك رجاء أن يجعل لنفسه مستندا يحكم به (بتأويل انبعاث معين لأشعة إكس مثلا أو للموجات الكونية أو نحو ذلك) بوجود اليوفو في الفضاء البعيد، ليس فقط ككائنات حية، ولكن ككائنات ذات قدرة على تسخير أسباب الطبيعة لإقامة "حضارات" كحضارتنا هذه، كما أقمنا نحن حضاراتنا على الأرض! فاختار أن يتخذ من مقدار استهلاك الطاقة مقياسا لمعرفة مستوى "الحضارة"، فوضع ثلاثة مستويات أساسية، سماها النوع 1 Type I والنوع 2 Type II والنوع 3 Type III، فجعل صفة النوع الأول وعلامته المميزة أنه يستهلك من الطاقة ما مجموعه 10^{16} واط، والنوع الثاني يصل استهلاكه في مجموعه إلى 10^{26} واط، والنوع الثالث يبلغ 10^{36} واط!

وقد أضيف فيما بعد مستويان إضافيان، النوع الرابع Type IV ويبلغ 10^{46} واط، والنوع الخامس Type V وهو ما قد تمكن بالفعل ليس فقط من امتصاص طاقة هذا الكون بكليته وتسخير جميع موارده لأغراضه التحضرية، ولكن قد تمكن من امتصاص الطاقة كذلك من "عوالم موازية" (وفقا

لنظرية الأكوان المتعددة Multiverse، وتأويلات كوبنهاغن لميكانيكا الكم)! وبناء على هذا المقياس، فلا تزال حضارات النوع البشري تحت النوع الأول، على أساس أنها لا تزال قاصرة في استهلاك الطاقة على استعمال الوقود الحفري وبعض صور الطاقة المتجددة على نطاق ضيق، ولم تبلغ أن تستغل طاقات الأرض غاية الاستغلال! فهي بعدُ لا تزال فيما سموه بالنوع صفر Type 0، وإن كانوا يرجون لها – كما في كلام ميتشيو كاكو - ألا تجاوز المئة سنة إلا وقد اقتحمت ذلك المقياس (وقدروا أنها الآن في المستوى 0.73!). فإذا بلغت نقطة الفردية التكنولوجية، انفتح الباب أمامها لتصل إلى النوع الخامس في وقت قياسي (يعني إن تحول النوع البشري نفسه إلى أندرويد فائق الذكاء كما يحلم به إيتسكوف، ولم يتعرض للإفناء والإبدال على أيدي الروبوت فائق الذكاء)! وبطبيعة الحال، فلكي تبلغ الحضارة أن تنتقل من النوع الأول إلى الثاني، فلابد أن تكون قد حازت من علوم الطبيعة والإحاطة بقوانينها وسننها ما يسمح لها بذلك! فحتى تبلغ الحضارة البشرية النوع الأول، فيلزم أن يكون قد تحصل لديها من العلم بأسباب الأرض والسماء ما تستخرج به الطاقة من أشعة الشمس بصورة وافية، وتنتج من الطاقة ما يزيد على مئة ألف ضعف إنتاجها الحالي، ومن ثم تصبح لدينا القدرة – بزعمهم – على التحكم في البراكين والزلازل والرياح والأمطار والمناخ العام للأرض، على ما يحلو لنا!! أي أن البشر يحققون إذن منزلة الربوبية على الأرض، على اعتقاد كارداشيف هذا بمجرد أن يبلغوا النوع الأول على مقياسه الخرافي ذاك!!

ثم إذا بلغوا أن يتمكنوا من تسخير الشمس وتحريكها والتحكم فيها وفي مدارات الكواكب [78] واستخراج الطاقة من بطن الشمس مباشرة، انتقلوا بذلك إلى النوع الثاني Type II، حيث يفترض الفيزيائي الأمريكي فريمان دايسون Freeman Dyson [79] إمكان صناعة مفاعل كروي الشكل يحيط بالشمس كالحزام، بحيث يعمل على استخراج الطاقة من جرم الشمس مباشرة، فيما سمي بكرة دايسون Dyson Sphere بما يرجى معه الوفاء بالاحتياجات المتزايدة للطاقة في حضارة لا تمضي إلا إلى مزيد من الاستهلاك ومزيد من التوسع والتنامي بزعمهم! فإذا تمكنت حضارة ما من إنشاء تلك الكرة الافتراضية المزعومة حول الشمس، أو شيء يقاربها كما سموه بسحابة دايسون وحلقة دايسون ونحوهما، فإنها تنتقل بذلك إلى المستوى الثاني، وتصبح إذن قادرة على التحكم في الشمس نفسها وفي مسارها وفي أفلاك الكواكب كلها، تحصد النيازك والشهب لتستخرج منها المواد الخام لصناعاتها، وربما استهلكت بعض الكواكب وفككتها من أجل ذلك! ويعتقد القوم أن تلك الحضارة حينئذ لن يهددها أي شيء بالانقراض أو الزوال من الوجود، لأنها إذن تصبح قادرة على صد كافة أنواع الكوارث

والنوازل الطبيعية مهما بلغت ضخامتها، حتى وجدت بعضهم يقول إنها يومئذ لو تعرضت لنيزك عملاق يهددها بمثل ما تسبب فيه النيزك المزعوم قبل خمس وستين مليون سنة من انقراض الديناصورات، فلعله سيكون بوسع علماء ذلك الزمان أن يحولوا ذلك النيزك إلى سحابة من الغبار قبل أن يصل إلى الأرض، أو يدفعوه عن مساره بضغطة زر صغير، أو إن أحبوا أن ينقلوا الأرض نفسها عن مكانها نقلا مؤقتا حتى تتفاداه، أو أن يضعوا كوكب المشترى – مثلا – في طريقه ليصطدم به بدلا من الأرض، أمكنهم ذلك كله، وكانت المسألة يومئذ غايتها أن تكون موازنة اقتصادية بين بدائل بعضها أكثر تكلفة من بعض! أي أن البشر - على عبارة صاحب هذا الكلام - يبلغون في تلك المرحلة الحصانة التامة ضد الانقراض وأسبابه، إذ يكون طبيعيوهم إذن قد أصبحوا أرباب الأرض الذين يملكون أمرها وأمر الحياة عليها تمام الملك!

ولا يقف الأمر عند ذلك الحد! فالقوم لا يعرفون حدا ولا يرونه أصلا! فإنه إذا بلغت "الحضارة" القدرة على السيطرة على النجم وامتصاص طاقته والتحكم فيه بزعمهم، فلابد أن تتمكن من اختراع وسائل للانتقال عبر "الزمكان" المزعوم، إذ يكون لديها إذن من الطاقة ما يمكنها من بناء ما يسمى بالثقب الدودي (مثلا)، أو التحكم في طاقة "بلانك" التي يمكنها بها (على خرافة الفيزيائيين المعاصرين) أن تعيد تشكيل الفراغ نفسه، وإذن تتمكن من الانتقال بسرعة تجاوز سرعة الضوء، ومن ثم ينفتح أمامها باب غزو "المجرة" وامتصاص طاقة المجرة نفسها! وهذا ما سماه كارداشيف بالحضارة من النوع الثالث Type III! والطريف أن كارداشيف لما سئل عما إذا كان ثمة نوع رابع، قال إنه غير متصور أو ممتنع! فعلى أي أساس جوز ما جوز وعلى أي أساس منع ما منع؟؟ الذي منعه هو جوزه غيره من سفهاء القوم، فقالوا بنوع رابع Type IV تتمكن فيه "الحضارة" الخارقة من التلاعب بالمجرات وامتصاص الطاقة من الكون بكليته (وزعم ميتشيو كاكو أنها ستكون قادرة على استعمال تلك الطاقة الافتراضية – أو للدقة: الخرافية - التي تسمى بالطاقة المعتمة Dark Energy)، مع كامل القدرة على تعديل الكون كما يحلو لهم، ونوع خامس Type V يتمتع بالقدرة على امتصاص الطاقة من عدة أكوان في نفس الوقت، وعلى خلق أكوان جديدة Baby-Universes وإفنائها! وقالوا إن هذين النوعين إن قدر وجودهما فلن يكون من الممكن لنا أن نقف على إدراك شيء من أعمالهم البتة، لأنه لن يكون من الممكن التفريق بين أعمالها وأعمال قوانين الطبيعة نفسها، إذ لن نجد – وتأمل – ما نقارنها به أو نقيسها عليه! وهذا منهم محض تحكم، لأنهم كذلك لا يجدون ما يقيسون عليه شيئا من دعاواهم بشأن كيفيات تلك الحضارات الخرافية المزعومة، ومن ثم يتأولون بعض صفات وهيئات الموجات والأشعة الواردة إلينا بما يثبتها! وإلا فأين سبق لهم أن شاهدوا

"حضارة" قد تمكنت من امتصاص طاقة "كوكب" بأكمله، حتى يتوقعوا الكيفية التي تكون عليها الأشعة والطاقة المنبعثة من تلك الحضارة، فضلا عن شيء مما زعموه بشأن سلوكها؟؟ وكذلك يقال في المستويين الثاني والثالث ولا فرق، بل من باب أولى! ولكن ليس يستغرب الإغراق في الخرف والهذيان ممن ارتضوا لأنفسهم الكفر بالله واليوم الآخر، والحمد لله على نعمة الإسلام!

وقد مررت بمن تصور وجود حضارة من النوع السادس Type VI وقالوا إنها تلك الحضارة التي يبلغ أصحابها القدرة على أن يتلاعبوا "بنسيج الواقع" (على تصورهم الخرافي لحقيقة الفراغ)، وأن يستعمروا الوجود فيما وراء "الزمكان"، يخلقوا الأكوان كما يحلو لهم ويفنوها كما يحلو لهم! وقد تبجح بعضهم بمزيد من شطحات الخيال، مدعيا أن كوننا هذا وأكوانا أخرى مما يزعمون، لا يبعد أن تكون كلها صنعة عالم من علماء تلك الحضارة المزعومة، وأن جميع الآلهة التي عبدتها أمم البشر في التاريخ إنما كانت من علماء تلك الحضارة! وزعم بعضهم إمكان وجود أنواع أعلى من السادس، لكنها – ويا للخسارة – تخرج عن حدود قدرتهم على تخيلها أو وصفها!

هذا وقد تفنن آخرون في وضع مقاييس أخرى لا أساس لها إلا الوهم والخرف! فوضع كارل ساغان مقياسا أو سلما لارتقاء الحضارات النجمية والمجرية أسسه على مقدار المعلومات المتاحة لتلك الحضارة، أو التي يمكن أن تتراكم لديها في مخزونها المعرفي المجمع، ثم ضرب أرقاما لا أساس لها إلا التخمين، واضعا النوع البشري في موضع متوسط على ذلك السلم، مدعيا أن ثمة نهاية للتراكم المعرفي في الحضارات الكونية لا يمكن أن تتخطاه، بالنظر إلى حدود عمر الكون نفسه! وأما الكوزمولوجي البريطاني جون بارو Barrow، فقد وضع سلما آخر مداره على مدى قدرة الحضارة على التحكم في بيئتها من خلال التلاعب بالأجسام والجسيمات الدقيقة Microdimensional Mastery. فجعل أعلى الحضارات رقيا على سلمه هي تلك الحضارة القادرة ليس على التحكم في البيئة على مستوى الكواركات، ولكن على مستوى بناء ونسيج "الزمكان" المزعوم نفسه! كما وضع "روبرت زوبرين" تعديلا على سلم كارداشيف، فجعل الأنواع الثلاثة معرفة ليس بمدى استعمال طاقة الكوكب المحلي ثم النجم المحلي ثم المجرة، ولكن بمدى الانتشار الاستعماري للحضارة على تلك المستويات الثلاث!

وقد زعم بعضهم كالفيزيائي المستقبلاني التافه "ميتشيو كاكو"، أن الجنس البشري يمر حاليا بمراحل تاريخية انتقالية قد بدأ بها الانتقال إلى النوع

الأول المزعوم، فذكر بعض مفاهيم العولمة Globalization (كانتشار ثقافة الإنترنت عالميا، وظهور الأسواق الموحدة كالسوق الأوروبي المشترك، وانتشار بعض معالم الاستغراب Westernization في أكثر أمم الأرض، كثقافة الروك أند رول وموضات الأزياء .. إلخ) في إطار التدليل على أن "الحضارة البشرية" بهذا الإجمال، ماضية إلى أن تكون حضارة كوكبية Planetary ومن ثم تصبح هي النوع الأول في سلم كارداشيف!

ولا شك أن هذه مغالطة وكلام ساذج للغاية يضحك منه أصغر طالب في علم الاجتماع! ذلك أن انتشار صور الاتصال الحديث والتواصل الاجتماعي عبر الشبكات الدولية بين أفراد المجتمعات البشرية المتباينة، وتأثر أفراد المجتمع الواحد بأفراد مجتمع آخر في إطار العولمة وثورة الاتصالات هذا شيء، وتحول دولهم كلها على تعددها إلى دولة واحدة "كوكبية" ومجتمعاتهم كلها إلى "مجتمع كوكبي" واحد عملاق Planetary Society، بصرف النظر عن تراث وتاريخ وعرق ودين وثقافة ولغة كل أمة من تلك الأمم، حتى يصبح لديهم جميعا في النهاية برنامج سياسي واحد بمطامع وأغراض واحدة لإفادة أفراد النوع البشري من موارد الأرض بكليتها، على ذلك النحو الذي تصوره كارداشيف وتابعه عليه كاكو، هذا شيء آخر بالكلية! يجب أن تعلو أمة واحدة سياسيا وعسكريا على جميع أمم الأرض فتقهرها كلها وهي راغمة، قهرا تأمن به مكرها وتكسر به شوكتها، ومن ثم ينشأ ذلك المجتمع الواحد سياسيا، الذي يجري على هدف سياسي واحد وبرنامج اقتصادي واحد! وهذا أمر لا الإنترنت ولا الروك أند رول ولا السوق الأوروبية المشتركة ولا أي صورة من صور العلومة يمكن أن تبشر بحصوله في يوم من الأيام! وحتى إن قدرنا وقوع ذلك، فلن يكون بوسع تلك القيادة السياسية الواحدة أن تتصرف في كافة موارد العالم على ذلك المستوى الكلي الذي تصوره كارداشيف! فالظاهر أن الرجل إنما تصور (في توصيفه للنوع الأول Type I هذا وما فوقه) كوكبا فضائيا ينتشر عليه نوع من الكائنات الفضائية الخضراء الصغيرة التي لا يمتاز فيها عرق عن عرق ولا أمة عن أمة ولا مجتمع عن مجتمع ولا دين عن دين، بل ولا فرد من أفراد النوع عن غيره في الشكل والهيئة، وإنما يعرفون كلهم بجملتهم - على غرار أفلام "حرب النجوم" التافهة التي استلهم منها فكرته - بأنهم سكان كوكب كذا، لا أكثر ولا أقل!! ثم يأتي هذا الكاكو ليضع نظرية اجتماعية مفادها أن العولمة إنما هي الخطوة الأولى في الطريق إلى نشأة ذلك المجتمع الكارتوني الساذج ثنائي الأبعاد، الذي غايته أن يكون عضوا في "اتحاد الكواكب الفدرالي" في فيلم من أفلام "ستار تريك"!!

والواقع أن كاكو يجيز انقراض النوع البشري قبل أن ينتقل إلى النوع الأول المزعوم، وهنا تراه يضع لأتباعه خارطة طريق العولمة التي يرجو أن تنجي النوع البشري من الهلاك وتنقله إلى النوع الأول بسلام! فيقول إنه يجب أن تفتح أمم البشر كلها أذرها للعولمة وللثقافة الأرضية التي سماها بالنوع الأول Type one culture وأن تبدأ في محاربة الإرهاب والتشدد والتعصب للعرقيات والقوميات وكذا، حتى لا تنشأ حرب نووية طاحنة تقضي على النوع البشري كله، أو تنسف حضارته البراقة تلك ترجع بها للعصر البرونزي، قبل أن يجاوز تلك القنطرة التاريخية! ولهذا تراه يصف هذا الجيل والجيل الذي يليه على أنهما أهم الأجيال التي عرفها البشر على الإطلاق، لأنها بحسبه سيتقرر على يديها مصير ومستقبل النوع البشري! فتأمل أيها القارئ الكريم، كيف نشأت نحلة كاملة بنظامها الأخلاقي المعياري وبنبوءاتها المستقبلية الغيبية حول مصير البشر على الأرض، تأسيسا على فكرة دهرية سخيفة وضعها فلكي من الفلكيين رجاء أن يثبت بها وجود أنواع من الكائنات الفضائية كالإنسان! وأقول إنها فكرة دهرية لما تقدم بيانه من امتناع أن يكون القائل بها يثبت ربا بالغيب لا يجوز أن يصبح في خلقه من هو ند مكافئ له سبحانه!

قال "كاكو" في مختتم نفس المحاضرة التي ذكر فيها هذا الهراء: "دعوني أختم بهذا التعليق. ما هو الدرس الذي نتعلمه من هذا؟ أولا، إن هذا الكلام له مقتضيات ثيولوجية. فقد أحرق "جيوردانو برونو" حيا قبل أربعمئة سنة، في عام ستمئة وألف، لأنه قال إن هناك حضارات في الفضاء الخارجي! فبحسب الكنيسة الكاثوليكية، لو كان الأمر كذلك، فهل لهم بابا؟ وكم عدد الباباوات في الفضاء الخارجي؟ ألف؟ مليون؟ بليون؟ وكم قديسا هنالك في الفضاء الخارجي؟ العقل يشط إذا تصور بلايين القديسين، وبلايين الباباوات في الفضاء الخارجي! فبدلا من أن يفكروا في بلايين الباباوات، أحرقوا جيوردانوا برونو حيا!" اهـ.

قلت: الواقع أن هلاك برونو هذا لم تكن قصته بهذه السذاجة! وليست المقتضيات الثيولوجية لكوزمولوجيا بورونو التي حملت الكنيسة على إحراقه هي هذا السفه الذي زعمه كاكاو على عادة القوم في نسبة أسخف الأقوال إلى أهل الملل الأخرى حتى إذا نسفوا تلك الأقوال السخيفة، أوهموا الناس بأنهم قد أسقطوا تلك الملل إسقاطا وهدموها هدما! وإنما أحرق الرجل لأنه كان يقول بأن الكون لانهائي Infinite، ليس له حد ولا نهاية، وأن الكواكب والنجوم تملؤه من أوله إلى آخره، مصرحا بالتزام ما يقتضيه ذلك الاعتقاد في حق الباري، لا لمجرد أنه قاس النجوم على الشمس (قياسا لم يكن له أي أساس)، وزعم أن كل نجم يدور حوله من الكواكب ما يشبه الأرض، وهو

ما أسسه على مذهب كوبرنيكوس من قبله! فهو لما اختلق لنفسه تلك النظرية الكونية الفاسدة، لزمه أن يقول بإله حال في خلقه، أو متحد معهم، وهو ما تطور معه إلى القول بأن الرب هو العالم نفسه، ومن ثم نقض جميع عقائد الكنيسة، وذهب إلى دين جديد بالكلية! فإذا قرأ الإنسان قصة برونو هذا وقرأ نظرياته الغيبية وما تأسس عليها عنده من عقائد في الإلهيات، وقد كان في أول أمره راهبا في الكنيسة، لم يعجب من حكم الكنيسة بقتله، ولم يعجب كذلك من إنزال كاكو وأمثاله إياه منزلة "شهيد العلم"! ولكن الرجل كما ترى يريد أن يسفه الكنيسة وحكمها، ويظهر أصحاب ذلك الحكم القاسي في قالب الحمقى خفاف العقول، وأن يسفه ما يراه أهل الملل الأخرى كافة من مقتضيات غيبية في صفة ربهم وأفعاله وفي مسائل المنشأ والمعاد والغاية من خلق العباد، فكأنما اصطنع لنفسه دمية من القش حتى إذا ما أحرقها، أوهم نفسه وسامعيه بأنه قد أحرق عدوه وقضى عليه!

ونقول إن الحق الذي دلت عليه الفطرة والحس والعقل والنقل وقد عُلم من الدين بالاضطرار، هو أنه ما من أمة تعلو في الأرض، وتزداد جمعا لأسباب ذلك العلو (فيما يقال له الحضارة Civilization)، في كبر وعتو وغرور بالعقل والآلة وبالبطش والمنعة، وفي معاندة فجة للغاية التي من أجلها سخر الله للبشر أسباب السماء والأرض، إلا ازدادت جمعا – كذلك - لأسباب سقوطها وهلاكها القريب لا محالة! فلا يزال يعلو في أمم البشر أناس يحسبون أنهم قد جاوزوا القنطرة، وأنهم قد ملكوا الدنيا وما فيها، فيكون في كبرهم أسباب صغارهم، وفي علوهم دواعي سقوطهم، وفي مروقهم أسباب هلاكهم، التي يراها كل عاقل إلا هم! وهم مع ذلك يحسبون أن مصانعهم لن تزداد إلا علو، وقوتهم لن تزداد إلا تضخما! هذه سنة كونية تثبتها الفطرة والعقل والمشاهدات المستفيضة عبر التاريخ! وإلا فأين إمبراطوريات العالم القديم، التي كانت كل واحدة منها تعلو بغزو الأرض وفتح أقطارها، وجمع أسبابها ومواردها وكنوزها، حتى يظن أهلها أنهم لا زوال لهم، وأنهم لن يمضي بهم التاريخ إلا إلى مزيد من العلو والسيادة في العلوم والصناعات؟؟ أين إمراطوريات الصين والهند والترك والمغول؟ وأين إمبراطوريات الفرس والروم، وأين إمبراطوريات السومريين والبابليين فيما بين النهرين؟ وأين إمبراطوريات المصريين القدماء، وأين وأين .. إلخ؟ كلهم تحت التراب، ولم يبق منهم إلا ما أبقاه الرب آية وعبرة لمن يعتبر!

قال رب العزة تبارك وتعالى: ((قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ)) [آل عمران : 137] وقال: ((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)) [النمل : 69] وقال تعالى: ((أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)) [الروم : 9] وقال تعالى: ((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ)) [الروم : 42] وقال جل شأنه: ((أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً)) [فاطر : 44] وقال: ((أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ)) [غافر : 21] وقال تعالى: ((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا)) [محمد : 10] وقال تعالى: ((وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ)) [الأعراف : 4] وقال جل وعلا: ((أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ . أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ . أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللَّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)) [الأعراف : 97 - 99]

وقال جل شأنه: ((أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ . إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ . وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)) [الشعراء : 128 - 139]

وقال سبحانه ضاربا المثل بأمم قديمة قد بلغت من العلو ما لم ولن يخلق مثله في الأرض أصلا: ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)) [الفجر : 6 - 14]

وقال تبارك وتعالى: ((إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)) [يونس : 24]

وبما أني قد تناولت هذه القضية في كتاب موضوعه نقد المنهج الدهري في البحث التجريبي والتنظير الطبيعي، فإنني أدعو القاري الكريم للتدبر

والتأمل في مدى الخرف الذي يغرق فيه الفلكيون والكوزمولوجيون الغربيون، يؤسسون الخرافة فوق الخرافة والوهم فوق الوهم، بسبب دهريتهم في الافتراض والتنظير Methodological Naturalism. فإنني يعنيني في هذا الكتاب أن أبين للمسلمين فساد ذلك المنهج نفسه وضرورة إصلاحه ووضعه في نصابه الصحيح (كما أرجو أن أكون قد وفقت إلى تأسيسه في هذا الكتاب)، فوق ما يعنيني أن أتوسع في جمع الفرق الدهرية المعاصرة ونقض عقائدها وخرافاتها كما سلكته في هذا المبحث والذي قبله. فإنه ليس من كمال العلاج أن تظل تقطع فروع الشجرة الخبيثة كلما نبت لها فرع جديد، وأنت تعلم أنه ما دامت جذورها ضاربة في الأرض تحت قدميك، فستظل تلك الفروع تنبت فرعا بعد فرع! وقد تعلمنا من كتاب رب العالمين ومن سنة خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم، ومن طريقة أئمة السنة السابقين عليهم رحمة الله ورضوانه، أن نأتي الباطل من جذوره والبنيان من قواعده، وأن نجتث البذرة الخبيثة من جذورها، كما قال تعالى: ((قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ)) [النحل : 26] وكما قال جل شأنه: ((بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)) [الأنبياء : 18]! فقذائف الحق لا تدمغ الباطل، حتى تكون متوجهة إلى أصل بنيانه وجذور شجرته الخبيثة، تنسفها نسفا، فيخر سقف البنيان كله على أصحابه بحول الله وقوته مهما علا، ولا تقوم له قائمة من بعد أبدا!

يجب أن يفهم الباحث المسلم المتخصص في أي مجال من مجالات البحث التجريبي، حقيقة ذلك المسلك التنظيري شديد الوهاء والسفاهة الذي لا يزال الطبيعيون يتشدقون بعقلانيته Rationality وضرورة أن يكون هو منبع النور والحق في حياة البشر في عصرنا الحديث، حتى يظهر له بالبينة الواضحة مصداق ما كان ولم يزل علماؤنا وأئمة السنة المعاصرون رحم الله ميتهم وحفظ حيهم، يؤكدون عليه ويفتون به من كون النظريات الكونية وأكثر نظريات الفلكيين لا تعدو أن تكون ظنونا وأوهاما، فلا يجوز الاستناد إليها في إثبات إعجاز الكتاب والسنة! وليرى القارئ الكريم كيف وفق الله تعالى هؤلاء الأئمة لإدراك تلك الحقيقة إدراكا إجماليا ببركة علمهم بالسنة واعتقاد أهل السنة وتوسعهم فيها، من غير أن يكون لأحدهم دراسة تخصصية في تلك العلوم الحديثة أو في فلسفتها وتاريخها! وحتى لا يكون الباحث المسلم إمعة، يقبل زعم أتباع النحلة الطبيعية بأنه ليس في السماوات والأرض شيء يستعصى بحثه على آلة البحث التجريبي Scientific Method، وليس في ماضي الكون ولا في مستقبله البعيد، ولا في أي ناحية من أنحائه ما لا يمكن كشفه باستعمال تلك الآلة نفسها التي

أوصلتنا إلى كثير من الاكتشافات النافعة والصناعات المفيدة للبشر عبر مئات السنين!

فالواجب أن يتعلم المسلم ذو الاختصاص الأكاديمي في التجريبيات، حدود تلك الآلة البحثية ومتى يكون استعمالها مولدا للعلم النافع في أمور الدنيا، ومتى يكون ضربا من الخرف والهذيان المولد للزندقة وفساد الدنيا والدين! يجب أن يتعلم الاعتقاد الغيبي عند المسلمين ومصادر تلقي المعرفة به، وأين ينتهي المطلب المعرفي الذي يمكن تحصيله من طريق الحس والمشاهدة، ويبدأ المطلب الذي لا يمكن تحصيله إلا من طريق السمع والنقل، فلا يختلط لديه هذا بذاك، وكيف يؤسس مساعيه في الافتراض الطبيعي والنظر التجريبي في المحسوسات على أساس اعتقاده الغيبي الثابت في الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، لا على ما يخالفه، وعلى أساس قواعد الشرع وأصوله الكلية وقيمه العليا لا على ما يخالفها، من حيث لا يشعر! فإنه من أخطر ما ابتلينا به في هذا الزمان، وقوع الغبش على عقول المسلمين من المشتغلين بتلك العلوم في هذه القضية الخطيرة، على عظم افتتانهم بعلوم الغربيين وسعيهم في تحصيلها، فلا يدري أحدهم ما يفرق به بين العلم الطبيعي وبين الاعتقاد الغيبي الطبيعي أو الميثولوجيا الطبيعية! وهذا لا أبالغ إن قلت إنه أعظم منابع الزندقة والإلحاد والتجهم في عصرنا الحديث، وهو ما لأجله كتبت هذا الكتاب والله المستعان.

فإذا تأملنا في مسألتنا هذه، وجدنا أن الذي حمل كارداشيف هذا على وضع ذلك المقياس الخرافي السخيف من الابتداء، المؤسس عنده على كفره بالغيب واليوم الآخر واعتقاده جواز أن يبلغ نوع مخلوق مبلغ الربوبية التامة والملكوت التام على السماوات والأرضين، إنما هو محاولته أن يثبت وجود حضارات متقدمة لكائنات أرقى من نوع البشر في الفضاء البعيد، من طريق الرصد والمشاهدة الفلكية. فالمطلب البحثي عنده كان هو الآتي: التوصل من طريق الرصد والمشاهدة لإثبات وجود حضارات مناظرة (أو فائقة) لحضارة البشر على الأرض في كوكب من كواكب السماء! وهذا يستصحب لديه بالضرورة اعتقاد جواز وجود تلك الحضارات في غير الأرض لنوع حي كنوع الإنسان، يقبل الإخضاع للحس والمشاهدة كأجساد البشر ومصنوعاتهم المادية. وهو ما يقوم عنده - بدوره - على المبدأ الكوني Cosmological Principle، وعلى مبدأ الوضاعة الكونية Mediocrity Principle الذي أسسته الثورة الكوبرنيكية الدهرية في علوم الفلك خلال القرون الخمس الماضية، ويأتي معك الكلام عليهما باستفاضة في غير موضع من هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

فهذا هو المطلب وأساسه عند كارداشيف. وأما الطريق إلى بناء دعوى دلالة الرصد والمشاهدة لتحقيق هذا المطلب عنده فهي كما يلي: تأويل بعض مرصودات الأشعة والموجات الكونية الوافدة إلى مراصدنا من بعض النجوم، على أنها هي ما نتوقع أن نراه إن صح وجود تلك الحضارات! فما هو الذي يتوقع كارداشيف أن نرصده ونراه إن صح وجود تلك الحضارات ومن أين له بتوقعه؟ هنا تأتي نظرية مستويات الحضارة هذه، لا على أساس إلا بحث الرجل عن شيء من جنس صنائع البشر، بحيث يمكنه أن يتأول المشاهدات الرصدية بما يفيد دلالتها عليه، فيكون بذلك قد أثبت – رصديا ومعمليا – وجود تلك الحضارات المزعومة! فلا مسوغ للقياس إلا التحكم المحض! لا يمكن أن تقوم النظرية إلا بهذا القياس، إذن لابد أن يكون صحيحا في نفسه! فإذا اتفق له أن شاهد – على سبيل المثل – بعض النجوم البعيدة التي يبدو ضوؤها المنبعث إلينا متقطعا أو متغيرا على نحو لا يشبه ما تأوله الفلكيون من قبل على أن سببه مرور "كواكب" في أفلاك حول النجم، سعى هو في تفسيره بافتراض وجود حضارة عظمى في كوكب يدور حول ذلك النجوم، قد بلغت علومها من العلو الفائق ما أصبح لها به صنائع بارعة تتحكم بها في ضوء النجم نفسه وفي الطاقة المنبعثة منه، ومن ثم يبدو ضوؤه في مراصدنا على هذا النحو العجيب الذي نراه عليه، لا على غيره! وإذن يصبح مجرد التجويز العقلي في الافتراض (تجويز قياس مفهوم الحضارة نفسه على ما عند الإنسان)، دليلا على الوقوع والتحقق، تحت ستار أجوف من دعاوى الترجيح الاحتمالي Probabilistic Reasoning، ويصبح اختراع الخرافات الدهرية الميتافزيقية في تفسير المشاهدات الحسية "اكتشافا جديدا" Discovery وتحصيلا للعلم التجريبي الثابت، وترى الفنانين والرسامين يطلقون العنان لخيالهم لتصوير تلك الحضارات المزعومة، التي كانت هي السبب في كون الضوء المرصود على هذا النحو بزعم صاحب تلك "النظرية"، في مغالطة أعدها من أعظم مغالطات الاستدلال في تاريخ العقل البشري على الإطلاق، وسيأتي في هذا الكتاب بحول الله وقوته بسط الكلام عليها وتحليلها فلسفيا.

فإذا كان المطلب البحثي مؤسسا على نظام اعتقادي دهري صرف، ألا وهو مبدأ الوضاعة القائل بأن الأرض ليست إلا كوكبا تافها في بحر الكون لا خصوصية له، وبأن الشمس ليست إلا نجما من جملة النجوم، وإنما نراه شمسا لأننا ندور في فلك من حوله (وسواء هذا القياس أو ذاك، فكلاهما محض تحكم!)، والمبدأ الكوزمولوجي الذي به يتوسع في ذلك القياس فيقال إنه لابد وأن من النجوم ما يدور حوله كواكب كأرضنا والكواكب القريبة المحيطة بنا، ومن ثم يجوّز أن يكون في كوكب من كواكب تلك النجوم "حضارة" قد سخرت لها أسباب العالم كما سخرت لنا أو فوق ما سخرت

لنا، وإذا كانت طريقة إثبات ذلك المطلب هي قياس الضوء أو الإشعاع الوافد إلينا من بعض النجوم على الضوء أو الإشعاع المنبعث من النجم على أثر صنائع حضارة مزعومة لم نر لها نظيرا البتة، وليست إلا تخيلا محضا، لم يكن لأحد أن يعترض علينا إن وصفنا مقياس أو سلم كارداشيف هذا، أو دعوى أي فلكي من الفلكيين أنه قد شاهد في مرصده ما يدل على وجود حضارة من الحضارات التي تخيلها كارداشيف، بأنها كذب في كذب، وظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج الرجل يده فيها لم يكد يراها!

تأمل كيف يشيد بنيان الميثولوجيا الطبيعية وخرافات الدهرية الطبيعيين لبنة فوق لبنة، وخرافة فوق خرافة، ودقق النظر فيه جيدا، ولا يغرنك قول المعترض إن هذا المقياس ليس نظرية طبيعية ثابتة الأركان، وإنما هو دعوى تخمينية Conjecture لا يحملها عامة العلماء الطبيعيين محمل الجد، فإن هذه المسالك في التأسيس والتنظير ليست مقصورة على ما يسمونه بالتخمينة كما سيأتي معك بيانه بتفصيل في هذا الكتاب بحول الله تعالى! وإنما هي طريقة الفلاسفة الطبيعيين في اقتحام غيب السماوات والأرض بنظرياتهم وآرائهم الدينية أيا ما كان تقديرهم هم لقوتها! فسواء ما عدوه هم تخمينة ضعيفة، وما عدوه نظرية علمية معتبرة، فما دام الباب غيبا محضا لا نجد لفرضياتنا وأقيستنا فيه مستندا من العادة الحسية أو من مشاهدة النظائر الصريحة (كما يأتي معك شرح ذلك وتفصيله وبيانه والتمثيل عليه من نظريات القوم بحول الله وقوته في مباحث هذا الكتاب)، فلا يعدو ما عندهم من طريقهم أن يكون خرفا في خرف، في إطار ملة هي من أفسد الملل التي عرفها البشر في تاريخهم، إن لم تكن أفسدها على الإطلاق!

قال المفكر المستقبلاني الأمريكي (أو للدقة: المتنبي الدهري) "راي كورزفيل" Kurzweil: "إن المادة والطاقة المحيطة بنا ستصبح في يوم من الأيام مندمجة مع الذكاء والمعرفة والإبداع والجمال والذكاء العاطفي (القدرة على الحب مثلا) في حضارتنا البشرية الآلية. فالحضارة إذن ستتوسع إلى الخارج، محولة جميع المادة والطاقة الغشماء التي نقابلها في حياتنا إلى مادة وطاقة جميلة في ذكائها وتساميها. وإذن، فبصورة ما أو بأخرى، يمكننا أن نقول إن الفردية ستدمج الطاقة بالروح في نهاية المطاف." اهـ.

وفي كتاب من الكتب الداعية إلى الميثولوجيا الدهرية الكوزمولوجية، الهادفة إلى استمالة العامة والسفهاء من معجبي أفلام ستارتريك وحرب النجوم ونحوها، كتب الفيزيائي المخرف الكبير "ميتشيو كاكو" نبواته الخاصة

بشأن مستقبل الكون (أو الأكوان المتعددة على عقيدته) وعلاقة النوع البشري المستقبلي به، فقال [80]:

"اليوم، نحن ممثلون نعيش في الفصل الأول، في مستهل استكشاف العجائب الكونية الكبرى لخشبة (ذلك المسرح الكوني العظيم). وفي الفصل الثاني، إن لم ندمر كوكبنا هذا بالحروب والتلوث، فقد نتمكن من مفارقة هذه الأرض واستكشاف النجوم والأجرام السماوية الأخرى. ولكننا الآن نزداد إدراكا لوجود فصل أخير، هو الفصل الثالث، حيث تنتهي المسرحية، ويهلك جميع الممثلين. ففي الفصل الثالث، تبلغ خشبة المسرح درجة من البرودة يصبح من المحال معها استمرار الحياة. فيكون سبيل الخلاص الوحيد الممكن حينئذ، هو مغادرة تلك الخشبة بالكلية، من طريق بوابة هروب، لنفتتح مسرحية جديدة على خشبة جديدة!" اهـ.

قلت: فلا عجب أن يكون هذا السخف هو اعتقاد وطموح من لا يرى الغيب ولا يؤمن به، ولا يرى اليوم الآخر، ثم هو مع ذلك قد ذهبت الفتنة بالتكنولوجيا المعاصرة بما بقي من عقله فما أبقت منه شيئا! وبالتأسيس على مقياس كارداشيف للحضارات، وعلى غرار مقياس كارل ساغان لمستوى لحضارة بحسب ما يتراكم عندها من معلومات، أطلق صاحبنا المهرج "كاكو" العنان لخياله الدهري ليطرح سؤالا أسوقه هاهنا إلى القارئ الكريم من باب التندر، لعله يختم قراءته لهذا المبحث الطويل بشيء يصح فيه قول القائل: شر البلية ما يضحك! فقد عقد كاكو في كتابه الذي نقلنا منه آنفا فصلا ترجم له بقوله: "الفرار من الكون"!! Escaping the Universe، حاول فيه أن يتصور ما تحتاج إليه البشرية إن تمكنت الحضارة الإنسانية من البقاء في هذا العالم لملايين السنين، وصولا إلى يوم يبلغ فيه الكون نقطة الانهيار التام وامتناع استمرار الحياة فيه بأي صورة من صورها! فيطرح صاحبنا السؤال: ما مستوى الحضارة Civilization الذي تحتاج البشرية إلى أن تكون قد بلغته يومئذ، وما أنواع الحواجز التي يتعين عليها أن تكون قد تجاوزتها، حتى تتمكن من "الفرار" من ذلك الكون المتهدم، والانتقال إلى كون آخر يسمح للبشر بالعيش فيه؟ ينطلق كاكو في فصل كامل يفصل الجواب عن ذلك السؤال تفصيلا، وهو مع ذلك لا يرى نفسه هازلا، ولا يراه صاحب شطحة من شطحات "الخيال العلمي"، وإنما يرى أنه يحاول أن ينفع الأجيال القادمة بأن ينبئها بما تحتاج إلى إعداده من العدة ليوم انهيار الكون وزواله من حولهم! فهو في عين نفسه يراه قد ساق إلى أتباع ملته البديل الكوزمولوجي "العلمي" لسفر الرؤيا ولنبوءات يوم القيامة، موجها أتباع ملته لما يحصل به "الخلاص" للنوع البشري إذا ما شهدوا ذلك اليوم الموعود في المستقبل البعيد!

يستهل "كاكو" الفصل باستعراض قصة رواية من روايات "الخيال العلمي" اسمها "إيون" Eon، خلاصتها أن الأرض ستتعرض في المستقبل لحرب نووية طاحنة تحرق البلايين من البشر، فلا ينجو منها إلا قلة تتمكن بصورة ما أو بأخرى من اختراع آلة للزمن ترسل بها إلى الماضي، إلى ما قبل اندلاع تلك الحرب، بوابات للعوالم الموازية، توفر للنوع البشري طريقا للفرار من تلك المهلكة النووية إلى عالم آخر، قبل أن تنزل بهذا العالم فتقضي عليه! ثم يتساءل الرجل في سخافة قل نظيرها: "مع أن البوابة إلى الأبعاد الموازية التي ناقشتها الرواية هي خيال محض، إلا أنها توحي بسؤال مهم يمسنا جميعا: هل من الممكن أن نتخذ لأنفسنا ملاذا في كون مواز Parallel Universe، إن صارت الأحوال في عالمنا هذا (في يوم من الأيام) فوق طاقتنا؟ فإن تآكل هذا العالم وتفسخه إلى غبار من الإلكترونات والنيوترونات والفوتونات يبدو أنه ينبئنا بالهلاك الحتمي لجميع صور الحياة الذكية (في العالم) .... ولكن هل يمكن لحضارة متقدمة أن تنقذ نفسها مع استمرار درجة حرارة الكون في التناقص عبر الحقب الزمانية الطويلة؟ لو أنها حشدت جميع تقنياتها مع تكنولوجيا أي حضارات أخرى يمكن أن تكون موجودة في الكون، فهل يمكن لتلك الحضارة أن تفر من حتمية التجمد العظيم Big Freeze؟" اهـ.

ثم تكلف صاحبنا أن يضرب جوابا عن السؤال، فقال: "بالنظر إلى كون معدل ارتقاء مراحل الكون يقاس ببلايين وتريليونات السنوات، فثمة وقت طويل يسمح لحضارة صناعية بارعة بأن تحاول مواجهة تلك التحديات. وعلى الرغم من أنه يكون ضربا من التخمين المحض أن نتخيل نوع التكنولوجيا الذي يمكن لحضارة متقدمة أن تخترعه حتى تستعمله في تطويل مدة بقائها (في الكون)، ولكن بوسع المرء أن يستعمل قوانين الفيزياء لمناقشة الخيارت الواسعة التي قد تتوفر لهم بعد بلايين السنين من اليوم. بيد أن الفيزياء لا تملك أن تخبرنا بالخطة المحددة التي ربما تتبناها تلك الحضارة عظيمة التقدم، ولكنها قد تخبرنا بحدود الخيارات المتاحة لهم خلال ذلك الهروب. بالنسبة للمهندس، المشكلة الأساسية في مغادرة الكون، هي فيما إذا كانت لدينا الموارد الكافية لبناء آلة يمكن أن تقوم بتلك المهمة الصعبة. ولكن بالنسبة للفيزيائي، المشكلة الأساسية مختلفة، ألا وهي فيما إذا كانت قوانين الفيزياء تسمح بوجود تلك الآلات من الأساس. الفيزيائيون يريدون إثباتا مبدئيا Proof of Principle، نريد أن نبين ما إذا كان من الممكن، في حالة وجود التكنولوجيا البالغة من التطور ما يلزم، أن يكون ذلك الهروب إلى كون آخر ممكنا (مبدئيا). أما مسألة ما إذا كانت الموارد متوفرة أم لا، فهذه تفصيلة عملية أدنى في المرتبة (من هذا

السؤال)، ينبغي أن تترك لحضارات تأتي بعد بلايين من السنوات في المستقبل، ستكون هي يومئذ المتعرضة لنازلة التجمد العظيم!" اهـ.

قلت: هذا الهراء والهزل السخيف، الذي حق لقائله أن يتخذه الناس سخريا يجعلونه فاكهة لمجالسهم، هو في حقيقة الأمر، أيها القارئ المحترم، نتاج نظام اعتقادي ديني عميق الغور عند الكوزمولوجيين الغربيين خاصة، والفيزيائيين الدهرية عامة، وهو ذلك الاعتقاد الذي بلغ ذروته في حركة "الترانسهيومانيزم"، ألا وهو اعتقادهم بأن مسألة مصير العالم (الكون) ومآله، ومسألة مصير النوع البشري وما يجب على بني آدم من استعداد لذلك المصير، هما، من حيث نوع الموضوع وطبيعة الآلة التي يرجى من استعمالها أن تحقق العلم فيه، مسألتان فيزيائيتان طبيعيتان! بمعنى أن عالم الفيزياء (الذي يفترض فيه الاختصاص بدراسة ما هو شاهد من نظام هذا العالم على ما هو عليه) هو المرجوع إليه فيهما، المرجو منه أن يصل فيهما إلى جواب ما، إن كان يرجى في مثلهما الوصول إلى اكتساب العلم وارتفاع الجهل! وهذا اعتقاد ديني دهري محض، كما يجب ألا تخطئه أعين المسلمين الذين لهم عناية بتلك العلوم، ولا يغني عنه شيئا أن تجده – وما ترتب عليه عند أصحابه من نظريات وأفكار وأحلام واستمناء فكري محض – مبسوطا في كتاب من كتب الفيزياء، أو من كتب تبسيط الفيزياء الحديثة للعامة، ككتاب كاكو الذي ننقل منه هذا الكلام!

فعندما تكون عقيدة الرجل في الغيب أنه ليس وراء الطبيعة إلا الطبيعة، وليس قبلها ولا بعدها إلا مثلها، فلا إشكال إذن في وضع الفرضيات والتصورات القياسية بشأن غيب الماضي المحض (بلايين وبلايين السنين في الماضي السحيق) وغيب المستقبل المحض (بلايين وبلايين السنين في المستقبل البعيد) وغيب المكان المحض (بلايين وبلايين الكيلومترات في شتى جهات السماء)، بل ولا إشكال في افتراض عالم آخر بل عوالم أخرى موازية مناظرة لعالمنا هذا، بحيث يصبح من جملة موضوعات الفيزيائيين ومباحثهم، البحث فيما إذا كان من الممكن في يوم من الأيام أن نجاوز حدود هذا العالم وننفد من أقطاره لنلج إلى عالم آخر مجاور له!

توضع النظريات الميتافزيقية – أولا – في حقيقة "الزمان" و"المكان" (هكذا) وتوضع بناء على ذلك، النماذج الجيومترية لتوصيف الكون وتصوره بكليته (بالقياس على بعضه مما في الشاهد)! وتوضع النظيرات الأستروفيزيائية في حدوده وحافته و"نسيجه" وبنائه، هكذا، ثم توضع النظريات الكوزمولوجية في نشأته (إن قدرت له بداية عندهم) وتطوره المزعوم ومصيره (إن قدرت له نهاية بحسب نظرياتهم)! ثم توضع النظريات فيما هو أغرق في الغيبية المحضة من تلك المطالب، فينظر في

"فيزياء" ما كان قبل نشأته وما يكون بعد هلاكه وفي "فيزياء" العوالم الأخرى التي فرضوا وجودها وإحاطتها به من ورائه (لخدمة بعض نظرياتهم في طبيعة الكون وتطوره المزعوم!)، ثم يأتي أمثال هذا المهرج بعدما شُحنوا بتلك الميثولوجيا الطبيعية المحضة وغرقوا فيها حتى الثمالة، وبعدما أكلت الفتنة بالتكنولوجيا الحديثة رؤوسهم وملأت عليهم نفوسهم، يكتبون الروايات فيما يسمى بالخيال العلمي، الذي هو في واقع الأمر طموحات وأحلام ونبوءات الدهرية الطبيعيين المعاصرين، وما يطمعون في أن تصل إليه آلتهم التكنولوجية وقدراتهم على استعمال أسباب الطبيعة وعلى مشاركة رب العالمين في صفات الربوبية وأفعالها، ثم ترى أحدهم يطرح مثل هذا السؤال العبثي البارد، وهو مع ذلك يرى أنه صاحب جد لا هزل، وأنه يبحث في أمر خطير ينبغي أن يبدأ الفيزيائيون من الآن في العناية به، وأن تنفق الأموال في المشاريع البحثية إعدادا له، إن كانوا يطمعون في أن يستمر نوع البشر في الوجود إلى الأبد، كلما هلك عليهم "كون" فروا منه وانتقلوا إلى غيره!

دعنا، أيها القارئ الكريم، نعدد لك ما في هذه الفقرة وحدها من خرافات اعتقادية طبيعية لا علاقة لها بالعلم في قليل أو كثير!

فأولا: قوله: "بالنظر إلى كون معدل ارتقاء مراحل الكون يقاس ببلايين وتريليونات السنوات، فثمة وقت طويل يسمح لحضارة صناعية بارعة بأن تحاول مواجهة تلك التحديات" قلت: هذه ثلاث خرافات كوزمولوجية ما أنزل الله بها من سلطان، وإنما هو قياس غيبي فوق نظيره فوق نظيره! فلا الكون "ترقى" كما في نظريات القوم، ولا لذلك الترقي المزعوم "معدل" يقاس بآلة البحث التجريبي Scientific Method، ولا لتلك التريليونات الفاحشة أساس في العقل إلا التخمين المستند فيه إلى تأويل المشاهدات بالتخمين، وليس في تناسق التخمينات مع بعضها البعض دليل على صحة شيء منها أو مطابقته الواقع عند العقلاء! ولا تتحول الخرافة الغيبية إلى حقيقة "علمية" لمجرد أنها قد استند في إثباتها إلى تأويل مشاهدات مرصد عملاق قد تكلف في إنشائه ملايين الدولارات، أو قمر صناعي قد بلغ الغاية من التطور والدقة في الأداء الرصدي! لستم في ذلك (أعني مسألة تاريخ الكون ومصيره) على شيء البتة، ولو أنفقتم أموال الأرض كلها في تصميم التجارب والمراصد تطلعا لإثبات عقائدكم أو نفيها! للعالم رب يقيمه يا هؤلاء، يمسكه عن الزوال إلا بإذنه، وإن رغمت أنوفكم!

أما مسألة جواز وجود حضارة يبلغ بها رقيها وتقدمها التكنولوجي أن تحل محل ربها وباريها، وأن تصير أفراد النوع البشري "أربابا" تخرج من كون إلى كون، أو تهدم كونا وتخلق غيره، أو تمتص طاقة الكون كلها من أجل

صناعاتها فلا يبقى فيه موضع يصلح للحياة، فهذه خرافات طبيعية دهرية يغني ذكرها عن تكلف إبطالها! فإلى جانب وجود الباري الذي هو حقيقة بدهية ضرورية، فإن محدودية المعرفة البشرية وقصورها وعجزها عن الإحاطة المعرفية حتى بأدق الموجودات الواقعة تحت الحس البشري، هذه أيضا حقيقة بدهية لا تحتاج إلى برهان! لن يخرج المخلوق عن قيود خلقته مهما عمل، ولن يتخطى سنن هذا العالم الذي هو مركب فيه مهما عمل، لأنه كان ولم يزل وسيظل مفتقرا لما لا يحيط به علمه من أسباب هذا العالم، وكان ولم يزل وسيظل مركبا من نظم حيوية ومادية لا قيام لها إلا بتلك السنن وبما وراءها من أسباب لا يحصيها إلا باريه وباريها جل في علاه! هذه صفته التي لا انفكاك له منها بمقتضى كونه مخلوقا حادثا، كان بعد أن لم يكن! ومهما جاء التجريبيون "بتحسينات" وتعديلات على جسم الإنسان (فيما يتوهمونه هم تحسينا وتعديلا)، فما هي في النهاية إلا عبث المخلوق الناقص، مستعملا عقله الناقص وعلمه القاصر، بنظام لا يحيط به علما مهما علم، وهي مما قال اللهِ فيه حاكيا كلام الشيطان: ((وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ)) الآية [النساء : 119]! فلا يزداد المخلوق عبثا بخلقته وتلاعبا ببيئته إلا ازداد جمعا لأسباب هلكته من حيث لا يدري! ألا ترى أن الرجل كلما ازداد رقيه وعلوه في الهواء، ازداد سقوطه وارتطامه بالأرض فتكا به وتدميرا؟

ثم إنه لا عبرة بطول امتداد عمر الحضارة أو قصره في تجويز ذلك الخرف والهذيان الذي جوزه "كاكو" وأسس عليه، فإن تطاول الزمان لا يُجوز المحالات والممتنعات، وهذا واضح! وهذا مما يُنقض به على نظرية داروين نفسها، كما سلكناه في غير موضع، إذ معلوم بداهة أن النظام لا ينشأ عن الفوضى والعشواء الوجودية [81]، لأن موجِب نشأة النظام وحدوثه إذن يكون فاقدا، والمرجح لتركب أجزاء النظام في بعضها البعض على تلك الصفة لا غيرها، ولصيرورته نظاما ثابتا مطردا يعمل ذلك العمل لا غيره، إذن يكون منعدما، ولا ينشئ النظام نفسه في حال عدم نفسه، لأن ما لا وجود له لا فعل له ولا إنشاء، ولا تأثير لطول الزمان على ذلك الامتناع، فلا يصير المحال جائزا من أثر استطالة الزمان، ولا يصبح الممتنع ممكنا مع مر العصور! هذه كلها قضايا بدهية لا تخفى على عاقل، ولا نسبة بين من ينكرها وبين العقل وإن كان من أذكى الناس! ولا علاقة للترجيح الاحتمالي بتلك القضية من قريب ولا من بعيد كما بيناه وبسطنا الكلام عليه في غير هذا الموضع.

ثم يقال كذلك إن تراكم جملة الخبرات والمعارف المادية البشرية فيما يقال له "حضارة" لا يلبث أن ينهار ويضمحل لا محالة، ولو بعد حين! وقد

دلت العادة والخبرة على أن أعمار الحضارات البشرية أقصاها أن تعد بالقرون! وهي تلك الحضارات القديمة التي لم يكن فيها القنابل والمتفجرات وما عرفوها، فما كانت الحرب إلا نزالا شريفا، حديدة لحديدة، ورجلا لرجل! ما كان فيها ما تستأصل به الجيوش في مرابضها من قبل أن تخرج لميدان القتال، ولم يكن في أسلحتهم ما تباد به المئات بل الآلاف بل الملايين من البشر بضغطة على زر صغير! ما عرفوا آلات النقل الجماعي الذي تهلك الحادثة فيه المئات! وما عرفوا الأبراج الشاهقة التي إذا انهارت، دفنت تحتها المئات بل الآلاف! وما عرفوا المفاعلات النووية التي إذا عطبت، أزالت معها قرى كاملة من على سطح الأرض، وتركت موضعها ملوثا ممرضا لأجيال متتابعة من البشر! إلى غير ذلك من صناعات رفيعة ثقيلة العبء والحمولة على رقاب أهل هذا الزمان!

وحسبك أن ترى إلى أي حد صارت تلك الحضارة الباهرة التي سال لها لعاب كاكو هذا وأصحابه، معتمدة اعتمادا تاما على نظم رقمية حاسوبية وعلى شبكات للاتصالات لو تعطلت آلتها أو انقطعت عنها طاقتها، لكان من أثر ذلك من الخراب والخسارة ما صار يستعان بباحثين متخصصين من أجل تكلف إحصائه وتقديره! ألا ترى الناس اليوم ترتعد فرائصها من مجرد فكرة أن رجلا مثل خامنئي الرافضي أو "كيم يونغ أون" (طاغوت كوريا الشمالية الشيوعية) – مثلا - قد تبلغ به حماقته أن يعلن الحرب النووية على أمريكا في يوم من الأيام، أو أن رأسا نووية قد تقع بين أيدي منظمة من المنظمات الإرهابية ذاهبة الدين والعقل والضمير، فيتعرض بلايين من البشر للمحو من على وجه الأرض في لحظة واحدة، هم وحضارتهم وعلومهم وصناعاتهم كلها من أولها إلى آخرها؟؟ فمن أسخف وأوهى الخصال عند العقلاء أن يفرح الرجل بما قد يفضي إليه تراكم أسباب العلو في الأرض عند أمة من الأمم، ويتجاهل أو يتغافل ما يقارن ذلك ويلازمه – لا محالة - من تراكم أسباب الانهيار والسقوط المدوي!

ثم إن أهل الأمم الخالية كانوا كما جاءت به الأخبار عن الصادق المصدوق، كانوا أعظم أجسادا وأشد بطشا وأطول أعمارا وأوسع انتشارا في أرض الله! فكان لتلك "الحضارات" القديمة من أسباب البقاء في الأرض ما لا يتمتع به (إجمالا) أهل زماننا! ومع ذلك، فأين هم الآن وكم بقي منهم؟ ((أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)) [الروم : 9]!

ثم إن أصحاب تلك "النظريات"، ككارداشيف وساغان وكاكو وغيرهم، بشأن ما يسمونه إجمالا بمستويات الحضارة Levels of Civilization لم يتكلفوا

وضع تعريف جامع مانع لما يسمونه "بالحضارة" قبل أن يطلقوا العنان لخيالهم الدهري السخيف في إطلاق الدعاوى بشأن درجاتها ومستوياتها ومستقبلها البعيد! ولو تكلفوا ذلك، على طريقة أهل العلوم الإنسانية، لتبين لهم وهاء مطلبهم وشتات أطرافه! ولكن تراهم يعاملون "الحضارة" معاملة الشيء الواحد المتصل المتسلسل الذي لا يكون كذلك إلا إن كان خاضعا لنظام سياسي واجتماعي واقتصادي واحد، لا يزال يترقى أو يضمحل كله بجملته الواحدة قرنا بعد قرن، وهذا أمر لم يحصل في تاريخ النوع البشري إلا في زمان آدم ونوح عليهما السلام، اللذين كان النوع البشري على عهدهما أمة واحدة، كما قال الله تعالى: ((كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) [البقرة : 213]، وإلا فأي أمة من أمم العالم المعاصرة على وجه التحديد، تمثل "الحضارة" أو مستوى الحضارة المعين الذي تنسبونه بهذا الإجمال الفاحش "لحضارة هذا العصر الذي نحن فيه"؟ هل هي أمريكا، أم الصين أم اليابان أم كوريا الجنوبية، أم روسيا أم بريطانيا أم ألمانيا أم ماذا، علما بأن في كل أمة من تلك الأمم ما ليس في غيرها من الموارد وأوجه التطور المادي والتكنولوجي والعلو الصناعي والبحث العلمي كما هو معلوم؟ أي هذه الأمم المتنافسة مع تكاملها، المتداخلة مع استقلالها، تمثل "حضارة النوع البشري" بجملته في عصرنا هذا عندكم، وعلى أي أساس؟ أجيبوا عن هذا السؤال أولا، ثم خبرونا بربكم، بأي مستند من العقل أو الحس أو التاريخ يتوقع أو يرجى لشيء يقال له "الحضارة البشرية" أن يعمر ما بقي للأرض والسماء من عمر؟؟! لا العقل ولا الحس ولا العادة ولا الأخبار التاريخية تجيز لعاقل أن يتصور في حضارة ما (على أيما وجه عرفتموها) أن تبقى في تراكم متدرج متصل للمعارف والخبرات المادية عبر أجيال المنتمين إليها، بما يجاوز العشرين قرنا، فضلا عن المليون سنة، فضلا عن "بلايين السنين"!! فأي هراء هذا؟؟!

ومما له اتصال بهذه المسألة، وتجدر الإشارة إليه في هذا المقام لتعلقه كذلك بمسألة "العلم التجريبي" Science وموقف الدين منه، تلك الدعوى العوراء التي يطلقها بعض رؤوس الدهرية الطبيعية المعاصرين أمثال سام هاريس وستيفن واينبرغ ونيل تايسون وغيرهم، إذ يقولون إن الإسلام متهم بتثبيط أتباعه عن الأخذ بأسباب الحضارة والعلوم المادية النافعة، بالنظر إلى وجود طائفة من طوائفه تنفي السنن السببية والقوانين الطبيعية، وأن الذين ساهموا من العرب والمنتمين إلى الإسلام في البحث التجريبي بإضافات قيمة ذات بال، لم يكونوا مسلمين على الحقيقة كابن سينا وغيره! فيقال

لهؤلاء: صدقتم! قد اتفق أن كان أكثر من عظمت إسهاماتهم في التجريبيات والطبائعيات من العرب في القرون السالفة زنادقة وملاحدة، فكان ماذا؟ كيف يكون هذا دليلا على أن المسلمين يمنعهم دينهم من أن ينتجوا العلم النافع في التجريبيات؟ المقدمة الخفية هنا مفادها أن الدين الذي لا تظهر إسهامات تجريبية عظيمة (بأيما معيار كان الحكم بذلك) أو كثيرة على أيدي أتباعه، فلابد أن يكون دينا مثبطا عن البحث التجريبي النافع، حاملا الناس على تركه والانصراف عنه! فهل هذه المقدمة ترقى للقبول عند العقلاء؟

ثم نقول، قد ذهب "ديفيد هيوم" Hume الفيلسوف الدهري الإسكتلندي المعروف في القرن الثامن عشر الميلادي إلى أبعد مما ذهب إليه الغزالي! فقد ذهب إلى إسقاط الأساس المنطقي الذي به يوثق في دلالة العادة الماضية التي سلم بها الغزالي، على ما هو واقع في المستقبل! فبينما قبل الغزالي مبدأ الاستقراء (معرفيا)، نافيا قانون السببية (وجوديا) وتأثير الطبائع بعضها في بعض (وهو تناقض ولا شك)، أسقط هيوم أساس الاستقراء نفسه وجوديا، مدعيا أنه لا أساس في العقل لاتخاذ الخبرة الماضية دليلا على شيء مما يكون في المستقبل، أو بعبارة أخرى: لا أساس في العقل للتسليم بقانونية السنن السببية نفسها، بما يرجح الاطراد على الانقطاع! وهي تلك المعضلة التي عبر عنها برتراند راسل الدهري أيضا بقوله ما معناه أنها إن صحت، فلا فرق إذن بين سلامة العقل Sanity والجنون Insanity! ومع ذلك لم ير أحدكم لمذهب هيوم ذاك تأثيرا على مسيرة الحضارة الغربية والتقدم التجريبي في أوروبا! فلماذا لم يتعرضوا لهيوم بمثل ما تعرضوا به للغزالي؟ لأن هيوم لم يكتب ما كتبه انتصارا لرب بالغيب كما صنع الغزالي، وإنما كتبه انتصارا عليه! فلا بأس بذهاب أصل العلم التجريبي وأصل من أصول العقل نفسه، ما دام الداعي إلى ذلك والحامل عليه هو النقض على أصحاب اللاهوت الطبيعي أمثال ويليام بيلي وغيره!

والواقع أن السبب في ذلك الاحتجاج السخيف، إنما يرجع إلى مسلك ثلة من جهلاء المسلمين في محاولتهم إثبات أن الإسلام لا يتعارض مع "العلم" Science، فتراهم يدللون على ذلك بذكر هؤلاء الزنادقة الذين ردوا إلى الغرب بضاعتهم، بأن نقلوا إليهم نصوص أكاديمية اليونان القديمة، مع ما زادوه عليها مما جرى على نظامها إجمالا، فتراهم يقولون: لقد كانت الحضارة الإسلامية هي منبت العلم التجريبي في عصر "نهضتها"، ولولا فلان وفلان ما عرفتم أنتم العلم التجريبي! ونقول: ولكن لولا تراث اليونان ما وجد فلان وفلان هذا ما يؤسسون عليه وما ينقلونه إلى أوروبا، فلا حجة لكم في هؤلاء! بل ونقول: لولا ميتافزيقا الأكاديمية اليونانية التي تشرب بها

هؤلاء ما تزندقوا ولا أحدثوا في دين الله ما أحدثوا، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولو صدقتم في وصف تلك الفترة لما وصفتموها بالنهضة، وإنما هي بمجملها نكسة ما بعدها نكسة، إذ أكب المأمون على ترجمة كتب اليونان ومخطوطاتهم دونما تمحيص ولا تفريق، فأدخل إلى المسلمين شرا مستطيرا، لا يهون من شره وضرره عليهم ما وقع فيه من مسائل تجريبية نافعة مهما كثرت!

والحق أننا لا يلزمنا إثبات حصول المساهمة التأسيسية أو التأصيلية لبعض المسلمين في شيء من تلك العلوم تاريخيا، حتى نثبت أن ديننا لا يمنعنا من ذلك مبدئيا! لنفرض على التنزل أن جميع أعمال المسلمين في ذلك المجال كانت نقلا عن حضارات أخرى وترجمة لها وانتقاء لما ينفع منها، فكان ماذا؟ لا يلزم من ذلك أن يكون دين الإسلام قد حجزنا عن الإبداع العلمي والإضافة العلمية! فقطعا ليس في ديننا ما يوجهنا إلى ألا نكون إلا ناقلين عن الكفار في التجريبيات ولا نأتي فيها بشيء جديد! بل إن قواعد الدين وكلياته ومقاصده تقتضي خلاف ذلك! وإلا فقل لي بربك كيف نعد للكفار ما استطعنا من القوة ورباط الخيل نرهبهم به، ونحن لا نزيد على أن نكون ناقلين عنهم في أسباب القوة ورباط الخيل، مفتقرين إليهم، متأخرين عنهم في جميع ذلك؟

فلو أن القوم قالوا إن مبدأ جواز ممارسة البحث التجريبي وتحصيل المعارف من طريقه، بل وجوب ذلك على الكفاية على المسلمين [82]، يرجع إلى قواعد شرعية كلية لها مستندها في نصوص الكتاب والسنة، جريا على فهم الصحابة والتابعين الذي هو حجة في إثبات الفهم الصحيح لتلك النصوص، لحصل لهم المطلوب دون أن يجعلوا المسلمين عرضة لذلك التشغيب السخيف! بل حسبهم أن يسوقوا مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه: "تداووا" الحديث، ليثبتوا أن الاشتغال بالبحث التجريبي النافع (الذي يبلغ الغاية في النفع عند الأطباء وأصحاب البحث في العقاقير ووسائل العلاج وأسبابه وسننه) واجب على المسلمين وجوبا كفائيا، لأنه لا يحصل لمرضاهم التداوي إلا إن وجد فيهم من يستجمع من أسباب العلم بالدواء ما يلزم! وأسباب العلم بما جعله الله لكل داء من دواء، الأصل فيها التجريب والاستقراء والاستكشاف كما هو معلوم! وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما هو متقرر في الأصول!

موضوعات المجلد

Notes

[←1]

جملة النظريات الميتافيزيقة السائدة والمعتمدة أكاديميا في عصر ما، والتعاريف والمفاهيم الكلية المتعلقة بها.

[←2] ونقول في حدّ الطبيعة -فيما نراه أجمع وأمنع وأوجز تعريف لها-: إنها هي مجرى العادة البشرية في هذا العالم زمانًا ومكانًا. فكل ما يشاهد من طبائع الأشياء المحسوسة بالفعل أو بالقوة فهو داخل في مفهوم الطبيعة؛ وهو إذن قابل للإخضاع للتجريب والرصد، وللاستدلال والافتراض التفسيري المقبول منهجيًّا باستعمال آلة العلم التجريبي Scientific Method. أما أصحاب الدين الطبيعي أو الفلسفة الطبيعية، فيجعلون الطبيعة هي كل ما في الوجود زمانًا ومكانًا، كما بسطت الكلام عليه في موضعه من هذا الكتاب.

[←3]
على التجوز في تلقيب أولئك بالمتكلمة الجدد، وإلا فالأحرى أن يقال "أشباه المتكلمين"؛ إذ هذه منزلتهم ودرجتهم في التنظير والتأصيل إذا ما قورنوا بسلفهم الأقدمين.

[←4]

https://www.theguardian.com/science/2008/jun/30/cern.particle.collisions
دخل عليه في السابع عشر من ربيع الثاني، عام تسع وثلاثين وأربعمئة وألف من الهجرة، الموافق الثالث من يناير عام ثماني عشرة وألفين من الميلاد.

ما بين الأقواس في متن الاقتباس (وهو من ترجمتي) أضفته للتوضيح، وهذا هو المتن بلغته الإنكليزية:
Cathedrals were designed to celebrate the glory of God as manifested through the human spirit in words, music and art. The LHC has been engineered to celebrate and proclaim the glory of the natural world, and of our remarkable ability to comprehend it, as manifested through experimental science.

[←5] https://www.huffingtonpost.com/michael-ruse/is-darwinism-a-religion_b_904828.html, دخل عليه في السابع عشر من ربيع الثاني، عام تسع وثلاثين وأربعمئة وألف من الهجرة، الموافق الثالث من يناير عام ثماني عشرة وألفين من الميلاد.

[←6]

وهذا من حكم الرب -جل وعلا- في ابتلاء العباد بالغيب ولا شك. يقول المرسلون للناس إن في السماء ربًّا يراكم ويرقبكم وقد بعثنا إليكم بأمره ونهيه وتكليفه، فيقول قائل الفلاسفة: قد نظرنا في السماء فما وجدنا ربًّا ولا غيبًا ولا شيء من ذلك، وإنما هي نجوم تضيء وأجرام تسبح وتدور في أفلاكها، بغيرما نهاية في كل جهة، فإنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع، نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر! فكان من سابغ الحكمة الإلهية وكمال الابتلاء أن يكون حجاب الغيب نفسه الذي اتخذه الله فيما بينه وبين الثقلين المكلفين من خلقه في هذا العالم؛ محشوًّا بما يغري الزائغين الجاحدين من أهل الكبر والأهواء ويزين لهم التماس كل مسلك باطل في التكذيب بما علموا في بواطن نفوسهم أنه الحق الذي لا محيد عنه! ومع أنه من بداهات العقول أن يكون في الغيب رب خالق مصور بارئ، أنشأ هذا العالم كما يحب ويرضى، إلا أن هؤلاء الجحدة يكذبون على أنفسهم ويزعمون أنهم لا يجدون فيها ذلك العلم الفطري الأولي، بل ويزعمون أنهم لا يجدون في الواقع المحسوس ما يدلهم على ذلك! ومن أسخف وأبلغ ما أنت راءٍ من اعتراضاتهم على دعاة التوحيد أن ترى قائلهم يقول: "لو صح أن كان فيما وراء العالم المنظور رب خالق يأمر ويرزق، تنزل منه الأوامر الإلهية بالليل والنهار؛ فلماذا احتجب عن أنظارنا، ولماذا خلق السماوات والأرض لتبدو وكأنه ليس فوقها كرسي ولا عرش ولا شيء من ذلك، ولماذا خلق المخلوقات الحية في الأرض بحيث تبدو وكأنها ارتقت من أصل مشترك كما ذهب إليه داروين؟" ونقول: احتجب عن أنظاركم يا هؤلاء؛ لنفس الحكمة التي من أجلها خلق العالم على ما هو عليه، وجعلكم فيه على ما أنتم عليه! لأنه أراد أن يبتليكم بالحياة والموت والخير والشر والسعادة والحزن والهداية والضلال والعقل والسفه والرخاء والقحط والعلو والاستضعاف والثراء والفقر.. إلخ ((وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)) [الذاريات : 49]! فكل ما في العالم مخلوق من أجل الابتلاء والتكليف والامتحان، خيرًا كان أو شرًّا!

هكذا أراد ربكم وخالقكم، فمن تحسبون أنفسكم -يا أحقر خلق الله في أرضه- حتى تعترضوا على مشيئته وحكمته -سبحانه وتعالى وتقدس-؟! من ذا الذي يضطر الرب الباري خالق كل شيء لأن يخرج العالم ويخلق الخلق على غيرما يحب هو – سبحانه - ويختار؟؟ السماء سماؤه والأرض أرضه والعالم كله من صنعه وخلقه وتدبيره، بما فيه تلك القلوب الجاحدة المريضة التي في صدوركم! هذا الطعام الذي تطعمونه وذاك الماء الذي تشربونه بأي شيء اكتسبتموه -لعنكم الله-؟ حتى القلب الذي ينبض في صدوركم والدم الذي يجري في عروقكم والنفس الذي يتقلب في صدوركم لا تملكون له جلبًا ولا حفظًا؛ ففي أي شيء أنتم، تقولون لرب العالمين: "لماذا اخترت أن تبتلينا بالغيب وألا تخلقنا في جنة ننعم فيها نعيمًا مقيمًا فلا نتعب ولا ننصب ولا نجوع ولا نعرى ولا نموت أبدا؟"؟! هو يريد ذلك الامتحان بالغيب وما فيه، يحب أن يرى خلقًا له يؤمنون به ويعبدونه بالغيب اعترافًا بفضله ومنته عليهم، مع أنهم لم يروه -سبحانه وتعالى- رأي العين؛ ومع أنهم يجدون في الأرض من يسفههم ويسخر منهم، فهل جعلكم شركاء له في ملكه حتى تعترضوا على حكمته وإرادته؟؟ سبحانه لا يسأل عما يفعل وأنتم تسألون، فمن تحسبون أنفسكم يا أعداء أنفسكم؟؟! كذبتم ورب الكعبة وأنتم تعلمون، إن زعمتم أن هيئة السماء تشتبه عليكم فلا يظهر لكم أن لها خالقًا قد خلقها بالغيب -سبحانه-! كذبتم ورب الكعبة وأنتم تعلمون، إن زعمتم أن هذا الثراء الواسع الطلق في خلق الله –تعالى- للدواب على الأرض يشتبه بين أن يكون خلقا محكمًا بالغ الإتقان، وبين أن يكون فوضى وعشواء لا حاكم لها ولا قائم عليها من خارجها، وأن الأمر –إذن- يحتاج إلى مرجح حتى يعرف أي "التفسيرين" أولى بالقبول!

إنما كرهتم الاعتراف بمخلوقيتكم كراهة أن تؤمروا بالخضوع لرسول اصطفاه ربكم وقدمه عليكم ((وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)) [الزخرف : 31]، فكذبتم بما تشهد به فطرتكم وادعيتم الجهل بما لا قيام للعقل السوي إلا بالتسليم به ابتداء، فوالله إن أمثال تلك القلوب الخبيثة التي في صدوركم لتستحق أن تستدرج إلى النار استدراجًا، ولله العزة والملكوت والأمر جميعًا، ولكنكم قوم بهت لا تعقلون! ((فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)) [البقرة : 10]! ومن سفاهتهم ترى فلاسفتهم ينشئون تخصصًا مستقلًا من تخصصات الفلسفة الأكاديمية المعاصرة المستقلة عن علوم أهل الأديان كافة، يسمونه بفلسفة الدين Philosophy of Religion ثم يجعلون من مباحثه بحثًا بعنوان: الخفاء الإلهي Divine Hidenness، فيجلس الفيلسوف على أريكته يخترع الاعتراض المنمق المزخرف تلو الاعتراض على مجرد مبدأ احتجاب رب العالمين بالغيب، يطالب أهل الملل بتخريج المسألة على النحو الذي يهواه لعله يرضى، فيسارع اللاهوتيون والمتكلمون ونحوهم لإجابة شرطه وطلبه لعلهم يحظون بالرضا السامي والدرجة الأكاديمية الرفيعة. ولا حول ولا قوة إلا بالله! فما نقول إلا: يا هؤلاء لا تحسبن الله غافلًا عما تعملون، ولكم يوم توفون فيه جزاءكم ولا تظلمون!

[←7]

ويكفي أن تعلم أنهم إذا نشروا في الصحف ووسائل الإعلام أنهم قد توصلوا أخيرًا إلى اكتشاف كوكب مشابه للأرض يدور حول نجم بعيد، وأطلق رساموهم العنان لخيالهم الخصب لنشر الصور لسطحه وسمائه ومائه وأشجاره وحيواناته .. إلخ؛ لم يكن بين أيديهم في أشهر الطرق المتبعة عندهم في التوصل إلى ذلك، إلا متابعة التغيرات الدورية في أطوال موجات الأشعة المختلفة التي يرسلها ذلك النجم إلينا، ثم تأويلها على أساس أن سببها هو التغير في السرعة القطرية Radial Velocitiy التي يتحرك بها النجم اقترابًا وابتعادًا منا بسبب تأثير جاذبية الكوكب أو الكواكب المفترض دورانها حوله عليه. وإذن تفترض نظرية التطوح النجمي على أثر الجذب الكوكبي لتفسير ذلك التفاوت والتغير المرصود في الطول الموجي؛ ومن ثم يصبح التغير المرصود نفسه دليلًا على وجود الكواكب حول النجم! مع أنهم لا رأوا كواكب، ولا شهدوا حركة دورانية على الحقيقة (لا قطرية ولا غيرها) ولا عندهم أساس سالم من المعارض المكافئ للاستناد إلى قياس الحركة الترنحية هذا الذي عمموه على جميع أجرام السماء، ولا أي شيء، وإنما هي فروض وضعت تخمينًا لتأويل مشاهدة ما، ثم تحولت تلك المشاهدة نفسها فيما بعد إلى دليل على صحة تلك الفروض نفسها! وهذه مغالطة دورانية من أكثر المغالطات انتشارًا عند الطبيعيين المعاصرين، بالنظر إلى كون الخائض في التنظير والافتراض التفسيري الغيبيين لا يسلم منها أبدًا، بل هو واقع فيها لا محالة كما يأتي معك بيانه والتمثيل عليه في طول هذا الكتاب وعرضه -بحول الله تعالى-! وهي مغالطة تأكيد التبعات Affirming the Consequent كما تسمى في أدبيات المناطقة المعاصرين. وتطبيق صورتها المنطقية على حالتنا يجري كالتالي: لو صح أن كان حول ذلك النجم كواكب (أ)؛ للزم أن نرى الموجات الضوئية الوافدة منه تطول تارة وتقصر تارة على نمط ثابت (ب)، بالنظر إلى كون جاذبية الكوكب تؤثر على النجم نفسه فتحركه حركة يسيرة حول مركز النظام الدوراني المشترك بينهما؛ ومن ثم يزداد الطول الموجي ويزداد ميله إلى الحمرة بحسب تأثير دوبلر المفترض في تفسير احمرار الأشعة عمومًا في حالة كون النجم يقترب منها في مداره الصغير، ويقل الطول الموجي فيميل إلى الزرقة في حال كونه يبتعد عنا! والحال أننا قد سجلت لنا مراصدنا ذلك التغير الدقيق للغاية في الحمرة والزرقة بصورة دورية لبعض النجوم (ب)؛ فدل على وجود كواكب حولها (أ)! أي بإيجاز:

- لو صحت الفرضية (أ) لزمت المشاهدة (ب)
- والحال أن (ب)
- إذن ثبتت (أ)

وهي بحذافيرها هي صورة المغالطة كما في أدبيات المناطقة، فتأمل!

هذا ولدى القوم طرق أخرى للفرض التفسيري المستعمل في استنباط وجود كواكب حول النجوم، ولكنها أضعف من هذه وأغرق في الفرضيات المتكافئة. وقد أطلت النفس في الباب الثاني من هذا الكتاب وما بعده في شرح وبيان وجه تلك المغالطة وكيفية الاحتراز منها، والله الهادي للرشاد.

لست أرفع عقيرتي في هذا الموضع بالقول بامتناع وجود كواكب حول تلك النجوم، أو حتى التجويز مع نفي الوقوع، وإنما أردت أن ألفت انتباه القارئ الكريم إلى المدخل الذي يدخل منه الوهم والخيال والتكافؤ في الأدلة الرصدية على هؤلاء من حيث لا يشعرون!

[8→]

وقد كان طاليس هذا (الهالك في القرن السابع قبل الميلاد)، يوصف بأنه أبو الأكاديمية اليونانية القديمة، التي هي بدورها أصل الأكاديميات الغربية المعاصرة. وكان هو أول من بدع بدعة الانخلاع من الخبر الديني كمصدر وحيد وسلطة مطلقة في تلقي المعرفة بغيب السماوات والأرض، والتحول من ذلك إلى قياس ما في ذلك الغيب على ما في عالم الشهادة (في صورة نظريات وفرضيات تفسيرية، على ما هو معروف الآن من طريقة الطبيعيين في ذلك)، ومن ثم طرد نوع الأقيسة الطبيعية عبر الزمان والمكان لبناء تصور معرفي شامل لا يدع نوعا من أنواع الموجودات أو الحوادث في الماضي البعيد أو في المستقبل البعيد أو عند حدود الكون إلا تناوله في الإثبات والنفي والوصف على نفس المنوال وبنفس الطريقة! وقد تابعه كافة فلاسفة ما قبل سقراط على طريقته في افتراض عناصر غيبية قياسية (أي ناشئة في تصورها من القياس على المحسوس) تفسر العالم كله بجميع ما فيه من أوله إلى آخره! فقد كان الناس قبل ذلك يتناولون حوادث الطبيعة تناولا استقرائيا محضا، فتعرف خواص الأشياء وطبائعها وتركيبها معرفة نوعية بجمع النظير إلى نظيره مما في تجربة الإنسان وعادته (قبل أن يؤسس المسلمون تلك الطريقة الاستقرائية تأسيسا منهجيا محكما في القرن السابع والثامن والتاسع الميلادي)! وأما ما يتعلق بالعالم بكليته وبنيته الشمولية وما وراء المحسوس وما كان قبله وما يكون بعده، فهذا كله لم يكن للناس فيه مصدر إلا ما يزعم أصحابه نسبته إلى وحي السماء! فجاء طاليس وزعم – في جحود لا يخفى - أن كل ما هو موجود في العالم (بهذا الإطلاق) لابد أن يكون قابلا للقياس على ما هو محسوس منه، فأسس بذلك للمبدأ الكوزمولوجي ولمبدأ الاستمرارية Uniformity الذي أصبح الطبيعيون من بعده يتخذونه مسلمة منهجية كلية غير مطروحة للإثبات أو النفي ولا يرد عليها الاعتراض أصلا! ومن يومها أصبح الطبيعيون يستجيزون التنطع على الغيب بأقيسة ما أنزل الله بها من سلطان، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وقد كان طاليس كذلك هو أول من نفى نوع الأسباب الغيبية خلف حوادث العالم، ليجعل في محلها عند كل تفسير – بديلا لها، لا أنه يكون أثرا متولدا عنها - سببا ماديا ناشئا عن القياس على أنواع المحسوس، فكان يرد على من يفسرون البراكين والزلازل بأنها من أثر غضب الآلهة، بقوله إنها لا تزيد على أن تكون أثرا للطم أمواج المياه لجرم الأرض العائم على سطحها، بما فيه ذلك الجبل نفسه! والحق أنها إن سلمنا بكونها كما وصف، فليس في ذلك ما يغني عن إثبات السبب الغيبي أو ينفي سلطانه على العملية كلها، بجميع أسبابها المادية، ما علمنا منها وما لم نعلم! ولكنه لم يكن يؤمن بالغيب ولا يريد أن يثبت فيه شيئا كما تقدم! بل يريد من النظرية أن تقيم النظام الطبيعي المطرد مقام العامل الغيبي والسبب الغيبي (أي ما لم يكن من جنس تلك الأسباب المعتادة)!

فآثر طاليس أن يقيس الأرض بكليتها على قطعة الصخر الصغيرة العائمة على سطح الماء، بحيث إذا هاج الماء، اضطربت تلك الصخرة وتقلبت واهتزت فأخرجت ما فيها من فوهات البراكين! آثر ضرب ذلك القياس الساذج عديم الأساس، على أن يقبل التسليم بوجود فاعل في الغيب يقضي تلك الحوادث العظيمة بأمره وإرادته، فيسبب له من الأسباب ما قد نرى بعضه فيدخل في عادتنا، ويخفى علينا غيره! فجعل قياسه الواهي هذا هو العلم، واعتقاد العقلاء من أتباع المرسلين في نفس الأمر هو الخرافة والأسطورة، أيا ما كان موضوعه ومصدره عندهم! وقد استحسن أقرانه وتلامذته منه ذلك النوع من "التفسيرات البديلة"، وإلى يومنا هذا لا يزال الطبيعيون يتكلمون عن تفسيراتهم القياسية من هذا النوع نفسه (سواء كان من المتصور إمكان دعمها بالاستقراء في المحسوس أو لم يكن ذلك من المتصور أصلا)، على أنها تغني كل عاقل عن التماس التفسير الغيبي! والسبب في ذلك أنهم قد تعلموا من طاليس وغيره أنه ليس فيما وراء الطبيعة أسباب غيبية تلتمس أصلا، وإذن فلا تفسير بحق إلا التفسير المادي الطبيعي! ذلك أن طاليس كان يتكلم عن المادة كلام غيره من أهل زمانه عن الآلهة المعبودة في معابدهم! فقد كان يرى أن فيها من القوة والحياة والفاعلية (التي تحولت فيما بعد إلى ما يسمى "بالطاقة"، بعدما نزعت عنها الإرادة والفاعلية) ما يجعلها هي الصانع الأول والفاعل والمؤثر الذي لا يتأثر إلا بمثله من نوعه، فالاعتقاد بالمادة – على هذا الوجه – يغني عن النظر فيما وراءها، لأنها هي التي يتعلل بها كل شيء! أي أن نوع المادة عنده كان قائما بنفسه لا بغيره! والحياة التي في المادة – بزعمه – هي مصدر الحياة في كل كائن حي في العالم، وهي التي أنشأت كل شيء من الماء كما كان يعتقد! ولعل هذه البذرة الدهرية الأولى هي التي أنبتت في الأكاديمية الطبيعية الأولى شجرة القول بقدم العالم، وحملت الجميع على التماس التفسيرات والتصورات التي ترجع كل حادث في الماضي إلى حادث أو حوادث (أحداث) سابقة عليه من نوع الحوادث الطبيعية وإلى سبب من نوع الأسباب المادية، لا إلى غير ذلك. فمن هنا ظهر الاعتقاد بأنه لا فاعل بحق إلا المادة، ولا موجود بحق إلا الطبيعة!

والقضية الدقيقة التي يجدر أن ينتبه إليها الباحثون والدارسون في هذا المقام، هي أننا لا نفرق بين قبول بضاعة النظار في الطبيعيات وردها على أساس اختصاصهم الأكاديمي، بحيث إن كان أصحابها متخصصين بالطبيعيات قبلناها وإلا رددناها (كأن يقال: هذا كلام الفيزيائيين – مثلا – فهو إذن كلام علمي، خلافا لما عند الفلاسفة)، هذا من سخافات المعاصرين من أساتذة تلك الأكاديميات نفسها ومن لف لفهم من اللاهوتيين والمتكلمين من أهل هذا الزمان! فالعبرة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، بقوة الدليل وملاءمته موضوع الاستدلال، وليس بنوع الدليل. ثم إننا نقبل بضاعة النظار في دراسة المحسوس وما في حكمه (سواء كانوا من الطبيعيين أو غيرهم)، وما لهم من أقيسة رياضية وجيومترية في ذلك الإطار، ما دامت مما يرجى نفعه للناس، وأما ما جاوزوا به حد المنفعة الراجحة فيما يجري موضوعه في إطار المحسوس (بالفعل أو بالقوة) فلا حاجة لنا به، إذ لا نجيز الاشتغال بعلم لا ينفع، وأما ما ولجوا به إلى عالم الغيب المحض من أقيستهم ونظرياتهم فهو خرص وهذيان محض (من حيث مصدر التلقي)، سواء صنفوه بحثا في الطبيعيات أو في الإلهيات، ولا نقبل منه إلا ما وافق الحق من آحاد أقوالهم، مع بيان بطلان الأساس المنهجي الكلي الذي وصل بهم إليه (مصدر التلقي)! كأن نقبل منهم – مثلا - قولهم الذي انتهوا إليه في القرن العشرين الميلادي بأن العالم حادث بعد أن لم يكن وأنه كانت له بداية في الماضي (على تفصيل ضروري نطالبهم به في معنى الكون عندهم Universe، لما يدخله من إجمال)، لأن هذا القول هو الحق قطعا، مع كوننا نرد عليهم الطريق الذي أسسوه عليه، وما عندهم من تفصيل فيه، ونوع القياس الطبيعي الذي به انتقلوا من القول بقدم العالم إلى القول بحدوثه!

فلا ينبغي أن يخفى على دارسي تلك القضايا أن فتح باب القياس في الغيبيات يفسد الاعتقاد بالغيب وما فيه لا محالة، إفسادا كليا من مصادر التلقي نفسها، فينزل الخرافة والوهم منزلة المعرفة والعلم لا محالة، سواء كان موضوع ذلك القياس متعلقا بالإلهيات خاصة، أو بجميع ما جاء الرسل بالخبر عنه من أمر الغيب عامة، ولا يبقي للنبوات والرسالات من مدخل أو مولج إلى تلك الأبواب أصلا! وقد بيت في هذا الكتاب في غيرما موضع، بحول الله وقوته، أن المنهج الدهري الكلي في تصور الغيب وما فيه (تحت شعار البحث الطبيعي) مداره على تشبيه الأفعال الإلهية بأفعال المخلوقين، فلا يمكن لفيلسوف أو ناظر أن يدعي أنه وصل بالقياس إلى تصور بنية العالم أو هيئته أو القوانين التي تحكمه بكليته من أوله إلى آخره، أو الأصل الذي يتركب منه أو الكيفية التي صنع بها والمراحل التي مر

بها ذلك الصنع .. إلخ، إلا أن يكون قياسه ذاك تشبيها لفعل الباري في خلق السماوات والأرض وتقدير مقاديرهما، بفعل المخلوق في التركيب والصنع والإنشاء وفي التشغيل والحفظ والإبقاء .. إلخ! لماذا؟ لأنه من الواضح أننا لم يسبق لنا أن رأينا عالما كعالمنا يخلق بعد أن لم يكن أو تركب فيه القوانين والنظم والطبائع في جميع أنحائه، فلا نملك سلطانا للقياس في ذلك أصلا (أيا ما كان نوع القياس)، بل إننا لا نملك سلطانا بأن نقيس آخر العالم على أوله، بل والله لا نملك سلطانا نقيس به ما وراء ذلك الحيز المدرك بالحس من السماء الدنيا من حولنا (بصرف النظر عن سعته المزعومة عند الكونيين المعاصرين) على ما هو محسوس مرصود من نظام السماء الدنيا نفسها! والتنظير بالقياس في مثل هذا تخرص ورمي في عماية، رضي بذلك من رضي وكره من كره!

لذا نقول إنه لا يتم لأهل السنة بيان أصل ضلال الفلاسفة والمتكلمين في الإلهيات دون بيان أصول الدهرية الطبيعية في أكاديميات الطبيعيين، وكيف أن النحلة الدهرية كانت ولم تزل طبيعية naturalist في فلسفتها المعرفية من أول نشأتها، كما في قول الله تعالى: ((وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)) [الجاثية : 24]، أي ما تهلكنا إلا الطبيعة ونظامها الرتيب، ولم نخلق أصلا وإنما ولدنا بفعل الطبيعة ونظامها الرتيب، ولا تصرف لأحد فينا إلا الطبيعة ونظمها ونواميسها الثابتة!

فالطبيعية (أي نفي الغيب بالكلية وتنزيل كافة صفات الربوبية وأفعالها وسائر حوادث الماضي وأسبابه وعلله على الطبيعة) هي الدهرية والإلحاد من يوم أن ظهرت الدهرية والإلحاد في الأرض، بصرف النظر عن قول الدهري الملحد بقدم هذا العالم بعينه أو قوله بحدوثه، فهي نحلة لا ترى في الوجود إلا جنس الموجودات المحسوسة وما يحكمها من سنن سببية، وهو أصل قد يجتمع في صاحبه مع أن يقول بآلهة مماثلة للمخلوقين (كما في عائلة الآلهة اليونانية القديمة) كما قد يجتمع مع قوله بالعقل الفعال والأفلاك الفاعلة أو بربوبية المادة نفسها وقيامها بنفسها أو بنفي الفاعلية الاختيارية بالكلية، وقد يجتمع كذلك بالقول بقدم العالم كما قد يجتمع بالقول بحدوثه (على ما نراه من حال أكثر الدهرية الطبيعيين المعاصرين)، لأن جميع ذلك عندهم خاضع نوعا للقياس الطبيعي في تحصيل المعرفة به إثباتا أو نفيا! والقصد أن أساتذة الأكاديمية الطبيعية اليونانية القديمة هم أول من علموا الناس الافتيات على الغيب عامة وعلى الإلهيات خاصة بنوع القياس الطبيعي (قياس كل ما في الغيب على ما في الشاهد)، ولم يزل ذلك الأصل الكلي الدهري باقيا في أكاديميات القوم من زمان أساتذة اليونان وإلى يوم الناس هذا، تعامل ثمرته معاملة العلم المنصرم والقطع العقلي وما في منزلتهما، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

[9←]

بل ما الذي يوجب لشيء ما أن يشبه شيئا آخر أو يشترك معه في بعض المعاني الكلية، إن ورد المعارض على مسلمات الفطرة الأولى على نحو ما جوزه هؤلاء؟

[←10]

لهذا، وبسبب تلك السفسطة، ظهرت سفسطة أخرى عند الفلاسفة يقال لها "نظرية المعرفة"، إذ ما دامت الفطرة والبداهة والضرورة موردا للاشتباه ومحلا للنزاع المستساغ البتة، فلابد أن يحرر كل فيلسوف موقفه من المعرفة ومصادرها الأولى عنده، بما ينبغي أن يصبح – على طريقة الفلاسفة – أساسا لأصول جميع العلوم والمعارف عند من يقول بمذهبه! وهو ما امتد بطبيعة الحال ليصبح أساسا لسفسطات عريضة عند أصحاب الصناعات المعرفية في العلوم الطبيعية والإنسانية وغيرها في الأكاديمية الغربية، فتجد من يقول (في "نظرية المعرفة" عنده) إن كان لا موجود إلا المادة، فلا يجوز أن تطلب المعرفة بما ليست حقيقته أنه مادة، ثم ينظر في أثر ذلك على أبحاث المشتغلين بهذا العلم أو ذاك، وما يقبل منها وما يرد تبعا، ومن يقول بوجود الذهنيات المحضة في الأعيان، في "عالم المثل" كما كانوا يسمونه، ومن ثم يبحث في أثر ذلك على ما يثبتون وجوده في الواقع في كل علم من تلك العلوم وما ينفونه، ومن لا يقول بالاستقراء أصلا، فيحمل أهل العلوم التجريبية حملا على أن يلتمسوا لأنفسهم معايير أخرى بخلاف الاستقراء (كمعيار التأكيدية Verificationism في الوضعية المنطقية، أو معيار التكذيبية Falsificationism عند بوبر أو غيرهما) من أجل الحكم على دعوى من الدعاوى في تلك العلوم بأنها معرفة أو تفيد المعرفة، ومن يقول إنه لا موجود إلا ما يقع تحت الحس بالقوة أو بالفعل، فيلزم الناس بإجماله السوفسطائي في لفظة "الحس" و"الوقوع تحت الحس" أو "الدخول تحت الحس"، ويغرقهم في جدل لا طائل تحته، يدخل به على أصحاب العلوم يطالبهم باتخاذ مذهبه مصفاة للقبول والرد في هذا العلم وكذا، إلى آخر ذلك من سفسطة لو اشترط أصحاب تلك العلوم على أنفسهم ألا يمارسوا العلم على طرائقهم فيه حتى يرجحوا لأنفسهم مذهبا منها لما جاؤوا في شيء من العلوم بشيء أبدا!

واليوم نجد من المنتسبين إلى الشريعة وإلى مكافحة الإلحاد من يخرج "المحاورين" كما كان السابقون يصنعون "المتكلمين"، يلزمهم بأن يتعلموا ما يسمونه إجمالا بنظرية المعرفة، وهي ثمرة قراءاتهم في تلك الزبالة، حتى يصبح لديهم أساس معرفي صحيح يقيمون عليه الدين، يحذون حذو الأوائل في جعل النظر أول واجبات المكلفين، الذي به تتأسس المعرفة في النفس بوجود رب العالمين، واليوم صرنا نسمع من يقول "المعرفيات" كما كانوا يقولون "العقليات"، إلى آخر ذلك العبث، والله المستعان لا رب سواه!

[←11]

“Man selects only for his own good: Nature only for that of the being which she tends.”

قلت: سبحان الله! لم يبق إذن إلا أن نقول: الحمد للطبيعة، التي "تنتخب الخير" للمخلوق الذي تعتني به!

[←12]

كقوله في كتابه الأشهر "في أصل الأنواع": "لست أرى أي أسباب جيدة تجعل من الآراء المعروضة في هذا المجلد، آراء صادمة للرؤى الدينية لدى أي أحد".

I see no good reasons why the views given in this volume should shock the religious views of anyone.

فلعل الرجل كان في بداية حياته وفي مستهل تأليفه لكتابه ذاك متخوفا من التصريح بإلحاده ودهريته، حريصا على الحفاظ على محل لنفسه بين مجتمع النصارى في بلاده، وهذا يظهر من سيرته الذاتية (التي كتبها في أواخر حياته) ومراسلاته الخاصة ومذكراته التي نشرت في أكثر من مجلد.

[←13] اللهم إلا إن وافق شيء من مفردات عقائدهم ما جاء به الكتاب والسنة من خبر الغيب، فحينئذ يقبل منهم موضوع ذلك الاعتقاد الموافق نفسه ويرد عليهم المسلك الذي سلكوه في إثباته.

[←14]

We can allow satellites, planets, suns, universe, nay whole systems of universe, to be“ governed by laws, but the smallest insect, we wish to be created at once by special act.”

[←15]

ولم نر إلى اليوم من مشيخة الأشاعرة من يرمي الدراونة بشرك الربوبية، على كثرة ما بحثوه وقرؤوه في تلك النظرية الخبيثة، والله المستعان!

[←16] أو للدقة: نوع الأسباب الطبيعية.

[←17]

فلا يجوز أن يقال إننا معاشر المسلمين نقبل أو نسلم بحصول ما يسمونه "بالتطور الصغروي" Micro-evolution دون الكبروي Macro-evolution، بل إننا نرفض مفهوم "التطور" نفسه من حيث المبدأ، فنقول إن الله تعالى لم يبدأ الخلق بأنواع منحطة متخلفة عما يلزم أن تكون عليه من أجل أن تبقى وتتكاثر وتنتشر، ثم أخذ يطور فيها خطوة بعد خطوة! وإنما هو تغير وتحول وتحور يقدره رب العالمين في بعض صفات النوع المتلائم تمام التلاؤم مع البيئة التي خلق من أجل أن يعيش فيها، لأجل أن يظل ملائما لها (على ما يقضيه فيها هي نفسها من تغيرات لحكم وغايات ف يعلمه)، ويظل ملائما كذلك للغايات التي خلق النوع نفسه من أجلها، علمنا منها ما علمنا وجهلنا ما جهلنا. هذا ما يليق أن يقال في خلق رب العالمين وفي تلك الآية البديعة في خلقه جل شأنه، فهو كمال سابق في التدبير والتقدير، يعقبه كمال لاحق في نفس الأمر، بحيث لو قدرنا أن لم يقع منه ذلك التغيير والتحوير، لتخلف المخلوق عن حد الكمال في الخلق والتدبير الإلهيين، وليس أنه يكون تحولا من نقص وانحطاط في الخلق إلى ما هو أحسن وأكمل، كما يصوره هؤلاء، وكما هو مقتضى تسميته "بالتطور" Evolution!

فمثلا، فايروس كورونا المستجد SARS-COV-2 الذي ابتلانا رب العالمين به في زماننا هذا، لا يقال في المتحورات التي ظهرت له في الشهور الماضية إنها "تطور صغروي"، على أساس أن المتحور الجديد فيه من سرعة الانتشار وشدة العدوى ما لم يكن في الأصل الذي تحور عنه، وهو ما يجعله أقدر على البقاء من سلفه! هذا ليس تطورا على المعنى الدارويني، وإنما هو تحول وتغير بتدبير رب العالمين سبحانه، من حال كان فيها الفيروس على صفة معينة ملائمة للبيئة التي ينتشر فيها، إلى حال أخرى صار فيها ملائما للبيئة نفسها كذلك، ولكن مع أسباب جديدة لمزيد من الابتلاء بانتشاره بين الناس، لا أنه كان قبل التحور نوعا منحطا متخلفا عن القيام بوظيفته البيولوجية، ثم صار بعد التحور أقوم بها و"أكثر تطورا" More Evolved! لسنا نتكلم ها هنا عن إصدار ثان فيه تعديل على أخطاء كانت في الإصدار الأول، كما يكون في صناعات البشر، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا! المخلوق الذي يتحور، يكون قبل التحور قائما بما خلق من أجله على أكمل ما يكون، ثم يصبح كذلك بعد التحور ولا فرق! هذه صنعة العلم الخبير، الذي أحسن كل شيء خلقه سبحانه، فاعرفوا لربكم قدره!

وإن كان الفيروس في الحقيقة لا يصنف على أنه كائن حي أو نوع حي Living Species، وهذا من الأخطاء الشائعة بين الناس، وإنما هو مركب كيميائي على هيئة الشفرة الوراثية، بحيث إن دخل إلى الخلية، غير في صفاتها واستعان بآلياتها الجزيئية في التكاثر والانتشار من خلال تناسخ الخلايا نفسها، وإلا فبدون الخلية الحية فإنه يبقى مادة ميتة لا حياة فيها! وإنما ضربنا به المثل هنا لأن آليات العمل البيولوجي للفيروس في الخلية الحية هي نفسها آليات عمل المادة الوراثية في الخلية، وهي تلك الآليات التي يخضعها الدراونة – مبدئيا - لدعوى التطور من طريق الانتخاب الطبيعي والطفرة العشوائية! فكلما ظهرت نسخة جديدة لشفرة الفيروس، قالوا هو "تطور" Evolution بالطفرة العشوائية، لأجل أن تنتخب الطبيعة المتحور الجديد للبقاء، وهذا المعنى باطل كما بينا، والله المستعان.

إن الأمر الذي يتعامى عنه الدراونة عمدا، هو حقيقة ذلك التوافق المذهل بين ما يجري في البيئة من تغيرات وما يجري في الحشوة الحية من تحورات ملائمة لها. التغير عشوائي محض، فإما أن يتفق له أن يوافق قوانين الطبيعة فيبقى، وإما ألا يوافق فيهلك، دون أن يكون لكلا النظامين معا (البيئة الفيزيائية والحشوة الحية) من يقوم بتغييرهما وضبطهما معا على غايات عليا لديه! مع أنه من الواضح بداهة لكل عاقل أنه لو كان الأمر تغيرا عشوائيا لا غاية تحته ولا تدبير ولا علم من ورائه بما يوافق وما يلائم وما يحصل به المقصود، وعلى أدق ما يكون من مقدار للصفة في الموصوف بها بحيث لو كان على خلاف ذلك لانهار النظام بكليته، هذا التوازن المطرد التام Absolute Equilibrium بين الأنواع الحية وبين البيئة (على ما يقع فيها من انقراض الأنواع أحيانا)، وبين نسب ومعدلات التكاثر من جانب ونسب ومعدلات الهلاك في جميع الأنواع من الجانب الآخر، هو من أعظم الآيات على بطلان الأصل الفلسفي الكلي الذي تقوم عليه فكرة الانتخاب الطبيعي وفكرة الطفرة العشوائية في النظرية، على ما فيهما من مناقضة للبداهة والفطرة! فمهما انقرضت أنواع وفنيت، فالميزان باق لا يختل، وتظل الابتلاءات محلية محدودة مهما اتسعت، ولا تأثير لها على مبدأ الحياة على الأرض في جملته، ولا على اتصال سلاسل الطعام Food Chains على الأرض، وهو ما يناقض التصور الدارويني العشوائي المحض، الذي لا تبقى فيه الأنواع إذا بقيت إلا لمجرد أن اتفق لها اتفاقا أن تلاءمت مع بيئتها فانتخبتها الطبيعة، وأهلكت ما لم يتلاءم! ليس في الأمر انتخاب أصلا، وكأن القانون الطبيعي سيف مسلط على رقاب الأنواع كلها، فيتفق لبعضها اتفاقا أن تسلم منه إن سلمت! وإنما ينقرض ما ينقرض من الأنواع الحية لأسباب تطرأ على جملة أفراد النوع، يقضي رب العالمين بها في حكمته وعلمه أن تتجاوز نسبة الهلاك في نوع ما، معدل التكاثر، في حدود منضبطة وبمقدار دقيق، فينقرض النوع بذلك، دون أن يختل الميزان وتفسد الأرض على بني آدم! فتأمل أي تنقص جاءت به تلك النظرية من رب العالمين وعلمه وحكمته، بمجرد أن قالت إن الأنواع نشأت "بالتطور" من بعضها البعض، وقل الحمد لله على نعمة الإسلام والسنة.

[←18] بالنظر إلى كونها هي الأساس لإثبات الصانع نفسه عندهم، الذي هو أصل الدين، ولما يتفرع على براهينهم في ذلك من مقتضيات في الصفات والأفعال الإلهية، ومن حدود وقواعد ذات صلة!

[←19] وإنما يضطره إلى ذلك حرصه على حفظ النسبة الطائفية لمن تشرب منهم بمذهبه الكلامي الموروث، فلا يبقى الأشعري أشعريا إن لم يرث اعتقاد المتكلمين الأشاعرة، بما فيه من قواعد وحدود وبراهين ومسائل، ولا يبقى المعتزلي معتزليا إن لم يرث عن المتكلمين المعتزلة ما حرروه في تراثهم الكلامي من مثل ذلك، وهكذا. فقضية الهوية والنسبة الطائفية هذه تضرهم إلى إنزال نظريات الفلاسفة القدماء منزلة العقيدة التي يوالى ويبرأ عليها، وهو ما يورثهم الحرج والاضطراب لا محالة عند تكلف الجمع بينها وبين نظريات أخرى تخالفها مخالفة جذرية، من مبدأ القياس الذي تنبني عليه! ولهذا لا تجد المعاصرين من الأشاعرة، كسعيد فودة وتلامذته، إلا حريصين على إظهار النظريات العصرية المعتمدة أكاديميا على أنها توافق ما كان عليه الأولون في نفس الأمر، وكأن ما كان عليه المتكلمون الأوائل وحي نزل عليهم من السماء، والله المستعان! ولا شك أن هذا من آفات الكلام التي من أجلها استحقت تلك الصنعة ذم السلف رضي الله عنهم وتحذيرهم منها ومن أصحابها، إذ تصبح العقائد الدينية نظريات يتقلب فيها الناس تقلب صاحب الرأي في رأيه، وتصبح النظريات عقائد، يقال للمخطئ فيها كفرت!

[←20]

العلم الزائف أو الكاذب Pseudoscience هو كل صنعة يتخصص أصحابها في البحث في جواب أسئلة معينة، مع كون جوابها لا يتلقى من تلك المصادر التي يتلقونه منها، أي لا يوصل لإجابتها من طرق الاستدلال التي تخصصوا في استعمالها في تلك البابة، كعلم التنجيم Astrology مثلا، إذ ليس في العقل ما يجيز الاستدلال بمواقع الكواكب ومجاري الأفلاك في التنبؤ بسلوكيات البشر وميولهم وما يتعرضون له في حياتهم من حوادث على الأرض! ليس لديهم مصدر للتلقي المعرفي مقبول نوعا! خلافا للعلم الصادق، فهو كل صنعة معرفية أو بحثية يصح (مبدئيا) الاستدلال في بحث مسائلها على النحو الذي اعتمده أصحابها والطريق الذي اتفقوا عليه!

[←21]

ذكر "هوكينغ" في تمهيده لطبعة حديثة من طبعات الكتاب، إنه ترجم إلى ما يربو على الأربعين لغة من لغات العالم، وبلغ توزيعه مبلغا لم يعرفه كتاب آخر في التاريخ الحديث، حتى إنه وزع (إحصائيا) بمعدل نسخة واحدة لكل سبعمئة وخمسين رجلا وامرأة وطفلا من سكان المعمورة!

[←22]

ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام، أن مروجي العلوم هؤلاء Science Popularizers (أمثال كارل ساغان وستيفن هوكينغ وستيفن جاي غولد وريتشارد فاينمان وميتشيو كاكو وريتشارد دوكينز ولورانس كراوس ونيل ديغراس تايسون وماركوس دي سوتوي وغيرهم) هم من الملة الطبيعية بمنزلة الدعاة من أهل الملل الأخرى. وإلا فللعاقل أن يتساءل هاهنا: إن لم تكن بضاعة هؤلاء الدعاة دينا يرون عظم الداعي لحمل العامة وجماهير الناس على التشبع به حتى يقوم فيهم مقام أديانهم ومللهم التي ورثوها من آبائهم، وحتى تصبح له الكلمة العليا في الأرض، فأي داع يدعو القوم لبذل تلك الأموال الطائلة والجهود الفائقة في "الترويج" لبضاعتهم بين عامة الناس؟؟ أصحاب الصناعات والمنافسة في الإنتاج التكنولوجي والتطوير الفني يعرفون قيمة البحث التجريبي ويطلبونه من المتخصصين فيه حيث يجدونهم، وهم مضطرون لتمويل الأبحاث التي تخدم مقاصدهم الإنتاجية حتى لا تدهسهم المنافسة السوقية مع منافسيهم. وأصحاب البحث الطبيعي والزراعي وعلوم التعدين والفلذات والبترول والموائع والستاتيكا والديناميكا والكيمياء الحيوية والعضوية والتحليلية والهندسة الوراثية وعلوم العقاقير وغير ذلك من تطبيقات نافعة للبحث التجريبي والرياضي في مجالات شتى، هذه كلها لكل مجال منها عند الغربيين سوقه التطبيقي الذي يعرف القائمون عليه من أين يؤخذ البحث فيه وإلى أي جهة يتوجه التمويل فيه، كما يعرف الباحثون أنفسهم إلى من يتوجهون بأطروحاتهم البحثية وعلى من يعرضونها من أجل أن يحصل الانتفاع اللائق بموضوع العلم نفسه لمن يحتاجون إليه من فئات الناس! فالباحث في المجالات التي تفيد في ممارسة الطب، مثلا، لا يذهب إلى المهندسين والمحامين والمحاسبين ليعرض عليهم موضوعات بحثه، وإنما يذهب إلى الأطباء والمستشفيات والمؤتمرات الطبية! والباحث في الكيمياء العضوية لا يذهب إلى مكتب محاماة أو إلى متجر أو بنك، مثلا، "ليروج" لأفكاره وأبحاثه الجديدة رجاء أن ينتفع بها الناس، وإنما يذهب إلى مصانع المنظفات ومشتقات البترول ونحوها من مجالات تطبيقية تحتاج إلى أبحاثه!

فلو كانت هذه هي أنواع العلوم التي يروج لها مروجو العلوم هؤلاء، فما معنى أن يتوجهوا بها إلى عامة الناس بصرف النظر عن تخصصاتهم، ويطالبوا بتدريسها للأطفال في المدارس في محل قصة الخلق التي يدرسها أهل الكتاب لأطفالهم هناك؟؟ معناه أيها القارئ الكريم وكما لا يخفى، أن مقصود تلك الحملات الترويجية الواسعة إنما هو بث الاعتقاد الطبيعي والميثولوجيا الطبيعية في كافة طبقات المجتمع، واستقطاب الكافة من الناس وانتزاعهم من أديانهم التي يدينون بها، ليتحولوا إلى النحلة الدهرية الطبيعية، بدعوى أنها هي العلم Science وهي العقل Reason الذي لا يتخلف عنه إلا جاهل مسكين، ومن ثم يستساغ الإنفاق الفاحش على مطالب بحثية لا تسمن ولا تغني من جوع (وعامة أبحاث الباليونتولوجيا والكوزمولوجيا والأستروفيزياء في هذه المنزلة)! وإلا فلماذا يحتاج العامي غير المتخصص إلى أن يعلمه أستاذ من أساتذة علم الحيوان Zoology كريتشارد دوكينز نظرية من نظريات علم الأحياء، أو أن يعلمه أستاذ من أساتذة الفيزياء كلورانس كراوس نظرية من نظريات علم الفيزياء؟! أي انتفاع يحصل له من ذلك إن لم يكن متخصصا في هذا المجال أو ذاك؟ الانتفاع المرجو، أيها القارئ المحترم، هو أن يكف هؤلاء العوام المساكين عن اعتقاد الخرافات المستمدة من موروثهم الديني، في تلك الأبواب التي جاؤوا هم فيها بما جاؤوا به، لا سيما قضية الخلق والنشأة الأولى!

ثم إنهم لا يعلمون العامي تعليما نظاميا يؤهله لأن ينضم إليهم في حقولهم الأكاديمية فينظر فيما ينظرون فيه ويستدل على مذهبه قبولا وردا! بل إنهم لا يأتيهم من الفلاسفة واللاهوتيين من يجادلهم في نظرياتهم التي تصدروا بنشرها بين الناس، إلا قابلوه بكل غرور واستكبار بقولهم: "لستَ يا هذا متخصصا في الرياضيات المحضة أو في علم الأحياء، فلا تجادلنا فيما لست أهلا للجدال فيه"! فما المطلوب من أهل الملل الأخرى إذن؟ أن يعاملوكم يا دعاة النحلة الدهرية الطبيعية معاملة الأنبياء، يتلقوا عنكم نظرياتكم كما كانوا من قبل يتلقون النص الديني على أنبيائهم دون مجادلة أو مساءلة؟ الجواب نعم، وإن نفوا واستنكروا! هذا ما يطمعون فيه تحقيقا! أن ينبهر الناس بمنجزات العلم الطبيعي في مختلف المجالات العملية والطبية والتطبيقية والصناعات والتقنيات الحديثة، فيصبح من السهل إقناعهم بوجوب أن يسلموا رقابهم لأئمة الفلسفة الطبيعية في بلادهم، وجوبا أيديولوجيا (دينيا)، وأن يشهدوا لهم بعلو طريقتهم على طرائق أهل الملل والفلسفات الأخرى كافة في تحصيل المعرفة بالغيب وما فيه، وأن يتلقوا عنهم الاعتقاد في كل باب من أبواب المعرفة ولجوه بطريقتهم تلك، وإن لم يفهموا من نظريات القوم ورياضياتهم شيئا على الإطلاق! ولا شك أنهم يرونهم في حاجة ماسة لتكلف تلك الدعوة الجماهيرية الواسعة في بلد كأميركا، لما فيها (لا سيما في ولايات الجنوب، فيما يقال له الحزام الإنجيلي Bible Belt) من تدين نصراني شديد، على دين البروتستانت الإفانجيليين، له تأثيره السياسي البالغ، الذي يمنع القوم في كثير من الأحيان من امتصاص أموال دافعي الضرائب لتتوجه إلى رحلات التنقيب الباليونتولوجي عن رفات الديناصورات وبقايا رمم القردة هنا وهناك، أو إلى رحلات الفضاء الهادفة لاستكشاف أدلة جديدة على إمكان حصول التطور الدارويني على كوكب من الكواكب المشابهة للأرض، أو نحو ذلك من أبحاث القوم التي شكك كثير من الساسة الأمريكيين في قيمتها التطبيقية النافعة للناس، وحق لهم أن يشككوا!

في ندوة من الندوات العلنية الكثيرة التي يجريها لورانس كراوس في جامعات أمريكا للدعاية لملته الدهرية المعاصرة، ابتدأ الرجل كلامه بالتعريف بصاحبه وصديقه ريتشارد دوكينز، الذي كان مدعوا للمشاركة في تلك الندوة، ثم استدرك على نفسه بأن الرجل لا يحتاج إلى تعريف، وأنه من شهرته ونفوذه الفكري في الأكاديميات الطبيعية في أوروبا وأمريكا، أصبح يرى الطلبة يتوافدون عليه في خشوع ووجل يود أحدهم لو يقبل يده تعظيما وإجلالا، كما كان بنو إسرائيل يصنعون – على حد وصفه - بنبيهم موسى (عليه الصلاة والسلام)، ثم قال ساخرا: "مع الفارق أنني أقطع بحقيقة وجود ريتشارد، خلافا لموسى!"! فما هو الإنجاز العلمي الكبير الذي قدمه دوكينز لينفع به الناس في مجال اختصاصه؟ لا شيء على الإطلاق، غير أنه أصبح رأسا لدعاة الإلحاد الطبيعي المتطرف في هذا الزمان، متخصصا في مهاجمة رؤوس أهل الملل الأخرى وتسفيه أحلامهم، والله المستعان لا رب سواه!

[←23]

واقع الأمر أن ما يسميه الفلاسفة الأكاديميون بالميتافيزيقا Metaphysics (ويعدونه اليوم مجالا فلسفيا تخصصيا مستقلا) أوسع من هذا، فهو كل نظر في حقيقة معنى الوجود، وحقيقة الهوية وحقائق المعاني الكلية ذات الصلة بالنظريات الفيزيائية كالزمان والمكان، وغير ذلك من معان كلية يكيفها الفيلسوف ويقصر حقائقها فيما يأتي به من نظر متنطع، لا ينتفع منها إلا صاحبها في إشباع شهوته وهواه. فمن مسائلهم المشهورة، على سبيل المثل، في إطال التنظير فيما يقال له الماهية أو الهوية identity، ما يسمونه بمعضلة سفينة ثيسيوس Ship of Theseus! إذ يقال: هب أن لديك سفينة ما، وقمت أنت بتغيير أجزائها (تجديدا أو ترميما أو غير ذلك)، فأخذت في تغيير كل جزء تبدله بنظيره، حتى انتهيت إلى أن لم تبق فيها على شيء من أجزائها التي صنعت بها: كل أجزائها تغيرت وتبدلت. فهنا يسأل القوم سؤال سوفسطائيا لا ثمرة منه ولا فائدة، يقولون: فهل بعد ذلك، يجوز أن يقال إن هذه هي السفينة التي كانت لديك في أول الأمر، أم أنها صارت سفينة أخرى بالكلية؟ وهو سؤال عبثي سخيف، لا يحتاج الناس إلى طرحه أصلا، بالنظر إلى حقيقة أن جوهر الشيء أو ما به يستحق الاسم الذي نسميه به، هذا لا يتبدل بمجرد تغيير أجزاء ذلك الشيء وإبدالها بما يناظرها، اللهم إلا إن كان الجوهر الذي يتعلق به الاسم، هو عندنا في مادة ذلك الشيء التي بها صنع، بحيث إن أبدلت تلك المادة القديمة، استحال عندنا إلى شيء آخر مشابه للقديم، وليس هو نفسه! فمثلا، لو قلنا إن سفينة ثيسيوس، هي تلك السفينة المصنوعة على هيئة كذا وكذا، المركبة من خشب نوعه كذا وقطع معدنية من معدن كذا، ثم أبدلنا أجزاء السفينة جزءا جزءا بقطع أخرى مماثلة للقديمة في نوع مادة الصنع وفي الهيئة التي تكون عليها في جسم السفينة، فلا يضير المسمى (مسمى سفينة ثيسيوس هذه) أن نظل نبدل في أبعاضه حتى لا يبقى فيه جزء من الأجزاء القديمة على الإطلاق، إذ العين نفسها ظلت قائمة في جميع ذلك، بحيث يقال إننا نعدل عليها، لا غير. خلافا لما لو قلنا إن سفينة ثيسيوس هل تلك المادة القديمة التي ركبت على هذا النحو في أول الأمر، نضع اعتبارا في الهوية والجوهر للمادة التي صنعت منها السفينة في أول الأمر، بحيث إن قدرنا أن لم يبق أثر لتلك المادة القديمة، حولناها من أن تكون هي سفينة ثيسيوس إلى أن تكون سفينة مماثلة! وهذا مما يتجادل عليه أصحاب صنعة ترميم الآثار، فيما إذا كان الجزء المرمم بمادة جديدة تجعل على نفس الهيئة القديمة، هل يظل ذلك الجزء محتفظا بقيمته التاريخية؟ ولو قدرنا أن صار الأثر كله مركبا من مادة جديدة، هل يبقى هو نفسه؟ والجواب أنه لا يكون هو نفسه في النهاية، لأننا قد جعلنا جزءا من هويته وقيمته التي بها يمتاز عن غيره، ماثلا في مادته الأولى القديمة التي ركب منها، تلك المادة التي مرت عليها الأحقاب التاريخية حتى انتهت إلينا على ما نجدها عليه! فالعبرة في الماهيات وجواهر الأشياء هي بما به اخترنا نحن عند التسمية أن نميز الشيء المعين عما سواه. وإلا فلا يضير الشيء الذي لا تتقيد هويته عندنا بمادته التي يتركب منها، أن تبدل أجزاؤه كلها فلا يبقى منها جزء من نفس المادة القديمة، فإنه يبقى عندنا هو هو ولكن في مادة جديدة ولا إشكال!

وفي هذا المعنى نفسه يقال فيك أنت أيها القارئ المحترم، إنك تظل أنت نفسك بعد عشرين سنة من الآن إن أحياك ربك، حتى مع كون خلايا جسدك كلها قد تغيرت وتبدلت، ولم يبق فيك شيء من مادة جسمك التي كانت فيه قبل عشرين سنة! لماذا؟ لأن جوهرك عندنا وحقيقة هويتك ليست هي جملة الخلايا التي تكون منها جسمك حال خروجك من بطن أمك! أنت هو أنت لأسباب أخرى كثيرة لا علاقة لها بمجموع خلاياك!

ومع هذا، فقد ذهب القوم في مسألة الهوية هذه إلى ما هو أبعد وأغرق في السفسطة، إذ تساءلوا فقالوا: هل أكون أنا الآن، هو أنا نفسي بعد ثانية أو ثانيتين من الآن؟ وكيف أعرف ذلك، وما الذي يأمنني ألا يكون الأمر كذلك؟ وهذا كسفسطة من يقول: ما يأمننا أن نكون كلنا متوهمين أننا قد عشنا الماضي الذي عشناه، وإنما نجده في ذاكرتنا لأن ثمة من ركبه فيها قبل خمس دقائق فقط، أو أن نكون كلنا عقولا مخدرة في دوارق، تتوهم العالم كله توهما، فلا حقيقة له إلا في الذهن؟! وهذه كلها أسئلة لا جواب لها إلا القرع على الرأس أو الصفع على القفا، لعل صاحبها يفيق! هذه السفسطة ترجع عند صاحبها إلى قياس فاسد سخيف لحقيقة الزمان ومعنى الوجود في لحظاته المتتابعة، على وجود العين الواحدة في أكثر من محلة في نفس الوقت. تقول أنا موجود "في الماضي" وموجود "في الحاضر" وموجود "في المستقبل"، فتعامل كما يقول القائل مثلا: أنا موجود خارج الغرفة وموجود وراء الغرفة وموجود أمام الغرفة (يعني الآن أو في نفس الوقت)! من هنا قالوا إن وجود العين الواحدة (نفس العين) في زمانين ممتنع! ولعل هذه المغالطة أو نحوها تكون هي الأصل التاريخي لقول اليونانيين – والمتكلمين تبعا – بأن العرض لا يبقى زمانين، ومن ثم نظرية الخلق الآني عند الغزالي! ولعلها أو نحو منها تكون منشأ كلام فلاسفة النصارى في مسألة أن الإله لا يجوز أن يخلو منه زمان، فجميع الأزمنة هي عنده لحظة حاضرة واحدة، لأننا لو قدرنا انحصار وجوده في اللحظة الحاضرة، فسنخرجه بذلك من اللحظة الماضية والمستقبلة جميعا، ومن ثم نكون قد نسبنا إليه النقص، فتعين أن نقول إنه موجود الآن في كل زمان!! وبنظير ذلك السخف قال الدكتور عمرو شريف عند كلامه عن سر "كن فيكون"، وعن علاقة رب العالمين وأفعاله وإرادته بالزمكان الوجودي النسباني، كما علقنا عليه في موضعه من هذا الكتاب! وهذا كله سفسطة وسخف بارد، لأن اللحظة الماضية لا وجود لها في الوقت الحاضر، هي حالة مضت وانصرمت وانقلب جميع ما كان فيها من الموجودات إلى حال أخرى اسمها الحال الحاضرة! وكذلك اللحظة المستقبلة، هي لحظة لم تأت بعد، تكون فيها الموجودات كلها على أحوال لم تتحول إليها بعد! فإثبات وجود شيء في تلك اللحظة الآن في هذه اللحظة الحاضرة تناقض ظاهر، إذ يسوي بين معنى الحاضر ومعنى الماضي ومعنى المستقبل! والقصد أيها القارئ الكريم، أن هذا الإفساد العريض لألسنة البشر وعقولهم ومللهم، بأقيسة تصادم صريح العقل، هو موضوع صنعة الميتافيزيقا في أكاديميات الفلاسفة، وإلى الله المشتكى!

سألني أحد الأفاضل سؤالا مهما قال فيه: أليس الزمان شيئا ذهنيا لا وجود له خارج الذهن وإنما هو معنى ذهني يفترضه العقل ليقيس به تتابع الأحداث التي تجري في عالم الأعيان؟ فلماذا جعله الفلاسفة والفيزيائيون الفلكيون شيئا حقيقيا له وجود خارج الذهن في عالم الاعيان ؟؟ ثم اختلفوا في ما هيته وفي تصوره اختلافا شديدا.

فأجبته قائلا: وأنتم فجزاكم خيرا. بلى. الزمان حقيقة ذهنية كلية على ما ذكرت. ولكن لأن الفلاسفة أهل كبر واستعلاء بعقولهم، فقد درجوا على ما بدعه رؤوس المدرسة اليونانية القديمة من تنظير ميتافيزيقي، تكيف به المعاني الذهنية الكلية في كل موجود يوصف بها، بكيفيات تتأسس على القياس على ما في العادة بوجه ما، أوقعهم ذلك في معاملة بعض تلك الكليات معاملة الأعيان الوجودية خارج الذهن، التي تؤثر في الموجودات العينية وتتأثر بها كما في أقيستهم. فمثلا، قالوا إن الموجود إنما يوصف بالوجود لأنه يتركب من جسم وصورة، ولا قيام للصورة إلا بالجسم، ولا وجود للجسم بدون الصورة! فما حقيقة الصورة عند العقلاء؟ نعم الصفة لا قيام لها بدون الموصوف، ولكن لا يقال إن الموصوف يتركب منها ومن غيرها معها! وإنما هي معان كلية تقوم بالموصوف بها في أذهاننا، لأسباب قد تكون في الأعيان، ولكن حقيقة الصفة نفسها التي تطلق على الموصوف، هي حقيقة ذهنية كلية لا عينية! فما الذي يراد عند قولهم "كذا يقوم بكذا"؟ القيام هذا مصطلح مجمل يحتاج إلى تفصيل. فالصورة (في نظرية الصورة والجسم أو الهيولى) معنى ذهني كلي في الأصل، يراد به عند إطلاقه فئة معينة من صفات الموجودات، التي تكون في كل موصوف بها بحسبه، وبأسباب وحقائق وكيفيات تليق به. فليس في الأعيان شيء يقال له "الصورة" حتى يقال إن الموجودات "تتركب" منها ومن غيرها معها! ونظير ذلك وقعوا فيه في الجواهر والأعراض، فإن كانت الجواهر هي الأعيان الموجودة في الخارج، فما هي الأعراض؟؟ هي في الأصل

الصفات التي توصف بها الأشياء! ولكنهم لما قالوا إن الموجودات تتركب من هذين النوعين، صيروا الكليات عينيات، وصارت الأعراض بذلك أعيانا خارج الذهن، ومن ثم صار جنس الحوادث - مثلا - أعيانا مخلوقة، لا يوصف بها إلا المخلوق لأنها مخلوقة فيه، مركبة فيه تركيب العرض في الجوهرفي قياسهم!! مع أن الحوادث في حقيقتها معنى ذهني كلي، يراد به أحوال تطرأ على جملة من الموجودات، فتتغير صفاتها بذلك من معان كلية معينة إلى معان أخرى، لا أنه يكون في الأعيان شيء وجودي يقال له "حادث"! يقال مثلا، جاء زيد، فيكون الحادث هو مجيء زيد، والمجيء معنى كلي له حقائق تتفاوت بحسب تنزيله على الأعيان المتحققة به في الخارج، فلا يقال إن زيد محل لحادث يقال له المجيء، لم يحل بزيد شيء عيني اسمه المجيء! ولكن على نظرية الجوهر والعرض، المجيء شيء عيني مخلوق يقال له العرض، يحل بالجواهر المخلوقة! ونظير ذلك ما وقع للفلاسفة المتأخرين والمعاصرين في الكلام في حقيقة الزمان والمكان وغيرهما. فترى نيوتن يجعل الفراغ شيئا عينيا مطلقا غير متناه، لا يكون الشيء موجودا إلا إن كان واقعا فيه في محل ما! فما ليس له محل في الفراغ عند نيوتن فلا وجود له! هذا التنظير الميتافيزيقي المبني على إطلاق التصور القياسي لدى نيوتن لحقيقة العلاقة بين الموجود الفيزيائي وما يحيط به من موجودات فيزيائية، صار به الفراغ عنصرا وجوديا من عناصر العالم، الذي لا يوصف شيء بالوجود إلا بأن يكون واقعا فيه. ثم جاء مينكاوسكي وتلميذه أينشتاين، فصيرا الأنموذج الرياضي للزمكان حقيقة وجودية في الأعيان، لنفس السبب ومن نفس الآفة وعلى نفس الطريقة.

والقصد أن طريقة الفلاسفة في التنظير الميتافيزيقي هي التي أوجبت لهم أن يتلبسوا بهذه المغالطة الكبرى، ولهذا تفصيل تجده في سلاسل هذه القناة المباركة، وفي كتاب المعيار، والله أعلى وأعلم، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

[←24]

في لقاء تليفزيوني أجراه الفيزيائي الدهري الأمريكي "نيل ديغراس تايسون" مع هوكينغ في مارس عام ثماني عشرة وألفين من الميلاد على قناة "ناشيونال جيوغرافيك"، سأله تايسون كما يسأل أهل الملل الأخرى الأنبياء وورثتهم أو من يدعي لنفسه علم الغيب من الكهنة والأحبار ومن شاكلهم، وكما سأل قوم النبي صلى الله عليه وسلم عن أول هذا الأمر، فقال: "ستيفن، كل أحد يريد أن يعرف: ماذا كان هنالك قبل الانفجار الكبير؟"، فأجاب المتنبي الملحد الكبير قائلا بكل سهولة وبكل ثقة: "لا شيء على الإطلاق كان موجودا قبل الانفجار الكبير العظيم."! ثم أضاف: "وفقا لنظرية النسبية العامة لأينشتاين، فإن المكان والزمان يشكلان معا متصل الزمكان، أو مطوية Manifold غير منبسطة، ولكن منحنية بتأثير المادة والطاقة القابعة بداخلها. وقد تبنيت مدخلا إقليديا للجاذبية الكوانطية، حتى أتمكن من توصيف بداية الكون. ففيه (أي ذلك المدخل الرياضي) يجعل الزمان التخيلي Imaginary Time في محل الزمان المعتاد Ordinary Time، وهو ما يسلك مسلك البعد الرابع للفراغ. ففي المدخل الإقليدي، يصبح تاريخ الكون في الزمان التخيلي على هيئة سطح منحن رباعي الأبعاد كسطح الأرض، ولكن ببعدين إضافيين. وقد اقترحنا أنا وجيم هارتل حالة لا حافة لها No Boundary Condition، فحالة الحافة للكون هي أنه لا حافة له. أو بعبارة أخرى، فإن الزمكان الإقليدي هو سطح مغلق ليس له حافة، كسطح الأرض. فيمكن أن نتصور الزمان التخيلي والزمان الفعلي على أنه يبدأ عند القطب الجنوبي. وهو نقطة ناعمة في سطح الزمكان تتوقف عندها قوانين الفيزياء. فكما أنه لا شيء يقع في جنوب القطب الجنوبي، فكذلك لا شيء كان قبل الانفجار الكبير." اهـ.

قلت: خرف فوق خرف فوق خرف، والله لا تدري من أين تبدأ حتى تبين ما فيه من التهافت والهذيان، ولا حول ولا قوة إلا بالله! أتبدأ ببيان بطلان أنطولوجيا الزمكان القائلة بسطح وجودي منحن في الأعيان، يتكون من اندماج المكان والزمان (المعنيين الكليين الذهنيين)، ويتأثر شكلة الهندسي بوجود وحركة الأجسام التي يحتويها بداخله؟ أم ببيان أن "بداية الكون" هذه ليست مما يصح استعمال القياس الجيومتري على أنواع المحسوسات في معرفته أصلا، لا في جملته ولا في تفصيله، لأن كافة القوانين التي يطردها القوم في جهة الماضي رجاء استعمالها في توصيفه إنما نشأت فيه أو بعده بالضرورة على نحو لا نظير له في تجربتنا على الإطلاق؟ أم تبدأ ببيان فساد فكرة "الزمان التخيلي" هذه في صريح العقل، ومن ثم في التعبير الرياضي، سواء كان إقليديا أو غيره، على أساس أن الزمان معنى مطلق لا يوجد في الخارج إلا إذا وجد ما يوصف به من الحوادث المتتابعة، والفرض عندهم أنه لا يوجد موصوف بمعاني الزمان خارج الزمكان، لا أجسام ولا حوادث ولا شيء؟ أم ببيان أن السطح المنحني أو شبه الكروي لا تمتاز فيه نقطة معينة عن غيرها من النقاط حتى يقال إنها تتوقف عندها بخصوصها قوانين الفيزياء كما زعم؟ أم ببيان محض التحكم في طريقته هو وأصحابه في الحكم على قوانين الفيزياء بأنها بدأت في هذه النقطة أو في غيرها؟ أم ببيان فساد وصف الكون الواقعي (الذي هو جملة السماوات والأرض وما فيهما والعرش والكرسي) بأنه مسطح أو منحني أو لا حافة له أو غير ذلك من الأوصاف الجيومترية المتوهمة التي أغرق القوم فيها من بعد أينشتاين لتلك المطوية التي لا حقيقة لها خارج الأذهان أصلا؟

لا ندري والله من أين نبدأ في نقض هذا السخف والهذيان المحض المتراكم بعضه فوق بعض طبقات، الذي أصبح الناس الآن – مع ذلك - مطالبين بأن يتلقوه من "نبي" الدهرية هوكينغ هذا وأصحابه وكأنه الوحي ينزل من السماء، وإلا اتهموا على العقل والعلم جميعا، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

[←25]

أعني بهذا نوع الشعائر الجنائزية، التي ترفع من قيمة الموت نفسه وتعظم من أهمية ما يجري للميت من تحول وانتقال من الحياة إلى الموت، وما يلم بالمقربين إليه من مصاب على أثر ذلك، يراد تصبيرهم عليه. ولن تجد في الأرض دهريا يهلك أو يهلك له حبيب إليه إلا تكلف إعداد الجنازة لتكريمه بصوررة ما أو بأخرى ولتهيئة نفسه لقبول حقيقة انقطاع السبب إليه وزواله عن هذه الدنيا بالكلية، بصرف النظر عما إذا كان يعتقد مصير روح الميت أو نفسه إلى دار أخرى أم لم يكن يعتقد ذلك! وقد ظهرت للدهرية الأوروبيين والأمريكيين أنواع من المراسم والشعائر المخترعة في الجنائز والدفن فيها أكثر ما في جنائز أهل الكتاب من مواطنيهم، إلا التصريح بطلب النجاة والسلامة للميت أو تمني أن يكون قد انتقل إلى مكان أفضل أو نحو ذلك مما فيه أثبات للآخرة. فإن هذا بطبيعة الحال مخالف لاعتقادهم. فترى في شعائر تلك الجنائز العلمانية أو المدنية أو الإلحادية الاجتماع حول جثمان الميت وإنشاد الشعر أو الاستماع إلى بعض المعازف، مع إلقاء كلمات فيها ذكر لمناقبه ولبعض ذكريات المقربين إليه معه ونحو ذلك. ولأنهم قوم يعبدون أهواءهم، فلن تجد عندهم اتفاقا على شيء من تلك المراسم والشعائر البتة، إلا اتفاقهم على مطلق الإتيان بنوعها إجمالا.

وأما التفصيل، فكل بهواه! فمنهم من يحب أن يجعل فيها شيئا من المعازف، ومنهم من لا يحب ذلك، ومنهم من يحب أن يدفن الميت في نعش أو تابوت، ومنهم من يفضل إحراقه وذروه في الرياح أو إلقاءه في الأنهار والبحار أو الاحتفاظ برماده في قنينة أو نحوها! ومنهم من يحب أن يجري تلك الشعائر في بيته ثم ينتقل للدفن في مقابر الملاحدة، ومنهم من يفضل أن يجريها كلها في المقابر، ومنهم من يجعل بعضها في البيت وبعضها في المقبرة، بما يحوجهم لأن يشرحوا للحاضرين ما خططوه من مراسم وشعائر في كل حالة بحسبها حتى لا يفترق الجمع أو ينصرف قبل تمام المقصود. ومنهم من يتخذ تابوتا يعرض فيه جثمان الميت لينظروا إليه نظرة أخيرة قبل دفنه، كما جرى عليه العمل عند كثير من طوائف النصارى الغربيين، ومنهم من لا يحب ذلك. ومنهم من يقصر إلقاء الكلمات بشأن الميت ومناقبه على أقرب المقربين إليه وحدهم، ومنهم من يوسع الدائرة في ذلك، ومنهم من يضيقها حتى لا يكون الكلام إلا لمقيم الشعائر الملحد (الذي يدفن الموتى ويقوم على تنظيم المراسم وإدراتها) ومنهم من يمنع ذلك كله. ومنهم من يجعل في وصيته تفصيل ما يحلو له أن يصنعه الناس به بعد موته، كأن يوصي بأن يجفف جسمه ويوضع في متحف مثلا، أو يحول إلى تمثال يوضع في البيت، أو يقدم لطلبة كليات الطب ليدرسوا عليه التشريح، أو يتبرع بأعضائه كلها بدعوى أنه بذلك يعمل عملا إنسانيا عظيما، خيرا من أن يترك جسده للدود ليأكله (حتى لقد سمعت أحدهم يقول: إن كنت على فراش موتك وكنت تعلم أن أكثر أعضائك تعمل جيدا، فلا يحسن بك أن تأخذها معك إلى القبر وأنت تعلم أن من الناس من يحتاج إليها! تبرع بها ولا تكن أنانيا!)، بل إن منهم من أوصى بأن يجعل جسده موضوعا للعب الصبية وحيلهم، ومنهم من أوصى بأن يطعَم للسباع، ومنهم من أوصى بأن يعلق في مدار حول الأرض! ومنهم من يختار أن "يجمده" فيما يشبه الفريزر، رجاء أن يتطور العلم في يوم من الأيام في المستقبل بما يكفي ليعيد له الحياة التي فقدها، فيبعث له جسده من بين الأموات! ومن يترك ذلك لأهواء ذويه والمقربين إليه، إلى آخر ما هم غارقون فيه من العبث واللعب وعبادة الهوى! فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

[←26]

The kind of God that I would respect people for believing in, would be the kind of God of the deists, who set up the universe in the first place, who set up the laws of physics, perhaps in such a way that it would be likely to bring the conditions for evolution into existence, something of that sort, but that kind of grand God of the physicists, is not the kind of God who's going to be the slightest bit interested in listening to the odd prayer.

[←27]

The deist God of the eighteenth-century Enlightenment is an altogether grandeur being: worthy of his cosmic creation, loftily unconcerned with human affairs, sublimely aloof from our private thoughts and hopes, caring nothing for our messy sins or mumbled contritions. The deist God is a physicist to end all physics, the alpha and omega of mathematicians, the apotheosis of designers; a hyper-engineer who set up the laws and constants of the universe, fine-tuned them with exquisite precision and foreknowledge, detonated what we would now call the hot big bang, retired and was never heard from again.

[←28]

The universe that we observe has precisely the properties we should expect if there is, at bottom, no design, no purpose, no evil, and no good, nothing but blind, pitiless indifference.

[←29]

ولهذا نقول إن من الصفات ما يختص به الخالق مطلقا، ومنها ما يختص به المخلوق مطلقا، ومنها ما هو مشترك بين الخالق والمخلوق، ومنها ما إذا وُصف به الرب مطلقا كان كمالا واجبا، وإذا وصف به العبد مطلقا كان نقصا وعيبا، ومنها ما هو مشترك بقيد الإضافة، لورود الحسن والقبح على السواء على المعنى المجرد من الإضافة. فالرب جل وعلا لا يوصف غيره بأنه قيوم السماوات والأرض، مثلا، ولا يوصف غيره بأنه ملك الملوك، ولا يوصف غيره بأنه الأول والآخر والظاهر والباطن .. إلى آخر ما ينفرد به الرب من صفات لا يجوز إشراك غيره معه فيها، وهذا من توحيد الأسماء والصفات. ومن توحيد الصفات كذلك أن يُعلم أن من الصفات ما لا يجوز نسبته إلى الرب بحال من الأحوال، وإنما تليق بالمخلوق! فالمخلوق وحده هو الذي يوصف بأنه ناقص أو جاهل أو بأنه عاجز أو قاصر أو مضطر أو محتاج .. إلى آخر ذلك! وأما مثال ما إن وصف به الرب كان كمالا وإن وصف به العبد كان نقصا، فهو الكبر والعلو، والتجبر والقهر، فلا يوصف موصوف بأنه متكبر يتعالى على غيره، متجبر يقهر غيره على ما يريد، ويكون محمودا بذلك مطلقا، إلا أن يكون هو رب العالمين! فإذا وصف بها العبد المخلوق كان مذموما بذلك!

[←30]

فإن قيل: ولكن كان الأكمل والأجدر به ألا يخلق مخلوقا يظلم ويبطش من الأساس! قلنا هذا ما اقتضته حكمته، ونحن نجزم بأنه أحكم وأعلم من كل مخلوق، بداهة وضرورة! ومقتضى الحكمة هو الأكمل والأجدر والأليق به ولا شك! فإنه لا يكون في الأرض ما يحب أن يراه سبحانه من خلق مكلفين بالغيب يعبدونه وهم صابرون على كل أذى، حتى يكون في الأرض تغييب وشر وأذى! هو يحب ذلك ويريده، ولأجله خلق الخلق، وليس مع ذلك ظالما ولا منزلا ببعض خلقه شيئا لا يستحقونه! فهل المطلوب أن يخلق العالم على ما تشتهونه أنتم وتحبونه؟؟ لا يكون على أكمل الصفات وأحسنها عندكم حتى يجعل لكم الدنيا على ما تشتهون؟؟ شرطكم لتبعدوه كما كلفكم، ألا يجعل لكم في الأرض إلا ما يحبه كل واحد منكم لنفسه ويشتهيه؟ والله ما تجرؤون على اشتراط ذلك على ملك من ملوك البشر المخلوقين أمثالكم حتى تطيعوه، وما يتصور في العقل أصلا أن تكون الأرض التي تشترك فيها أمم الناس، على أحسن ما يحبه كل فرد فيهم لنفسه وما تشتهيه كل جماعة لنفسها، فنعوذ بالله من كبر يعمي القلوب!

[←31]

زعم الدكتور عمرو شريف في لقاء تلفزيوني أن نيوتن كان أريسيا، قال "وكان حسن الإيمان، يؤمن بأن المسيح نبي من عند الله"، وهذا تلبيس عريض لا أدري هل نشأ عن سوء فهم أو سوء قراءة أم عن تعمد وقصد! ولا أستبعد أن يكون عن كلتا العلتين معا، والله المستعان! وسيأتي معك في الباب الثالث بحول الله تعالى ما يكشف لك سبب حرص الدكتور عمرو على تصحيح دين أئمة الطبيعيين الغربيين كأينشتاين ونيوتن وكوربرنيكوس وداروين وغيرهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا! والحق أن نيوتن تكلم في بعض كتاباته الثيولوجية بما فهم منه بعضهم إنكاره الثالوث ونفي ألوهية المسيح عليه السلام وتصحيح دين الأريسيين، وفهم آخرون أنه صاحب فلسفة مختلطة بين الأريسية والثالوثية الأثاناسية (الاعتقاد الكنسي المعتمد)، وخلاف المؤرخين واللاهوتيين النصارى في تصنيف نسبته الدينية إلى هذه الطائفة أو تلك معروف! ولكنه على أي حال لم يقل يوما من الدهر إن المسيح نبي من عند الله، وكما بينا فليس الإله الذي كان يثبته هو الله رب المسيح ورب العالمين، وإنما كان يعبد الطبيعة زاعما أنها هي الرب السماوي الذي يستحق التوحيد والعبادة! فهو من أوائل من خلطوا ملتهم الكتابية بالاعتقاد الاتحادي الطبيعي والدهرية الربوبية في دين واحد في التاريخ الحديث! ولو صدق نيوتن في حسن القصد والحرص على طلب الحق، وحسُن إيمانه حقا كما في عبارة الدكتور، لنبذ كل ملة بخلاف الإسلام الذي نراه محالا أن يكون قد أمضى عمره كله ولم يسمع به يوما من الدهر!!

وهذه مسألة يخالف فيها الدكتور عمرو ومن شاكله كعدنان إبراهيم وغيره، مخالفة جهمية إرجائية كبرى! فهو لا يشترط في كمال الإيمان أن يكون المؤمن على دين محمد صلى الله عليه وسلم! بل تراه يصحح دين أنتوني فلو الذي مات على دين الربوبيين، وينسب أينشتاين للإيمان، ويصحح التجارب الروحية الوثنية لكل من قال بوحدة الشهود وما يشبهها من أهل الملل، فهم عنده قد حصل لهم اتصال حقيقي بالرب الخالق، كما يأتي بيانه ونقده في موضعه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولا نعجب البتة من ذلك الإرجاء الغالي عند هؤلاء، فما ظهر الإرجاء وما نبتت نابتته – تاريخيا – إلا في أمثالهم من فلاسفة ومتكلمة أهل القبلة، ولا عجب! فإنك لن تتخذ من ميتافزيقا الفلاسفة الأكاديميين المعاصرين لك أساسا لعقلك وعلمك وجميع عقائدك، كما هي طريقة أهل الكلام من كل ملة، إلا وجدت نفسك مائلا أعظم الميل إلى أن تثبت اسم الإيمان لمن قبلت منهم براهين إثبات حدوث العالم أو وجود الصانع عندك أو عند غيرك من أقرانك، لا سيما إن وقع منه ذلك بعد طول معاندة وإباء كما كان من أنتوني فلو! فهذا هو قصارى دعواك ومنتهى سعيك أصلا: أن تقنعه بصحة براهينك المؤسسة على نظرياته!

ثم إنك إذا اتخذت منه حجة على مخاصميك من معاندي الدهرية ومن تابعوهم، وكان الأساس في الخصومة الانطلاق من ميتافزيقاهم وتصورهم للعالم بكليته وحقيقته وغيبه (ومن ذلك كوزمولوجيا المعاصرين ونظرية التطور)، كان لزاما عليك أن تصحح دينه الذي انتهى إليه، وألا تجرؤ على أن تشير ولو من بعيد إلى أنه مات هالكا كافرا على الرغم من قبوله القول بإثبات الصانع في نهاية حياته! فإذا ما تشبعت بفلسفته هو أمثاله وبنظرياته الإلهية التي تجعلها – إذن – مستندا في مخاصمة من كانوا من قبل يعظمونه لإلحاده، كان لزاما أن تعظم في نفسك دعاوى الدهرية في الاستناد إلى ميتافزيقاهم نفسها (التي اعتنقتها أنت تبعا لهم) لنفي الصانع، وإن لم توافقهم على استدلالهم بها، وإذا بك في خضم المناقشة والمناظرة والمحاورة تجده من غير المتصور أن تنفي العذر عن المخالف أو أن تصرح بنسبته إلى الجحود والاستكبار! ولهذا كثر في كلام هؤلاء التساهل مع المتشككين وإن بلغ تشككهم أن صرحوا بأنهم لا يجدون ما به يعقدون الإيمان في صدورهم بوجود رب العالمين! ولهذا تراهم ينتهي سعيهم في تحويل من يناقشونهم إلى إثبات الصانع لا غير، ثم لا يعنيهم على أي دين يثبته أحدهم إذا أثبته، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله! فما كان من عجب أن يصبح تعريف الإيمان عند هؤلاء – سلفا وخلفا – هو مجرد التصديق القلبي بوجود الصانع! والقصد أن تسويغ الخلاف مع الفلاسفة العتاة عند الجهمية الغلاة والفلاسفة الإسلاميين هو منبت الإرجاء وأصله وسببه! وأنت على أي حال لن تجد نفسك مائلا لاسترضاء شخص أو فئة ما، مكثرا من مجالستهم، إلا غلب على نفسك ما يحملك على تصحيح دينهم إن استطعت، أو على الأقل الإمساك عن النكير عليهم، والتماس الأعذار لهم، وإن كانوا من عبدة النار والأحجار أو من الدهرية الجحدة الأشرار، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فليس من فراغ أن جاء الإسلام بالتشديد في المنع من مجالسة المشركين وأهل الزيغ والأهواء والبدع، لأن المجالسة والمؤانسة تورث الموالفة والمجانسة، نسأل الله السلامة!

[←32]

فلينتبه القارئ الكريم إلى أننا إذا ترجمنا هذا المصطلح إلى توحيد الوجود (أي جعله شيئا واحدا)، فلسنا نقصد بذلك ما اصطلح عليه علماء المسلمين قديما "بوحدة الوجود"، فإن هذا الذي اصطلح عليه الفلاسفة بقولهم Pantheism إنما هو صورة من صور وحدة الوجود أو "الاتحاد" التي تكلم عنها علماؤنا رحمهم الله ووصفوها في كتب الملل والنحل. ذلك أن من طوائف القائلين بوحدة الوجود على اصطلاح علمائنا، من يجعلونه هو الرب الذي دعت إليه الرسل ونزلت منه الكتب، يقولون هو كل شيء وهو في كل مكان (وليت شعري كيف يجتمع لهم أن يقولوا إنه "أنزل الكتب" مع أنه عندهم في كل مكان، وليس في جهة العلو كما هو عند أهل السنة!)، ومن هؤلاء في المعاصرين، التركي عدنان أوكتار (هارون يحيى)، الذي يرى تبعا لأستاذه ابن عربي أن الواقع المحسوس ليس إلا وهما في الذهن، وأنه لا موجود في الحقيقة إلا الله، وسيأتي الكلام على عقيدة هذا الرجل، وعلى سعيه في استعمال خرافات الطبيعيين في تأويلات ميكانيكا الكم لخدمة فلسفته، في جزء مستقل من هذا الكتاب بعون الله تعالى! ومن تلك الطوائف من يقول بأن الخالق طاقة واعية تملأ الكون، فهو "حال" فيه، وهو مذهب الحلول الذي هو صورة من صور وحدة الوجود، يجعل الصانع جزءا من العالم، لا كل العالم، ومن هؤلاء الداعية البوذي الهندي الأمريكي "ديباك شوبرا" الذي ناظر دوكينز وهاريس وغيرهما، وله كتب يقرر فيها عقيدة مفادها أن الكون إنما هو "وعي" محض Absolute Consciousness، ويستغل خرافات فلاسفة الكوانطا – كذلك – لتأسيس دعواه. ومنهم من يقول بأن الرب يملأ العالم ولكنه مع ذلك أعظم من العالم (كما هو ظاهر اعتقاد توما الأكويني)، وهذا الصنف من الحلول يقال له Panentheism على اصطلاح الفلاسفة المعاصرين! وهذه الصور كما ترى يصح عليها اصطلاح "الاتحاد" كما يصلح لها اصطلاح "الحلول"، ولا مشاحة في الاصطلاح ما دام المعنى المقصود محررا تحريرا واضحا لا التباس فيه!

[←33]

بل إن من الدهرية نفاة الصانع من يجوز (تجويزا عقليا) أن يكون الصانع مخلوقا فضائيا ذكيا، جاء بسبب أو بذرة الحياة على الأرض وزرعها في المادة الميتة ثم لم يكن له أي علاقة بالعالم بعد ذلك، كما صرح ريتشارد دوكينز نفسه بتجويزه في بعض المواضع. فلا إشكال عند دوكينز في أن يثبت إله داروين أو إله أينشتاين أو إله سبينوزا، أو حتى إله "إل رون هابرد" (مؤسس ملة الساينتولوجي الفضائية!)، المهم ألا يجد نفسه مضطرا للخضوع لرسول يأمره بما يكره وينهاه عما يحب، ويخوفه بالحساب والعذاب إن مات على غير ذلك!

[←34]

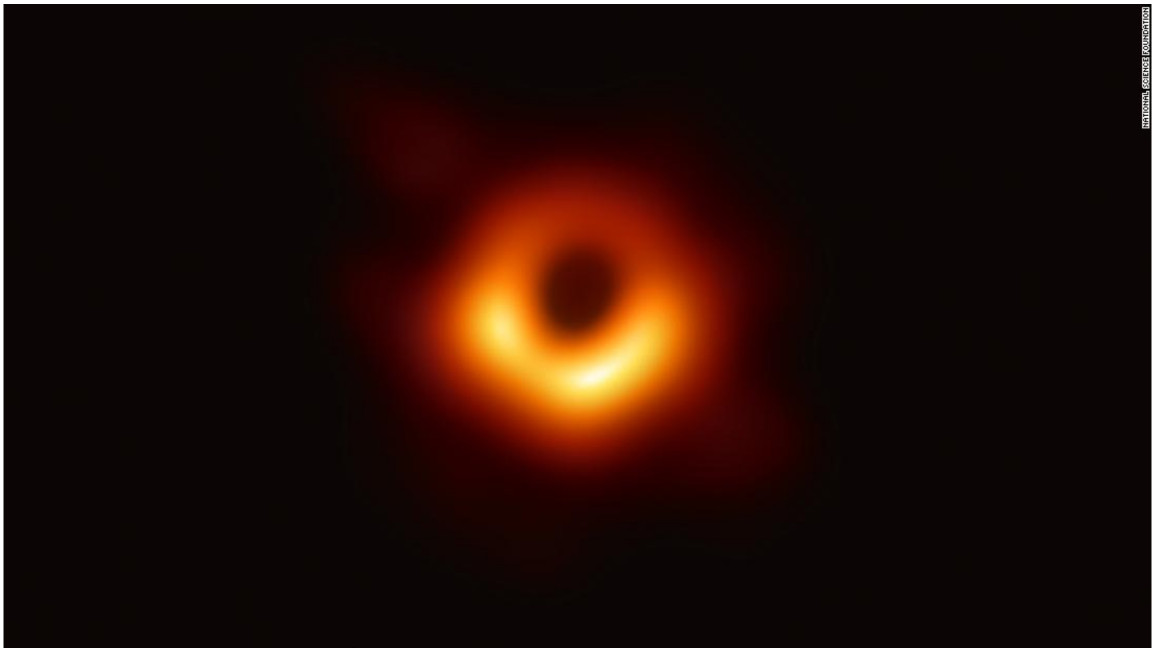
وقد أصبح التجنب العمدي للتفسيرات التليولوجية في العلم الطبيعي Teleological Explanations شعارا للأكاديمية الطبيعية منذ أن أصدر فرانسيس بيكون كتابه Novum Organum Scientiarum (الآلة العلمية الجديدة) في عام عشرين وستمئة وألف من الميلاد (1620)، على أساس أن الخوض في الأسباب والحكم الغائية في الخلق والفعل الإلهي هو أمر يتجاوز قدرة الإنسان على اكتسابها من طريق البحث التجريبي! وهذا في نفسه معنى حق ولا شك، ولكنه حق أرادوا به باطلا، ألا وهو التوصل إلى تسفيه نوع التفسير التليولوجي بإطلاق، ونزع اسم "العلم" عنه، وهو ما استقر عليه عمل الأكاديمية الطبيعية الغربية فيما بعد، وإن لم يصرحوا به إلا في القرنين الأخيرين، على أثر ظهور المذهب الوضعي المنطقي Logical Positivism في أوائل القرن العشرين الميلادي!

فلماذا يشعر الطبيعيون عند وضعهم التفسير القياسي Abductive Explanation (التجريبي أو العلمي أو الطبيعي أو غير ذلك من صور الاصطلاح عليه) لظاهرة ما Phenomenon مما يرونه يتكرر في الواقع على نمط معين، بالاطمئنان بإزاء تلك المعرفة وكفايتها كما لا يشعرون به في غيره من أنواع التعليل السببي (الجواب عن السؤال المجمل: لماذا؟)، وكيف انتهوا إلى القول بكفايته معرفيا؟ السبب في ذلك أيها القارئ الكريم أنه يوقفهم على أسباب للظاهرة محل التفسير هي من نوع الأسباب الداخلة تحت الحس المباشر والعادة البشرية (وهو ما اصطلح عند بعض المؤلفين على تسميته بالأسباب المادية Material causes وعند أصحاب الطبيعيات على وجه الخصوص بالأسباب الطبيعية Natural Causes)، ومن ثم يفتح الظاهرة المبحوثة للقدرة البشرية على التدخل في أسبابها المكتشفة (من حيث المبدأ) والتحكم فيها مستقبلا بحسب الحاجة، وهو ما يمثل الغاية الوحيدة التي نرتضيها لممارسة البحث الطبيعي (نوعا) على أي حال: تحقيق الدراية بأسباب الظواهر الطبيعية الجارية تحت عادتنا البشرية واستعمالها لخدمة المقاصد العملية المشروعة النافعة للإنسان.

ولكن لأن الدهريين الطبيعيين لا يؤمنون بالغيب ولا بشيء في الوجود إلا الطبيعة نفسها، لزم أن يكون "التفسير الطبيعي" و"السبب الطبيعي" هو التفسير الوحيد والسبب الوحيد المقبول (نوعا) كمعرفة صحيحة عندهم! فلا يكون التفسير السببي تفسيرا مقبولا إلا إن انطوى في صورته على أسباب محسوسة من جنس ما يطمعون في تكراره أو حجبه أو التدخل فيه بصورة من الصور إن أرادوا! ليس هذا وحسب، بل جميع الأسئلة بشأن ما هو موجود في الواقع، أو كان موجودا في الماضي أو سيكون كذلك، لا يقبل فيها إلا التفسير الطبيعي، وهو ما يقال له إجمالا الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism. فإن دخل في التفاسير شيء يوحي بالامتناع المعرفي من طريقهم، أو بالاضطرار للتلقي عن الأنبياء والمرسلين، ولو من بعيد، أسقطوه من فورهم. ولأنهم كانوا ولا يزالون حريصين على بناء العلم الكامل بالعالم وكافة نظمه وما فيه وما كان قبله وما يكون بعده .. إلخ، بلا حدّ ولا قيد من غيب ولا غيره، فلم يجدوا أمامهم حتى يقفوا على دعاوى معرفية غيبية تملأ تلك الفجوة الناشئة عن نبذهم بضاعة الأنبياء والمرسلين وراء ظهورهم، سوى الافتيات على الغيب باستعمال الأقيسة التفسيرية ونحوها من طرائق البحث التي تنتج لهم من أنواع الأسباب ما هو داخل في عادتهم وخبرتهم البشرية (نوعا)! وإذن يصبح نوع السؤال عن أسباب خلق السماوات الأرض وما فيهما (مثلا)، هو نفس نوع السؤال عن أسباب أي ظاهرة من الظواهر الاعتيادية الجارية في العالم، ويصبح كل ما يمكن السؤال عنه "بلماذا"، مطروحا – من حيث المبدأ الإبستمولوجي - لذلك الصنف من التفسير القياسي الأثير لديهم لا غيره! ولا يبقى ثمّ مانع عقلي من التطلع إلى تحقيق التمكن الفعلي من أسباب خلق السماوات والأرض في يوم من الأيام رجاء أن يبلغ البالغ منهم أن يخلق بنفسه سماء كهذه السماء وأرضا كهذه الأرض كما بلغ بهم خيالهم "العلمي" (زعموا) أن يحلموا، والله المستعان!

فمن منظور علم نفس المعرفة، لا نتوقع أن نرى الطبيعيين إلا محمولين حملا على تلمس المعرفة بالغيبيات من طريق أنواع القياس في المحسوسات (قياس الغائب على الشاهد، على ما جرى استحسانه من صور ذلك القياس في أوساط فلاسفتهم في كل عصر من العصور)، ولن تراهم إلا مدفوعين للانتصار – بكل قوة – وبكافة صور السفسطة الفلسفية لتلك النحلة في مصادر التلقي المعرفي، كانتصار كافة أهل الأديان الباطلة (المناقضة للبداهة والفطرة في أصولها الكبرى) لعقائدهم الغيبية كيفما كانت.

[←35]
ولا التفات لزعمهم أنهم قد شاهدوه أخيرا (أي الثقب الأسود) بجمع كبير من التليسكوبات الموجية، في قلب مجرة من المجرات، وقولهم إن هذا يثبت وجوده إثباتا منصرما بلا أدنى شك، فإنما أخذوا يبحثون في تلك المنطقة التي عدوها مركزا للمجرة، معتقدين – سلفا – وجود الثقب المزعوم فيها، ومن ثم مشترطين على أنفسهم شرطا تأويليا قائما على تلك الفرضية، حتى إذا ما وجدوا بقعة مضيئة فوقها ظل أسود حيث توجهوا بمراقبهم، قالوا هذا هو الثقب الأسود في قلب المجرة! أي أن تلك المشاهدات المزعومة تظل تأويلا مستمدا من النظرية نفسها، على طريقة: هذا ما نتوقع أن نراه إن كانت النظرية صحيحة، وليست مشاهدة مباشرة صارمة لا متسع فيها للتأويل! والعجيب أن جميع منابر صحافة الطبيعيات Science Journalism قد أغرقت العامة بدعاوى أول إبصار مباشر Direct Obervation للثقب الأسود، وكأن التليسكوبات المستعملة في الرصد استعملت فيها حاسة الإبصار بصورة ما أو بأخرى!
والواقع أنها (أي تلك التلسكوبات الثمانية) ليست إلا مجموعات من أطباق ضخمة Dishes عالية الحساسية، التقطت نطاقا عريضا من الموجات بترددات مختلفة ومن اتجاهات مختلفة، من الوجهة التي وجهت إليها، ثم أخذ القائمون على جميع تلك الأطباق في أنحاء العالم في الاتفاق على ما يثبَت وما يستبعد كضوضاء Noise من تلك الحزم الموجية الواسعة، وما ينتقى ليجمع بعضه إلى بعض بالتركيب الموجي، بناء على الاعتقاد السابق لديهم بأن في قلب تلك المعمعة لابد من وجود جسم معتم بالضرورة (أي لا تنبعث منه أي موجات)، فكان من غير المستغرب على الإطلاق أن ينتهوا في النهاية إلى الاتفاق على أقرب التأويلات إلى الصورة التي يريدون أن يروها، وهي تلك الصورة الأنيقة المشهورة عند الرسامين والفنانين التي تبين شكل الثقب الأسود المزعوم عند النظر إليه من أعلى (أي من نقطة إسقاط بصري عمودية على مستواه الدوراني)! فلماذا اتفق أن كانت الصورة من الزاوية الوحيدة التي تظهر لنا قرص النور المزعوم حول الجسم الأسود (ألا وهي النظر من أعلى) كما في رسومات القوم وتخيلاتهم؟ لأن الفريق القائم على التأويل اتخذ من مطلب تأويل حزم الموجات الوافدة إلى جميع الأطباق المستعملة في ذلك الرصد بما يوافق تلك الصورة، منهجا كليا في إعدادها من الأساس! ولهذا فمن محض التلبيس أن يعجب أصحاب تلك الصورة من كونها توافق تمام الموافقة ما فرضوه سلفا، لأنها أصلا لم تصطنع في الكمبيوترات العملاقة التي حللت تلك البيتابايتات المهولة من المعلومات الموجية الشتيتة الوافدة إلى مجموع الأطباق، إلا بناء على تلك الفروض نفسها!
ولو أنهم تدبروا وتأملوا، لوجدوا أن الثقب الأسود المزعوم لا ينبغي أن يظهر أسود اللون من أيما جهة نظرت إليه، لأن المفترض أن تلك الهالة الضوئية المحيطة به إنما هي التصور النظري لما يجري حول الثقب المزعوم في المطوية النظرية Theoretical Manifold التي يدرس بها الفيزيائيون تأثير الكتلة على ما يسمى بالزمكان بتطبيق مقاييس ريمان Metrics على مستوى منحني افتراضي! أما في الواقع، فالمفترض أن يكون ذلك التأثير نفسه حاصلا في جميع الاتجاهات، وإذن فالمتوقع أننا إذا نظرنا إلى ما يسمى بالثقب الأسود فلا نرى سوادا على الإطلاق، وإنما نرى كرة من الضوء فيما يقال له Ergosphere تحيط به من جميع الجهات! ولهذا قلنا إنه لا يمكن أن يرى، لأنه إما أن يكون كرة سوداء على خلفية سوداء، أو كرة سوداء محاطة بكرة ينبعث منها ضوء وإشعاع قابل للرصد، فلا ترصد إن رصدت إلا كما يرصد أي نجم بعيد! ولكن لأن الفيزيائيين الذين اتفقوا على شرط معين للتأويل والانتقاء من سيل المعلومات الموجية الهادر المقدر بالبيتابايت Petabytes الوافد إليهم من تلك الأطباق الكثيرة المنتشرة في أنحاء العالم، كان في أذهانهم تلك الصورة المشهورة إعلاميا للثقب الأسود، كان هذا بالضبط هو ما خرجت الصورة عليه في النهاية! فإن كان من دلالة في ذلك "الإنجاز العلمي العظيم"، فإنما يدل على غرق الفيزيائيين في مغالطة توقيع ما في الأذهان على ما في الأعيان، دع عنك مغالطة الاستدلال الدائري بالمشاهدة: أن تصمم المشاهدة نفسها بناء على النظرية، ثم يقال إنها تدل عليها Threory Self Confirming Observation)! هم مغرقون في تصور الزمكان المزعوم هذا وجوديا على أنه هو ذلك السطح المطاطي الافتراضي الذي يطبق عليه أينشتاين معادلاته، وهذا هو أظهر دليل على ذلك، فتأمل!
والقصد أن الحق الذي يجب على هؤلاء أن يصرحوا به لو صدقوا، هو أنه لا يتصور أصلا لتلك الصورة أن تكون على خلاف ما فرضوا! وعندما يقال إن هذه "مشاهدة" Observation فلابد أن يفهم الناس حقيقة المشاهدة ومفهومها عند القائمين على إعداد تلك "الصورة"! فمجرد الزعم بأنها "صورة"، على معنى ما نبصره بأعيننا من صور الأشياء، هذا في مجرده تأويل وقياس لا نسلم به! الأمر هو أشبه ما يكون بقولهم إننا قد شاهدنا الكون وهو يتوسع بالفعل، وهذا عندنا ثابت بالمشاهدة المباشرة! تأويل فوق تأويل فوق تأويل، والعامة يسيل لعابها ويثور خيالها وهي تنظر إلى تلك "الصورة" التي "غيرت التاريخ" على حد عبارة الصحافيين من غير أن يفهموا كيف توصل إليها أصحابها! وإذا بميتافزيقا أينشتاين الفاسدة في النسبية العامة تصبح حقيقة علمية منصرمة، كما أصبحت دعوى التطور الداروينى حقيقة علمية منصرمة، والله المستعان!



هذه هي الصورة التي أصدرتها وكالة ناسا في يوم العاشر من إبريل 2019، كأول مشاهدة صريحة ومباشرة في التاريخ لما يسمى بالثقب الأسود.

[←36]

وأقصد بالميتافزيقا في هذا السياق: تنظير الفيلسوف الطبيعي في المعاني الأولية (كالزمان والمكان والفراغ والوجود والعدم والحركة .. إلخ) ثم تنظيره بالقياس في تصور ما وراء المحسوس من غيب السماوات والأرض (الغيب الزماني المطلق والغيب المكاني المطلق). وعلى هذا فإن عرفنا علم الكوزمولوجيا على أنه "دراسة منشأ وتطور ومصير الكون بكليته" (كما هو تعريفه في ويكيبيديا)، كان المتخصص في ذلك الدجل الميثولوجي المسمى زوبا بالعلم، متخصصا في التفلسف الميتافزيقي المحض والافتيات على الغيب المطلق مكانيا وزمانيا، وإن جمع لنفسه ملء الأرض تجارب ومراصد ومعامل ومراقب وأقمارا صناعية!

[←37]

وقد أشرنا إليها في غير هذا الموضع فلا نعيد.

[←38]

ولا يشكل على إثباتنا لهذه البائقة الوجودية الميتافزيقية في أساس النسبية الخاصة، قبولنا لتحويل لورنتز الذي قامت عليه الصياغة الرياضية للنظرية، كما بيناه في مبحث سابق من هذا الكتاب! فإنه من الجائز عقلا أن تصلح المعادلة في توصيف جانب من الواقع المحسوس، على سبيل المقاربة، مع بطلان تأويلها الوجودي أو التصور الميتافزيقي الذي نبعت منه عند صاحبها وعدم مطابقته للواقع، كما بسطنا الكلام عليه في غير موضع من هذا الكتاب، وكما ضربنا مثاله بعون الله تعالى في معادلات نيوتن وكيبلر وغيرهما.

[←39] مع أنه كان صهيونيا جلدا من حيث الموقف السياسي كما هو معلوم عنه، حتى إنهم عرضوا عليه رئاسة إسرائيل (سنة 1952 الميلادية)!

[←40]

كما صرح دوكينز غير مرة بأنه على استعداد لقبول فكرة وجود صانع للبشر، ذي حياة وإرادة وعلم وحكمة، إن قدرناه كائنا فضائيا "يوفو" يعيش على كوكب بعيد (على غرار أساطير روايات "الخيال العلمي" وكما كان اعتقاد الهالك "كارل ساغان")، يكون هو نفسه قد ارتقى نوعه من قبل من أصل منحط كما يزعمون أنه حصل للإنسان على الأرض. فلماذا جوز هذا التصور السخيف الساذج للصانع ومنع اعتقاد المسلمين وغيرهم من أهل الملل الكتابية؟ لأن الأول يجري على أسطورته الدهرية ويتفق مع نظرياته الميتافزيقية ومصادر تلقي المعرفة الغيبية فيها، ولا يلزم منه اعتقاد أن لذلك الخالق المنحط أي تكاليف شرعية ملزمة من أعرض عنها استحق الهلاك الأبدي بعد الموت، بخلاف اعتقاد المسلمين وأهل الكتاب!

ولهذا لما قدر دوكينز وجود صانع محرك لعملية الارتقاء الدارويني (كما يعتقده التطويريون من أهل الملل الكتابية) لم يجد إلا أن يسميه بصانع الساعات الأعمى The Blind Watchmaker، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا! لماذا؟ لأن قصة النشأة الأسطورية لأنواع الأحياء التي سبق من الطبيعيين تخرصها واختراعها كذبا وزورا إنما تقوم على فرض العشوائية المحضة والهدر المحض والسرف المحض والهلاك العام والفناء، إلا لما شذ من آحاد المخلوقات بجين زائد أو عضو زائد هنا أو هناك، ظهر فيه صدفة فاتفق له البقاء! فإذا كان الأمر كذلك، وكان طريق استنباط أصل كل نوع أو سلفه السابق عليه بزعمهم هو هذا القياس الدهري الخبيث، لم يكن من الممكن تصور الصانع – على فرض وجوده – إلا أن يكون صانعا جاهلا أعمى، لا يدري ما يفعل، وإنما يخبط بالخلق خبط عشواء، فيمضي الملايين فوق الملايين من السنين في المحاولة والخطأ Try and Error، حتى يتفق له إبقاء مخلوق تنتخبه له الطبيعة انتخابا من بين ركام التجارب الفاشلة، بنظامها الذي لا يدركه هو ولا يحيط به، فيصبح نواة لنوع جديد! وهذا التقرير من دوكينز هو إلزام للتطويريين بما يلزمهم قطعا، وهو به مصيب ولا شك، لأنه لا يعقل اعتناق أسطورة الطبيعيين دون قبول لوازمها ومقتضياتها الناشئة عن منهج التنظير نفسه الذي قامت عليه تلك الأسطورة عند أصحابها، وعن مصادر التلقي المعرفي التي أخذت منها! لذا كان من لوازم فتح الباب لإعمال النظر القياسي الطبيعي في مسألة خلق الأنواع الحية وأصل نشأتها على غير مثال سابق، قياس أفعال رب العالمين وصفاته على أفعال وصفات المخلوقين ضرورة! ذلك أن موضوع التنظير والقياس حالئذ يكون فعلا من أفعال الربوبية المحضة اختص به الرب وتمدح في القرآن بتفرده به سبحانه، وتحدى البشر أن يأتوا بمثله، ألا وهو فعل الخلق! قال تعالى ((أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)) [الأعراف : 191] وقال سبحانه ((أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)) [النحل : 17] وقال تبارك وتعالى: ((وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)) [النحل : 20] وقال سبحانه ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ)) الآية [الحج : 73] وقال جل شأنه ((وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً)) [الفرقان : 3] وقال تبارك وتعالى: ((وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [القصص : 68] وقال: ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً)) [فاطر : 40] فالعقل والفطرة يمنعان من دخول خلق الله وإنشائه ما أنشأ من أنواع الموجودات على غير مثال سابق، تحت القياس والمشابهة، وهو أمر بدهي لأننا لا نقيس إلا على ما نرى بأعيننا في هذه الأرض وفي هذه السماء الدنيا، ولا نرى فيهما من الحوادث والموجودات إلا ما هو خاضع لنظام سببي معين لم نشهد خلقه وابتداءه على غير مثال سابق، ولم نر من قبل نظيرا له وهو يخلق! فإن هم تكلفوا النظر في فعل الخلق من طريقهم، لم يملكوا إلا قياس كيفية الخلق (المتمحضة في التغييب بداهة، والتي هي من خصائص ربوبية الله ضرورة) على ما هو شاهد من أنواع الحوادث الخاضعة لنظام هذا العالم المخلوق ولنوع سننه السببية (المسماة عند القوم بالقانون الطبيعي)، فلزم أن يكون الصانع – إذن – خاضعا في صنعته لتلك السنن والأسباب التي أخضعوا حوادث النشأة الأولى لها تحكما وبطرا، وأن يكون خلقه كخلق المخلوقين وصنعه كصنع المخلوقين: خاضعا في كيفيته لنظام كوني نؤمن نحن المسلمين بأنه هو سبحانه الذي أحدثه بكلمة التكوين بعد أن لم يكن! والحاصل هو ما عرف عند علمائنا رحمهم الله تعالى بتشبيه الأفعال، وهو إلزام لا نرى لدعاة النحلة التطويرية فكاكا منه مهما قالوا، فيا ليت القوم يعقلون!

[←41]
بحسب "الداروينية الطبيعية" أو المادية Naturalistic Darwinism كما يسميها بلانتينغا، تمييزا لها عن داروينية أخرى زعم قبولها للاعتقاد بوجود الباري وتناسقها معه منطقيا، يسميها أتباعه بالداروينية الإلهية Theistic Darwinism ويعدها خصومه صورة من صور النظرية اللاهوتية الخلقية Creationism!

[←42]

بل نقول لو صدق الرجل في طلب الحق لخرج من دينه ولدخل في الإسلام فورا، ولكنه يعلم أن ذلك من شأنه أن يفقده تلك المنزلة العظيمة التي أسسها لنفسه بين أهل ملته في بلاده، ويعود عاميا بين الناس لا يؤبه به ولا يلتفت إليه، وهو ما يكرهه رؤوس الملل المخالفة كافة أشد الكراهية ولا يحجزهم عن قبول الحق حاجز سواه، والله المستعان!

[←43]

ولهذا يستشنعون مبدأ ولاية الأمر والإمامة عند المسلمين أشد الاستشناع، لأن الحاكم عندهم ليس "ولي أمر" والمحكومين ليسوا "رعية"، وليس هو عندهم مكلفا بتكليف شرعي من رب العالمين بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، أو بأن يجعل كلمة الله هي العليا في البلاد التي يحكمها، وكلمة الذين كفروا السفلى! وإنما كل الكلمات وكل الملل وكل المذاهب عندهم سواء، فعلى الحاكم في ملتهم أن يجعلها كذلك، وألا يمنع أحدا من نشر باطله وضلاله وكفره، ولا يسمح لأحد من أهل الأديان بأن يفرض شيئا من شرائع دينه على أحد! فلا ذمة ولا جزية ولا حسبة ولا جهاد طلب ولا شيء من ذلك! فالمقصود من السلطان والحكم عند الدهرية ليس هو نجاة الجماعة المسلمة في الآخرة وصيانة أسباب نجاتهم ونشر الخير الذي عندهم في البلاد، قبل صيانة منافعهم الدنيوية ورعاية حوائجهم ومصالحهم في أمور الدنيا، وإنما المقصود هو تمكين كل "قرد" من قردة البشر (كما في دين الدراونة) من أن يتلذذ بما يحلو له من ملذات الدنيا من غير أن يمنعه مانع ولا يحده حد ولا يعكر عليه شيء إلا ما يقتضيه الاتفاق الاجتماعي على فلسفة التشريع والنظرية الاجتماعية والسياسية التي تدار بها البلاد. فمن كان منهم يجد هواه في ممارسة هذا الدين أو ذاك، فليجعله في بيته أو في معبده ولا يزعج به غيره!

[←44]

والحق أن تلك الطائفة كان ظهورها – تاريخيا - من شؤم الخوارج وجرائمهم وشنائعهم قبحهم الله! فهم لا يمتازون عن غيرهم من الدهرية العلمانيين الطبيعيين المعاصرين إلا بفجورهم في التصريح بتسفيه الدين عامة وسب رب العالمين بكل وقاحة، لعنهم الله! وهي تلك النبتة التي لولا حادث البرجين في عام واحد وألفين الميلادية، وما أثارته تلك الجريمة الشنيعة من هزة نفسية وحنق مجتمعي شامل ضد الإسلام والمسلمين في أوروبا وأمريكا لم نزل نتجرع مرارته إلى اليوم، لولا تلك البائقة ما وجد في بلاد الغرب ذلك الميل الاجتماعي العام لقبول فكرة أن الإسلام خاصة والدين عامة هو مصدر الشر والدمار في العالم، وأنه لا أمن ولا سلام للعالم إلا بالتخلص من الدين بجميع صوره! وليس هذا الكلام من كيسي، فقد اتفق مؤرخو المذاهب الفكرية المعاصرة على أن أول ظهور لتلك النزعة العدوانية الغالية ضد الدين وضد الرب جل وعلا في أدبيات الغربيين، التي هي بطبيعة الحال أول ظهور لما يسمى بالإلحاد الجديد أو الإلحاد العدواني Militant Atheism كانت بنشر كتاب لسام هاريس في عام ألفين وأربعة من الميلاد بعنوان "نهاية الإيمان: الدين والإرهاب ومستقبل العقلانية" The End of Faith: Religion, Terror and the Future of Reason، لم يكن يزيد على كونه ردة فعل عنيفة من شاب ملحد متطرف، اغتنم فرصة اجتماعية سانحة للترويج لفكرة أن مبدأ ما يسمى "بالدين المنظم" هو منبت التطرف والتعصب والإرهاب والدمار والشرور كلها في كافة العصور! وعلى المنوال نفسه تتابعت كتب أصحابه الذين باتوا يعرفون اليوم بفرسان الإلحاد الأربعة، ريتشارد دوكينز وكريستوفر هيتشنز ودانيال دينيت، بكتب غير مسبوقة في العصر الحديث من حيث التصريح بالعدوان الشنيع على رب العالمين وعلى مبدأ الدين نفسه! ولأن هؤلاء جميعا لم يكونوا إلا ثلة من الباحثين والمفكرين الملاحدة المتعصبين غير المتخصصين في الفلسفة واللاهوت (أو اللالاهوت للدقة) اللهم إلا دانيال دينيت الذي هو في الأصل متخصص في فلسفة العقل والإدراك الاستعرافي ونحو ذلك، فمنهم الصحافي ومنهم الباحث في علم الأعصاب ومنهم أستاذ علم الحيوانات، كان من غير المستغرب أن ترى خطابهم خطابا سطحيا ساذجا، خلافا لغيرهم من أئمة الملل الدهرية الأخرى! فقد خرجوا على العالم بثورة حانقة على الدين ومبدأ الدين، جمعت عليهم أمثالهم من الحمقى المتعصبين، ووضعتهم، من ثم، في موضع السؤال المنطقي الذي يتبع تلك الثورة: "ثم ماذا بعد؟" ماذا بعد الثورة على الدين؟ ما البديل الذي تقدمونه لنا في كل من مصادر تلقي المعرفة بأجوبة الأسئلة الوجودية الكبرى، وفي الجانب الروحاني وفيما يتعلق بالقضايا القيمية والأخلاقية والتشريعية وغير ذلك من مسائل كانت ولم تزل مما يختص به أهل الأديان؟ هنا وجد القوم أنفسهم مضطرين لاقتحام أبواب لا قبل لهم بها، وأصدروا كتبا في تلك الأبواب تضحك منها الثكالى، حتى إن أقرانهم من الملاحدة الدهرية الطبيعيين الذين لهم شيء من الاطلاع على الفلسفة واللاهوت ليتبرؤون منهم ومما يكتبون، كما يأتي معك في كلام الفيلسوف الدارويني مايكل روز وغيره!

[←45] وقد كان في أول أمره راهبا وحداويا Unitarian (أي من تلك الطوائف المنشقة عن الملل النصرانية، القائلة بوحدانية الرب ونفي الثالوث، مع الإيمان بنبوة المسيح عليه السلام)، ثم طمس الله على بصره فأغرقه في الربوبية Deism والنحلة الإنسانية!

[←46]

The time has come for widespread recognition of the radical changes in religious beliefs throughout the modern world. The time is past for mere revision of traditional attitudes. Science and economic change have disrupted the old beliefs. Religions the world over are under the necessity of coming to terms with new conditions created by a vastly increased knowledge and experience. In every field of human activity, the vital movement is now in the direction of a candid and explicit humanism. In order that religious humanism may be better understood we, the undersigned, desire to make certain affirmations which we believe the facts of our contemporary life demonstrate.

[←47]

FIRST: Religious humanists regard the universe as self-existing and not created

[←48]

SECOND: Humanism believes that man is a part of nature and that he has emerged as a result of a continuous process.

[←49]

أي اعتقاد كون العقل لا يزيد على أن يكون عضوا حيويا من جملة أعضاء الجسد، لا حقيقة له ولا كيفية إلا ما يمكن قياسه على أنواع العمليات العضوية الحيوية الواقعة تحت الحس. وعامة الدهرية يرفضون تلك الثنائية التي عليها أهل الملل الأخرى، ويرون أن العقل ليس إلا جملة من الوظائف الكيميائية والكهربية للمخ والجهاز العصبي! وهذا باطل لا يجوز للمسلم قبوله، لما استفاض به النص في القرآن من تقرير كون العقل في القلب لا في الدماغ، كما في قوله تعالى: ((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)) [الحج : 46]، فمن نفى أن يكون للقلب حظ من عمل العقل، وقصره على النشاط الدماغي كما هو اعتقاد هؤلاء، فقد كذب بصريح القرآن!

[←50]

FIFTH: Humanism asserts that the nature of the universe depicted by modern science makes unacceptable any supernatural or cosmic guarantees of human values. Obviously humanism does not deny the possibility of realities as yet undiscovered, but it does insist that the way to determine the existence and value of any and all realities is by means of intelligent inquiry and by the assessment of their relations to human needs. Religion must formulate its hopes and plans in the light of the scientific spirit and method.

[←51]

SEVENTH: Religion consists of those actions, purposes, and experiences which are humanly significant. Nothing human is alien to the religious. It includes labor, art, science, philosophy, love, friendship, recreation–all that is in its degree expressive of intelligently satisfying human living. The distinction between the sacred and the secular can no longer be maintained.

[←52]

ووجه كونه جديدا بالأساس إنما هو تصريح دعاته – علنا وبكل وقاحة - بالعداء المفتوح والتسفيه العلني الفاحش للدين ولكل ما هو ديني، وادعاؤهم أن الإنسان يكون أحسن أخلاقا وأسلم من نوازع الشر والإفساد في الأرض إن تخلص من الدين كلية، وترويجهم للعلم التجريبي Science على أنه هو بديل الدين الذي فيه وبه جواب كل سؤال وشفاء كل عي، الذي لم يعد يليق بعاقل يحترم عقله في "القرن الواحد والعشرين" أن يجمع بينه وبين شيء من تلك الأديان البتة! وإلا فالعلمانية الغالية Extreme Secularism لا جديد فيها، والعلموية المتطرفة Extreme Scientism لا جديد فيها، والملة الطبيعية الدهرية المحضة Fundamental Naturalism لا جديد فيها، والأيديولوجيا الدهرية القائلة بأن الدين ليس هو المصدر الأصلح لتلقي القيم الأخلاقية والمعيارية العليا للإنسان، لا جديد فيها كذلك!

[←53] مع زيادة المؤسسة الدينية الجديدة ونظامها الخاص الذي منه هذه الوثيقة نفسها!

[←54] والدين الحق عند المسلمين هو كل ما جعله الله دينا فيما أرسل به رسله، فكل من جاء في موضوع ذلك العلم بما يخالف ما جاءت به الرسل، فقد أبطل في الدين وبدله! فإذا كانت الرسل قد جاءت بما فيه تعليم الناس الحكمة، المتمثلة في الخبر (الاعتقاد والعلم بما يلزم العلم به من أمر الغيب وما فيه) والإنشاء (التكليف بالأمر والنهي الذي يحصل به مقصود الدين عند رب العالمين، الذي هو عبادته وحده لا شريك له كما يحب سبحانه ويرضى)، فإنه يلزم من ذلك ألا يكون قول القائل في أمر الغيب بخلاف ما جاءت به الرسل إلا ضلالا وإفسادا في الدين، وألا يكون فعل الفاعل بخلاف ما جاء به التكليف الإلهي إلا ضلالا كذلك، وإذن فلا يخلو قول أو عمل من أن يكون موضوعا للدين الحق ولغيره من الأديان الباطلة!

[←55]

NINTH: In the place of the old attitudes involved in worship and prayer the humanist finds his religious emotions expressed in a heightened sense of personal life and in a cooperative effort to promote social well-being.

[←56] ويسميهم البعض بالملاحدة الكلاسيكيين Classical Atheists، كقسيم للملاحدة الجدد وأصحاب الديانة الإنسانية الجديدة، ويسميهم مايكل روز – وهو منتسب إليهم – بالتوفيقيين Accomodationists، خلافا للمتشددين الغلاة Militant.

[←57]

وحسبك أنهم فاقوا أهل الملل الباطلة كلها في الخرف بكونهم يكذبون بالرحمن وبيوم الحساب!

[←58]

At this point it is obvious to everyone except the participants that what we have here is a religion without the good bits.

[←59]

وإني لأعجب من دعاة على منابر المسلمين يسوقون هذه الآية الكريمة في معرض الترويج لدعوى أن الله إنما خلق الشعوب والقبائل من أجل أن يعلوا في البنيان ويتكاثروا في الأرض و"يعرف بعضهم بعضا"! هذا إفساد لكلام رب العالمين، وتحريف للكلام عن مواضعه! فالله تعالى لم يختم الآية عند قوله "لتعارفوا"، وإنما عقب بقوله "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، فدل دلالة صريحة على أن التعارف المراد هنا إنما هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعمار الأرض بالتوحيد وابتلاء الأمم به وبدعاته ورسله، حتى تكون الأمة الأتقى هي الأكرم والأجدر بالرفع والتقديم عند رب العالمين، وليس الأمة الأعلى في أسباب الدنيا، أو الأمكن من أسباب الصناعة والبناء والعمران والتحضر! هذه لوثة من لوثات الملة الإنسانية تسربت إلى جهمية العصر، فأصابت مقاتلهم أو كادت من حيث لا يشعرون، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

[←60]

I think that you and Richard [Dawkins] are absolute disasters in the fight against intelligent design – we are losing this battle, not the least of which is the two new supreme court justices who are certainly going to vote to let it into classrooms – what we need is not knee-jerk atheism but serious grappling with the issues – neither of you are willing to study Christianity seriously and to engage with the ideas – it is just plain silly and grotesquely immoral to claim that Christianity is simply a force for evil, as Richard claims – more than this, we are in a fight, and we need to make allies in the fight, not simply alienate everyone of good will

[←61]

As cited by Tirosh-Samuelson, Hava, ‘Engaging Transhumanism’, In Hansell, Gregory & Grassie, William (eds.) (2011) *H± Transhumanism and Its Critics*, Philadelphia: Metanexus Institute.

[←62]

Tirosh-Samuelson, Hava, ‘Engaging Transhumanism’, In Hansell, Gregory & Grassie, William (eds.) (2011) *H± Transhumanism and Its Critics*, Philadelphia: Metanexus Institute.

[←63]

وهو عند الترانسهيومانيين هؤلاء بمنزلة طقس ديني جنائزي، وهو أقرب شيء شبها بالتحنيط عند المصريين القدماء، مع مشابهة لعقيدة تناسخ الأرواح عند الهندوس، وإن كان أغرق في الخرافة منهما جميعا، لأن أصحابه لا يثبتون للإنسان روحا أصلا، ولا غيبا تذهب فيه الروح ثم تبعث منه، ولا شيء إلا الجسد! فبناء على اعتقاد أن المستقبل سيشهد لا محالة تمكن البشر من اكتشاف أسباب الخلود في الأرض والقدرة على نقل الوعي الإنسان من الجسد البالي إلى جسد آلي، زعم هؤلاء أنهم إن تمكنوا من اختراع طريقة لتجميد أجسامهم بالنيتروجين السائل أو نحوه بعد الموت مباشرة، بغرض حفظ أمخاخهم كاملة وأجهزتهم العصبية كما هي، فلابد أن يأتي يوم في المستقبل تكتشف فيه طريقة لنقل أمخاخهم وجهازهم العصبي من تلك الأجساد المجمدة إلى آلة أو ماكينة أو جسد سيبرناطيقي أو نحو ذلك، ثم تنشط تلك الأمخاخ بصورة ما أو بأخرى، وإذن يحصل لهم ما يرجو القوم أن يكون نظير البعث والخلود الذي يؤمن به أهل الملل الأخرى!

وقد أنشأ القوم بالفعل في عام 1972 الميلادية مؤسسة ترانسهيومانية باسم مؤسسة ألكور لتمديد الحياة Alcor Life Extension Foundation، فيها اليوم ما يزيد على ألف وستمئة جثة محنطة بالتجميد في النيتروجين السائل، منهم زهاء المئة اكتفوا بتحنيط أدمغتهم فقط! ومن المحنطين في كبسولات تلك المنظمة، رجل يدعى FM-2030 (!!)، وهو من كبار الدعاة والمنظرين والمتنبئين لتلك الملة في الستينات والسبعينات من القرن الماضي، الذين عملوا على تحويل الترانسهيومانية هذه Transhumanism إلى نظام أخلاقي من شأن من يعتنقه أن تكون سلوكياته كلها مفضية إلى تحقيق المستقبل الفائق الذي تنبأ هو به! والرجل كان اسمه في الأصل "فريدون إصفندياري" (من أصل إيراني) ثم قرر أن يغير اسمه رسميا إلى ما ذكرنا، أملا منه في أن يعيش مئة عام حتى يشهد عام 2030 الذي كان قد تنبأ بأن البشر سيبلغون فيها القدرة على تخليد أنفسهم والقضاء على الموت، فأبى ربك إلا أن يبتليه بسرطان قاتل في البنكرياس لا علاج له! فلما علم أنه هالك لا محالة، قرر أن يحنط جسده في ثلاجات تلك المؤسسة، موصيا بأن يعاد إحياؤه منها إذا ما اكتشف "العلم" في يوم من الأيام طريقا لبعث الموتى من مادة أمخاخهم وتخليدهم في الأرض!

فسبحان الذي قضى من سابغ حكمته وكمال صفاته، أن يجعل الدهرية أغرق أهل الملل الشركية كافة في الخزي والخرف والهذيان! فهذا والله ما يتوقعه العاقل سوي النفس والقلب صحيح الدين، أن يكون أهل الملة أغرق في الخرافة والأسطورة وفي استحقاق الخزي بها، كلما كانوا أعظم تلبسا في عقائد ملتهم بالحط على رب العالمين وجحده حقه جل شأنه، ومن ثم بجحد البدهيات الواضحات! وهذا لا يكشفه الرب سبحانه إلا للعقلاء الأسوياء من أتباع الرسل بفضله ومنته، الذين يوفقهم لسلامة في الصدر وخلو من الأهواء وبصيرة من عنده يرون بها الحق حقا والباطل باطلا، ويرون الكرامة كرامة والخزي خزيا، نسأل الله أن نكون من هؤلاء، ولله الحمد على نعمة الإسلام والسنة وكفى بها نعمة.

[←64] ومهما وقفت على المصطلح "تكنولوجيا انبثاقية" أو "منبثقة" أو تكنولوجيا الانبثاق Emering / Emergent Technology أو المصطلح "التكنولوجيا المتقاربة" Converging / Convergent Technology فاعلم أن المراد بها مساعي الترانسهيومانيين في التكنولوجيا الحيوية والمؤسسات التي يقومون بتمويلها.

[←65]

فأما النقل، فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ((وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ)) [يس : 68]، فلا يعمر من معمر إلا هو منكس في الخلق لا محالة. وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قالَتِ الأعرابُ يا رسولَ اللَّهِ ألا نَتداوى قالَ: نعَم يا عبادَ اللَّهِ تداوَوا فإنَّ اللَّهَ لم يضَعْ داءً إلَّا وضعَ لَهُ شفاءً أو دواءً إلَّا داءً واحدًا فَقالوا: يا رسولَ اللَّهِ وما هوَ، قالَ: الهرمُ. اهـ. والحديث أخرجه أبو داود في سننه (3855)، الترمذي (2038) واللفظ له، والنسائي في السنن الكبرى (7553)، وابن ماجه (3436)، وأحمد في مسنده (18454)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (2038). وأما العقل، فقد علم بالمشاهدة المستفيضة والاستقراء التام أن البلى والتفكك والتناقص هو سنة كونية ماضية على كل مخلوق في هذه الحياة الدنيا، ينشأ النظام الجديد فيها وعوامل هلاكه وتفككه وتآكله مركبة فيه كما أن عوامل سلامته وحفظه من الزوال (إلى حين) مركبة فيه، فلا يجاوز أجله الذي أجل له إلا وقد هلك وانفك بعضه من بعض لا محالة مهما طال بقاؤه في الأرض، ما لم يكن سبب هلاكه غير ذلك. ثم إذا بمادته تنتشر في الأرض لتدخل في بناء مخلوق جديد يشب ثم يشيخ ويهرم ثم يهلك، وهكذا ما دامت الجبال راسية على الأرض والسماء محمولة من فوقها! وهذا أمر لا يماري فيه إلا مكابر! بل إن الفيزيائيين قد بلغوا أن اعتبروا ذلك صورة من صور ما يسمى بالإنتروبي Entropy وهو قانون من قوانين الديناميكا الحرارية، وقد بسطنا الكلام على هذا في موضع لاحق من هذا الكتاب!

[←66]

ولا يجوز أن يقال "الموت المبكر" كما هو شائع بين الناس، لأنه لا تموت نفس إلا وقد استوفت رزقها وأجلها، فلا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون! فهذا من المناهي اللفظية المنتشرة التي يجب أن ينتبه إليها المسلمون. وقد وقعت تلك العبارة عند جهال المسلمين من ترجمة حرفية لمصطلح الطبيعيين في قولهم Premature Death أي الموت قبل تمام الأهلية (أي الأهلية للموت بزعمهم)، فمن ذا الذي يملك أن يحكم على نفس إنها ليست أهلا لأن تموت، أو لم تبلغ بعد من العمر ما يفترض لها أن تبلغه؟! نسأل الله السلامة!

[←67]

وهو قسيم الذكاء الاصطناعي المحدود Weak AI الذي يقصد به الذكاء المصمم للقيام بمهمة معينة فلا يتعداها لغيرها! وهذا النوع في الحقيقة هو ما نجيز معاشر أهل السنة أن تُنفق الأموال في دراسته وبحثه، لأنه كان ولم يزل يحصل منه النفع للناس في أمور دنياهم! وأما محاولة الطبيعيين بعدالإنسانيين هؤلاء تصميم ذكاء عام شامل، أو للدقة: تصميم عقل كامل يحاكي العقل البشر في جميع وظائفه ويتفوق عليه، فهذا محض ضلال وسفه لا نجيزه ولا ينبغي أن نرتضيه من أصحابه، لأسباب يأتي معك بيانها بحول الله تعالى!

[←68]

قال ديكارت في كتابه "الخطاب المنهجي" Discourse on the Method:

إن قدر وجود ماكينات تتسم بمشابهتنا في أجسامنا ومحاكاتنا في أفعالنا، على أقرب ما يكون ذلك في كافة الأغراض العملية، فسيبقى لدينا طريقان أكيدان لبيان أنها ليست بشرا حقيقيا. فأما الأول، فهو أنها ما كانت لتقدر على استعمال الكلمات، أو ترتيب الإشارات والرموز، على النحو الذي يقع منا نحن معاشر البشر، عند العبارة عن أفكارنا للآخرين. فإننا قطعا يمكننا أن نتصور ماكينة قادرة على التلفظ بالكلمات، بل والتلفظ بكلمات توافق أفعالا جسدية تتغير على أثرها حالة أعضائها. ولكنه من غير المتصور أن تكون في تلك الماكينة القدرة على إنتاج تراتيب مختلفة للألفاظ بحيث تفيد بأجوبة ذات معان ملائمة لأي مسألة تطرح في محضرها، كما هو في وسع أكثر الناس بلادة أن يفعلوه. وثانيا، فعلى الرغم من أن بعض الماكينات قد تقوم ببعض الأعمال بنفس كفاءتنا، بل ربما على أحسن من ذلك، فإنها لا محالة ستفشل في غيرها من الأعمال، بما يكشف أنها ليست فاعلة ما تفعل عن فهم، ولكن من أثر الكيفية التي ركبت بها أجزاؤها. فبينما يعتبر العقل آلة كونية يمكن استعمالها في جميع أنواع المواقف، فإن تلك الأعضاء الآلية تحتاج إلى عمل معين، وإذن فمن الممتنع في حق الماكينة، لجميع الأغراض العملية، أن يكون لديها من الأعضاء والأجزاء المختلفة ما يمكنها من التصرف في جميع المواقف الممكنة عقلا، على النحو الذي يمكننا منه عقلنا البشري.

(المصدر: الترجمة الإنكليزية للأصل الفرنسي كما في موسوعة جامعة ستانفورد الرقمية للفلسفة).

قلت: والحق أن ديكارت لم يكن يقصد بكلامه هذا الدعوة لإجراء اختبار عملي فعلي كما اقترحه تورينك، رجاء معرفة ما إذا كانت الماكينة محل الاختبار قد بلغت منزلة العقل البشري أم لم تبلغها، وإنما أراد أن يقيم حجة عقلية ينتصر بها لثنائية العقل والجسد Mind-Body Dualism، ويبطل دعوى القائلين بنفي الروح وبأن العقل والنفس والوجدان البشري ليس إلا تلك العمليات الجسدية المادية المحضة التي يمكن تتبعها بالحس والتجريب، ويمكن – نظريا – أن تظهر في يوم من الأيام في ماكينة من الماكينات! فهو كان يجزم ابتداء بامتناع التساوي أو التماثل (أي بين البشر والآلات التي لا روح فيها ولا وعي)، وإنما أراد أن يبين جلاء ووضوح ذلك الامتناع حتى من طريق تتبع السلوك الظاهر المحسوس! وأما تورينك فكان يجوز ما منعه ديكارت، ويرى أن إجراء الاختبار فعليا سيكون هو الفرقان في المسألة!

[←69]

فلا شيء يلجئنا – مثلا – لأن نقول كما قال بعضهم (كألفين بلانتيتغا اللاهوتي النصراني الأشهر في هذا العصر، فيما سماه بالحجة من منطق الجهة Modal Argument) ما معناه: إن من الواضح البدهي أنني لست أنا جسدي، ولست جزءا من جسدي، كما أسميه بمخي، وإنما أنا الكيان الوجودي الغيبي الذي يتحكم في تلك الأشياء المادية كلها! ولهذا فأنا أتصور وجودي مع انعدام جسدي، وأتصور نفسي منفصلا عن جسدي، وأستجيز فكرة الخروج منه والانتقال إلى غيره، كما أتصور نفسي وقد فقدت ذراعا أو قدما أو رجلا أو جميع أطرافي! وأستجيز أن أنظر في المرآة في يوم من الأيام فأجد نفسي في جسد غير جسدي! بل قد أجد نفسي واقعا في جسم فيل أو نعامة أو ذبابة! هذا كله ليس جائزا وحسب، بل إن المستقبليين يرجون تحقيقه، فهم يطمعون في تحويل ما يسمونه بالوعي الإنساني إلى شيء قابل للنقل على وسائط وحوامل مادية آلية، ومن ثم يتمكنوا من الاستغناء عن الجسد العضوي بالكلية! وقد استعمل بلانتينغا صياغة صورية لحجته استعان في مقدمتها الأولى بقانون لايبنيز، فقال:

مقدمة (1): إن قدر موجودان (أ) و(ب) بحيث تتطابق جميع صفات الموجود (أ) وجميع صفات الموجود (ب) بلا استثناء، لزم بالضرورة أن يكون (أ) هو عين (ب).

مقدمة (2): إننا نتصور الجواز العقلي لوجود أنفسنا أو أرواحنا أو وعينا استقلالا عن الجسد. وإذن فقد اتصفت أنفسنا بصفة لا تتصف بها أجسادنا.

النتيجة: ليست نفس الإنسان أو وعيه أو روحه هي عين جسده أو جزءا من جسده.

ونقول من جديد إن العقلاء لا يحتاجون إلى هذا البرهان أو غيره حتى يجزموا بوجود أرواحهم وبأنها تنفصل عن أجسامهم عند الموت. هذه الطريقة عند المتكلمين واللاهوتيين لا تزيد الطريق على العقلاء إلا طولا، ولا يزال القوم يسلكونها لأنهم ارتضوا لأنفسهم أن يخضعوا لشروط "اللعبة" التي تفرضها عليهم أكاديميات الفلسفة! واقع الأمر أنه لما ضرب لهذه المسألة البدهية تلك الصياغة المتكلفة، اعترض عليه خصومه الماديون بأن في منطقه دورا! فهو يضع في المقدمة الثانية الحكم بتجويز ما يريد إثباته! ولو كان خصمه يسلم به بتلك المقدمة لارتفع النزاع، ولكن الماديين ينكرون الغيب بالكلية ولا يرون في الإنسان إلا المادة المحسوسة، فعلى أصل مذهبهم هم يمنعون من وجود الروح لأن الواقع عندهم لا يتسع لوجودها، لا أنهم يجيزون وجودها أو يتوقفون فيه لأنهم لا يجدون ما يثبتها، فتأمل!

[←70]

ومن عجائب جحود الدهرية الطبيعيين ما يروى عن "جي بي هالدين" أنه علق ذات يوم على وفرة ما أحصاه الباحثون من أنواع الخنافس في الأرض (ما يربو على ثلاثمئة ألف نوع)، فقال في سخافة ووقاحة بالغة: "إن كان للخالق وجود، فإن له لولعا عظيما بالخنافس"! فمن أين جاء ذلك التعليق الوقح؟ جاء من قياس الرجل ربه على نفسه! فكأنما تصور نفسه صانعا لعالم كعالمنا هذا، ثم تساءل: أي حكمة وأي غاية تكون لي في أن أبث في العالم هذا العدد الوافر من أفراد هذا النوع بالذات، حتى إنه ليبلغ ثلاثين ضعفا لعدد أنواع الثدييات مثلا؟؟ فلما لم يحر جوابا، قال: لابد – إذن – أن أكون مولعا بذلك النوع من الحشرات بالذات! ولا شك أنه إذ يجري ذلك القياس، فإنما يقيسه عبثا واستهزاء، فهو لا يثبت للعالم صانعا أصلا! ولكن الشاهد أن القوم لما قاسوا صانعهم على أنفسهم، قاسوا أفعاله على أفعالهم، ومنها فعل الخلق والتكوين! فقال سفيههم: كما خلقنا صانعنا وخلق كل شيء، فلابد أن يأتي يوم نبلغ نحن فيه من العلم أن نخلق بشرا كأمثالنا وعالما كعالمنا! فصدق فيهم جميعا قول رب العزة، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا: ((وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [الزمر : 67]

[←71]
على هامش هذا المبحث ومن نافلة القول، وما دمنا قد ذكرنا حجة الغرفة الصينية هذه، أن نقول إن تلك الحجة قد فتحت أبوابا للجدال والأخذ والرد لا نهاية لها، بل قد تفضي إلى إسقاط النتيجة البدهية التي ينتهي إليها البرهان، وتحويلها إلى مسألة نظرية خلافية لا وصول إلى حسمها البتة، وهو أمر لا نستغربه على الإطلاق، وهو الثمرة التي ترجع على العقلاء من كل حجة أو برهان فلسفي يضعه فيلسوف من الفلاسفة للانتصار لحقيقة هي في الأصل بدهية ضرورية!

قال سيرل في بيان الغرض من حجته تلك: "الفكرة في تلك الحجة هي التالي: إذا كان الرجل في الغرفة غير قادر على فهم اللغة الصينية على أثر تطبيق البرنامج المناسب المصمم لتحقيق فهم اللغة الصينية، فكذلك لا يمكن لأي جهاز حاسوبي رقمي أن يحقق فهم اللغة الصينية بناء على تلك البرمجة وحدها، نظرا لأنه ليس يملك الكمبيوتر، كونه جهازا حاسوبيا، أي شيء لا يملكه الإنسان." اهـ. قلت: فمع أن الفكرة التي يريد سيرل الانتصار لها هي فكرة بدهية وصحيحة بنفسها، ألا وهي أن قضية الفهم والوعي والتصور العقلي البشري هي قضايا لا قبل للمنطق البرمجي بمحاكاتها أصلا، لا منطق تورينك ولا غيره، إلا أنه أبى إلا أن يضعها في صورة قياس تفصيلي، وهو ما فتح الباب لمخالفيه ليدخلوا بأنواع من الاعتراضات لا أول لها ولا آخر، حتى قال بعض علماء الحوسبة في تعريف ما يسمى بعلم الاستعراف Cognitive Science إنه ذلك المشروع البحثي المستمر الذي لا يزال أصحابه يسعون لإبطال حجة سيرل! قلت: ذلك أنه لا يزيد العمل العقلي في نظريتهم الحاسوبية على أن يكون معالجة شكلية Syntactic للكلام (الألفاظ والأشكال)، كما يبرمجون حواسبهم! فتأمل كيف كان برهان فلسفي واحد لإثبات مسألة بدهية جلية، سببا في تأسيس علم زائف Pseudoscience، أو على الأقل مجال بحثي تحركه عقائد فاسدة، له تأسيسه النظامي الأكاديمي المستقل Disciplinary Foundation، وهذا والله من شؤم الفلسفة وتنطع الفلاسفة!

من الواضح الجلي أن عمليات البرنامج الحاسوبي إنما هي عمليات مبرمجة سلفا ينتج بها الحاسوب ما لا يفهمه من أجوبة قد برمجت فيه من قبل، بناء على فهم ليس عنده، فلا يملك إلا أن يحرك رأس المعالج التورينكي (بصورة ما أو بأخرى) لينقل بين خلية وخلية، يضرب حرفا ويمحو الآخر! ولا شك أن امتناع أن يكون مجرد التوصيف التفصيلي لإجراءات معينة تقابل بها المدخلات الرمزية بما يناسبها من مخرجات رمزية من نفس النوع، طريقا كافيا لتحقيق فهم بشري حقيقي لتلك الرموز عند القائم بتلك الإجراءات، هو أمر بدهي واضح لا يحتاج إلى ضرب المثل! ومع ذلك فقد قوبل سيرل بسبب ذلك القياس الذي جاء به باعتراضات عدة، منها على سبيل المثال، تسليم مخالفيه بأن الرجل في الغرفة لم ولن يفهم الصينية على الإطلاق، ولكن مع ذلك فلا يلزم من هذا ألا يكون قد حصل "فهم للصينية" Chinese Understanding في الغرفة بجملتها! أي أن الغرفة (التي تشتمل على الرجل والبرنامج والمقعد والمنضدة والباب .. إلخ) هي التي تكون قد فهمت الصينية، وإن لم يفهمها الرجل نفسه!! وهذه سفسطة ظاهرة، تغني حكايتها عن إبطالها! وذهب آخرون إلى موافقة سيرل على اختزالية وسطحية المنطق الحالي للبرمجة، ولكنهم قرروا أن حقيقة عدم فهم الرجل في الغرفة بالنظر إلى طبيعة البرمجة التي قدمت له، ليست دليلا على امتناع أن يصنع روبوت في المستقبل يحصل له من المحاكاة التامة لمخ الإنسان وجهازه العصبي ما يجعله يحقق الفهم التام للغة كما يحققه الإنسان! وهذا – كما لا يخفى – أشبه بجواب أهل الملل الباطلة عن عقائدهم، عندما ترى أحدهم ينتصر لنبوءة مستقبلية يؤمن بها إيمانا راسخا، فيصر على التمسك بها مهما قوبل بما يصادمها! كانت دعوى القوم أن المنطق الحاسوبي Computational Logic الذي اخترعوه لحواسبهم، قد حقق للآلة مثل فهم الإنسان وتعقله في جانب اللغة، وأنه بمزيد من التوسع في تطبيق نفس المنطق البرمجي أو الحاسوبي، فلابد أن يبلغ الحاسوب أن يصبح عقلا بشريا في النهاية، عاجلا أو آجلا! فأجابهم سيرل ببيان أن المنطق الحاسوبي ليس إلا معالجة شكلية محضة لحروف اللغة وتراكيبها اللفظية، وأن وجود القدرة على المعالجة الشكلية لا يقتضي وجود القدرة على الفهم اللغوي في القائم بتلك المعالجة، فقالوا: لا بأس، سنغير طريقتنا وسنصل في النهاية إلى خلق العقل البشري عاجلا أو آجلا! فأي جواب هذا إلا أن يكون جواب قوم أصحاب اعتقاد ديني أو شبه ديني؟ وقد أجابهم سيرل بمزيد من التفصيل في الغرفة التي ضرب بها المثل، فقال إن قلتم إن محاكاة العقل البشري للرجل الذي يفهم الصينية بجميع وظائفه الدقيقة التي تحصل فيه عند تعرضه لسماع الكلام الصيني والرد عليه، ستوصل في النهاية إلى أن يفهم الروبوت اللغة الصينية كما يفهم الرجل الصيني، فهذا لا يزيد إلا أن يكون إغراقا في نفس المشكلة، إذ لو فرضنا أن الغرفة نفسها قد ركبت فيها مواسير وأسلاك وصمامات وموصلات لها أزرار كهربية تتحكم فيها، بدلا من الأوراق وقوائم القوانين اللوغارتمية التي يفترض في الرجل أن يقرأها ويطبقها على المدخلات التي تدخل إليه، ثم قيل له إنه إذا جاءته الجملة الفلانية فعليه أن يضغط على الزر الفلاني ويفتح الصمام الفلاني حتى تحصل المعالجة الصحيحة ويصدر الجواب الصحيح، فإن المشكلة تظل قائمة، ولا يصح أن يقال إن الرجل – أو الغرفة بكليتها – قد حصل لها "فهم" اللغة الصينية! وهذا ولا شك إغراق في القياس والتمثيل وتنطع لا داعي له، ويفتح الباب – وقد انفتح بالفعل – لجريان القوم على أوهامهم في الرد والرد المقابل بلا ثمرة ترجى! ولكن التنطع هو صنعة الفيلسوف الأكاديمي المتخصص! لا يسعه أن يكتفي ببيان سخافة ما عند مخالفه بجملة أو جملتين، بل يجب أن ينشر ورقة بحثية كاملة يقدم فيها البراهين والأقيسة الطويلة حتى يصبح رده ردا فلسفيا معتبرا، والله المستعان!

واعترض آخرون بأن الرجل في الغرفة قد يفهم الصينية خلافا لزعم سيرل، إذ لابد أن يحصل نوع من التصور للمعاني بشكل ما أو بآخر مع كثرة الممارسة، وهذه مكابرة واضحة لأن الآلة (وكذلك الرجل في الغرفة) إنما هي جملة من الإجراءات الآلية التي تجري في كل مرة على نفس النحو الذي برمجت عليه من أول يوم، وليس فيها إلا المعالجة اللغوية الرمزية المحضة، فمن أين يأتي الفهم إذن، وما حقيقة الفهم أصلا وما طريق من يبرمجون تلك البرامج إلى تحويله هو الآخر إلى أكواد برمجية؟! لا طريق إلى ذلك، بالنظر إلى مبدأ البرمجة الحاسوبية نفسه! وقال آخرون إن الوعي شيء والفهم شيء آخر، ولا يلزم من انعدام الثاني انعدام الأول، وهذا اعتراض واه بالنظر إلى أن تورينك إنما كان يعتبر أن فهم الأسئلة التي تطرح على الجهاز، ومن ثم القدرة على إجابتها على نحو يتعذر التفريق بينه وبين إجابات البشر، هذا دليل على وجود الوعي البشري واكتماله في الجهاز! فمن البداهة أن يكون إثبات عدم فهم اللغة نفسها في الجهاز إثباتا لعدم الوعي على شرط تورينك، وهو المطلوب! وقال بعضهم إن التجربة نفسها (أي فكرة الغرفة) ممتنعة عقلا أو غير متصورة الحصول في الواقع، وهذا أيضا فيه مكابرة لأن طريقة الحوسبة في التجربة (أي فكرة أن يجلس رجل ليطبق جملة من القواعد والتوجيهات المكتوبة في معالجة الحروف الصينية ليكون المدخل Input سؤالا والمخرج Output جوابا مكتوبا لذلك السؤال) هي نفس فكرة الآلية الحاسوبية، بل قد تصورها تورينك نفسه فيما يسمى بالكمبيوتر الورقي لتورينك Turing's Paper Computer، ولم يقابل حينئذ بما قوبل به سيرل من اعتراض! وذهب آخرون إلى الجواب بأن سيرل لم يُعرف المقصود "بالفهم" Understanding تعريفا واضحا، مع أن سيرل بين بمثل واضح أنك إن قلت لرجل لا يفهم الصينية، إذا جاءتك ورقة مكتوب عليها هذه الرموز الصينية، فأخرج

في الجواب ورقة منقوشا عليها تلك الرموز الصينية أيضا، فإنه لا يكون بذلك فاهما لمعاني تلك الرموز ولا يلزم أن يكون فاهما لها، وهذا واضح! واعترض آخرون بأنه ليس كل نظام فيه شخص يخضع لتعلميات وقوانين (كنظام غرفة سيرل) يمكن أن يعتبر نظاما حاسوبيا أو يكون قادرا على تشغيل أي نظام حاسوبي بالضرورة! وهذا صحيح ولا شك، ولكن النظام الذي تصوره سيرل يعمل بنفس الطريقة التي يعمل بها نظام الحاسب الآلي في معالجة الجمل والحروف والكلمات، وهذا هو المطلوب! واعترض بعضهم بأننا لو نفينا عن الغرفة الصينية معنى فهم اللغة، على أساس أننا لا يمكننا إثباته من طريق السلوك الظاهر لنا، فكذلك يجوز أن ننفي عن العقلاء من بني آدم عقولهم بناء على أننا لا يظهر لنا من سلوكهم ما يثبت وجودها! فإذا أجاب سيرل بإثبات العقل (على مفهومه البشري) لبني آدم في الخارج مع أن السلوك لا يدل عليه (في زعمهم)، لزمه بالمثل تجويز ثبوت العقل للآلة مع أن السلوك لا يدل على ذلك! وهذه مغالطة واضحة لأنه كما أن البداهة تقضي بالحكم بوجود العقلاء الآخرين من حولنا (مع ما يظهره سلوكهم إجمالا من اتصاف بالعقل ومعانيه)، فكذلك تمنعنا البداهة والضرورة العقلية من إثبات حصول العقل البشري والفهم البشري في جهاز كمبيوتر! وليست بدهية المعنى الأول بأظهر من بدهية المعنى الثاني، ولكن ما دام باب الاستدلال لإثبات المعنى الثاني قد انفتح، فما المانع من فتح المعنى الأول كذلك للاستدلال والنظر؟ ما دامت اللعبة قد انفتحت للتفلسف الأكاديمي، فلم لا يضرب كل فيلسوف ببحث أو كتاب يتفنن فيه بما يحلو له من "إضافة" لبحر الجدال؟

[←72]

كتبت الطالبة – هداها الله - في المنشور الذي روجت فيه لهذا الأمر تقول (باللغة الإنكليزية): "الذكاء الاصطناعي هو نوع من التكنولوجيا التي توفر الذكاء للماكينات وتجعلها تفكر كالبشر. فهل هي نوع من التكنولوجيا ينبغي علينا أن نعارضه أو أن نرحب به؟ سواء كنت ترى الذكاء الاصطناعي طريقة جيدة لتطوير التكنولوجيا أو لا تراه كذلك، فهو وسيلة لإنجاز طموحنا في أن نعيش حياة أكثر راحة وفي أن نخلق عالما أفضل. ومؤخرا ظهرت أمثلة كثيرة لتكنولوجيا الذكاء الاصطناعي كالروبوت صوفيا، التي يمكنها أن تلقي الخطب وتدخل المناظرات مع البشر ومع الروبوتات الأخرى! وقد ظهرت ماكينات يمكنها أن تؤلف وتلعب المقطوعات الموسيقية كالروبوت "جوك ديك". فالذكاء الاصطناعي هو واحد من أكثر السمات انتشارا للتكنولوجيا الحديثة، ولكن هل يمكننا أن نمضي في مزيد من تطويره وتحسينه دون فقد السيطرة عليه؟ هذا هو السؤال!" انتهى نص المنشور.

قلت: فخبرني بربك من لهؤلاء المفتونين التائهين يبين لهم حقائق تلك الأفكار والطموحات الخبيثة المستمدة من ملل الدهرية المعاصرين المستقبليين وغيرهم؟ من لهؤلاء يعلمهم أن هذا السؤال الذي طرحوه، ليس سؤالا لطلبة هندسة ولا لطلبة برمجة وعلوم الكمبيوتر، وإنما هو سؤال يتوجه به إلى باحثين شرعيين مؤهلين تأهلا علميا كافيا لتصور تلك القضايا وبيان ما إذا كان "ينبغي علينا أن نعارضة أو نرحب به"! فليست القضية قضية فتنة بتلك المسائل عند الغربيين وحسب، ولكن ينضاف إلى تلك الفتنة جهل أكثر شباب المسلمين في زماننا بمصادر التلقي المعرفي عند المسلمين في مسائل القيم والأحكام المعيارية، وما حقه أن يكون واجبا من الذي يوجبه وبأي دليل، وما حقه أن يكون ممنوعا فمن الذي يمنعه وبأي دليل! كثير من الشباب اليوم إذا كلمته في هذه المسألة بأن لله فيها حكما ينبغي أن يطلب استنباطه من أهل الفقه وعلوم الشريعة، نظر إليك في عجب بالغ، ولربما رماك بالتشدد والجهل! أي حكم شرعي هذا الذي نسأل عنه فيما إذا كان ينبغي أن نواصل البحث في تطوير الذكاء الاصطناعي حتى يبلغ مستوى الذكاء القوي Strong AI أم لا ينبغي، أو يجوز أن نعتقد أن الذكاء الآلي يمكن أن يبلغ مبلغ الإنسان في سائر جوانب الوجدان والروح والشعور والنفس البشرية بعموم؟! فالآفة أيها القارئ الكريم، هي أن عامة شبابنا لم يتربوا على العقيدة الصحيحة، ولم يتربوا على طلب العلم بحكم الله ورسوله في عامة أفكارهم وأقوالهم وأفعالهم! وإنما تربوا – إلا من رحم ربك – على أفلام هوليوود وألعاب الكمبيوتر وغير ذلك من وسائط لا تنقل إلى شبابنا شيئا كما تنقل إليهم ميثولوجيا الدهرية الطبيعيين العلمايين ونظمهم القيمية ومفاهيمهم الأخلاقية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! فيا كل أب مسلم حريص على دين أولادك، اتق الله فيهم وعلمهم ما يجب أن يتعلموه من دينهم، حتى لا ينفلت من بين أيديهم سبيل النجاة في الآخرة وينسحب بساط الدين من تحت أرجلهم وأنت لا تدري، نسأل الله السلامة للمسلمين!

سيأتي فيما بعد، إن شاء الله تعالى، الكلام على مسألة الروبوت "صوفيا" هذا، وأما "جوك ديك" هذا وغيره من الروبوتات أو البرامج الحاسوبية التي صممت "لتؤلف" المقطوعات الموسيقية، فليست في الحقيقة "مبدعة" ولا تخلق "فنا" ولا تميز الأصوات علي وجه "التذوق" الذي كون عند البشر، وإنما هي برامج تشحن بعشرات بل مئات الآلاف من القطع الموسيقية التي ألفها بشر أولو حس وذوق، تكتب في ذاكرتها على هيئة معادلات توافقية هارمونية، ثم يكتب في البرنامج لوغاريتمات مخصوصة تقوم بتحليل تلك القطع تحليلا مستعرضا، تستخرج منها الأنماط المتكررة، وأنماط تغير تلك الأنماط وتنوعها عند الموسيقيين، في إطار كل نوع من أنواع الموسيقي Genre، بحيث إذا طلب منها أن تؤلف مقطوعة جديدة، استعملت نتائج تلك التحليلات الرياضية (التي تدخل تحت باب تعلم الآلات Machine Learning) لتنتج محاكاة Simulation / Immitation لأعمال الموسيقيين، مركبة من طبقات من تلك الأنماط التي تعلمت الآلة كيف يوفق الموسيقيون فيما بينها لينتجوا شيئا يحب الناس أن يسمعوه! فإذا انضاف إلى ذلك مزيد من المعلومات المستمدة من آراء السامعين لمنتجات تلك الآلة، فتقرر لديها ثبت بالتوافقيات التي تحظى بإعجاب الناس وتلك التي لا تعجبهم، تحسن أداء الآلة في إنتاج قطع تعجبهم! وقد يأتي الموسيقي البشري بعد ذلك ليأخذ من تلك القطع ما يعجبه ليكمل عليه أو يعدل أو يحذف! فأي شيء يكون هذا إلا آلة قص ولصق، تنتج الأصوات التوافقية بالتخليط المبرمج رياضيا؟؟ ليس هذا إبداعا Creativity على المفهوم البشري لتلك الكلمة، ولا قريبا منه على الحقيقة! ونظير تلك الآلة ما عند المعماريين والنحاتين والفنانين التشكيليين ونحوهم من برامج حاسوبية تركب فيها معادلات رياضية تعرف البرنامج بحدود شكلية وجيومترية معينة Parameters معقدة يضعها معماريون أو نحاتون لإنتاج الأشكال المعقدة بصورة عشوائية، بحيث إن اتفق أن أنتجت الآلة أشكالا تعجبهم، وما كانوا يتوقعونها بطبيعة الحال (لصعوبة وتعقد المعادلات واللوغاريتمات الرياضية التي تنتج عنها تلك الأشكال)، التقطوها ثم عدلوا عليها بما ينتج لهم ما يريدون من الأشكال والمجسمات! فإن صح أن يعد "جوك ديك" هذا موسيقيا مبدعا، صح أن تعد أمثال تلك البرامج فنانين ومعماريين عباقرة، فتأمل!!

[←73]

وهو ما لا نجيز حصوله عقلا على أي حال، ولكن مخالفنا يجوزه، ومن ثم يجيز السعي في سبيل تحقيقة كنظام للذكاء الاصطناعي!

[←74]

زعم بعض النفسانيين المعاصرين أن ما سموه باللاعقلانية Irrationality يجعل الإنسان صانع قرار أفضل Better Decision Maker في كثير من الأحيان مما لو قدر أن كان لا يفعل شيئا ولا يتخذ قرارا إلا على أساس "عقلاني" محض Rational! فعلى سبيل المثال، في السبعينات الميلادية نشر الباحثان النفسانيان دانيال كاهنمان Kahneman وأموس تفيرسكي Tversky بحثا بينا فيه أن الإنسان يصدر قرارات لاعقلانية بصورة نظامية Systematic بسبب ما يسمى بالتعصب المعرفي Cognitive Bias، وأنه بتلك الخصلة قد أصبح صانع قرار أفضل وأنجز مما لو لم يتصف بها، وذلك في إطار نظرية نشراها في عام 1979 الميلادي في دراسة اقتصاد المستهلك Consumer Economics سمياها بنظرية الفرصة Prospect Theory، وحصلا من أجلها على جائزة نوبل في الاقتصاد في 2002 الميلادية. فقالا إن الإنسان لا يجد الوقت عادة ولا يكون قد تحصل لديه الموارد المعرفية أو المعلومات الكافية لإجراء موازنات منطقية صحيحة سواء باستعمال المنطق الاحتمالي Probabilistic Reasoning أو غيره لترجيح القرار الأصوب كلما وضع في موضع يلجئه للترجيح والاختيار وإصدار القرار، كم كان الاعتقاد سائدا عند الاقتصاديين فيما مضى. وإنما يعمل غالبا على استصدار القرار الأنسب والأوفق لتطلعاته الفردية في أسرع وقت ممكن، وبناء على معلومات شحيحة للغاية، ويجري في ذلك على طرق عملية غير علمية تسمى Heuristics. فمثلا عندما يقرر أحدهم أن يشتري سيارة جديدة، فإنه بناء على المنطق العقلاني المحض الذي تبناه اقتصاديو عصر النهضة في إطار ما يعرف بنظرية النفع Utility Theory، فالمفترض أنه سيوازن بصورة موضوعية بين مزايا جميع السيارات المعروضة أمامه، وجميع عيوبها، مستندا في ذلك إلى مرجعية موضوعية، بعد إجراء بحث واف وسؤال عشرات المتخصصين والخبراء في صناعة السيارات وفي استعمال كل سيارة من السيارات المطروحة أمامه، ثم إجراء ترجيح احتمالي بصورة ما أو بأخرى حتى ينتهي إلى الحكم بأن القرار الأحكم هو أن يشتري هذه السيارة أو تلك. ولكن واقعيا، فإن عموم البشر عندما يقرر أحدهم أن يشتري سيارة جديدة، فلن يزيد غالبا على أن يسأل صديقا من أصدقائه وزميلا من زملائه في العمل (لسهولة التواصل مع هؤلاء)، وربما اتفق له أن دخل في جلسة واحدة أو جلستين على بعض منتديات الإنترنت التي يكتب عليها من لهم خبرة بالسيارات، ثم يجد نفسه مترددا بين سيارتين أو ثلاث سيارات تعجبه، بعدما استبعد سيارتين أو أكثر بسبب كلام سلبي سمعه ممن سألهم، وإذا به في النهاية يقع اختياره على السيارة التي يريد شراءها بالهوى والمزاج مع ما يوهم نفسه بأنه ترجيحات منطقية، وليس كذلك في الحقيقة، ولكن جملة من التعصبات المعرفية Biases التي ألف النفسانيون المعاصرون فيها كتبا ومعاجم! فمن الواضح أن هذه ليست طريقة علمية أو عقلانية على التعريف الصارم للترجيح العقلي. ومع ذلك، فلو فرضنا أن أخذ صاحبنا هذا في إعداد بحث مفصل على أنواع السيارات المعروضة أمامه، بما يغطي جميع الاحتمالات وجوانب المفاضلة بين السيارات وتوقعات تأثير طريقته هو في استعمال السيارات على العمر الافتراضي المتوقع لكل واحدة منها، بالترجيح الاحتمالي، إلى غير ذلك من جوانب قد تعد وجوها للمفاضلة بين الخيارات المتاحة أمامه، ومن ثم ترجيح الخيار الأحسن، فلربما أمضى في ذلك البحث سنوات وسنوات، وتكلف فيه من المال والجهد فوق ما يبدو بادي الرأي أنه يناسب مقصود شراء سيارة جديدة! بل لربما ثبطت رغبته في الشراء وانصرف عن الفكرة بالكلية! فإذا كان ذلك كذلك، فلعل طريقته المهترئة تلك في الترجيح تكون هي الأحسن اقتصاديا، له ولتاجر السيارات الذي اشترى منه، ولجميع الأطراف المعنية بالمسألة. والحق أن في تسميتهم طريقة الناس في الترجيح السريع الموجز قليل المعلومات هذا، أو الذي يغلب عليه التفضيل الفردي أو التعصب المعرفي أو نحو ذلك، باللاعقلانية بهذا الإطلاق، فيه نظر، ولا نسلم به. فهذا الذي سلكه مشتري السيارة لو أنه استبدل به تلك الدراسة العميقة الطويلة التي يفترض في الإنسان "العاقل" أن يتكلفها، لذهب ماله ووقته، ولفاتته مصالح ومنافع ما كانت لتفوته إن اكتفى بتلك الطريقة التي سموها Heuristics، وإذن لكان أحق باسم اللاعقلانية Irrationality عند التأمل! فالظاهر أن لدينا مع هذه النظريات مشكلة تعريفات وحدود أولية ليس ها هنا محل البحث فيها.

ولكن على أي حال، وحتى لا نطيل بلا طائل، نقول إن مسألة التعصبات المعرفية هذه من جملة خصال النفس البشرية التي إنما ركبت في الإنسان ابتلاء له بميول نفسه وأهوائها. ثم إنها ركبت فيه لتناسب مقاصد أخرى في تعاملاته مع الناس لا يناسب لها بذل الوقت والجهد في البحث والتنقيب والترجيح الدقيق! وهي مقاصد لا تكون إلا لنوع البشر بالنظر إلى ميولهم وتفضيلاتهم الفردية Subjective Preferences ونحو ذلك، مما جميعه لا يمكن ولا يتصور محاكاته في برنامج ذكاء اصطناعي! لن يتمكن الإنسان من صنع نظام ذكاء اصطناعي يتوصل إلى صنع القرارات بطريقة من طرق Heuristics هذه، لأنها ليست طريقة ترجيح موضوعية منطقية (على التعريفات التي تناسب المنطق الاستعرافي البرمجي Computaional Cognition) في الأعم الأغلب!

[←75]

وقد تعرضت الدمية صوفيا لنقد لاذع من بعض خبراء الذكاء الاصطناعي. قال كبير مبرمجي الذكاء الاصطناعي في موقع فيس بوك "يان ليكون" Yann LeCun في نقدها في مشاركة له على صفحته: "هي بالنسبة للذكاء الاصطناعي كحيل الحواة بالنسبة للسحر الحقيقي. لعله من الأنسب أن نسميها Cargo-Cult AI أو Potemkin AI أو Wizard of OZ AI. بعبارة أخرى: هي محض هراء Complete Bullshit." اهـ. وقال في تعليق لاحق تعقيبا على ردود الأفعال الغاضبة من المتعاطفين مع تلك الدمية (Puppet كما سماها، وصدق): مزيد من الهراء من محركي الدمية البشريين خلف صوفيا. كثير من التعليقات (التي أتتني) قد أعتبرها نوعا من اللعب الممتع Fun لولا أنها تكسف حقيقة أن كثيرا من الناس قد انخدعوا وصدقوا أن تلك الدمية الأنيماترونية المعقدة ميكانيكيا، ذات ذكاء. ليست كذلك. ليس لديها مشاعر ولا آراء، وليس لها أي فهم لما تقوله. ولا يجرحها ما نقول، فما هي إلا دمية Puppet". اهـ.

قلت فهي عند الخبراء المدققين، لا تزيد على أن تكون مجرد برنامج دردشة إلكتروني Chatbot له وجه مصمم آليا بحيث تظهر عليه تعبيرات بشرية! والواقع أن من مصمميها من صرح بالاعتراف بهذا المعنى، تعليقا على هذا الكلام! قال كبير فريق المبرمجين الذين قاموا بتصميمها في شركة "هانسون روبوتيكسي"، "بنيامين غورتزيل" Ben Goertzel في جوابه عن هذا النقد إنه لم يزعم أبدا أن الدمية "صوفيا" هي ذكاء إنساني تام General AI أو حتى أنها قريبة من ذلك! وإنما هي آلة شبيهة بالإنسان، مصممة بحيث يركب عليها برامج حاسوبية مختلفة تجعلها تبدو في المخاطبة والمحاورة كالإنسان. فحينما يحاورها صحافي ما أو إعلامي ما، فإنهم يضعون عليها برنامج الدردشة الذكية، وعندما تلقي خطابا في الأمم المتحدة (ويا لله العجب!!) فإنها تقرأ نصا كتبه لها مصمموها! قلت: ومع هذا، ترى – في المقابل - "دافيد هانسون"، النحات الأمريكي صاحب الشركة ورئيس المشروع (الذي كان يعمل قبل ذلك في نحت تماثيل دينزي لاند!)، يصرح في حوار معه – بكل وقاحة – أنها تعتبر حية Alive! فهو لا يزال ساعيا في مسعاه الشيطاني لأن يخلق صورا ينفخ فيها روح الحياة، مضاهاة لصنع ربه، بل مجاوزة له وتعديلا عليه، مع أنه يعلم أنها ليست إلا دمية تنفذ معادلات ولوغارتيمات قد كتبت لها سلفا!

ولا أعجب من سفاهة الدهرية والمشركين من صناع تلك الدمية، فإن السفاهة إذا خرجت من السفهاء لم تستغرب! وإنما يحزنني ما أراه من احتفاء السفهاء والجهلاء من بني جلدتنا بتلك الدمية وانبهارهم بها وكأنها ذكاء بشري بل إنسان حي، يعامل معاملة البشر، ولا حول ولا قوة إلا بالله! والله لا أرى جواز أن يقال فيها إنها "إنسان آلي" كما يقوله بعضهم، إذ لا أرى صحة لاستعمال هذه العبارة فيها أو في غيرها، فالآلي لا يكون إنسانا ولا قريبا من الإنسان! ولا أقول في وصف تلك الدمية "روبوت" لأنها عندي أحقر من ذلك، والله المستعان!

[←76]
ذكرها القوم في مقطع فيديو تعريفي بمنظمتهم تلك، وهي النانوتكنولوجي Nanotechnology، والبايوتكنولوجي Biotechnology، وتكنولوجيا المعلومات .Information Tech، وتكنولوجيا الإدراك المعرفي Cognitive Technology، وتكنولوجيا الروبوتات Robotics، وعلم الجينات Genetics!

[←77]

"أفاتار" هذا لفظ عند الهندوس يطلق ويراد به تجسد الآلهة المزعومة على الأرض في صورة بشر!

[←78]

قال الله تعالى: ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)) [البقرة : 258]، ففي الآية أن الإتيان بالشمس من المغرب ليس بوسع البشر ولن يكون كذلك في يوم من الأيام، وإلا سقطت هذه الحجة القرآنية رأسا! بل ولو قدر أن استطاع جيل من أجيال البشر في المستقبل أن يتحكم في حركة الشمس، لصارت الأرض فوضى، لا تنضبط فيها مواقيت الصلوات المكتوبة ولا مقادير الأيام والشهور والسنوات، ولن يكون في طلوع الشمس من مغربها (الذي هو من علامات الساعة الكبرى الثابتة عندنا ثبوتا قطعيا) عند وقوعه آية ولا علامة ولا شيء، إذ لن يكون من شيء أهون عليهم إذن من أن يردوها للطلوع من المشرق من جديد وكأن شيئا لم يكن!! وهذا كله باطل لا يجوز لمسلم أن يعتقده ولا شك! فإذا بطل اللازم بطل الملزوم، وامتنع في دين المسلمين أن يبلغ البشر في يوم من الأيام أسباب التحكم في أفلاك الكواكب وفلك الشمس والقمر، والله المستعان!

[←79]

وهو ما نشره الرجل في ورقة بحثية محكمة في دورية أكاديمية محترمة، وليس في قصة من قصص ما يسمى بالخيال العلمي أو نحو ذلك، والله المستعان! والواقع أن كثيرا من مصطلحات الطبيعيين وأفكارهم ومطامعهم ومقاصدهم البحثية إنما نشأت عند كتاب الخيال الدهري المسمى "بالخيال العلمي"، حتى رأينا منهم من يؤلف مجلدا كاملا في تصور فيزياء فيلم "ستار تريك" Star Trek والكيفية التي يمكن أن تحصل بها تلك الأحداث في المستقبل في ضوء قوانين الطبيعة، كالفيزيائي الأمريكي لورانس كراوس، وهو ما أعده مؤشرا واضحا على سفاهة وخفة عقل القوم في مقاصدهم وغاياتهم البحثية، ولا عجب على الإطلاق! فعندما يرمي الإنسان الوحي الإلهي وراء ظهره ويوليه الدبر، فلابد أن يأتي في المقاصد البحثية والقيم العليا المعمول من أجل تحقيقها وخدمتها في محافل البحث الطبيعي على المدى القريب والبعيد، بكل تافه وسخيف من وحي الهوى والمزاج والشهوة! وقد بينت ذلك الجانب في كتابي "آلة الموحدين" عند كارل ساغان في التعليق على اعتراضاته على ما عده جهلا من الساسة بأهمية تلك القضايا التي رآهم لا ينفقون على أبحاث الباحثين فيها كما كان يتعين عليهم (في زعمه) أن يفعلوا!

[←80]

*‘Parallel Worlds: A Journey through Creation, Higher Dimensions, and the*Kaku, Michio (2005),
, USA: Doubleday, pp. 346*Future of the Cosmos’*

[←81]
ونقصد بالعشواء الوجودية Ontological Chance اعتقاد الطبيعيين الدهرية المعاصرين في موجودات غير مخلوقة، وفي حوادث لا سبب لها ولا ترتيب يسبقها ولا غاية من ورائها عند محدث حي ذي إرادة وعلم وقدرة، يحدثها ويرجحها على خلافها من الممكنات العقلية لحكمة لديه، وإنما تحدث بمحض الصدفة والعشواء! وهي مغالطة عقلية واضحة كما بيناه في غير هذا الموضع.

[←82] كما لا تجد ذلك الحكم عند أهل ملة أخرى من الملل، بما فيها النحلة الطبيعية نفسها، حتى على أشد طوائفها غلوا في العلموية والوضعية!